

جمع وترتيب

عبد الرحمن بن محمد بن قاسم « رحمه الله »

وساعده ابنه محمد « وفقه الله »

المجلد السابع عشر

طبع بأمر

خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود

أجزل الله مثوبته

طبعت هذه الفتاوى في

مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

في المدينة المنورة

تحت إشراف

وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد

بالمملكة العربية السعودية

عام ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

ⓒ مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، ١٤١٥ هـ.

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية

ابن تيميه ، أحمد بن عبدالحليم

فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيميه .

٥٥٢ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك ٦-٢٠-٧٧٠-٩٩٦٠ (مجموعة)

٠-٣٧-٧٧٠-٩٩٦٠ (ج ١٧)

١ - الفتاوى الإسلامية ٢- الفقه الحنبلي أ - العنوان

ديوي ٢٥٨,٤ ١٥/٢٠٠٩

رقم الإيداع : ١٥/٢٠٠٩

ردمك : ٦-٢٠-٧٧٠-٩٩٦٠ (مجموعة)

٠-٣٧-٧٧٠-٩٩٦٠ (ج ١٧)

كتاب

التفسير

الجزء الرابع

تفسير سورة الإخلاص والمعوذتين



الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

سورة الإخلاص

سئل شيخ الإسلام

تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية رضي الله عنه

عما ورد في سورة (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) أنها تعدل ثلث القرآن (١) وكذلك ورد فى سورة (الزلزلة) و (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ) و (الفاتحة) ، هل ما ورد فى هذه المعادلة ثابت فى المجموع ، أم فى البعض ؟ ومن روى ذلك ؟ وما ثبت من ذلك ؟ وما معنى هذه المعادلة وكلام الله واحد بالنسبة إليه عز وجل ؟ وهل هذه المفاضلة — بتقدير

(١) تسمى «جواب أهل العلم والايمان أن (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) تعدل ثلث القرآن» .

ثبوتها — متعدية إلى الأسماء والصفات ، أم لا ؟ والصفات القديمة والأسماء القديمة هل يجوز المفاضلة بينها ، مع أنها قديمة ؟ ومن القائل بذلك ، وفي أي كتبه قال ذلك ، ووجه الترجيح في ذلك بما يمكن من دليل عقلي ونقلي ؟

فأجاب رضي الله عنه

الحمد لله . أما الذي أخرجه أصحاب الصحيح — كالبخاري ومسلم — فأخرجوا فضل (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) ، وروى عن الدارقطني أنه قال : لم يصح في فضل سورة أكثر مما صح في فضلها . وكذلك أخرجوا فضل (فاتحة الكتاب) ، قال صلى الله عليه وسلم فيها « إنه لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلها » لم يذكر فيها أنها تعدل جزءاً من القرآن كما قال في (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) « إنها تعدل ثلث القرآن » ففي صحيح البخاري عن الضحاك المشرقي عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « أيعجز أحدكم أن يقرأ بثلث القرآن في ليلة ؟ » فشق ذلك عليهم وقالوا : أينا يطيق ذلك يا رسول الله ؟ قال « الله الواحد الصمد ثلث القرآن » . وفي صحيح مسلم عن معدان بن أبي طلحة عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « أيعجز أحدكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن ؟ »

قالوا : وكيف يقرأ ثلث القرآن ؟ قال « قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن » .

وروى مسلم أيضاً عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء ، فجعل قل هو الله أحد جزءاً من أجزاء القرآن » . وفي صحيح البخاري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي صعصعة عن أبي سعيد أن رجلا سمع رجلا يقرأ (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) يرددها ، فلما أصبح جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له ، وكان الرجل يتقالها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذي نفسي بيده ، إنها لتعدل ثلث القرآن » . وأخرج عن أبي سعيد قال : أخبرني أخي قتادة بن النعمان أن رجلا قام في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ من السحر (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) لايزيد عليها .. الحديث » بنحوه . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « احشدوا ، فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن » قال : فحشد من حشد ، ثم خرج نبي الله صلى الله عليه وسلم فقرأ (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) ثم دخل ، فقال بعضنا لبعض : إني أرى هذا خبراً جاءه من السماء ، فذاك الذي أدخله . ثم خرج نبي الله صلى الله عليه وسلم فقال « إني قلت لكم سأقرأ عليكم ثلث القرآن ، ألا إنها تعدل ثلث القرآن » وفي لفظ له قال : خرج علينا رسول الله

صلى الله عليه وسلم فقال « أقرأ عليكم ثلث القرآن » فقرأ (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ) حتى ختمها .

وأما حديث « الزلزلة » و (قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ) فروى الترمذي عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ إذا زلزلت ، عدلت له نصف القرآن . ومن قرأ قل يا أيها الكافرون عدلت له ربع القرآن » . وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا زلزلت تعدل نصف القرآن ، وقل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن » رواهما الترمذي وقال عن كل منها : غريب .

وأما حديث (الفاتحة) فروى البخاري فى صحيحه عن أبي سعيد ابن المعلى قال : كنت أصلي في المسجد ، فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه ، فقلت : يا رسول الله ، إنى كنت أصلي . قال « ألم يقل الله : (ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ) ثم قال « لأعلمنك سورة هي أعظم سورة فى القرآن » قال (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ) هي السبع المثانى والقرآن العظيم » . وفى السنن والمسانيد من حديث العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبى بن كعب « ألا أعلمك سورة ما أنزل فى التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا فى الفرقان مثلها — قال — فإنى أرجو

أن لا تخرج من هــذا الباب حتى تعلمها » وقال فيــه « كيف تقرأ فى الصلاة ؟ » فقرأت عليــه أم القرآن . فقــال « والذي نفسي بيده ، ما أنزل فى التــوراة ولا في الإنجيــل ولا فى الزبور ولا فى القرآن مثلها ، إنها السبع المثانى والقرآن العظيم الذي أعطيته » . ورواه مالك فى الموطإ عن العــلاء بن عبــد الرحمن عن أبى سعيد مولى عامر بن كريز مرسلا . وفى صحيح مسلم عن عقبــة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليــه وسلم : « ألم تر آيات أنزلت الليــلة لم ير مثلهن قط ، (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ) ، و (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ) . وفى لفظ : قال لي رسول الله صلى الله عليه وســلم « أنزل علي آيات لم ير مثلهن قط ، المعوذتان » ، فقد أخبر فى هذا الحديث الصحيح أنه لم ير مثل المعوذتين ، كما أخبر أنه لم ينزل فى التوراة ولا في الإنجيل ولا فى الزبور ولا في القرآن مثل الفاتحة ، وهذا مما يبين فضل بعض القرآن على بعض .

فصــــل

وأما السؤال عن معنى هذه المعادلة مع الاشتراك فى كون الجميع كلام الله ، فهذا السؤال يتضمن شيئين :

أحدهما : أن كلام الله هل بعضه أفضل من بعض أم لا ؟

والثانى : ما معنى كون (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) تعدل ثلث القرآن ؟ وما سبب ذلك ؟

فنقول :

أما الأول فهو « مسألة كبيرة » والناس متنازعون فيها نزاعا منتشراً فطوائف يقـولون : بعض كلام الله أفضل من بعض ، كما نطقت به النصوص النبوية : حيث أخبر عن (الفاتحة) أنه لم ينزل فى الكتب الثلاثة مثلها . وأخبر عن سورة (الإخلاص) أنها تعدل ثلث القرآن وعدلها لثلثه يمنع مساواتها لمقدارها في الحروف . وجعل (آية الكرسي) أعظم آية فى القرآن كما ثبت ذلك فى الصحيح أيضـاً وكما ثبت ذلك فى صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليــه وسلم قال لأبى بن كعب « يا أبا المنذر ، أتدري أي آية في كتــاب الله معك أعظم » ؟ قال : قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتــاب الله أعظـم ؟ » قال : فقلت : (ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ) قال : فضرب في صدري وقال : « ليهنك العلم أبا المنذر » . ورواه ابن أبى شيبة فى مسنده بإسناد مسلم ، وزاد فيــه « والذي نفسي بيــده ! إن لهذه الآية لساناً وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش » . وروي أنها سيدة آي القرآن . وقال فى المعوذتين : « لم ير مثلهن قط »

وقد قال تعالى (مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ) فأخبر أنه يأتي بخير منها أو مثلها . وهذا بيان من الله لكون تلك الآية قد يأتي بمثلها تارة أو خير منها أخرى ، فدل ذلك على أن

الآيات تتماثل تارة وتتفاضل أخرى . وأيضاً فالتوراة والإنجيل والقرآن جميعها كلام الله مع علم المسلمين بأن القرآن أفضل الكتب الثلاثة . قال تعالى : (وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ) . وقال تعالى : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ) وقال تعالى : (قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) وقال تعالى : (ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ) . فاخبر أنه أحسن الحديث ، فدل على أنه أحسن من سائر الأحاديث المنزلة من عند الله وغير المنزلة . وقال تعالى (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ) . وسواء كان المراد بذلك الفاتحة أو القرآن كله فإنه يدل على أن القرآن العظيم له اختصاص بهذا الوصف على ما ليس كذلك .

وقد سمى الله القرآن كله مجيداً وكريماً وعزيزاً . وقد تحدى الخلق بأن يأتوا بمثله ، أو بمثل عشر سور منه ، أو بمثل سورة منه فقال : (فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ) . وقال (فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ) . وقال : (فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ)

وخصه بأنه لا يقرأ في الصلاة إلا هو ، فليس لأحد أن يقرأ غيره مع قراءته ولا بدون قراءته ، ولا يصلي بلا قرآن ، فلا يقوم غيره

مقامه مع القدرة عليه . وكذلك لا يقوم غير الفاتحة مقامها من كل وجه باتفاق المسلمين ، سواء قيل بأنها فرض تعاد الصلاة بتركها ، أو قيل بأنها واجبة يأثم تاركها ولا إعادة عليه ، أو قيل إنها سنة ، فلم يقل أحد إن قراءة غيرها مساو لقراءتها من كل وجه .

وخص القرآن بأنه لا يمس مصحفه إلا طاهر ، كما ثبت ذلك عن الصحابة — مثل سعد وسلمان وابن عمر — وجماهير السلف والخلف الفقهاء الأربعة وغيرهم . ومضت به سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتابه الذي كتبه لعمرو بن حزم الذي لاريب فى أنه كتبه له ، ودل على ذلك كتاب الله . وكذلك لا يقرأ الجنب القرآن عند جماهير العلماء الفقهاء الأربعة وغيرهم كما دلت على ذلك السنة .

وتفضيل أحد الكلامين بأحكام توجب تشريفه يدل على أنه أفضل في نفسه ، وإن كان ذلك ترجيحاً لأحد المتماثلين بلا مرجح ، وهذا خلاف ما علم من سنة الرب تعالى فى شرعه بل وفى خلقه ، وخلاف ما تدل عليه الدلائل العقلية مع الشرعية .

وأيضاً فقد قال تعالى : (وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم)
وقال تعالى : (فَبَشِّرۡ عِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ)
وقال تعالى : (فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَا) . فدل على

أن فيما أنزل حسن وأحسن ، سواء كان الأحسن هو الناسخ الذي يجب الأخذ به دون المنسوخ ، إذ كان لا ينسخ آية إلا يأتي بخير منها أو مثلها ، أو كان غير ذلك .

والقول بأن كلام الله بعضه أفضل من بعض هو القول المأثور عن السلف ، وهو الذي عليه أئمة الفقهاء من الطوائف الأربعة وغيرهم ، وكلام القائلين بذلك كثير منتشر فى كتب كثيرة ، مثل ما سيأتي ذكره عن أبي العباس ابن سريج في تفسيره لهذا الحديث بأن الله أنزل القرآن على ثلاثة أقسام : ثلث منه أحكام ، وثلث منه وعد ووعيد ، وثلث منه الأسماء والصفات . وهذه السورة جمعت الأسماء والصفات .

ومثل ما ذكره أصحاب الشافعي وأحمد في مسألة تعيين الفاتحة فى الصلاة ، قال أبو المظفر منصور بن محمد السمعاني الشافعي فى كتابه « الاصطلام » وأما قولهم : إن سائر الأحكام المتعلقة بالقرآن لا تختص بالفاتحة ، قلت : سائر الأحكام قد تعلقت بالقرآن على العموم ، وهذا على الخصوص ، بدليل أن عندنا قراءة الفاتحة على التعيين مشروعة على الوجوب وعندكم على السنة . قال : وقد قال أصحابنا إن قراءة الفاتحة لما وجبت فى الصلاة وجب أن تتعين الفاتحة ، لأن القرآن امتاز عن غيره بالإعجاز ، وأقل ما يحصل به الإعجاز سورة . وهذه السورة أشرف السور لأنها السبع المثاني ، ولأنها تصلح عوضاً عن جميع السور ولا

تصلح جميع السور عوضاً عنها ، ولأنها تشتمل على ما لا تشتمل سورة ما على قدرها من الآيات ، وذلك من الثناء والتحميد للرب والاستعانة والاستعاذة والدعاء من العبد . فإذا صارت هذه السورة أشرف السور ، وكانت الصلاة أشرف الحالات ، فتعينت أشرف السور فى أشرف الحالات . هذا لفظه ، فقد نقل عن أصحاب الشافعي أن هذه السورة أشرف السور ، كما أن الصلاة أشرف الحالات ، وبينوا من شرفها على غيرها ما ذكروه .

وكذلك ذكر ذلك من ذكره من أصحاب أحمد ، كالقاضي أبي يعلى بن القاضي أبي حازم بن القاضي أبي يعلى بن الفراء ، قال فى تعليقه — ومن خطه نقلت — قال في مسألة كون قراءة الفاتحة ركنا في الصلاة : أما الطريق المعتمد فى المسألة فهو أنا نقول : الصلاة أشرف العبادات وجبت فيها القراءة ، فوجب أن يتعين لها أشرف السور ، والفاتحة أشرف السور ، فوجب أن تتعين . قال : واعلم أنا نحتاج فى تمهيد هذه الطريقة إلى شيئين : أحدهما : أن الصلاة أشرف العبادات ، والثانى : أن الحمد أشرف السور . واستدل على ذلك بما ذكره قال : وأما الدليل على أن فاتحة الكتاب أشرف ، فالنص ، والمعنى ، والحكم :

أما النص فما تقدم من أنها عوض من غيرها . وعن أبى سعيد

الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « فاتحة الكتاب شفاء من السم » . وقال الحسن البصري : أنزل الله مائة كتاب وأربعة كتب من السماء أودع علومها أربعة منها : التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ، ثم أودع علوم هذه الأربعة الفرقان ، ثم أودع علوم القرآن المفصل ، ثم أودع علوم المفصل فاتحة الكتاب . فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع كتب الله المنزلة ، ومن قرأها فكأنما قرأ التوراة والإنجيل والزبور والقرآن .

وأما المعنى فهو أن الله قابلها بجميع القرآن فقال : (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ) . وهذه حقيقة لا يدانيها غيرها فيها قلت : هذا على قول من جعلها هي السبع المثانى وجعل القرآن العظيم جميع القرآن . قال : ولأنها تسمى « أم القرآن » وأم الشيء أصله ومادته ، ولهذا سمى الله مكة « أم القرى » لشرفها عليهن . ولأنها السبع المثانى ، ولأنها تشتمل على مالا تشتمل عليه سورة من الثناء والتحميد للرب تعالى والاستعانة به والاستعاذة والدعاء من العبد على ما قال النبي صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي » الحديث المشهور . قال : ولأنه لم ينزل مثلها فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا في الزبور ولا في شيء من الكتب ، يدل عليه أنها تيسر قراءتها على كل أحد مالا يتيسر غيرها من القرآن .

وتضرب بها الأمثال ، ولهذا يقال : فلان يحفظ الشيء مثل الفاتحة . وإذا كانت بهذه المثابة فغيرها لا يساويها في هذا ، فاختصت بالشرف . ولأنها السبع المثانى ، قال أهل التفسير : معنى ذلك أنها تثنى قراءتها في كل ركعة . قال بعضهم : ثني نزولها على النبي صلى الله عليه وسلم قلت : وفيه أقوال أخر .

قال : وأما الحكم فلأنه تستحب قراءتها في كل ركعة ، ويكره الإخلال بها ، ولولا أنها أشرف لما اختصت بهذا المعنى ، يدل عليه أن عند المنازعين — يعنى أصحاب أبي حنيفة — أن من أخل بقراءتها وجب عليه سجود السهو . فنقول : لا يخلو إما أن تكون ركنا أو ليست بركن ، فإن كانت ركنا وجب أن لا تجبر بالسجود ، وإن لم تكن ركنا وجب أن لا يجب عليه سجود . قلت : يعني بذلك أن السجود لا يجب إلا بتركه واجب في حال العمد ، فإذا سها عنه وجب له السجود ، وما كان واجباً فاذا تعمد تركه وجب أن تبطل صلاته ، لأنه لم يفعل ما أمر به ، بخلاف من سها عن بعض الواجبات فإن هذا يمكن أن يجبر ما تركه بسجود السهو . ومذهب مالك وأحمد وأبى حنيفة أن سجود السهو واجب ، لأن من الواجبات عندهم ما إذا تركه سهواً لم تبطل الصلاة . كما لا تبطل بالزيادة سهواً باتفاق العلماء ، ولو زاد عمداً لبطلت الصلاة . لكن مالكا وأحمد فى المشهور عنهما يقولان :

ما كان واجباً إذا تركه عمداً بطلت صلاته ، وإذا تركه سهواً فمنه ما يبطل الصلاة ومنه ما ينجبر بسجود السهو ، فترك الركوع والسجود والقراءة يبطل الصلاة مطلقاً ، وترك التشهد الأول عندها يبطل الصلاة عمده ، ويجب السجود لسهوه . وأما أبو حنيفة فيقول : الواجب الذي ليس بفرض — كالفاتحة — إذا تركه كان مسيئا ولا يبطل الصلاة . والشافعي لا يفرق فى الصلاة بين الركن والواجب . ولكن فرق بينهما فى الحج هو وسائر الأئمة .

والمقصود هنا ذكر بعض من قال إن الفاتحة أشرف من غيرها .

وقال أبو عمر بن عبد البر : وأما قول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي . « هل تعلم سورة ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الزبور ولا فى القرآن مثلها ؟ » فمعناه مثلها في جمعها لمعانى الخير ، لأن فيها الثناء على الله عز وجل بما هو أهله ، وما يستحقه من الحمد الذي هو له حقيقة لا لغيره ، لأن كل نعمة وخير منه لا من سواه ، فهو الخالق الرازق لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ، وهو محمود على ذلك ، وإن حمد غيره فإليه يعود الحمد . وفيها التعظيم له وأنه الرب للعالم أجمع ومالك الدنيا والآخرة ، وهو المعبود والمستعان . وفيها تعليم الدعاء والهدى ، ومجانبة طريق من ضل وغوى . والدعاء لباب العبادة ، فهى أجمع سورة للخير ليس فى الكتب مثلها على هذه

الوجوه . قال : وقد قيل إن معنى ذلك أنها تجزئ الصلاة بها دون غيرها ولا يجزئ غيرها عنها . وليس هذا بتأويل مجتمع عليه . قلت : يعني بذلك أن في هذا نزاعا بين العلماء ، وهو كون الصلاة لا تجزئ إلا بها ، وهذا يدل على أن الوصف الأول متفق عليه بين العلماء وهو أنها أفضل السور ·

ومن هذا الباب مافى الكتاب والسنة من تفضيل القرآن على غيره من كلام الله التوراة والإنجيل وسائر الكتب ، وأن السلف كلهم كانوا مقرين بذلك ليس فيهم من يقول الجميع كلام الله فلا يفضل القرآن على غيره ، قال الله تعالى : (ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ) فأخبر أنه أحسن الحديث ، وقال تعالى : (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ) .

« وأحسن القصص » قيل إنه مصدر ، وقيل إنه مفعول به . قيل : المعنى نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص ، كما يقال نكلمك أحسن التكليم ونبين لك أحسن البيان . قال الزجاج : نحن نبين لك أحسن البيان . والقاص الذي يأتي بالقصة على حقيقتها . قال وقوله : (بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ) أي بوحينا إليك هذا القرآن ، ومن قال هذا قال بما أوحينا إليك هذا القرآن · وعلى هذا القول فهو كقوله : نقرأ

عليك أحسن القراءة ، ونتلوا عليك أحسن التلاوة . والثانى أن المعنى نقص عليك أحسن ما يقص ، أي أحسن الأخبار المقصوصات . كما قال فى السورة الأخرى : (ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ) وقال : (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا) . ويدل على ذلك قوله فى قصة موسى : (فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ) ، وقوله : (لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ) المراد خبرهم ونبأهم وحديثهم ، ليس المراد مجرد المصدر .

والقولان متلازمان فى المعنى كما سنبينه ، ولهـذا يجوز أن يكون هذا المنصوب قد جمع معنى المصدر ومعنى المفعول به لأن فيه كلا المعنيين ، بخلاف المواضع التى يباين فيها الفعل المفعول به فإنه إذا انتصب بهـذا المعنى امتنع المعنى الآخر .

ومن رجح الأول من النحـاة ــ كالزجاج وغـيره ــ قالوا : القصص مصدر ، يقـال قص أثره يقصه قصاً ومنـه قوله تعـالى : (فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا) . وكذلك اقتص أثره وتقصص ، وقـد اقتصصت الحديث : رويته على وجهه ، وقد اقتص عليه الخبر قصاً . وليس القصص بالفتح جمع قصة كما يظنه بعض العامة . فإن ذلك يقال فى قصص بالكسر واحـده قصة ، والقصـة هي الأمر والحديث الذي يقص ، فعلة بمعنى مفعول وجمعه قصص بالكسر . وقوله : (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ) بالفتح لم يقـل أحسن القصص بالكسر ، ولكن

بعض الناس ظنوا أن المراد أحسن القصص بالكسر ، وأن تلك القصة قصة يوسف ، وذكر هذا طائفة من المفسرين .

ثم ذكروا : لم سميت أحسن القصص ؟ فقيل : لأنه ليس فى القرآن قصة تتضمن من العبر والحكم والنكت ما تتضمن هذه القصة . وقيل : لامتداد الأوقات بين مبتداها ومنتهاها . وقيل لحسن محاورة يوسف وإخوته ، وصبره على أذاهم ، وإغضائه عن ذكر ما تعاطوه عند اللقاء ، وكرمه في العفو . وقيل لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والإنس والجن والأنعام والطير وسير الملوك والمماليك والتجار والعلماء والجهال والرجال والنساء ومكرهن وحيلهن، وفيها أيضاً ذكر التوحيد والفقه والسير وتعبير الرؤيا والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش ، فصارت أحسن القصص لما فيها من المعانى والفوائد التى تصلح للدين والدنيا . وقيل فيها ذكر الحبيب والمحبوب . وقيل « أحسن » بمعنى أعجب .

والذين يجعلون قصة يوسف أحسن القصص منهم من يعلم أن « القصص » بالفتح هو النبأ والخبر ، ويقولون هي أحسن الأخبار والأنباء ، وكثير منهم يظن أن المراد أحسن القصص بالكسر ، وهؤلاء جهال بالعربية ، وكلا القولين خطأ ، وليس المراد بقوله : (أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ) قصة يوسف وحدها ، بل هي مما قصه الله ، ومما يدخل فى أحسن القصص ،

ولهذا قال تعالى فى آخر السورة : (وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ * لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ) فبين أن العبرة فى قصص المرسلين ، وأمر بالنظر فى عاقبة من كذبهم ، وعاقبتهم بالنصر .

ومن المعلوم أن قصة موسى وما جرى له مع فرعون وغيره أعظم وأشرف من قصة يوسف بكثير كثير ، ولهذا هي أعظم قصص الأنبياء التى تذكر في القرآن ، ثناها الله أكثر من غيرها ، وبسطها وطولها أكثر من غيرها ؛ بل قصص سائر الأنبياء — كنوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم من المرسلين — أعظم من قصة يوسف ، ولهذا ثنى الله تلك القصص فى القرآن ولم يثن قصة يوسف ، وذلك لأن الذين عادوا يوسف لم يعادوه على الدين بل عادوه عداوة دنيوية ، وحسدوه على محبة أبيه له وظلموه فصبر واتقى الله ، وابتلي صلوات الله عليه بمن ظلمه وبمن دعاه إلى الفاحشة فصبر واتقى الله في هذا وفي هذا ، وابتلى أيضاً بالملك فابتلى بالسراء والضراء فصبر واتقى الله في هذا وهذا ، فكانت قصته من أحسن القصص ، وهي

أحسن من القصص التي لم تقص في القرآن ، فإن الناس قد يظلمون ويحسدون ويدعون إلى الفاحشة ويبتلون بالملك ، لكن ليس من لم يذكر في القرآن ممن اتقى الله وصبر مثل يوسف ، ولا فيهم من كانت عاقبته أحسن العواقب في الدنيا والآخرة مثل يوسف .

وهذا كما أن قصة أهل الكهف وقصة ذي القرنين كل منها هي في جنسها أحسن من غيرها . فقصة ذي القرنين أحسن قصص الملوك ، وقصة أهل الكهف أحسن قصص أولياء الله الذين كانوا في زمن الفترة .

فقوله تعالى : (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ) يتناول كل ما قصه في كتابه ، فهو أحسن مما لم يقصه ، ليس المراد أن قصة يوسف أحسن ما قص في القرآن . وأين ماجرى ليوسف مما جرى لموسى ونوح وإبراهيم وغيرهم من الرسل ؟! وأين ما عودي أولئك مما عودي فيه يوسف ؟! وأين فضل أولئك عند الله وعلو درجتهم من يوسف — صلوات الله عليهم أجمعين ؟ وأين نصر أولئك من نصر يوسف ؟ فإن يوسف كما قال الله تعالى : (وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ) وأذل الله الذين ظلموه ثم تابوا ، فكان فيها من العبرة أن المظلوم المحسود إذا صبر واتقى الله كانت له العاقبة ، وأن الظالم الحاسد قد

يتوب الله عليه ويعفو عنه ، وأن المظلوم ينبغي له العفو عن ظالمه إذا قدر عليه .

وبهذا اعتبر النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة لما قام على باب الكعبة وقد أذل الله له الذين عادوه وحاربوه من الطلقاء — فقال : « ماذا أنتم قائلون ؟ » فقالوا : نقول أخ كريم ، وابن عم كريم . فقال : « إني قائل لكم كما قال يوسف لإخوته : (لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ) » . وكذلك عائشة لما ظلمت وافتري عليها وقيل لها : إن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه ، فقالت في كلامها : أقول كما قال أبو يوسف (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ) . ففي قصة يوسف أنواع من العبرة للمظلوم والمحسود والمبتلى بدواعي الفواحش والذنوب وغير ذلك .

لكن أين قصة نوح وإبراهيم وموسى والمسيح ونحوهم ممن كانت قصته أنه دعا الخلق إلى عبادة الله وحده لا شريك له فكذبوه وآذوه وآذوا من آمن به ؟ فإن هؤلاء أوذوا اختياراً منهم لعبادة الله فعودوا ، وأوذوا في محبة الله وعبادته باختيارهم . فإنهم لولا إيمانهم ودعوتهم الخلق إلى عبادة الله لما أوذوا ، وهذا بخلاف من أوذي بغير اختياره كما أخذ يوسف من أبيه بغير اختياره ، ولهذا كانت محنة يوسف بالنسوة وامرأة العزيز ، واختياره السجن على معصية الله .

أعظم فى إيمانه ، ودرجته عند الله وأجره من صبره على ظلم إخـوته له ؛ ولهذا يعظم يوسف بهذا أعظم مما يعظم بذلك ، ولهذا قال تعالى فيه : (كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ)

وهذا كالصبر عن المعاصي مع الصبر على المصـائب ، فالأول أعظم وهو صبر المتقين أولياء الله . قال سهل بن عبد الله التستري : أفعـال البر يفعلها البر والفاجر ، ولن يصبر عن المعاصي إلا صديق ، ويوسف صلوات الله عليه كان صديقـاً نبياً . وأما من يظلم بغير اختياره ويصبر فهذا كثير ، ومن لم يصبر صبر الكرام سلاسلو البهـائم . وكـذلك إذا مكن المظلوم وقهر ظالمه فتاب الظـالم وخضع له فعفوه عنه من المحـاسن والفضائل ، لكن هذا يفعله خلق كثير من أهل الدين وعقلاء الدنيـا ، فإن حلم الملوك والولاة أجمع لأمرهم وطاعة النـاس لهم وتأليفهم لقلوب الناس ، وكان معـاوية من أحلم النـاس ، وكان المأمون حليما حتى كان يقول : لو علم الناس محبتي في العفو تقربوا إلي بالذنوب ، ولهذا لما قدر على من نازعه فى الملك ـــ وهو عمه إبراهيم بن المهدي ـــ عفا عنه .

وأما الصبر عن الشهوات والهوى الغالب لله ، لا رجاء لمخلوق ولا خوفا منـه ، مع كثرة الدواعى إلى فعل الفـاحشة ، واختيـاره الحبس الطويل على ذلك كما قال يوسف : (رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ) فهذا لا يوجد نظيره إلا في خيار عبـاد الله الصالحين وأوليـائه

المتقين . كما قال تعالى: (كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ) فهذا من عباد الله المخلصين الذين قال الله تعالى فيهم : (إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ) ، ولهذا لم يصدر من يوسف الصديق ذنب أصلا ، بل الهم الذي هم به لما تركه لله كتب له به حسنة ولهذا لم يذكر عنه سبحانه توبة واستغفاراً كما ذكر توبة الأنبياء كآدم وداود ونوح وغيرهم ، وإن لم يذكر عن أولئك الأنبيـاء فاحشة ولله الحمد ، وإنما كانت توباتهم من أمور أخر هي حسنات بالنسبة إلى غيرهم ولهذا لا يعرف ليوسف نظير فيما ابتلى به من دواعى الفـاحشة وتقواه وصبره فى ذلك ، وإنما يعرف لغيره ما هو دون ذلك كما فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليـه وسلم أنه قال « سبعة يظلهم الله تحت ظـل عرشه يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبـادة الله ، ورجل معلق قلبه بالمسجد إذا خرج حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عينـاه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه »

وإذا كان الصبر على الأذى لئلا يفعل الفاحشة أعظم من صبره على ظلم إخوته ، فكيف بصبر الرسل على أذى المكذبين لئـلا يتركوا ما أمروا به من دعوتهم إلى عبادة الله وحده وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن

المنكر ؟ فهذا الصبر هو من جنس الجهاد فى سبيل الله ، إذ كان الجهاد مقصوداً به أن تكون كلمة الله هي العليا وأن الدين كله لله ، فالجهاد والصبر فيه أفضل الأعمال كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله » وهو حديث صحيح رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه ، وهو من حديث معاذ بن جبل الطويل — وهو أحب الأعمال إلى الله — فالصبر على تلك المعصية صبر المهاجر الذي هجر ما نهى عنه ، وصبر المجاهد الذي جاهد نفسه فى الله وجاهد عدو الله الظاهر والباطن ، والمهاجر الصابر على ترك الذنب إنما جاهد نفسه وشيطانه ثم يجاهد عدو الله الظاهر لتكون كلمة الله هي العليا ويكون الدين كله لله ، وصبر المظلوم صبر المصاب .

لكن المصاب بمصيبة سماوية تصبر نفسه مالا تصبر نفس من ظلمه الناس ، فإن ذاك يستشعر أن الله هو الذي فعل به هذا فتيأس نفسه من الدفع والمعاقبة وأخذ الثأر ، بخلاف المظلوم الذي ظلمه الناس فإن نفسه تستشعر أن ظالمه يمكن دفعه وعقوبته وأخذ ثأره منه ، فالصبر على هذه المصيبة أفضل وأعظم كصبر يوسف صلوات الله عليه وسلامه وهذا يكون لأن صاحبه يعلم أن الله قدر ذلك فيصبر على ذلك كالمصائب السماوية ، ويكون أيضاً لينال ثواب الكاظمين الغيظ والعافين عن

الناس والله يحب المحسنين ، وليسلم قلبه من الغل للناس ، وكلا النوعين يشترك فى أن صاحبه يستشعر أن ذلك بذنوبه ، وهو مما يكفر الله به سيئاته ويستغفر ويتوب ، وأيضاً فيرى أن ذلك الصبر واجب عليه ، وأن الجزع مما يعاقب عليه . وإن ارتقى إلى الرضا رأى أن الرضا جنة الدنيا ، ومستراح العابدين ، وباب الله الاعظم . وإن رأى ذلك نعمة لما فيه من صلاح قلبه ودينه وقربه إلى الله وتكفير سيئاته وصونه عن ذنوب تدعوه إليها شياطين الإنس والجن شكر الله على هذه النعم .

فالمصائب السماوية والآدمية تشترك في هذه الأمور ، ومعرفة الناس بهذه الأمور وعلمهم بها هو من فضل الله يمن به على من يشاء من عباده ؛ ولهذا كانت أحوال الناس فى المصائب وغيرها متباينة تبايناً عظيما . ثم إذا شهد العبد القدر وأن هذا أمر قدره الله وقضاه وهو الخالق له ، فهو مع الصبر يسلم للرب القادر المالك الذي يفعل ما يشاء وهذا حال الصابر ، وقد يسلم تسليمه للرب المحسن المدبر له بحسن اختياره الذي « لا يقضي للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له : إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » كما رواه مسلم فى صحيحه عن صهيب عن النبى صلى الله عليه وسلم . وهذا تسليم راض لعلمه بحسن اختيار الله له ، وهذا يورث الشكر . وقد يسلم تسليمه للرب المحسن إليه المتفضل عليه بنعم عظيمة . وإن لم

ير هذا نعمة فيكون تسليمه تسليم راض غير شاكر . وقد يسلم تسليمه لله الذى لا إله إلا هو المستحق لأن يعبد لذاته ، وهو محمود على كل ما يفعله ، فإنه عليم حكيم رحيم ، لا يفعل شيئاً إلا لحكمة ، وهو مستحق لمحبته وعبادته وحمده على كل ما خلقه . فهذا تسليم عبد عابد حامد ، وهذا من الحمادين الذين هم أول من يدعى إلى الجنة ، ومن بينهم صاحب لواء الحمد ، وآدم فمن دونه تحت لوائه . وهذا يكون القضاء خيراً له ونعمة من الله عليه .

لكن يكون حمده لله ورضاه بقضائه من حيث عرف الله وأحبه وعبده ، لاستحقاقه الألوهية وحده لا شريك له ، فيكون صبره ورضاه وحمده من عبادته الصادرة عن هذه المعرفة والشهادة ، وهذا يشهد بقلبه أنه لا إله إلا الله ، والإله عنده هو المستحق للعبادة ، بخلاف من لم يشهد إلا مجرد ربوبيته ومشيئته وقدرته ، أو مجرد إحسانه ونعمته ، فإنهما مشهدان ناقصان قاصران ، وإنما يقتصر عليهما من نقص علمه بالله وبدينه الذي بعث به رسله وأنزل به كتبه ، كأهل البدع من الجهمية والقدرية الجبرية والقدرية المعتزلة ، فإن الأول مشهد أولئك ، والثاني مشهد هؤلاء ، وشهود ربوبيته وقدرته ومشيئته مع شهود رحمته وإحسانه وفضله مع شهود إلهيته ومحبته ورضاه وحمده والثناء عليه ومجده هو مشهد أهل العلم والإيمان من أهل السنة والجماعة التابعين بإحسان

للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار .

وهذه الأمور لبسطها موضع آخر .

والمقصود هنا أن هـذا يكون للمؤمن فى عموم المصائب ، وما يكون بأفعال المؤمنين فله فيه كظم الغيظ والعفو عن الناس . ويوسف الصديق صلوات الله عليه كان له هـذا ، وأعلى من ذلك الصبر عن الفاحشة مع قوة الداعى إليها ، فهذا الصبر أعظم من ذلك الصبر ، بل وأعظم من الصبر على الطاعة . ولهـذا قال سبحانه فى وصف المتقين الذين أعد لهم الجنة : (وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ * وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ)

فوصفهم بالكرم والحلم وبالإنفاق وكظم الغيظ والعفو عن الناس . ثم لما جاءت الشهوات المحرمات وصفهم بالتوبة منها فقال (وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ

إِلَّا ٱللَّهَ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟) فوصفهم بالتوبة منها وترك الإصرار عليها لا بترك ذلك بالكلية ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال في الحديث الصحيح «كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة : فالعينان تزنيان وزناهما النظر ، والأذن تزني وزناها السمع ، واللسان يزني وزناه المنطق ، واليد تزنى وزناها البطش ، والرجل تزني وزناها المشي ، والقلب يتمنى ويشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » . وفى الحديث «كل بنى آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون » . فلا بد للإنسان من مقدمات الكبيرة ، وكثير منهم يقع فى الكبيرة فيؤمر بالتوبة ، ويؤمرون أن لا يصروا على صغيرة ، فإنه لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار .

ويوسف صلى الله عليه وسلم صبر على الذنب مطلقاً ، ولم يوجد منه إلا هم تركه لله كتب له به حسنة . وقد ذكر طائفة من المفسرين أنه وجد منه بعض المقدمات ، مثل حل السراويل والجلوس مجلس الخاتن ونحو ذلك ، لكن ليس هذا منقولا نقلا يصدق به ، فإن هذا لم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم . ومثل هذه الإسرائيليات إذا لم تنقل عن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعرف صدقها ، ولهذا لا يجوز تصديقها ولا تكذيبها إلا بدليل ، والله تعالى يقول في القرآن : (كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ) فدل القرآن على أنه صرف عنه السوء

والفحشاء مطلقاً ، ولو كان قد فعل صغيرة لتاب منها . والقرآن ليس فيه ذكر توبته . ومن وقع منه بعض أنواع السوء والفحشاء لم يكن ذلك قد صرف عنه بل يكون قد وقع وتاب الله عليه منه ، والقرآن يدل على خلاف هذا . وقد شهدت النسوة له أنهن ما علمن عليه من سوء ، ولو كان قد بدت منه هذه المقدمات لكانت المرأة قد رأت ذلك ، وهي من النسوة اللاتي شهدن وقلن ما علمنا عليه من سوء ، وقالت مع ذلك : (وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ) وقالت : (أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) . وقوله (سوء) نكرة في سياق النفي ، فدل ذلك على أن المرأة لم تر منه سوءاً ، فإن الهم فى القلب لم تطلع عليه ، ولو اطلعت عليه فإنه إذا تركه لله كان حسنة ، ولو تركه مطلقاً لم يكن حسنة ولا سيئة ، فإنه لا إثم فيه إلا مع القول أو العمل .

وأما قصة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم صلوات الله عليهم فتلك أعظم ، والواقع فيها من الجانبين ، فما فعلته الأنبياء من الدعوة إلى توحيد الله وعبادته ودينه وإظهار آياته وأمره ونهيه ووعده ووعيده ومجاهدة المكذبين لهم والصبر على أذاهم هو أعظم عند الله ، ولهذا كانوا أفضل من يوسف صلوات الله عليهم أجمعين ، وما صبروا عليه وعنه أعظم من الذي صبر يوسف عليه وعنه ، وعبادتهم لله

وطاعتهم وتقواهم وصبرهم بما فعلوه أعظم من طاعة يوسف وعبادته وتقواه ، أولئك أولوا العزم الذين خصهم الله بالذكر في قوله : (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ)

وقال تعالى : (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) ،

وهم يوم القيامة الذين تطلب منهم الأمم الشفاعة ، وبهم أمر خاتم الرسل أن يقتدى فى الصبر فقيل له :

(فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ) فقصصهم أحسن من قصة يوسف ؛ ولهذا ثناها الله فى القرآن ، لاسيا قصة موسى . قال الإمام أحمد بن حنبل : أحسن أحاديث الأنبياء حديث تكليم الله لموسى .

والمقصود هنا أن قوله : (أَحْسَنَ الْقَصَصِ) قد قيل إنه مصدر ، وقيل إنه مفعول به ، والقولان متلازمان . لكن الصحيح أن القصص مفعول به وإن كان أصله مصدراً ، فقد غلب استعماله في المقصوص كما فى لفظ الخبر والنبأ ، والاستعمال يدل على ذلك كما تقدم ذكره ، وقد اعترف بذلك أهل اللغة ، قال الجوهري : وقد قص عليه الخبر قصصاً ، والاسم أيضاً القصص بالفتح وضع موضع المصدر حتى صار أغلب عليه ، فقوله أحسن القصص كقوله : نخبرك أحسن الخبر ، وننبئك أحسن النبإ ،

ونحدثك أحسن الحديث . ولفظ « الكلام » يراد به مصدر كلمه تكليما ، ويراد بـه نفس القول ، فإن القول فيه فعل من القائــل هو مسمى المصدر ، والقول ينشأ عن ذلك الفعل ، ولهذا تارة يجعل القول نوعا من العمل لأنه حاصل بعمل ، وتارة يجعل قسيما له يقال : القول والعمل وكذلك قد يقال في لفظ « القصص » و « البيان » ، و « الحديث » ، و « الخبر » ، ونحو ذلك .

فإذا أريد بالقصص ونحوه المصدر الذي مسماه الفعل فهو مستلزم للقول والقول تابع ، وإذا أريد به نفس الكلام والقول فهو مستلزم للفعل تابع للفعل ، فالمصادر الجارية على سنن الأفعال يراد بها الفعل كقولك كلمته تكليما وأخبرته إخباراً ، وأما مالم يجر على سنن الفعل ــ مثل الكلام والخبر ونحو ذلك ــ فإن هذا إذا أطلق أريد به القول ، وكذلك قد يقال فى لفظ القصص فإن مصدره القياسي قصاً مثل عده عـداً ومده مداً وكذلك قصه قصاً ، وأماقصص فليس هو قياس مصدر المضعف ولم يذكروا على كونه مصدراً إلا قوله (فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا) وهذا لا يدل على أنه مصدر . بل قـد يكون اسم مصدر أقيم مقامه كقوله : (وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا) وإن جعل مصدر قص الأثر لم يلزم أن يكون مصـدر قص الحديث ؛ لأن الحديث خبر ونبـأ ، فكان لفظ قصص كلفظ خبر ونبأ وكلام .

وأسماء المصادر فى باب الكلام تتضمن القول نفسه وتدل على فعل القائل بطريق التضمن واللزوم ، فإنك إذا قلت : الكلام والخبر والحديث والنبأ والقصص ، لم يكن مثل قولك : التكليم والإنباء والإخبار والتحديث ، ولهذا يقال إنه منصوب على المفعول به ، واسم المصدر ينتصب على المصدر كما في قوله (وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا) فإذا قال : كلمته كلاماً حسناً ، وحدثته حديثاً طيبا ، وأخبرته أخباراً سارة ، وقصصت عليه قصصاً صادقة ونحو ذلك كان هذا منصوبا على المفعول به لم يكن هذا كقولك كلمته تكليما وأنبأته إنباء . فتبين أن قوله (أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ) منصوب على المفعول ، وكل ما قصه الله فهو أحسن القصص ولكن هذا إذا كان يتضمن معنى المصدر ومعنى المفعول به جاز أن ينتصب على المعنيين جميعاً ، فإنهما متلازمان ، تقول : قلت قولا حسنا وقد أسمعته قولا ، ولم يسمع الفعل الذي هو مسمى المصدر وإنما سمع الصوت وتقول قال يقول قولا فتجعله مصدراً ، والصوت نفسه ليس هو مسمى المصدر إنما مسمى المصدر الفعل المستلزم للصوت ولكن هما متلازمان .

ولهذا تنازع أهل السنة والحديث فى التلاوة والقرآن هل هي القرآن المتلو أم لا ؟ وقد تفطن ابن قتيبة وغيره لما يناسب هذا المعنى وتكلم عليه ، وسبب الاشتباه أن المتلو هو القرآن نفسه الذي هو الكلام ، والتلاوة قد يراد بها هذا ، وقد يراد بها نفس حركة التالي

وفعله ، وقد يراد بها الأمران جميعا ، فمن قال : التــلاوة هي المتلو ، أراد بالتلاوة نفس القرآن المسموع وذلك هو المتلو ، ومــن قال غيره أراد بالتلاوة حركة العبد وفعله وتلك ليست هي القرآن ، ومن نهى عن أن يقال التلاوة هي المتلو أو غير المتلو فلأن لفظ التلاوة يجمع الأمرين ، كما نهى الإمام أحمد وغيره عن أن يقال : لفظي بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق ؛ لأن اللفظ يراد به الملفوظ نفسه الذي هــو كلام الله ، ويراد به مصدر لفظ يلفظ لفظا وهو فعل العبد ، وأطلق قوم من أهل الحديث أن لفظي بالقرآن غير مخلوق ، وأطلق ناس آخرون أن لفظي به مخلوق قال ابن قتيبة : لم يتنازع أهــل الحديث في شيء مــن أقوالهم إلا فى مسألة اللفظ ، وهذا كان تنازع أهــل الحديث والسنة الذين كانوا فى زمن أحمد بن حنبل ، وأصحابه الذين أدركوه .

ثم جاء بعد هؤلاء طائفة قالوا : التلاوة غير المتلو ، وأرادوا بالتلاوة نفس كلام الله العربى الذي هــو القرآن ، وأرادوا بالمتلو معنى واحــداً قائمــا بذات الله . وقال آخرون : التلاوة هي المتلو ، وأرادوا بالتلاوة نفس الأصوات المسموعة من القرآن ، جعلوا ما سمع من الأصوات هو نفس الـكلام الذي ليس بمخلوق ، ولم يميزوا بــين سمــاع الكلام من المتكلم وبين سماعه من المبلغ له عنه ، فزاد كل من هؤلاء وهؤلاء من البدع ما لم يكن يقوله أحد من أهل السنة والعلم ، فـلم يكن من أهل

السنة من يقول : إن القرآن العربى ليس هو كلام الله ، ولا يجعل المتلو مجرد معنى ، ولا كان فيهم من يقول : إن أصوات العباد — وغيرها من خصائصهم — غير مخلوق ، بل هم كلهم متفقون على أن القرآن المتلو هو القرآن العربي الذي نزله روح القدس من الله بالحق ، وهو كلام الله الذي تكلم به . ولكن تنازعوا فى تلاوة العباد له : هل هي القرآن نفسه ، أم هي الفعل الذي يقرأ به القرآن ؟ .

والتحقيق أن لفظ « التلاوة » يرادبه هذا وهذا ،ولفظ « القرآن » يراد به المصدر ويراد به الكلام ، قال الله تعالى : (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ * فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ) وفى الصحيحين عن ابن عباس قال : إن علينا أن نجمعه فى قلبك ، وتقرأه بلسانك . وقال أهل العربية : يقال قرأت الكتاب قراءة وقرآنا ، ومنه قول حسان :

ضحّوا بأشمط عنوان السجود به ... يقطّع الليل تسبيحا وقرآنا

وقد قال تعالى : (فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ) وقال تعالى : (وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا) وقال تعالى : (وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟) وهم إنما يستمعون الكلام نفسه ولا يستمعون

مسمى المصدر الذي هو الفعل فإن ذلك لا يسمع ، فقوله (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ) من هـذا الباب ، من باب نقرأ عليـك أحسن القصص ، ونتلو عليك أحسن القصص ، كما قال تعالى : (نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ) وقال : (فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ) قال ابن عباس أي قراءة جبريل (فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ) فاستمع له حتى يقضي قراءته .

والمشهور فى قوله (وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ) أنه منصوب على المفعول به ، فكذلك أحسن القصص ، لكن فى كلاهما معنى المصدر أيضاً كما تقدم ، ففيه معنى المفعول به ومعنى المصدر جميعا ، وقد يغلب هذا كما فى قوله (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ) فالمراد هنا نفس مسمى المصدر ، وقد يغلب هذا تارة كما في قوله : (فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ) وقوله : (قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ)
وقوله : (إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ) وغالب ما يذكر لفظ « القرآن » إنما يراد به نفس الكلام ، لا يراد به التكلم بالكلام الذي هو مسمى المصدر .

ومثل هذا كثير في اللغة يكون أمران متلازمان إما دائمًا وإما غالبا فيطلق الاسم عليهما ويغلب هذا تارة وهذا تارة ، وقد يقع على أحدهما مفرداً كلفظ « النهر » و « القرية » و « الميزاب » ونحو ذلك مما فيه حال ومحل ، فالاسم يتناول مجرى الماء والماء الجاري ، وكذلك لفظ

القرية يتناول المساكن والسكان، ثم تقول: حفر النهر فالمراد به المجرى. وتقول جرى النهر فالمراد به الماء، وتقول جرى الميزاب تعني الماء. ونصب الميزاب تعني الخشب. وقال تعالى (وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ) والمراد السكان في المكان، وقال تعالى (وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ) وقال تعالى (وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا) وقال تعالى: (وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟) وقال تعالى (وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ) وقال تعالى: (لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا) وقال تعالى: (فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ) والخاوي على عروشه المكان لا السكان، وقال تعالى: (أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا) لما كان المقصود بالقرية هم السكان كان إرادتهم أكثر في كتاب الله، وكذلك لفظ النهر لما كان المقصود هو الماء كان إرادته أكثر كقوله: (وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ) وقوله: (وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا) فهذا كثير، أكثر من قولهم حفرنا النهر.

وكذلك إطلاق لفظ القرآن على نفس الكلام أكثر من إطلاقه على نفس التكلم. وكذلك لفظ الكلام والقول والقصص وسائر أنواع

الكلام يراد بها نفس الكلام أكثر مما يراد بها فعل المتكلم، وهذه الأمور لبسطها موضع آخر.

والمقصود هنا أن قوله تعالى: (نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ) المراد الكلام الذي هو أحسن القصص، وهو عام في كل ما قصه الله، لم يخص به سورة يوسف؛ ولهذا قال: (بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ) ولم يقل بما أوحينا إليك هذه السورة، والآثار المأثورة فى ذلك عن السلف تدل كلها على ذلك، وعلى أنهم كانوا يعتقدون أن القرآن أفضل من سائر الكتب، وهو المراد. والمراد من هذا حاصل على كل تقدير فسواء كان أحسن القصص مصدراً أو مفعولا أو جامعاً للأمرين، فهو يدل على أن القرآن وما في القرآن من القصص أحسن من غيره، فإنا قد ذكرنا أنهما متلازمان فأيهما كان أحسن كان الآخر أحسن. فتبين أن قوله تعالى (أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ) كقوله: (ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ) والآثار السلفية تدل على ذلك.

والسلف كانوا مقرين بأن القرآن أحسن الحديث، وأحسن القصص، كما أنه المهيمن على ما بين يديه من كتب السماء، فكيف يقال: إن كلام الله كله لا فضل لبعضه على بعض! روى ابن أبى حاتم عن المسعودى عن القاسم أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ملوا ملة فقالوا: حدثنا يارسول الله! فأنزل الله: (نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ)

ثم ملوا ملة فقالوا : حدثنا يارسول الله ، فنزلت : (ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ) ، ثم ملوا ملة فقالوا : حدثنا يارسول الله ، فأنزل الله : (أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ) .

وقد روى أبو عبيد فى « فضائل القرآن » عن بعض التابعين فقال حدثنا حجاج عن المسعودى عن عون بن عبد الله بن عتبة قال : مل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ملة فقالوا : يارسول الله ! حدثنا ، فأنزل الله تعالى : (ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ) قال : ثم نعته فقال : (كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ) إلى آخر الآية ، قال : ثم ملوا ملة أخرى فقالوا : يارسول الله ! حدثنا شيئاً فوق الحديث ودون القرآن ، يعنون القصص ، فأنزل الله : (الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ — إلى قوله — نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ) قال : فإن أرادوا الحديث دلهم على أحسن الحديث ، وإن أرادوا القصص دلهم على أحسن القصص . ورواه ابن أبي حاتم بإسناد حسن مرفوعا عن مصعب بن سعد عن سعد قال : نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن فتلاه عليهم زماناً ، فقالوا : يارسول الله ! لو قصصت علينا . فأنزل الله تعالى : (الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ . . . نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ)

فتلاه عليهم زماناً .

ولما كان القرآن أحسن الكلام نهوا عن اتباع ما سواه ، قال تعالى : (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ) . وروى النسائي وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه رأى بيد عمر بن الخطاب [شيئاً من التوراة فقال] : لو كان موسى حيا ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم . وفي رواية ما وسعه إلا اتباعي . وفي لفظ : فتغير وجه النبي صلى الله عليه وسلم لما عرض عليه عمر ذلك ، فقال له بعض الأنصار : يا ابن الخطاب ! ألا ترى إلى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال عمر : رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا . ولهذا كان الصحابة ينهون عن اتباع كتب غير القرآن .

وعمر انتفع بهذا حتى أنه لما فتحت الإسكندرية وجد فيها كتب كثيرة من كتب الروم فكتبوا فيها إلى عمر فأمر بها أن تحرق وقال : حسبنا كتاب الله . وروى ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا إسماعيل بن خليل حدثنا على بن مسهر حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق عن خليفة بن قيس عن خالد بن عرفطة قال : كنت عند عمر بن الخطاب ، إذ أتى برجل من عبد القيس مسكنه بالسوس . فقال له عمر : أنت فلان ابن فلان العبدي ؟ قال : نعم . قال : وأنت النازل بالسوس ؟ قال : نعم . فضربه بقناة معه ، فقال له : ما ذنبي ؟ قال

فقرأ عليه (الٓر تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ... نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ)

فقرأها عليه ثلاث مرات وضربه ثلاث ضربات ، ثم قال له عمر : أنت الذي انتسخت كتاب دانيال ؟ قال : نعم . قال : اذهب فامحه بالحميم والصوف الأبيض ، ولا تقرأه ولا تقرئه أحداً من الناس . فقرأ عليه عمر هذه الآية ليبين له أن القرآن أحسن القصص فلا يحتاج معه إلى غيره . وهذا يدل على أن القصص عام لا يختص بسورة يوسف ، ويدل على أنهم كانوا يعلمون أن القرآن أفضل من كتاب دانيال ونحوه من كتب الأنبياء . وكذلك مثل هذه القصة مأثورة عن ابن مسعود لما أتى بما كتب من الكتب محاه وذكر فضيلة القرآن كما فعل عمر رضي الله عنهما .

وروى ابن أبي حاتم عن قتادة (نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ) قال : من الكتب الماضية وأمور الله السالفة فى الأمم (بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ) . وهذا يدل على أن أحسن القصص يعم هذا كله ؛ بل لفظ « القصص » يتناول ما قصه الأنبياء من آيات الله غير أخبار الأمم كقوله تعالى : (أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا) وقال فى موضع آخر : (يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ) وقد قال تعالى : (وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ

ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ) . وروى ابن أبي حاتم بالإسناد المعروف عن ابن عباس قال : مؤتمناً عليه ، قال : وروى عن عكرمة والحسن وسعيد بن جبير وعطاء الخراساني أنه الأمين . وروى من تفسير الوالبي عن ابن عباس قال : المهيمن الأمين ، قال : على كل كتاب قبله . وكذلك عن الحسن قال : مصدقا بهذه الكتب وأميناً عليها . ومن تفسير الوالبي أيضاً عن ابن عباس ومهيمناً عليه قال : شهيداً ، وكذلك قال السدي عن ابن عباس . وقال في قوله : (وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ) على كل كتاب قبله . قال : وروى عن سعيد بن جبير وعكرمة وعطية وعطاء الخراساني ومحمد بن كعب وقتادة والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحو ذلك ، وابن أبي حاتم قد ذكر في أول كتابه في التفسير أنه طلب منه إخراج تفسير القرآن مختصراً بأصح الأسانيد وأنه تحرى إخراجه بأصح الأخبار إسناداً وأشبعها متناً ، وذكر إسناده عن كل من نقل عنه شيئاً .

فالسلف كلهم متفقون على أن القرآن هو المهيمن المؤتمن الشاهد على ما بين يديه من الكتب ، ومعلوم أن المهيمن على الشيء أعلى منه مرتبة . ومن أسماء الله « المهيمن » ، ويسمى الحاكم على الناس القائم بأمورهم « المهيمن » . قال المبرد والجوهري وغيرهما : المهيمن في اللغة المؤتمن . وقال الخليل : الرقيب الحافظ ، وقال الخطابي : المهيمن

الشهيد . قال وقال بعض أهل اللغة : الهيمنة القيام على الشيء والرعاية له ، وأنشد :

ألا إن خير الناس بعد نبيهم   مهيمنه التاليه في العرف والنكر

يريد القائم على الناس بالرعاية لهم . وفى مهيمن قولان : قيل أصله مؤيمن والهاء مبدلة من الهمزة ، وقيل بل الهاء أصلية .

وهكذا القرآن فإنه قرر ما فى الكتب المتقدمة من الخبر عن الله وعن اليوم الآخر ، وزاد ذلك بياناً وتفصيلا ، وبين الأدلة والبراهين على ذلك وقرر نبوة الأنبياء كلهم ، ورسالة المرسلين ، وقرر الشرائع الكلية التى بعثت بها الرسل كلهم ، وجادل المكذبين بالكتب والرسل بأنواع الحجج والبراهين ، وبين عقوبات الله لهم ونصره لأهل الكتب المتبعين لها ، وبين ما حرف منها وبدل ، وما فعله أهل الكتاب فى الكتب المتقدمة ، وبين أيضاً ما كتموه مما أمر الله ببيانه ، وكل ما جاءت به النبوات بأحسن الشرائع والمناهج التى نزل بها القرآن ، فصارت له الهيمنة على ما بين يديه من الكتب من وجوه متعددة ، فهو شاهد بصدقها وشاهد بكذب ما حرف منها ، وهو حاكم بإقرار ما أقره الله ، ونسخ ما نسخه ، فهو شاهد فى الخبريات حاكم فى الأمريات .

وكذلك معنى « الشهادة » و « الحكم » يتضمن إثبات ما أثبته الله من صدق ومحكم ، وإبطال ما أبطله من كذب ومنسوخ ، وليس الإنجيل مع التوراة ولا الزبور بهـذه المثابة ، بل هي متبعة لشريعة التوراة إلا يسيراً نسخه الله بالإنجيل ؛ بخلاف القرآن . ثم إنه معجز فى نفسه لا يقدر الخلائق أن يأتوا بمثله ، ففيه دعوة الرسول ، وهو آية الرسول وبرهانه على صدقه ونبوته ، وفيه ما جاء به الرسول وهو نفسه برهان على ما جاء به .

وفيه أيضاً من ضرب الأمثال وبيان الآيات على تفضيل ما جاء به الرسول ما لو جمع إليه علوم جميع العلماء لم يكن ما عندهم إلا بعض ما فى القرآن . ومن تأمل ما تكلم به الأولون والآخرون فى أصول الدين والعلوم الإلهية وأمور المعاد والنبوات والأخلاق والسياسات والعبادات وسائر ما فيه كمال النفوس وصلاحها وسعادتها ونجاتها لم يجد عند الأولين والآخرين من أهل النبوات ومن أهل الرأي كالمتفلسفة وغيرهم إلا بعض ما جاء به القرآن .

ولهذا لم تحتج الأمة مع رسولها وكتابها إلى نبي آخر وكتاب آخر ؛ فضلا عن أن تحتاج إلى شيء لا يستقل بنفسه غيره ، سواء كان من علم المحدثين والملهمين ، أو من علم أرباب النظر والقياس الذين لا يعتصمون مع ذلك بكتاب منزل من السماء . ولهذا قال النبي صلى

الله عليه وسلم في الحديث الصحيح « إنه كان فى الأمم قبلكم محدثون فإن يكن فى أمتى أحد فعمر » . فعلق ذلك تعليقاً فى أمته مع جزمه به فيمن تقدم ، لأن الأمم قبلنا كانوا محتاجين إلى المحدثين كما كانوا محتاجين إلى نبي بعد نبي ، وأما أمة محمد صلى الله عليه وسلم فأغناهم الله برسولهم وكتابهم عن كل ما سواه ، حتى إن المحدث منهم كعمر ابن الخطاب رضي الله عنه إنما يؤخذ منه ما وافق الكتاب والسنة ، وإذا حدث شيئاً فى قلبه لم يكن له أن يقبله حتى يعرضه على الكتاب والسنة ، وكذلك لا يقبله إلا إن وافق الكتاب والسنة . وهذا باب واسع فى فضائل القرآن على ما سواه .

والمقصود أن نبين أن مثل هذا هو من العلم المستقر فى نفوس الأمة السابقين والتابعين ، ولم يعرف قط أحد من السلف رد مثل هذا ، ولا قال : لا يكون كلام الله بعضه أشرف من بعض ، فإنه كله من صفات الله ونحو ذلك ، إنما حدث هذا الإنكار لما ظهرت بدع الجهمية الذين اختلفوا في الكتاب وجعلوه عضين .

وممن ذكر « تفضيل بعض القرآن على بعض فى نفسه » أصحاب الشافعي وأحمد وغيرهما كالشيخ أبى حامد الإسفرائيني والقاضي أبى الطيب وأبى إسحاق الشيرازي وغيرهم ، ومثل القاضي أبى يعلى والحلوانى الكبير وابنه عبد الرحمن وابن عقيل ، قال أبو الوفاء بن عقيل فى

« كتاب الواضح في أصول الفقه » في احتجاجه على أن القرآن لا ينسخ بالسنة قال : فمن ذلك قوله : (مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ) وليست السنة مثل القرآن ولا خيراً منه ، فبطل النسخ بها لأنه يؤدي إلى المحال وهو كون خبره بخلاف مخبره وذلك محال على الله ، فما أدى إليه فهو محال .

قال : فإن قيل : أصل استدلالكم مبني على أن المراد بالخير الفضل وليس المراد به ذلك ، وإنما المراد نأت بخير منها لكم ، وذلك يرجع إلى أحد أمرين في حقنا : إما سهولة في التكليف فهو خير عاجل ، أو أكثر ثواباً لكونه أثقل وأشق ويكون نفعاً في الآجل والعاقبة ، وكلاهما قد يتحقق بطريق السنة . ويحتمل : نأت بخير منها لا ناسخاً لها ، بل يكون تكليفا مبتدأ هو خير لكم وإن لم يكن طريقه القرآن الناسخ ولا السنة الناسخة . قالوا : يوضح هذه التأويلات أن القرآن نفسه ليس بعضه خيراً من بعض ، فلابد أن يصرفوا اللفظ عن ظاهره من خير يعود إلى التكليف لا إلى الطريق .

وقال في الجواب : قولهم : الخير يرجع إلى ما يخصنا من سهولة أو ثواب لا يصح ؛ لأنه لو أراد ذلك لقال : « لكم » . فلما حذف ذلك دل على ما يقتضيه الإطلاق وهو كون الناسخ خيراً من جهة نفسه وذاته ومن جهة الانتفاع به في العاجل والآجل على أن ظاهره يقتضي :

بآيات خير منها ، فإن ذلك يعود إلى الجنس كما إذا قال القائل : ما آخذ منك ديناراً إلا أعطيك خيراً منه ، لا يعقل بالإطلاق إلا ديناراً خيراً منه ، فيتخير من الجنس أولا ثم النفع ، فإما أن يرجع ذلك إلى ثوب أو عرض غير الدينار فلا ، وفى آخر الآيـة ما يشهد بأنه أراد به القرآن لأنه قال : (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ووصفه لنفسه بالقدرة يدل على أن الذي يأتى به هو أمر يرجع إليه دون غيره ، وكذلك قوله (أَوْ مِثْلِهَا) يشهد لما ذكرناه ، لأن المماثلة يقتضى إطلاقها من كل وجه ، لا سيما وقد أنثها تأنيث الآية ، فكأنه قال : نأت بآية خير منها أو بآية مثلها .

« قلت » : وأيضاً فلا يجوز أن يراد بالخير من جهة كونه أخف عملا أو أشق وأكثر ثوابا ، لأن هذين الوصفين ثابتان لكل ما أمر الله به مبتدأ وناسخا ، فإنه إما أن يكون أيسر من غيره في الدنيا وإما أن يكون أشق فيكون ثوابه أكثر ، فإذا كانت هذه الصفة لازمة لجميع الأحكام لم يحسن أن يقال ما ننسخ من حكم نأت بخير منه أو مثله ، فإن المنسوخ أيضاً يكون خيراً ومثلا بهذا الاعتبار ، فإنهم إن فسروا الخير بكونه أسهل فقد يكون المنسوخ أسهل فيكون خيراً ، وإن فسروه بكونه أعظم أجراً لمشقته فقد يكون المنسوخ كذلك ، والله قد أخبر أنه لابد أن يأتى بخير مما ينسخه أو مثله ، فلا يأتى بما هو دونه .

وأيضاً فعلى ما قالوه لا يكون شيء خيراً من شيء ، بل إن كان خيراً من جهة السهولة فذلك خير من جهة كثرة الأجر . قال ابن عقيل: وأما قولهم إن القرآن في نفسه لا يتخاير ولا يتفاضل فعلم أنه لم يرد به الخير الذي هو الأفضلية ، فليس كذلك ، فإن توحيد الله الذي فى «سورة الإخلاص» وما ضمنها من نفي التجزئ والانقسام أفضل من « تبت » المتضمنة ذم أبى لهب وذم زوجته ، إن شئت فى كون المدح أفضل من القدح ، وإن شئت في الإعجاز ، فإن تلاوة غيرها من الآيات التى تظهر منها الفصاحة والبيان أفضل ، وليس من حيث كان المتكلم واحداً لا يكون التفاضل لمعنى يعود إلى الكلام ثانياً كما أن المرسل واحد لذى النون وإبراهيم ، وإبراهيم أفضل من ذي النون . قال : وأما قولهم : (نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ) لا يكون ناسخا بل مبتدأ فلا يصح ، لأنه خرج مخرج الجزاء مجزوما ، وهذا يعطي البدلية والمقابلة ، مثل قولهم: إن تكرمني أكرمك وإن أطعتني أطعتك. يقتضى أن يكون الجزاء مقابلة وبدلا ، لا فعلا مبتدأ .

قلت : المقصود هنا ذكر ما نصره — من كون القرآن فى نفسه بعضه خيراً من بعض — ليس المقصود الكلام في مسألة النسخ ، وكذلك غير هؤلاء صرحوا بأن بعض القرآن قد يكون خيراً من بعض وممن ذكر ذلك أبو حامد الغزالي فى كتابه « جواهر القرآن » قال

لعلك تقول قد توجه قصدك فى هـذه التنبيهات إلى تفضيل بعض آيات القـرآن عـلى بعض ، والـكل كلام الله ، فكيف يفـارق بعضها بعضاً ؟ وكيف يكون بعضها أشرف من بعض ؟ فاعلم أن نور البصيرة إن كان لا يرشدك إلى الفرق بين آية الـكرسي وآية المداينات ، وبـين سورة الإخـلاص وسورة تبت ، وترتاع مـن اعتقاد الفـرق نفسك الخوارة المستغرقة فى التقليد ، فقلد صاحب الشرع صـلوات الله عليه وسلامه ، فهو الذي أنزل عليه القرآن ، وقال : « قلب القرآن يس » ، وقد دلت الأخبـار عـلى شرف بعضه عـلى بعض فقال : « فاتحة الـكتاب أفضل سور القرآن » وقال : « آية الـكرسي سيدة آي القرآن » وقال : « قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن » والأخبار الواردة في فضائـل قوارع القـرآن ، وتخصص بعض السور والآيات بالفضـل ، وكـثرة الثواب فى تلاوتها لا تحصى ، فاطلبه من كتب الحديث إن أردت . وننبهك الآن على معنى هذه الأخبار الأربعة فى تفضيل هذه السور .

قلت : وسنذكر إن شاء الله ماذكره في تفضيل ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾. وممن ذكر كلام الناس فى ذلك وحكى هذا القول عمن حكاه من السلف القاضي عياض في « شرح مسلم » قال فى قول النبى صـلى الله عليه وسـلم لأبى : « أتدري أي آية مـن كتـاب الله أعظم ؟ » وذكر آيـة الـكرسي : فيـه حجـة لتفضيل بعض القرآن عـلى بعض

وتفضيل القرآن على سائر كتب الله عند من اختاره : منهم إسحاق بن راهويه وغيره من العلماء والمتكلمين . قال : وذلك راجع إلى عظم أجر قارئي ذلك وجزيل ثوابه على بعضه أكثر من سائره . قال : وهذا مما اختلف أهل العلم فيه ، فأبى ذلك الأشعري وابن الباقلانى وجماعة من الفقهاء وأهل العلم لأن مقتضى الأفضل نقص المفضول عنه ، وكلام الله لا يتبعض . قالوا : وما ورد من ذلك بقوله : « أفضل » و « أعظم » لبعض الآي والسور فمعناه عظيم وفاضل. قال : وقيل: كانت آية الكرسي أعظم لأنها جمعت أصول الأسماء والصفات من الإلهية والحياة والوحدانية والعلم والملك والقدرة والإرادة ، وهذه السبعة قالوا هي أصول الأسماء والصفات .

قلت : المقصود ما ذكره من كلام العلماء ، وأما قول القائل إن هذه السبعة هي أصول الأسماء . فهذه السبعة عند كثير من المتكلمين هي المعروفة بالعقل ، وما سواها قالوا إنما يعلم بالسمع ، وهذا أمر يرجع إلى طريق علمنا لا إلى أمر حقيقي ثابت لها فى نفس الأمر ، فكيف والجمهور على أن ما سواها قد يعلم بالعقل أيضاً كالمحبة والرضا والأمر والنهي ؟! ومذهب ابن كلاب وأكثر قدماء الصفاتية أن العلو من الصفات العقلية ، وهو مذهب أبى العباس القلانسي والحارث المحاسبي ومذهب طوائف من أهل الكلام والحديث والفقه ، وهو آخر قولي القاضي أبي

يعلى وأبي الحسن بن الزاغوني وغيره ، ومذهب ابن كرام وأصحابه ، وهو قول عامة أئمة الحديث والفقه والتصوف .

وكذلك ما فسره القاضي عياض من قول المفضلين إن المراد كثرة الثواب ، فهذا لا ينازع فيه الأشعري وابن الباقلاني ، فإن الثواب مخلوق من مخلوقات الله تعالى فلا ينازع أحد فى أن بعضه أفضل من بعض ، وإنما النزاع في نفس كلام الله الذي هو كلامه فحكايته النزاع يناقض ما فسر به قول المثبتة . وقد بين مأخذ الممتنعين عن التفضيل : منهم من نفى التفاضل فى الصفات مطلقاً ، بناء على أن القديم لا يتفاضل ، والقرآن من الصفات . ومنهم من خص القرآن بأنه واحد على أصله فلا يعقل فيه معنيان فضلا أن يعقل فيه فاضل ومفضول ، وهذا أصل أبى الحسن ومن وافقه كما سنبينه إن شاء الله تعالى .

وهؤلاء الذين ذكرنا أقوالهم فى أن كلام الله يكون بعضه أفضل من بعض ليس فيهم أحد من القائلين بأن كلام الله مخلوق — كما يقول ذلك من يقوله من أهل البدع كالجهمية والمعتزلة — بل كل هؤلاء يقولون : إن كلام الله غير مخلوق ، ولو تتبع ذكر من قال ذلك لكثروا ، فإن هذا قول جماهير المسلمين من السلف والخلف أهل السنة وأهل البدعة . أما السلف — كالصحابة والتابعين لهم بإحسان — فلم يعرف لهم فى هذا الأصل تنازع ، بل الآثار متواترة عنهم به .

واشتهر القول بإنكار تفاضله بعد المائتين لما أظهرت الجهميــة القول بأن القرآن مخلوق . واتفق أئمة السنة وجماهير الأمة على إنــكار ذلك ورده عليهم . وظنت طائفــة كثيرة ــ مثل أبى محمــد بن كلاب ومن وافقه ــ أن هذا القول لا يمكن رده إلا إذا قيــل إن الله لم يتكلــم بمشيئته وقدرته ، ولا كلم موسى حين أتاه ، ولا قال للملائكة اسجدوا لآدم بعد أن خلقه ، ولا يغضب على أحد بعد أن يكفر به ، ولا يرضى عنه بعد أن يطيعه ، ولا يحبه بعد أن يتقرب إليه بالنوافل ، ولا يتكلم بكلام بعد كلام فتكون كلماته لا نهاية لها ، إلى غير ذلك مما ظنوا انتفاءه عن الله . وقالوا إنما يمكن مخالفــة هؤلاء إذا قيل بأن القرآن وغيره من الكلام لازم لذات الله تعــالى ، لم يزل ولا يزال يتكلــم بكل كلام له كقوله : يا آدم ، يا نوح . وصاروا طائفتين : طائفــة تقول إنــه معنى واحد قائم بذاته ، وطائفة تقول إنه حروف أو حروف وأصوات مقترن بعضها ببعض أزلا وأبداً ، وإن كانت مترتبة في ذاتها ترتباً ذاتيا لا ترتبا وجوديا، كما قد بين مقالات الناس في كلام الله فى غير هذا الموضع . والأولون عندهم كلام الله شيء واحــد لا بعض له ، فضــلا عن أن يقال بعضــه أفضــل من بعض . والآخرون يقولون : هو قــديم لازم لذاتــه ، والقديم لا يتفاضل .

وربما نقل عن بعض السلف فى قوله تعالى : (نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ) أنه قال :

خير لكم منها ، أو أنفع لكم . فيظن الظان أن ذلك القائل موافق لهؤلاء . وليس كذلك ، بل مقصوده بيان وجه كونه خيراً وهو أن يكون أنفع للعباد ، فإن ما كان أكثر من الكلام نفعا للعباد كان فى نفسه أفضل ، كما بين فى موضعه . وصار من سلك مسلك الكلابية من متأخري أصحاب أحمد ومالك والشافعي وغيرهم يظنون أن القول بتفاضل كلام الله بعضه على بعض إنما يمكن على قول المعتزلة ونحوهم الذين يقولون إنه مخلوق ، فإن القائلين بأنه مخلوق يرون فضل بعضه على بعض فضل مخلوق على مخلوق ، وتفضيل بعض المخلوقات على بعض لا ينكره أحد . فإذا ظن أولئك أن القول بتفضيل بعض كلام الله على بعض مستلزم لكون القرآن مخلوقا فروا من ذلك وأنكروا القول به لأجل ماظنوه من التلازم ، وليس الأمر كما ظنوه ، بل سلف الأمة وجمهورها يقولون : إن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وكذلك سائر كلام الله غير مخلوق . ويقولون مع ذلك : إن كلام الله بعضه أفضل من بعض كما نطق بذلك الكتاب والسنة وآثار الصحابة والتابعين من غير خلاف يعرف في ذلك عنهم .

وحدثنا أبي عن جدنا أبي البركات وصاحبه أبي عبد الله بن عبد الوهاب أنهما نظرا فيما ذكره بعض المفسرين من الأقوال فى قوله : (نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ) ، وأظنه كان نظرهم فى تفسير أبي عبد

الله محمد بن تيمية ، فلما رأيا تلك الأقوال قالا : هـذا إنما يجيء على قول المعتزلة . وزار مرة أبو عبد الله بن عبد الوهاب هذا لشيخنا أبي زكريا بن الصيرفي وكان مريضاً . فدعا أبوزكريا بدعاء مأثور عن الإمام أحمد يقول فيه « أسألك — بقدرتك الـتى قدرت بهـا أن تقول للسموات والأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين — أن تفعل بنـا كذا وكذا » فلما خرج الناس من عنده قال له : ما هذا الدعاء الذي دعوت به ؟ هذا إنما يجيء على قول المعتزلة الذين يقولون القرآن مخلوق ، فأما أهل السنة فلا يقال عندهم قـدر أن يتكلم ، أو يقول ، فإن كلامـه قديم لازم لذاته لا يتعلق بمشيئته وقدرته .

وكان أبو عبد الله بن عبد الوهاب رحمـه الله قد تلقى هـذا عن البحوث التى يذكرها أبو الحسن بن الزاغونى وأمثاله ، وقبله أبو الوفاء ابن عقيل وأمثاله ، وقبلهما القاضي أبو يعلى ونحوه ، فإن هؤلاء وأمثالهم من أصحـاب مالك والشافعـي — كأبى الوليـد الباجي وأبى المعـالى الجويني — وطائفة من أصحاب أبي حنيفة يوافقون ابن كلاب على قوله : إن الله لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، وعلى قوله : إن القرآن لازم لذات الله ، بل يظنون أن هذا قول السلف — قول أحمد بن حنبل ومالك والشافعي وسائر السلف — الذين يقولون : القرآن غير مخلوق ، حتى إن من سلك مسلك السالمية من هؤلاء — كالقاضي وابن عقيـل وابن

الزاغوني — يصرحون بأن مذهب أحمد أن القرآن قديم ، وأنه حروف وأصوات ، وأحمد بن حنبل وغيره من الأئمة الأربعة لم يقولوا هذا قط ولا ناظروا عليه ، ولكنهم وغيرهم من أتباع الأئمة الأربعة لم يعرفوا أقوالهم في بعض المسائل .

ولكن الذين ظنوا أن قول ابن كلاب وأتباعه هو مذهب السلف ومن أن القرآن غير مخلوق هم الذين صاروا يقولون : إن كلام الله بعضه أفضل إنما يجيء على قول أهل البدع الجهمية والمعتزلة ، كما صار يقول ذلك طوائف من أتباع الأئمة كما سنذكره من أقوال بعض أصحاب مالك والشافعي ، ولم يعلموا أن السلف لم يقل أحد منهم بهذا ، بل أنكروا على ابن كلاب هذا الأصل ، وأمر أحمد بن حنبل وغيره بهجر الكلابية على هذا الأصل ، حتى هجر الحارث المحاسبي لأنه كان صاحب ابن كلاب وكان قد وافقه على هذا الأصل ثم روى عنه أنه رجع عن ذلك ، وكان أحمد يحذر عن الكلابية . وكان قد وقع بين أبي بكر بن خزيمة الملقب بإمام الأئمة وبين بعض أصحابه مشاجرة على هذا الأصل لأنهم كانوا يقولون بقول ابن كلاب ، وقد ذكر قصتهم الحاكم أبو عبد الله النيسابوري فى (تاريخ نيسابور) ، وبسط الكلام على هذا الأصل له موضع آخر ، وإنما نبهنا على المآخذ التى تعرف بها حقائق الأقوال .

فصـــــل

وفى الجملة : فدلالة النصوص النبوية والآثار السلفية والأحكام الشرعية والحجج العقلية على أن كلام الله بعضه أفضل من بعض هو من الدلالات الظاهرة المشهورة .

وأيضاً فـإن القرآن وإن كـان كلـه كلام الله ، وكذلك التوراة والإنجيل والأحاديث الإلهية التى يحكيها الرسول عن الله تبارك وتعالى كقوله : « ياعبادي ، إنى حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا » الحديث وكقوله : « من ذكرني فى نفسه ذكرته فى نفسي » وأمثال ذلك ، هي وإن اشتركت فى كونها كلام الله فمعلوم أن الكلام له نسبتان : نسبة إلى المتكلم به ، ونسبة إلى المتكلم فيه . فهو يتفاضل باعتبار النسبتين ، وباعتبار نفسه أيضاً ، مثل الكلام الخبري له نسبتان : نسبة إلى المتكلم المخبر ، ونسبة إلى المخبر عنه المتكلم فيه . فقل هو الله أحد وتبت يدا أبى لهب كلاهما كلام الله ، وهما مشتركان من هذه الجهة ، لكنهما متفاضلان من جهة المتكلم فيه المخبر عنه . فهذه كلام الله وخبره الذي يخبر به عن نفسه . وصفته التى يصف بها نفسه ،

وكلامه الذي يتكلم به عن نفسه . وهذه كلام الله الذي يتكلم به عن بعض خلقه ، ويخبر به عنه ، ويصف به حاله ، وهما في هذه الجهة متفاضلان بحسب تفاضل المعنى المقصود بالكلامين .

ألا ترى أن المخلوق يتكلم بكلام هو كله كلامه ، لكن كلامه الذي يذكر به ربه أعظم من كلامه الذي يذكر به بعض المخلوقات ، والجميع كلامه ؟ ! فاشتراك الكلامين بالنسبة إلى المتكلم لا يمنع تفاضلهما بالنسبة إلى المتكلم فيه ، سواء كانت النسبتان أو إحداهما توجب التفضيل أو لا توجبه . فكلام الأنبياء ثم العلماء والخطباء والشعراء بعضه أفضل من بعض وإن كان المتكلم واحداً ، وكذلك كلام الملائكة والجن ، وسواء أريد بالكلام المعاني فقط أو الألفاظ فقط أو كلاهما أو كل منهما فلا ريب فى تفاضل الألفاظ والمعاني من المتكلم الواحد ، فدل ذلك على أن مجرد اتفاق الكلامين في أن المتكلم بهما واحد لا يوجب تماثلهما من سائر الجهات .

فتفاضل الكلام من جهة المتكلم فيه سواء كان خبراً أو إنشاء أمر معلوم بالفطرة والشرعة ، فليس الخبر المتضمن للحمد لله والثناء عليه بأسمائه الحسنى كالخبر المتضمن لذكر أبي لهب وفرعون وإبليس ، وإن كان هذا كلاماً عظيما معظما تكلم الله به ، وكذلك ليس الأمر بالتوحيد والإيمان بالله ورسوله وغير ذلك من أصول الدين الذي أمرت

به الشرائع كلها وغير ذلك مما يتضمن الأمر بالمأمورات العظيمة والنهي عن الشرك وقتل النفس والزنا ونحو ذلك مما حرمته الشرائع كلها وما يحصل معه فساد عظيم كالأمر بلعق الأصابع وإماطة الأذى عن اللقمة الساقطة والنهي عن القران فى التمر ، ولو كان الأمران واجبين ، فليس الأمر بالإيمان بالله ورسوله كالأمر بأخذ الزينة عند كل مسجد والأمر بالإنفاق على الحامل وإيتائها أجرها إذا أرضعت .

ولهذا ذهب جمهور الفقهاء إلى تفاضل أنواع الإيجاب والتحريم وقالوا : إن إيجاب أحد الفعلين قد يكون أبلغ من إيجاب الآخر ، وتحريمه أشد من تحريم الآخر ، فهذا أعظم إيجاباً وهذا أعظم تحريما ولكن طائفة من أهل الكلام نازعوا فى ذلك كابن عقيل وغيره فقالوا : التفاضل ليس في نفس الإيجاب والتحريم ، لكن في متعلق ذلك وهو كثرة الثواب والعقاب . والجمهور يقولون : بل التفاضل فى الأمرين والتفاضل فى المسببات دليل على التفاضل في الأسباب ، وكون أحد الفعلين ثوابه أعظم وعقابه أعظم : دليل على أن الأمر به والنهي عنه أوكد ، وكون أحد الأمرين والنهيين مخصوصاً بالتوكيد دون الثاني مما لا يستريب فيه عاقل ، ولو تساويا من كل وجه لامتنع الاختصاص بتوكيد أو غيره من أسباب الترجيح ، فإن التسوية والتفضيل متضادان .

وجمهور أئمة الفقهاء على التفاضل فى الإيجاب والتحريم ، وإطلاق

ذلك هو قول جماهير المتأخرين من أصحاب الأئمة الأربعة . وهو قول القاضي أبي يعلى وأبي الخطاب والقاضي يعقوب البرزيني وعبد الرحمن الحلواني وأبي الحسن بن الزاغوني وغيرهم ، لكن من هؤلاء من يفسر التفاضل بتفاضل الثواب والعقاب ونحو ذلك مما لا ينازع فيه النفاة .

والتحقيق أن نفس المحبة والرضا والبغض والإرادة والكرامة والطلب والاقتضاء ونحو ذلك من المعاني تتفاضل، وتتفاضل الألفاظ الدالة عليها . ونفس حب العباد لربهم يتفاضل ،كما قال تعالى : (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ) . ونفس حب الله لهم يتفاضل أيضاً ، فإن الخليلين إبراهيم ومحمداً أحب إليه ممن سواهما ، وبعض الأعمال أحب إلى الله من بعض ، والقول بأن هذا الفعل أحب إلي من هذا مشهور ومستفيض فى الآثار النبوية وكلام خير البرية كقول بعض الصحابة : لو علمنا أي الأعمال أحب الى الله لفعلناه ، فأنزل الله سورة الصف ، وهو مشهور ثابت رواه الترمذي وغيره .

وكون هذا أحب إلى الله من هذا هو داخل فى تفضيل بعض الأعمال وبعض الأشخاص على بعض . وبعض الأمكنة والأزمنة على بعض ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لمكة : « والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله . ولولا أن قومي أخرجوني منك لما خرجت » قال الترمذي : حديث حسن صحيح رواه من

حـديث عبـد الله بن عـدي بن الحمـراء . وكذلك تفضيـل حبـه وبغضه على حب غيره وبغضه كما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا أحد أحب إليه المدح من الله ، من أجـل ذلك مدح نفسه . ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، من أجل ذلك بعث الرسل مبشرين ومنذرين » . وقال « لا أحد أغير من الله » وهذا فى الصحيحين . وقال تعالى : (لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ) الآية . ومن المعلوم بالاضطرار تفـاضل المأمورات : فبعضها أفضل من بعض ، وبعض المنهيـات شر من بعض ، وحينئذ فطلب الأفضـل يـكون فى نفسه أكمل من طلب المفضول ، والطـالب إذا كان حكيما يكون طلبه لهذا أوكد .

ففي الجملة من المستقر في فطر العقـلاء أن كلا من الخبر والأمر يلحقها التفاضل من جهة المخبر عنه والمأمور به ، فإذا كان المخبر به أكمل وأفضل كان الخبر به أفضل ، وإذا كان المأمور به أفضل كان الأمر به أفضل . ولهذا كان الخبر بما فيه نجـاة النفوس من العـذاب وحصول السعادة الأبدية أفضل من الخبر بمـا فيه نيل منزلة أو حصول دراهم ، والرؤيا التى تتضمن أفضل الخبرين أعظم من الرؤيا التى تتضمن أدناهما ، وهذا أمر مستقر فى فطر العقلاء قاطبة . وإذا قدر أميران أمر أحدهما بعدل عام عمر به البلاد ودفع به الفساد كان هذا الأمر أعظم من أمر أمير

يعدل بين خصمين فى ميراث بعض الأموات .

وأيضاً فالخبر يتضمن العلم بالمخبر به ، والأمر يتضمن طلبــاً وإرادة للمأمور به وإن لم يكن ذلك إرادة فعل الأمر ، والله تعالى أمر العبـاد بما أمرهم به ولكن أعان أهل الطاعة فصار مريداً لأن يخلق أفعالهم ، ولم يعن أهل المعصية فلم يرد أن يخلق أفعالهم . فهذه الإرادة الخلقيـة القدرية لا تستلزم الأمر ، وأما الإرادة بمعنى أنه يحب فعل ما أمر بـه ويرضاه إذا فعل ويريد من المأمور أن يفعله من حيث هو مأمور فهذه لا بد منها فى الأمر . ولهـذا أثبت الله هـذه الإرادة فى الأمر دون الأولى . ولكن فى الناس من غلط فنفى الإرادة مطلقاً ، وكلا الفريقين لم يميز بـين الإرادة الخلقيــة والإرادة الأمرية . والقرآن فرق بــين الإرادتين فقــال فى الأولى : (فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا) وقال نوح : (وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ) وقال : (وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) وقال : (وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ)

ولهذا قال المسلمون : ما شــاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وقال في الثانية : (يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ) وقال : (إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) وقال : (مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ)

وقال : (يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا) . وهذا مبسوط فى موضع آخر .

والمقصود هنا : أنه لا بد فى الأمر من طلب واستدعاء واقتضاء ، سواء قيل : إن هناك إرادة شرعية وأنه لا إرادة للرب متعلقة بأفعال العباد سواها كما تقوله المعتزلة ونحوهم من القدرية ، أو قيل : لا إرادة للرب إلا الإرادة الخلقية القدرية التى يقال فيها ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأن إرادته عين نفس محبته ورضاه ، وأن إرادته ومحبته ورضاه متعلقة بكل ما يوجد من إيمان وكفر ، ولا تتعلق بما لا يوجد سواء كان إيماناً أو كفراً ، وأنه ليس للعبد قدرة لها أثر فى وجود مقدوره ، وليس فى المخلوقات قوى وأسباب يخلق بها ، ولا لله حكمة يخلق ويأمر لأجلها كما يقول هذا وما يشبهه جهم بن صفوان رأس الجبرية هو ومن وافقه على ذلك أو بعضه من طوائف أهل الكلام وبعض متأخري الفقهاء وغيرهم المثبتين للقدر على هذه الطريقة لا على طريقة السلف والأئمة كأبي الحسن وغيره ؛ فإن هؤلاء ناقضوا القدرية المعتزلة مناقضة ألجأتهم إلى إنكار حقيقة الأمر والنهي والوعد والوعيد وإن كان من يقول ببعض ذلك يتناقض ، وقد يثبت أحدهم من ذلك ما لا حقيقة له في المعنى .

وأما السلف وأئمة الفقهاء وجمهور المسلمين فيثبتون الخلق والأمر والإرادة الخلقية القدرية الشاملة لكل حادث ، والإرادة الأمرية الشرعية المتناولة لكل ما يحبه الله ويرضاه لعباده ، وهو ما أمرت به الرسل ، وهو ما ينفع العباد ويصلحهم ويكون له العاقبة الحميدة النافعة فى المعاد الدافعة للفساد . فهذه الإرادة الأمرية الشرعية متعلقة بإلهيته المتضمنة لربوبيته ، كما أن تلك الإرادة الخلقية القدرية متعلقة بربوبيته . ولهذا كان من نظر إلى هذه فقط وراعى هذه الخلقية الكونية القدرية دون تلك يكون له بداية بلا نهاية ، فيكون من الأخسرين أعمالا ، يحصل لهم بعض مطالبهم في الدنيا لاستعانتهم بالله إذ شهدوا ربوبيته ، ولاخلاق لهم في الآخرة إذ لم يعبدوا الله مخلصين له الدين . وقد وقع فى هذا طوائف من أهل التصوف والكلام .

ومن نظر إلى الحقيقة الشرعية الأمرية دون تلك فإنه قد يكون له عاقبة حميدة ، وقد يراعى الأمر ؛ لكنه يكون عاجزاً مخذولا حيث لم يشهد ربوبية الله وفقره إليه ليكون متوكلا عليه بريأ من الحول والقوة إلا به . فهذا قد يقصد أن يعبده ولا يقصد حقيقة الاستعانة به ، وهي حال القدرية من المعتزلة ونحوهم الذين يقرون أن الله ليس خالقاً أفعال العباد ولا مريداً للكائنات ، ولهذا قال أبو سليمان الداراني : إنما يعجب بفعله القدري لأنه لا يرى أنه هو الخالق لفعله . فأما أهل السنة الذين

يقرون أن الله خالق أفعالهم وأن لله المنة عليهم فى ذلك فكيف يعجبون بها ؟ أو كما قال .

والأول قد يقصد أن يستعينه ويسأله ويتوكل عليه ويبرأ من الحول والقوة إلا به ، ولكن لا يقصد أن يعبده بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه على ألسن رسله ، ولا يشهد أن الله يحب أن يعبد ويطاع وأنه يفرح بتوبة التائبين ويحب المتقين ويغضب على الكفار والمنافقين ، بل ينسلخ من الدين أو بعضه ، لا سيما في نهاية أمره . وهذه الحال إن طردها صاحبها كان شراً من حال المعتزلة القدرية ، بل إن طردها طرداً حقيقياً أخرجته من الدين خروج الشعرة من العجين ، وهي حال المشركين . وأما من هداه الله فإنه يحقق قوله (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)ويعلم أن كل عمل لا يراد به وجه الله ولا يوافق أمره فهو مردود على صاحبه ، وكل قاصد لم يعنه الله فهو مصدود من مآربه ، فإنه يشهد أن لا إله إلا الله ، فيعبد الله مخلصاً له الدين ، مستعيناً بالله على ذلك مؤمناً ، بخلقه وأمره : بقدره وشرعه ، فيستعين الله على طاعته ، ويشكره عليها ، ويعلم أنها منة من الله عليه ، ويستعيذ بالله من شر نفسه وسيئات عمله ، ويعلم أن ما أصابه من سيئة فمن نفسه ، مع علمه بأن كل شيء بقضاء الله وقدره ، وأن لله الحجة البالغة على خلقه ، وأن له فى خلقه وأمره حكمة بالغة ورحمة سابغة . وهذه الأمور أصول عظيمة لبسطها موضع آخر .

والمقصود هنا أن الخبر الصادق يتضمن جنس العلم والاعتقاد ، والأمر يتضمن جنس الطلب باتفاق العقلاء . ثم هل مدلول الخبر جنس من المعاني غير جنس العلم ، ومدلول الأمر جنس من المعاني غير جنس الإرادة كما يقول ذلك طائفة من النظار مثل ابن كلاب ومن وافقه ؟ أو المدلول من جنس العلم والإرادة ؟كما يقوله جمهور نظار أهل السنة الذين يثبتون الصفات والقدر . فيقولون : إن القرآن كلام الله غير مخلوق . ويقولون : إن الله خالق أفعال العباد . والمعتزلة وغيرهم ممن يخالف أهل السنة في هذين الأصلين ، فإن هؤلاء يخالفون ابن كلاب ومن وافقه فى ذينك الأصلين . ولهذا يقال : إنه لم يوافقه أحد من الطوائف على ما أحدثه من القول في الكلام والصفات ، وإن كان قوله خيراً من قول المعتزلة والجهمية المحضة . وأما جمهور المسلمين من الفقهاء وأهل الحديث والصوفية وطوائف النظار فلا يقولون بقول المعتزلة ولا الكلابية ، كما ذكر ذلك فقهاء الطوائف من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم في أصول الفقه ، فضلا عن غيرها من الكتب .

والمقصود هنا أن الناس متفقون على أن كلا من أنواع الخبر والأمر لها معان : سواء سمى طلباً أو إرادة أو علماً أو حكماً أو كلاما نفسانياً . وهذه المعانى تتفاضل في نفسها ، فليس علمنا بالله وأسمائه

كعلمنا بحال أبي لهب . وليس الطلب القائم بنا إذا أمرنا بالإيمان بالله ورسوله كالطلب القائم بنا إذا أمرنا برفع اليدين فى الصلاة والأكل باليمين وإخراج الدرهم من الزكاة .

فعلم بذلك أن معانى الكلام قد تتفاضل فى نفسها كما قد تتماثل ، وتبين بذلك أن ما تضمنه الأمر والنهي من المعانى التى تدل عليها صيغة الأمر — سواء سميت طلباً أو اقتضاء أو استدعاء أو إرادة أو محبة أو رضا أو غير ذلك — فإنها متفاضلة بحسب تفاضل المأمور به ، وما تضمنه الخبر من أنواع العلوم والاعتقادات والأحكام النفسانية فهي متفاضلة فى نفسها بحسب تفاضل المخبر عنه . فهذا نوع من تفاضل الكلام من جهة المتكلم فيه ، وإن كان المتكلم به واحداً . وهو أيضاً متفاضل من جهة المتكلم به ، وإن كان المتكلم فيه واحداً ، كما قال تعالى : (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ) ومعلوم أن تكليمه من وراء حجاب أفضل من تكليمه بالإيحاء وبإرسال رسول ، ولهذا كان من فضائل موسى عليه السلام أن الله كلمه تكليما ، وقال : (إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى) وقال : (تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ)

والذي يجد الناس من أنفسهم أن الشخص الواحد تتفاضل أحواله

فى أنواع الـكلام ، بل وفى الـكلام الواحد يتفاضل ما يقوم بقلبه من المعانى وما يقوم بلسانه من الألفاظ ، بحيث قد يكون إذا كان طالباً هو أشد رغبة ومحبة وطلبا لأحد الأمرين منه للآخر ، ويكون صوته به أقوى ولفظه به أفصح ، وحاله في الطلب أقوى وأشد تأثيراً ؛ ولهذا يكون للـكلمة الواحـدة من الموعظة بل للآية الواحـدة إذا سمعت من اثنين من ظهور التفاضل ما لا يخفى على عاقل ، والأمر فى ذلك أظهر وأشهر من أن يحتاج إلى تمثيل . وكذلك فى الخبر قد يقوم بقلبه من المعرفة والعلم وتصور المعلوم وشهود القلب إياه باللسان من حسن التعبير عنه لفظاً وصوتاً ما لا يقاربه ما يقوم بالقلب واللسان إذا أخبر عن غيره .

فهذا نوع إشارة إلى قول من يقول بتفضيل بعض كلام الله على بعض موافقا لما دل عليه الـكتاب والسنة وكلام السلف والأئمة .

والطائفة الثانية تقول : إن كلام الله لا يفضل بعضه على بعض ، ثم لهؤلاء في تأويل النصوص الواردة فى التفضيل قولان : أحدهما أنه إنما يقع التفاضل فى متعلقه ، مثل كون بعضه أنفع للناس من بعض لـكون الثواب عليه أكثر أو العمل به أخف مع التماثل فى الأجـر ، وتأولوا قوله : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ ﴾ أي نأت بخير منها لـكم ، لا أنها فى نفسها خير من تلك . وهذا قول طائفة من المفسرين كمحمد بن جرير الطبري قال : نأت بحكم خير لـكم من حكم الآية المنسوخة : إما فى العاجـل لخفتـه

عليكم ، وإما في الآخرة لعظم ثوابه من أجل مشقة حمله . قال : والمراد ما ننسخ من حكم آية كقوله : ﴿ وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ أي حبه ، قال : ودل على أن ذلك كذلك قوله : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ وغير جائز أن يكون من القرآن شيء خيراً من شيء . لأن جميعه كلام الله ، ولا يجوز فى صفات الله تعالى أن يقال : بعضها أفضل من بعض ، أو بعضها خير من بعض . وطرد ذلك فى أسماء الله فمنع أن يكون بعض أسمائه أعظم أو أفضل أو أكبر من بعض . وقال : معنى الاسم الأعظم : العظيم ، وكلها سواء في العظمة ، وإنما يتفاضل حال الناس حين الدعاء فيكون الأعظم بحسب حال الدعاء لا أنه في نفسه أعظم .

وهذا القول الذي قاله فى أسماء الله نظير القول الثانى فى تفضيل بعض كلام الله على بعض ، فإن القول الثانى لمن منع تفضيله أن المراد يكون هذا أفضل أو خيراً كونه فاضلا فى نفسه ؛ لا أنه أفضل من غيره . وهذا القول يحكى عن أبي الحسن الأشعري ومن وافقه ، قالوا : إن معنى ذلك أنه عظيم فاضل ، وقالوا : مقتضى الأفضل تقصير المفضول عنه وكلام الله لا يتبعض ، وهذا يقولونه في الكلام لأنه واحد بالعين عندهم يمتنع فيه تماثل أو تفاضل ، وأما فى الصفات بعضها على بعض فلامتناع التغاير ، ولا يقولون هذا في القرآن العربى ، فإن القرآن العربي عندهم مخلوق ، وليس هو كلام الله على قول الجمهور منهم ، قالوا : لأن الكلام

يمتنع قيامه بغير المتكلم كسائر الصفات ، والقرآن العربي يمتنع عندهم قيامه بذات الله تعالى ، ولو جوزوا أن يكون كلام الله قائما بغيره لبطل أصلهم الذي اتفقوا عليه هم وسائر أهل السنة وردوا به على المعتزلة فى قولهم إن القرآن مخلوق ، وهؤلاء يسلمون أن القرآن العربى بعضه أفضل من بعض لأنه مخلوق عندهم ، ولكن ليس هو كلام الله عند جماهيرهم .

وبعض متأخريهم يقول : إن لفظ « كلام الله » يقع بالاشتراك على المعنى القائم بالنفس ، وعلى الكلام العربى المخلوق الدال عليه . وأما كلام الله الذي ليس بمخلوق عندهم فهو ذلك المعنى ، وهو الذي يمتنع تفاضله عندهم . وأصل هؤلاء أن كلام الله هو المعانى بل هو المعنى الواحد فقط ، وأن معانى كتاب الله هي شيء واحد لا يتعدد ولا يتبعض . فمعنى آية الكرسي وآية الدين ، والفاتحة ، وقل هو الله أحد ، وتبت ، ومعنى التوراة والإنجيل ، وكل حديث إلهي ، وكل ما يكلم به الرب عباده يوم القيامة ، وكل ما يكلم به الملائكة والأنبياء : إنما هي معنى واحد بالعين ، لا بالنوع . ولا يتعدد ولا يتبعض ، وأن القرآن العربى ليس هو كلام الله بل كلام غيره : جبريل أو محمد أو مخلوق من مخلوقاته عبر به عن ذلك الواحد ، وذلك الواحد هو الأمر بكل ما أمر به ، والنهى عن كل ما نهى عنه ، والإخبار بكل ما أُخبر به وأن الأمر والنهي والخبر ليست أنواعا للكلام وأقساماً له ، فإن الواحد بالعين لا يقبل

التنويع والتقسيم ؛ بخلاف الواحد بالنوع فإنه يقبل التنويع والتقسيم ، وإنما هي صفات لذلك الواحد بالعين ، وهي صفات إضافية له . فإذا تعلق بما يطلب من أفعال العباد كان أمراً ، وإذا تعلق بما ينهى عنه كان نهياً ، وإذا تعلق بما يخبر عنه كان خبراً .

وجمهور العقلاء يقولون : فساد هذا معلوم بالاضطرار ، فإنا نعلم أن معاني (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) ليست هي معانى (تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ) ولا معانى آية الدين معانى آية الكرسي ، ولا معانى الخبر عن صفات الله هي معانى الخبر عن مخلوقات الله ، وأن تعلق ذلك المعنى بالحقائق المخبر عنها ، والأفعال التى تعلق بها الأمر والنهي إن كان أمراً وجودياً فلا بد له من محل ، فإن قام بذات الله فقد تعددت معانى الكلام القائمة بذاته ، وإن قام بذات غيره كان صفة لذلك الغير لا لله ، وإن قام لا بمحل كان ممتنعاً ؛ فإن المعاني لا تقوم بأنفسها . وإن كان تعلق ذلك المعنى بالحقائق أمراً عدمياً لم يكن هناك ما يميز بين الخبر والأمر والنهي ، بل لا يميز بين خبر الله عن نفسه وعن قوم نوح وعاد ، إذ كان المعنى الواحد لا تعدد فيه فضلا عن أن يمتاز بعضه عن بعض .

والحقائق المخبر عنها والمأمور بها والمنهى عنها لا تكون بأنفسها مخبراً بها ومأموراً بها ومنهياً عنها ، بل الخبر عنها والأمر بها والنهي عنها هو غير ذواتها ، فإذا لم يكن هنا أمر موجود غير ذلك المعنى الذي لا امتياز فيه ولا تعدد ، وغير المخلوقات التى لا تميز بين الأمر والنهي والخبر : لم

يكن هنا ما يميز بين النهي والخبر ، ولا ما يجعل معاني آية الوضوء غير معاني آية الدين ، فإن الحروف المخلوقة الدالة على ذلك المعنى إن لم تدل إلا عليه فلا تعدد فيه ولا تنويع ، وإن دلت على التعلقات التى هي عدمية فالعدم ليس بشيء حتى يكون أمراً ونهياً وخبراً ، وليس عند هؤلاء إلا ذلك المعنى وتعلقه بالحقائق المخبر عنها والمأمور بها ، ونفس القرآن العربي المخلوق عندهم هو الدال على ذلك المعنى ، فالمدلول إن كان هو ذلك المعنى فلا يتميز فيه أمر عن خبر ، ولا أمر بصلاة عن أمر بزكاة ، ولا نهي عن الكفر عن إخبار بتوحيد . وإن كانت التعلقات عدمية فالمعدوم ليس بشيء ، ولا يكون العدم أمراً ونهياً وخبراً ، ولا يكون مدلول التوراة والإنجيل والقرآن وسائر كتب الله أموراً عدمية لا وجود لها ، ولا تكون الأمور العدمية هي التى بها وجبت الصلاة وحرم الظلم ، ولا يكون المعنى الواحد بتلك الأمور العدمية إلا صفات إضافية ، وهي من معنى السلبية ، فإنها إن لم تكن سلب أمر موجود فهي تعلق ليس بموجود . فحقيقة الأمر — على قول هؤلاء — أنه ليس لله كلام لا معان ولا حروف إلا بمعنى واحد لا حقيقة له موجودة ولا معلومة .

ومن حجة هؤلاء أنه إذا قيل بعضه أفضل من بعض كان المفضول ناقصاً عن الفاضل ، وصفات الله كاملة لا نقص فيها ، والقرآن

من صفاته . قال هؤلاء : صفات الله كلها متوافرة فى الكمال ، متناهية إلى غاية التمام ، لا يلحق شيئاً منها نقص بحال . ثم لما اعتقد هؤلاء أن التفاضل فى صفات الله ممتنع ظنوا أن القول بتفضيل بعض كلامه على بعض لا يمكن إلا على قول الجهمية من المعتزلة وغيرهم القائلين بأنه مخلوق ، فإنه إذا قيل إنه مخلوق أمكن القول بتفضيل بعض المخلوقات على بعض ، فيجوز أن يكون بعضه أفضل من بعض . قالوا : وأما على قول أهل السنة والجماعة الذين أجمعوا على أن القرآن كلام الله غير مخلوق فيمتنع أن يقع التفاضل في صفات الله القائمة بذاته .

ولأجل هذا الاعتقاد صار من يعتقده يذكر إجماع أهل السنة على امتناع التفضيل في القرآن كما قال أبو عبد الله بن الدراج فى مصنف صنفه فى هذه المسألة ، قال : « أجمع أهل السنة على أن ما ورد في الشرع مما ظاهره المفاضلة بين آي القرآن وسوره ليس المراد به تفضيل ذوات بعضها على بعض ؛ إذ هو كله كلام الله وصفة من صفاته ، بل هو كله لله فاضل كسائر صفاته الواجب لها نعت الكمال » . وهذا النقل للإجماع هو بحسب ما ظنه لازما لأهل السنة ، فلما علم أنهم يقولون : القرآن كلام الله ليس بمخلوق ، وظن هو أن المفاضلة إنما تقع فى المخلوقات لا فى الصفات ، قال ما قال . وإلا فلا ينقل عن أحد من السلف والأئمة أنه أنكر فضل كلام الله بعضه على

بعض : لا فى نفسه ، ولا فى لوازمه ومتعلقاته ؛ فضلا عن أن يكون هذا إجماعاً .

وليس هو لازما لابن كلاب ومن وافقه كالأشعري وأتباعه ؛ فإن هؤلاء يجوزون وقوع المفاضلة فى القرآن العربي ، وهو مخلوق عندهم . وهذا المخلوق يسمى « كتاب الله » والمعنى القديم يسمى « كلام الله » ولفظ « القرآن » يراد به عندهم ذلك المعنى القديم ، والقرآن العربي المخلوق . وحينئذ فهم يتأولون ما ورد من تفضيل بعض القرآن على بعض على القرآن المخلوق عندهم .

وإنما القول المتواتر عن أئمة السلف أنهم قالوا : القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأنهم أنكروا مقالة الجهمية الذين جعلوا القرآن مخلوقا منفصلا عن الله ، بل كفروا من قال ذلك ، والكتب الموجودة فيها ألفاظهم بأسانيدها وغير أسانيدها كثيرة : مثل : (كتاب الرد على الجهمية) للإمام أبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم ، و (الرد على الجهمية) لعبد الله بن محمد الجعفي شيخ البخاري ، و (الرد على الجهمية) للحكم بن معبد الخزاعى ، و (كتاب السنة) لعبد الله بن أحمد بن حنبل ، و (السنة) لحنبل ابن عم الإمام أحمد ، و (السنة) لأبي داود السجستانى ، و (السنة) للأثرم ، و (السنة) لأبى بكر الخلال ، و (السنة والرد على أهل الأهواء) لخشيش بن أصرم ،

(و الرد على الجهمية) لعثمان بن سعيد الدارمي ، و (نقض عثمان ابن سعيد ، على الجهمي الكاذب العنيد ، فيما افترى على الله في التوحيد) ، و (كتاب التوحيد) لابن خزيمة ، و (السنة) للطبرانى ، ولأبى الشيخ الأصبهانى ، و (شرح أصول السنة) لأبى القاسم اللالكائى ، و (الإبانة) لأبى عبد الله بن بطة ، وكتب أبى عبد الله بن منده ، و (السنة) لأبى ذر الهروي ، و (الأسماء والصفات) للبيهقى ، و (الأصول) لأبى عمر الطلمنكي ، و (الفاروق) لأبى إسماعيل الأنصاري ، و (الحجة) لأبى القاسم التيمي . إلى غير ذلك من المصنفات التى يطول تعدادها : التى يذكر مصنفوها العلماء الثقات مذاهب السلف بالأسانيد الثابتة عنهم بألفاظهم الكثيرة المتواترة التى تعرف منها أقوالهم ، مع أنه من حين محنة الجهمية لأهل السنة ــ التى جرت فى زمن أحمد بن حنبل لما صبر فيها الإمام أحمد وقام بإظهار السنة والصبر على محنة الجهمية حتى نصر الله الإسلام والسنة وأطفأ نار تلك الفتنة ــ ظهر فى ديار الإسلام وانتشر بين الخاص والعام أن مذهب أهل السنة والحديث المتبعين للسلف من الصحابة والتابعين : أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأن الذين أحدثوا فى الإسلام القول بأن القرآن مخلوق هم الجعد بن درهم والجهم بن صفوان ومن اتبعه من المعتزلة وغيرهم من أصناف الجهمية ، لم يقل هذا القول أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان . فهذا القول هو القول المعروف عن أهل السنة والجماعة ، وهو القول بأن القرآن

كلام الله وهو غير مخلوق .

أما كونه لا يفضل بعضه على بعض فهذا القول لم ينقل عن أحد من سلف الأمة وأئمة السنة الذين كانوا أئمة المحنة كأحمد بن حنبل وأمثاله ، ولا عن أحد قبلهم ، ولو قدر أنه نقل عن عدد من أئمة السنة لم يجز أن يجعل ذلك إجماعاً منهم ، فكيف إذا لم ينقل عن أحد منهم ؟ ! وإنما هذا نقل لما يظنه الناقل لازما لمذهبهم . فلما كان مذهب أهل السنة أن القرآن من صفات الله لا من مخلوقات الله ، وظن هذا الناقل أن التفاضل يمتنع في صفات الخالق ، نقل امتناع التفاضل عنهم بناء على هذا التلازم .

ولكن يقال له : أما المقدمة الأولى فمنقولة عنهم بلا ريب . وأما المقدمة الثانية ، وهي أن صفات الرب لا تتفاضل ، فهل يمكنك أن تنقل عن أحد من السلف قولا بذلك ، فضلا عن أن تنقل إجماعهم على ذلك ؟ ! ما علمت أحداً يمكنه أن يثبت عن أحد من السلف أنه قال ما يدل على هذا المعنى ، لا بهذا اللفظ ولا بغيره ، فضلا عن أن يكون هذا إجماعاً . ولكن إن كان قال قائل ذلك ولم يبلغنا قوله فالله أعلم . لكن الذي أقطع به ويقطع به كل من له خبرة بكلام السلف أن القول بهذا لم يكن مشهوراً بين السلف، ولا قاله واحد واشتهر قوله عند الباقين فسكتوا عنه ، ولا هو معروف فى الكتب التى نقل

فيها ألفاظهم بأعيانها ، بل المنقول الثابت عنهم — أو عن كثير منهم — يدل على أنهم كانوا يرون تفاضل صفات الله تعالى ، وهكذا من قال من أصحاب مالك أو الشافعي أو أحمد عن أهل السنة : أن القرآن لا يفضل بعضه على بعض فإنما مستندهم أن أهل السنة متفقون على أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأن كلامه من صفاته القائمة بنفسه ليس من مخلوقاته وهذا أيضاً صحيح عن أهل السنة .

ثم ظنوا أن التفاضل إنما يقع في المخلوق لا فى الصفات ، وهذا الظن لم ينقلوه عن أحد من أئمة الإسلام كمالك والشافعي وأحمد وأبى حنيفة والثوري والأوزاعى ولا من قبل هؤلاء ، ولهذا شنع هؤلاء على من ظن فضل بعضه على بعض كما دلت عليه النصوص والآثار ، لظنهم أن ذلك مستلزم لخلاف مذهب أهل السنة ، كما قال أبو عبد الله بن المرابط فى الكلام على حديث البخاري فى رده لتأويل من تأول هذا الحديث على أن هذه السورة إذا عدلت بثلث القرآن أنها تفضل الربع منه وخمسه وما دون الثلث فهو التفاضل فى كتاب الله تعالى وهو صفة من صفات الله جل جلاله ، وقال : فهذا لولا عذر الجهالة لحكم على قائله بالكفر ، إذ لا يصح التفاضل إلا فى المخلوقات ؛ إذ صفاته كلها فاضلة فى غاية الفضيلة ونهاية العلو والكرامة ، فمن تنقص شيئاً منها عن سائرها فقد ألحد فيها ، ألا تسمعه منع ذلك بقوله تعالى : (ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ) ؟! .

قال : وقد أجمع أهل السنة على أن القرآن صفة من صفات الله لا من صفة خلقه . قال : وإنما أوقعهم فى تأويل ذلك قوله تعالى : (نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَا) ولا يخلو معنى ذلك من أحد وجهين : إما أن تكون الناسخة خيراً من المنسوخة فى ذاتها ، وإما أن تكون خيراً منها لمن تعبد بها ، إذ محال أن يتفاضل القرآن فى ذاته على ما ذهب إليه أهل السنة والاستقامة ؛ إذ كل من عند الله ؛ لأن القرآن العزيز صفة الله . وأسماء الله وصفاته كلها متوافرة في الكمال ، متناهية إلى غاية التمام ، لا يلحق شيئاً منها نقص بحال . فلما استحال أن تكون آية خيراً من آية فى ذاتها علمنا أن المراد بخير منها إنما هو للمتعبدين بها ، لم ينقل عباده من تخفيف إلى تثقيل ، ولكنه نقلهم بالنسخ من تحريم إلى تحليل ، ومن إيجاب إلى تخيير ، ومن تطهير إلى تطهير ، والشاهد لنا قوله : (يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا) .

فيقال : أما قول القائل : « لولا عذر الجهالة لحكم على مثبت المفاضلة بالكفر » فهم يقابلونه بمثل ذلك ، وحجتهم أقوى . وذلك لأن الكفر حكم شرعى ، وإنما يثبت بالأدلة الشرعية ، ومن أنكر شيئاً لم يدل عليه الشرع بل علم بمجرد العقل لم يكن كافراً ، وإنما الكافر من أنكر ما جاء به الرسول ، ومعلوم أنه ليس فى الكتاب والسنة نص يمنع تفضيل بعض كلام الله على بعض ، بل ولا يمنع تفاضل صفاته

تعالى ، بل ولا نقل هذا النفي عن أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ولا عن أئمة المسلمين الذين لهم لسان صدق فى الأمة بحيث جعلوا أعلاماً للسنة وأئمة للأمة .

وأما تفضيل بعض كلام الله على بعض ؛ بل تفضيل بعض صفاته على بعض : فدلالة الكتاب والسنة والأحكام الشرعية والآثار السلفية كثيرة على ذلك ، فلو قدر أن الحق فى نفس الأمر أنها لا تتفاضل لم يكن نفي تفاضلها معلوما إلا بالعقل لا بدليل شرعى ، وإذا قدر أنها تتفاضل فالدال على ذلك هو الأدلة الشرعية مع العقلية ، فإذا قدر أن الحق في نفس الأمر هو التفضيل لكان كفر جاحد ذلك أولى من كفر من يثبت التفضيل إذا لم يكن حقاً فى نفس الأمر ؛ لأن ذلك جحد موجب الأدلة الشرعية بغير دليل شرعي ؛ بل لما رآه بعقله وأخطأ فيه ؛ إذ نحن نتكلم فى هذا التقدير . ومعلوم أن من خالف ماجاءت به الرسل عن الله بمجرد عقله فهو أولى بالكفر ممن لم يخالف ما جاءت به الرسل عن الله ، وإنما خالف ما علم بالعقل إن كان ذلك حقاً .

ونظير هذا قول بعض نفاة الصفات لما تأمل حال أصحابه وحال مثبتيها قال : لا ريب أن حال هؤلاء عند الله خير من حالنا ، فإن هؤلاء إن كانوا مصيبين فقد نالوا الدرجات العلى والرضوان الأكبر ، وإن كانوا مخطئين فإنهم يقولون : نحن يا رب صدقنا ما دل عليه كتابك

وسنة رسولك ، إذ لم تبين لنا بالكتاب والسنة نفى الصفات ، كما دل كلامك على إثباتها ، فنحن أثبتنا ما دل عليه كلامك وكلام رسولك ، فإن كان الحق فى خلاف ذلك فلم يبين الرسول ما يخالف ذلك ، ولم يكن خلاف ذلك مما يعلم ببداهة العقول ، بل إن قدر أنه حق فلايعلمه إلا الأفراد ، فكيف وعامة المنتهين فى خلاف ذلك إلى الغاية يقرون بالحيرة والارتياب . قال النافى : وإن كنا نحن مصيبين فإنه يقال لنا : أنتم قلتم شيئاً لم آمركم بقوله ، وطلبتم علما لم آمركم بطلبه ، فالثواب إنما يكون لأهل الطاعة ، وأنتم لم تمتثلوا أمري . قال : وإن كنا مخطئين فقد خسرنا خسرانا مبينا .

وهذا حال من أثبت المفاضلة فى كلام الله وصفاته ومن نفاها ، فإن المثبت معتصم بالكتاب والسنة والآثار ، ومعه من المعقولات الصريحة التى تبين صحة قوله وفساد قول منازعه ما لا يتوجه إليها طعن صحيح . وأما النافى فليس معه آية من كتاب الله ولا حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا قول أحد من سلف الأمة ، وإنما معه مجرد رأي يزعم أن عقله دل عليه ، ومنازعه يبين أن العقل إنما دل على نقيضه ، وأن خطأه معلوم بصريح المعقول ، كما هو معلوم بصحيح المنقول . واحتجاج المحتج على نفي التفاضل بقوله: (جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ) في غاية الفساد ؛ فإن الآية لا تدل على هذا بوجه من الوجوه ، سواء

أريد بها من آمن ببعضه وكفر ببعضه ، أو أريد بها من عضهه فقال : هو سحر وشعر ونحو ذلك ؛ بل من نفى فضل (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) على (تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ) فهو أولى بأن يكون ممن جعله عضين ؛ إن دلت الآية على هذه المسألة .

وذلك أن من آمن بما وصف الله به كلامه فأقر بأنه جميعه كلام الله ، وأقر به كله فلم يكفر بحرف منه ، وعلم أن كلام الله أفضل من كل كلام ، وأن خير الكلام كلام الله ، وأنه لا أحسن من الله حديثا ولا أصدق منه قيلا ، وأقر بما أخبر الله به ورسوله من فضل بعض كلامه ، كفضل (فاتحة الكتاب) و (آية الكرسي) و (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) ونحو ذلك ، بل وتفضيل (يس) و (تبارك) والآيتين من آخر سورة البقرة ، بل وتفضيل (البقرة) و (آل عمران) وغير ذلك من السور والآيات التى نطقت النصوص بفضلها ، وأقر بأنه كلام الله ليس منه شيء كلاماً لغيره لا معانيه ولا حروفه ، فهو أبعد عن جعله عضين ممن لم يؤمن بما فضل الله به بعضه على بعض ؛ بل آمن بفضله من جهة المتكلم ، ولم يؤمن بفضله من جهة المتكلم فيه ؛ فإن هذا فى الحقيقة آمن به من وجه دون وجه .

وكذلك من قال : إنه معنى واحد ، وأن القرآن العربي لم يتكلم الله به ؛ بل هو مخلوق خلقه الله فى الهواء أو أحدثه جبريل أو محمد ، فهذا

أولى بأن يكون داخلا فيمن عضه القرآن ، ورماه بالإفك ، وجعل القرآن العربي كلام مخلوق : إما بشر وإما ملك وإما غيرهما ، فمن جعل القرآن كله كلام الله ليس بمخلوق ولا هو من إحداث مخلوق لا جبريل ولا محمد ولا شيء منه ، بل جبريل رسول ملك ، ومحمد رسول بشر ، والله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس ، فاصطفى لكلامه الرسول الملكي فنزل به على الرسول البشري الذي اصطفاه ، وقد أضافه إلى كل من الرسولين لأنه بلغه وأداه ؛ لا لأنه أنشأه وابتداه ، قال تعالى : (إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ)

فهذا نعت جبريل الذي قال فيه : (مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ) وقال : (نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ) وقال : (وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ) وقال في الآية الأخرى : (إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ) فهذه صفة محمد صلى الله عليه وسلم .

وأضاف القول إلى كل منهما باسم الرسول فقال (لَقَوْلُ رَسُولٍ)

لأن الرسول يدل على المرسل ، فدل على أنه قول رسول بلغه عن مرسل . لم يقل : إنه لقول ملك ولا بشر ، بل كفر من جعله قول بشر بقوله : (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ) فمن قال إنه قول بشر أو قول مخلوق غير البشر فقد كفر ، ومن جعله قول رسول من البشر فقد صدق ؛ لأن الرسول ليس له فيه إلا التبليغ والأداء كما قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ) ، وفى سنن أبي داود عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعرض نفسه على الناس فى الموسم ويقول : « ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربى ؟! فإن قريشاً قد منعونى أن أبلغ كلام ربى » .

والذي اتفق عليه السلف أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وقال غير واحد منهم : منه بدأ وإليه يعود . قال أحمد بن حنبل وغيره : « منه بدأ » أي هو المتكلم به ، لم يبتد من غيره كما قالت الجهمية القائلون بأن القرآن مخلوق ، قالوا : خلقه في غيره ، فهو مبتدأ من ذلك المحل المخلوق ، ويلزمهم أن يكون كلاما لذلك المحل المخلوق لا لله

تعالى ؛ لاسيما والجهمية كلهم يقولون بأن الله خالق أفعال العباد ، وهم غلاة فى الجبر ، ولكن المعتزلة توافقهم على نفي الصفات والقول بخلق القرآن ، وتخالفهم فى القدر والأسماء والأحكام ، فإذا كان الله خالق كل ما سواه لزمهم أن يكون كل كلام كلامه ، لأنه هو الذي خلقه ، ولذلك قال ابن عربى الطائى — وكان من غلاة هؤلاء الجهمية يقول بوحدة الوجود — قال :

وكل كلام فى الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه

ولهذا قال سليمان بن داود الهاشمي — نظير أحمد بن حنبل الذي قال الشافعي : ما رأيت أعقل من رجلين أحمد بن حنبل وسليمان بن داود الهاشمي — قال : من قال : (إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠) مخلوق فهو كافر . وإن كان القرآن مخلوقا كما زعموا فلم صار فرعون أولى بأن يخلد في النار إذ قال : (أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ) وزعموا أن هذا مخلوق ؟ . ومعنى ذلك كون قول فرعون : (أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ) كلاما قائماً بذات فرعون فإن كان قوله (إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠) كلاما خلقه فى الشجرة كانت الشجرة هي القائلة لذلك ، كما كان فرعون هو القائل لذلك ، وحينئذ فيكون جعل الشجرة إلها أعظم كفراً من جعل فرعون إلها .

والجهمية والمعتزلة لم يقم عندهم بذات الله لا طلب ولا إرادة ولا محبة ولا رضا ولا غضب ، ولا غير ذلك مما يجعل مدلول الأصوات المخلوقة . ولا قام بذاته عندهم إيجاب وإلزام ولا تحريم وحظر ، فلم يكن للكلام المخلوق فى غيره معنى قائم بذاته يدل عليه ذلك المخلوق حتى يفرق بين ما خلقه فى الجماد وما خلقه فى الحيوان . وكان مقصود السلف رضوان الله عليهم أن الله هو المتكلم بالقرآن وسائر كلامه . وأنه منه نزل لم ينزل من غيره كما قال تعالى : (وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ) وقال تعالى : (قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ) ، لم يقل أحد من السلف : إن القرآن قديم ، وإنما قالوا هو كلام الله غير مخلوق ، وقالوا لم يزل الله متكلما إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء وكما شاء ، ولا قال أحد منهم : إن الله فى الأزل نادى موسى ، ولا قال : إن الله لم يزل ولا يزال يقول ياآدم يانوح ياموسى ياإبليس ونحو ذلك مما أخبر أنه قال .

ولكن طائفة ممن اتبع السلف اعتقدوا أنه إذا كان غير مخلوق فلا بد أن يكون قديما ، إذ ليس عندهم إلا هذا وهذا ، وهؤلاء ينكرون أن يكون الله يتكلم بمشيئته وقدرته ، أو يغضب على الكفار إذا عصوه ، أو يرضى عن المؤمنين إذا أطاعوه ، أو يفرح بتوبة التائبين إذا تابوا ، أو يكون نادى موسى حين أتى الشجرة ، ونحو ذلك مما دل عليه

الكتاب والسنة كقوله : (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ) وقوله تعالى : (فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ) وقوله : (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ) وقال تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ) وقال تعالى : (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) .

وقد أخبر أن كلماته لانفاد لها بقوله : (لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا) وقال تعالى : (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .

وأتباع السلف يقولون : إن كلام الله قديم ، أي لم يزل متكلما إذا شاء ، لا يقولون : إن نفس الكلمة المعينة قديمة كندائه لموسى ونحو ذلك . لكن هؤلاء اعتقدوا أن القرآن وسائر كلام الله قديم العين ، وأن الله لايتكلم بمشيئته وقدرته . ثم اختلفوا : فمنهم من قال القديم هو معنى واحد ، هو جميع معانى التوراة والإنجيل والقرآن ، وإن التوراة إذا عبر عنها بالعربية صارت قرآنا ، والقرآن إذا عبر عنه بالعبرية صار توراة : قالوا : والقرآن العربى لم يتكلم الله به ، بل إما أن يكون خلقه فى بعض الأجسام وإما أن يكون أحدثه جبريل أو محمد ، فيكون كلاما لذلك الرسول ترجم به عن المعنى الواحد القائم بذات الرب الذي هو

جميع معانى الكلام . ومنهم من قال : بل القرآن القديم هو حروف أو حروف وأصوات . وهى قديمة أزلية قائمة بذات الرب أزلا وأبداً ، وهي متعاقبة فى ذاتها وماهيتها لا فى وجودها : فإن القديم لا يكون بعضه متقدما على بعض ، ففرقوا بين ذات الكلام وبين وجوده ، وجعلوا التعاقب فى ذاته لا فى وجوده ، كما يفرق بين وجود الأشياء بأعيانها وماهياتها من يقول بذلك من المعتزلة والمتفلسفة ، وكلا الطائفتين تقول : إنه إذا كلم موسى أو الملائكة أو العباد يوم القيامة فإنه لا يكلمه بكلام يتكلم به بمشيئته وقدرته حين يكلمه ، ولكن يخلق له إدراكا يدرك ذلك الكلام القديم اللازم لذات الله أزلا وأبداً . وعندهم لم يزل ولا يزال يقول : (يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ) و : (يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ) و (يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ) ونحو ذلك ، وقد بسط الكلام على هذه الأقوال وغيرها فى مواضع .

والمقصود أن هذين القولين لا يقدر أحد أن ينقل واحداً منهما عن أحد من السلف : أعني الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وسائر أئمة المسلمين المشهورين بالعلم والدين ، الذين لهم فى الأمة لسان صدق فى زمن أحمد بن حنبل ، ولا زمن الشافعي ، ولا زمن أبى حنيفة ولا قبلهم . وأول من أحدث هذا الأصل هو أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب ، وعرف أن الحروف متعاقبة فيمتنع أن تكون قديمة الأعيان ، فإن المتأخر

قد سبقه غيره والقديم لا يسبقه غيره ، والصوت المعين لا يبقى زمانين فكيف يكون قديماً ؟! فقال بأن القديم هو المعنى ، ثم جعل المعنى واحدا لا يتعدد ولا يتبعض ، لامتناع اختصاصه بعدد معين ، وامتناع معان لا نهاية لها فى آن واحد ، وجعل القرآن العربى ليس هو كلام الله .

فلما شاع قوله وعرف جمهور المسلمين فساده شرعا وعقلا قالت طائفة أخرى — ممن وافقته على مذهب السلف — إن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وعلى الأصل الذي أحدثه من القول بقدم القرآن — : إن القرآن قديم ، وهو مع ذلك الحروف المتعاقبة والأصوات المؤلفة . فصار قول هؤلاء مركبا من قول المعتزلة وقول الكلابية ، فإذا ناظروا المعتزلة على أن القرآن كلام الله غير مخلوق ناظروهم بطريقة ابن كلاب ، وإذا ناظرهم الكلابية على أن القرآن العربى كلام الله وأن القرآن الذي يقرأه المسلمون كلام الله ناظروهم بحجج المعتزلة . وليس شيء من هذه الأقوال قول أحد من السلف كما بسط فى غير هذا الموضع ، ولا قال شيئاً من هذه الأقوال لا الأئمة الأربعة ولا أصحابهم الذين أدركوهم ، وإنما قاله — ممن ينتسب إليهم — بعض المتأخرين الذين تلقوها عمن قالها من أهل الكلام ، ولم يكن لهم خبرة لا بأقوال السلف التى دل عليها الكتاب والسنة والعقل الصريح ،

ولا بحقائق أقوال أهل الكلام الذي ذمه السلف ، ولم قالوا هذا ، وما الذي ألجأهم إلى هذا ؟ وقد شاع عند العامة والخاصة أن القرآن ليس بمخلوق والقول بأنه مخلوق قول مبتدع مذموم عند السلف والأئمة ، فصار من يطالع كتب الكلام التى لا يجد فيها إلا قول المعتزلة وقول من رد عليهم وانتسب إلى السنة يظن أنه ليس فى المسألة إلا هذا القول ، وهذا وذاك قد عرف أنه قول مذموم عند السلف ، فيظن القول الآخر قول السلف ، كما يقع مثل ذلك فى كثير من المسائل فى غير هذه : لا يعرف الرجل في المسألة إلا قولين أو ثلاثة فيظن الصواب واحدا منها ، ويكون فيها قول لم يبلغه وهو الصواب دون تلك . وهذا باب واسع في كثير من المسائل . والله يهدينا وسائر إخواننا المسلمين إلى ما يحبه ويرضاه من القول والعمل ، ومن اجتهد بقصد طاعة الله ورسوله بحسب اجتهاده لم يكلفه الله ما يعجز عنه بل يثيبه الله على ما فعله من طاعته ويغفر ما أخطأ فيه فعجز عن معرفته .

فصل

والنصوص والآثار فى تفضيل كلام الله ــ بل وتفضيل بعض صفاته ــ على بعض متعددة . وقول القائل « صفات الله كلها فاضلة

فى غاية التمام والكمال ليس فيها نقص » كلام صحيح ، لكن توهمه أنه إذا كان بعضها أفضل من بعض كان المفضول معيبا منقوصا خطأ منه ، فإن النصوص تدل على أن بعض أسمائه أفضل من بعض ، ولهذا يقال دعا الله باسمه الأعظم . وتدل على أن بعض صفاتـه أفضل من بعض وبعض أفعاله أفضل من بعض ففي الآثار ذكر اسمه العظيم واسمه الأعظم ، واسمه الـكبير والأكبر ، كما في السنن ورواه أحمـد وابن حبان في صحيحه عن ابن بريدة عن أبيه قال : دخلت مـع رسول الله صـلى الله عليه وسـلم المسجد ، فإذا رجل يصلي يدعو : اللهـم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . فقال النبى صلى الله عليـه وسـلم « والذى نفسي بيده ، لقد سأل الله باسمه الأعظم الذى إذا سئل بـه أعطى ، وإذا دعي به أجاب » .

وعن أنس قال : كنت جالسا مع رسول الله صلى الله عليـه وسلم فى الحلقة ، ورجل قائم يصلي ، فلما ركع وسجد تشهـد ودعا فقال فى فى دعائه : اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنـان بديع السموات والأرض ياذا الجلال والإكرام ياحـي ياقيوم ، فقال النبى صـلى الله عليه وسـلم « والذى نفسي بيده لقد دعا باسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى » . وقد ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليـه وسلم أنه قال « إن الله كتب

فى كتاب فهو موضوع عنده فوق العرش : إن رحمتى تغلب غضبى » وفي رواية « سبقت رحمتى غضبى » فوصف رحمته بأنها تغلب وتسبق غضبه ، وهذا يدل على فضل رحمته على غضبه من جهة سبقها وغلبتها ، وقد ثبت فى صحيح مسلم عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول في سجوده « اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك » . وروى الترمذي أنه كان يقول ذلك فى وتره ، لكن هذا فيه نظر .

وقد ثبت فى الصحيح والسنن والمساند من غير وجه الاستعاذة بكلماته التامات ، كقوله « أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ، ومن شر عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون » . وفى صحيح مسلم عن خولة أنه قال صلى الله عليه وسلم : « من نزل منزلا فقال : أعوذ بكلمات الله التامة ، لم يضره شيء حتى يرتحل منه »[1]. وفى الصحيح أنه قال لعثمان بن أبى العاص : « قل : أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر » . ومعلوم أن المستعاذ به أفضل من المستعاذ منه ، فقد استعاذ برضاه من سخطه ، وبمعافاته من عقوبته .

وأما استعاذته به منه فلا بد أن يكون باعتبار جهتين : يستعيذ به باعتبار تلك الجهة ، ومنه باعتبار تلك الجهة ليتغاير المستعاذ به والمستعاذ

(١) الحديث ورد في صحيح مسلم في كتاب الذكر والدعاء ونصه : (من نزل منزلاً ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم يضره شئ ، حتى يرتحل من منزله ذلك) ج٤ ص ٢٠٨٠ ، ص ٢٠٨١ ، رقم ٢٧٠٨ .

منه ، إذ أن المستعاذ منه مخوف مرهوب منه ، والمستعاذ به مدعو مستجار به ملتجأ إليه ، والجهة الواحدة لا تكون مطلوبة مهروباً منها ، لكن باعتبار جهتين تصح ، كما فى الحديث الذي فى الصحيحين عن البراء بن عازب أن النبي صلى الله عليه وسلم علم رجلا أن يقول عند النوم « اللهم أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك ، وألجأت ظهري إليك ، وفوضت أمري إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا منجا ولا ملجأ منك إلا إليك . آمنت بكتابك الذي أنزلت ، وبنبيك الذي أرسلت » فبين أنه لا ينجى منه إلا هو ، ولا يلتجأ منه إلا إليه . وأعمل الفعل الثانى لما تنازع الفعلان في العمل . ومعلوم أن جهة كونه منجياً غير جهة كونه منجياً منه ، وكذلك جهة كونه ملتجأ إليه غير كونه ملتجأ منه ، سواء قيل إن ذلك يتعلق بمفعولاته أو أفعاله القائمة به أو صفاته أو بذاته باعتبارين .

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين : الذين يعدلون فى حكمهم ، وأهلهم ، وما ولوا » . وقد جاء ذكر اليدين في عدة أحاديث ويذكر فيها أن كلتاهما يمين مع تفضيل اليمين . قال غير واحد من العلماء لما كانت صفات المخلوقين متضمنة للنقص فكانت يسار أحدهم ناقصة في القوة ناقصة في الفعل ،

بحيث تفعل بمياسرها كل ما يذم — كما يباشر بيده اليسرى النجاسات والأقذار — بين النبي صلى الله عليه وسلم أن كلتا يمين الرب مباركة ليس فيها نقص ولا عيب بوجه من الوجوه كما فى صفات المخلوقين ، مع أن اليمين أفضلها كما فى حديث آدم قال « اخترت يمين ربى ، وكلتا يدي ربى يمين مباركة » فإنه لا نقص فى صفاته ولا ذم في أفعاله بل أفعاله كلها إما فضل وإما عدل . وفي الصحيحين عن أبى موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه . والقسط بيده الأخرى يرفع ويخفض »

فبين صلى الله عليه وسلم أن الفضل بيده اليمنى والعدل بيده الأخرى . ومعلوم أنه مع أن كلتا يديه يمين فالفضل أعلى من العدل ، وهو سبحانه كل رحمة منه فضل وكل نقمة منه عدل ، ورحمته أفضل من نقمته . ولهذا كان المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن ولم يكونوا عن يده الأخرى . وجعلهم عن يمين الرحمن تفضيل لهم كما فضل فى القرآن أهل اليمين وأهل الميمنة على أصحاب الشمال وأصحاب المشأمة وإن كانوا إنما عذبهم بعدله . وكذلك الأحاديث والآثار جاءت بأن أهل قبضة اليمين هم أهل السعادة ، وأهل القبضة الأخرى هم أهل الشقاوة .

ومما يبين هذا أن الشر لم يرد في أسمائه ، وإنما ورد فى مفعولاته ولم يضف إليه إلا على سبيل العموم ، وأضافه إلى السبب المخلوق أو بحذف فاعله ، وذلك كقوله تعالى : (ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ) و (مِن شَرِّ مَا خَلَقَ) وكأسمائه المقترنة مثل المعطى المانع ، الضار النافع ، المعز المذل الخافض الرافع ، وكقوله : (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) ، وكقوله : (صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ) وكقول الجن : (وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا)؟! .

وقد ثبت فى صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول فى دعاء الاستفتاح « والخير بيديك والشر ليس إليك » وسواء أريد به : إنه لا يضاف إليك ولا يتقرب به إليك ، أو قيل إن الشر إما عدم وإما من لوازم العدم ، وكلاهما ليس إلى الله ، فهذا يبين أنه سبحانه إنما يضاف إليه الخير وأسماؤه تدل على صفاته ، وذلك كله خير حسن جميل ليس فيه شر ، وإنما وقع الشر فى المخلوقات ، قال تعالى (نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ) وقال تعالى : (ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) وقال تعالى : (إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) فجعل المغفرة والرحمة من معاني أسمائه الحسنى التى يسمى بها نفسه فتكون المغفرة

والرحمة من صفاته ، وأما العقاب الذي يتصل بالعباد فهو مخلوق له ، وذلك هو الأليم ، فلم يقل : وإني أنا المعذب ، ولا في أسمائه الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم اسم المنتقم ، وإنما جاء المنتقم في القرآن مقيداً كقوله : (إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ) وجاء معناه مضافا إلى الله في قوله : (إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ) وهذه نكرة في سياق الإثبات والنكرة في سياق الإثبات مطلقة ليس فيها عموم على سبيل الجمع .

وذلك أن الله سبحانه حكيم رحيم ، وقد أخبر أنه لم يخلق المخلوقات إلا بحكمته ، كما قال في قوله تعالى : (وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟) وقال تعالى : (إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ * ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا) وقال تعالى : (وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ) وقال في السورة الأخرى : (مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) ، وهذا يبين أن معنى قوله في سائر الآيات : (بالحق) هو لهذا المعنى الذي يتضمن حكمته كما قال : (وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ) وقوله : (وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ

ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ) .

وبعض الناس يظن أن قوله (هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ) إشارة إلى أنه خالق أفعال العباد فلا ينبغي التشديد فى الإنكار عليهم بل يصفح عنهم الصفح الجميل لأجل القدر ! وهذا من أعظم الجهل ، فإنه سبحانه قد عاقب المخالفين له ولرسله ، وغضب عليهم ، وأمر بمعاقبتهم وأعد لهم من العذاب ما ينافى قول هؤلاء المعطلين لأمره ونهيه ووعده ووعيده . وقوله (فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ) تعلق بما قبله وهو قوله (وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ) فإن لهم موعداً يجزون فيه ، كما قال تعالى فى نظائر ذلك : (فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ) (فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ * لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ * إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ * إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم) وقوله : (فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ) وقوله (فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ)

ولم يعذر الله أحداً قط بالقدر ، ولو عذر به لكان أنبياؤه وأولياؤه أحق بذلك ، وآدم إنما حج موسى لأنه لامه على المصيبة التى أصابت الذرية فقال له : لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ وما أصاب العبد من المصائب فعليه أن يسلم فيها لله ويعلم أنها مقدرة عليه ، كما قال تعالى : (مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ) قال

علقمة — وقد روى عن ابن مسعود — : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم : فالعبد مأمور بالتقوى والصبر ، فالتقوى فعل ما أمر به ، ومن الصبر الصبر على ما أصابه ، وهذا هو صاحب العاقبة المحمودة كما قال يوسف عليه السلام : (إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ) وقال تعالى : (وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ) وقال : (وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا) وقال : (بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ) .

ولا بد لكل عبد من أن يقع منه ما يحتاج معه إلى التوبة والاستغفار ، ويبتلى بما يحتاج معه إلى الصبر ، فلهذا يؤمر بالصبر والاستغفار كما قيل لأفضل الخلق : (فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ) وقد بسط الكلام فى غير هذا الموضع على مناظرة آدم وموسى ؛ فإن كثيراً من الناس حملوها على محامل مخالفة للكتاب والسنة وإجماع الأمة ، ومنهم من كذب بالحديث لعدم فهمه له ، والحديث حق يوجب أن الإنسان إذا جرت عليه مصيبة بفعل غيره مثل أبيه أو غير أبيه لا سيما إذا كان أبوه قد تاب منها فلم يبق عليه من جهة الله تبعة ، كما جرى لآدم صلوات الله عليه ، قال تعالى : (وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ * ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ)

وقال : ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ وكان آدم وموسى أعلم بالله من أن يحتج أحدهما لذنبه بالقدر ويوافقه الآخر ، ولو كان كذلك لم يحتج آدم إلى توبة ، ولا أهبط من الجنة ، وموسى هو القائل : ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى ﴾ وهو القائل : ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ وهو القائل : ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾ وهو القائل لقومه : ﴿ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ ﴾ ، فلو كان المذنب يعذر بالقدر لم يحتج إلى هذا ، بل كان الاحتجاج بالقدر لما حصل من موسى ملام على ما قدر عليه من المصيبة التى كتبها الله وقدرها .

ومن الإيمان بالقدر أن يعلم العبد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، فالمؤمن يصبر على المصائب ، ويستغفر من الذنوب والمعائب ، والجاهل الظالم يحتج بالقدر على ذنوبه وسيئاته ، ولا يعذر بالقدر من أساء إليه ، ولا يذكر القدر عند ما ييسره الله له من الخير ، فعكس القضية ، بل كان الواجب عليه إذا عمل حسنة أن يعلم أنها نعمة من الله هو يسرها وتفضل بها فلا يعجب بها ولا يضيفها إلى نفسه كأنه الخالق لها ، وإذا عمل سيئة استغفر وتاب منها ، وإذا أصابته مصيبة سماوية أو بفعل العباد يعلم أنها كانت مقدرة مقضية عليه ،

وهذا مبسوط في موضعه .

والمراد هنا أنه سبحانه بين أنه إنما خلق المخلوقات لحكمته ، وهذا معنى قوله : (بالحق) وقد ذم من ظن أنه خلق ذلك باطلا وعبثاً فقال : (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) وقال : (أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى) وقال : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) فلا بد من جزاء العباد على أعمالهم ، فلهذا قيل : (فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ) . ولله سبحانه فى كل ما يخلقه حكمة يحبها ويرضاها ، وهو سبحانه أحسن كل شيء خلقه ، وأتقن كل ما صنع ، فما وقع من الشر الموجود في المخلوقات فقد وجد لأجل تلك الحكمة المطلوبة المحبوبة المرضية ، فهو من الله حسن جميل ، وهو سبحانه محمود عليه وله الحمد على كل حال ، وإن كان شراً بالنسبة إلى بعض الأشخاص .

وهذا موضوع عظيم قد بسط فى غير هذا الموضع ، فإن الناس ــ فى باب خلق الرب وأمره ولمَ فعل ذلك ــ على طرفين ووسط : فالقدرية من المعتزلة وغيرهم قصدوا تعظيم الرب وتنزيهه عما ظنوه قبيحاً من الأفعال وظلما ؛ فأنكروا عموم قدرته ومشيئته ، ولم يجعلوه خالقاً

لكل شيء ، ولا أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، بل قالوا : يشاء ما لا يكون ، ويكون ما لا يشاء ! ثم إنهم وضعوا لربهم شريعة فيما يجب عليه ويحرم — بالقياس على أنفسهم ! — وتكلموا في التعديل والتجويز بهذا القياس الفاسد الذي شبهوا فيه الخالق بالمخلوق ، فضلوا وأضلوا . وقابلهم الجهمية الغلاة في الجبر ، فأنكروا حكمة الله ورحمته وقالوا : لم يخلق لحكمة ، ولم يأمر بحكمة ، وليس فى القرآن « لام كي » لا في خلقه ولا فى أمره .

وزعموا أن قوله (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا) و (خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا) وقوله : (وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى)

وقوله (وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ) وقوله : (لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ) — وأمثال ذلك — إنما اللام فيه لام العاقبة كقوله : (فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا) وقول القائل : « لدوا للموت وابنوا للخراب » . ولم يعلموا أن لام العاقبة إنما تصح ممن يكون جاهلا بعاقبة فعله كفرعون الذي لم يكن يدري ما ينتهي إليه أمر موسى ، أو ممن يكون عاجزاً عن رد عاقبة فعله ، كعجز بني آدم عن دفع الموت عن أنفسهم والخراب عن ديارهم ، فأما من هو بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وهو مريد لكل

ما خلق : فيمتنع في حقه لام العاقبة التي تتضمن نفى العلم أو نفى القدرة .

وأنكر هؤلاء محبة الله ورضاه لبعض الموجودات دون بعض . وقالوا المحبة والرضا هو من معنى الإرادة ، والله مريد لكل ما خلقه فهو راض بذلك محب له . وزعموا أن ما فى القرآن من نفي حبه ورضاه بالكفر والمعاصي كقوله : (وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ) ، (وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ) محمول على عباده الذين لم يقع ذلك منهم ، أو أنه لم يرده ديناً يثيبهم عليه . وزعموا أن الله لا يحب ولا يرضى ما أمر به من العبادات إلا إذا وقع ، فيريده كما يريد حينئذ ما وقع من الكفر والمعاصي ، إلى غير ذلك من أقوالهم المبسوطة في غير هذا الموضع . وكثير من المتأخرين يظن أن هذا قول أهل السنة ، وهذا مما لم يقله أحد من سلف الأمة وأئمتها ، بل جميع مثبتة القدر المتقدمين كانوا يفرقون بين المحبة والرضا وبين الإرادة ، ولكن أبو الحسن الأشعري اتبع جهما فى ذلك .

قال أبو المعالى الجوينى : ومما اختلف أهل الحق فى إطلاقه وعدم إطلاقه المحبة والرضا ، فصار المتقدمون إلى أنه سبحانه لا يحب الكفر ولا يرضاه ، وكذلك كل معصية . وقال شيخنا أبو الحسن : المحبة هي الإرادة نفسها ، وكذلك الرضا والاصطفاء ، وهو سبحانه يريد الكفر

ويرضاه كفراً قبيحاً معاقباً عليه . وهو كما قال أبو المعالى ، فإن المتقدمين من جميع أهل السنة على ما دل عليه الكتاب والسنة من أنه سبحانه لا يرضى ما نهى عنه ولا يحبه ، وعلى ذلك قدماء أصحاب الأئمة الأربعة أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد ، كأبي بكر عبد العزيز وغيره من قدمائهم ، ولكن من المتأخرين من سوى بين الجميع كما قاله أبو الحسن ، وهو فى الأصل قول لجهم ، فهو الذي قال فى القدر بالجبر ، وبما يخالف أهل السنة ، وأنكر رحمة الله تعالى ، وكان يخرج إلى الجذمى فيقول : أرحم الراحمين يفعل هذا ؟ فنفى أن يكون الله أرحم الراحمين ! وقد قال الصادق المصدوق « للهُ أرحم بعباده من الوالدة بولدها » . وهذه مسائل عظيمة ليس هذا موضع بسطها .

وإنما المقصود هنا التنبيه على الجمل ، فإن كثيرا من الناس يقرأ كتباً مصنفة فى أصول الدين وأصول الفقه بل في تفسير القرآن والحديث ولا يجد فيها القول الموافق للكتاب والسنة الذي عليه سلف الأمة وأئمتها ، وهو الموافق لصحيح المنقول وصريح المعقول ، بل يجد أقوالا كل منها فيه نوع من الفساد والتناقض ، فيحار ما الذي يؤمن به فى هذا الباب ، وما الذي جاء به الرسول ، وما هو الحق والصدق ، إذ لم يجد في تلك الأقوال ما يحصل به ذلك ، وإنما الهدى فيما جاء به الرسولُ الذي قال الله فيه : (وَإِنَّكَ لَتَهْدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ) .

فصـــــل

وإذا علم ما دل عليه الشرع مع العقل واتفاق السلف من أن بعض القرآن أفضل من بعض ، وكذلك بعض صفاته أفضل من بعض بقى الكلام في كون (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) تعدل ثلث القرآن ، ما وجه ذلك ؟ وهل ثوابها بقدر ثواب ثلث القرآن ، وإذا قدر أن الأمر كذلك فما وجه قراءة سائر القرآن ؟ فيقال :

أما الأول فقد قيل فيه وجوه أحسنها — والله أعلم — الجواب المنقول عن الإمام أبى العباس بن سريج ، فعن أبي الوليد القرشي أنه سأل أبا العباس بن سريج عن معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : « قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن » فقال : معناه أنزل القرآن على ثلاثة أقسام : ثلث منها الأحكام ، وثلث منها وعد ووعيد ، وثلث منها الأسماء والصفات . وهذه السورة جمعت الأسماء والصفات .

وقد ذكر أبو الفرج ابن الجوزي فى هذا الحديث ثلاثة أوجه : بدأ بهذا الوجه ، فروى قول ابن سريج هذا بإسناده عن زاهد ، عن الصابونى والبيهقي ، عن الحاكم أبى عبد الله الحافظ قال : سمعت أبا الوليد

حسان بن محمد الفقيه يقول : سألت أبا العباس بن سريج قلت : ما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم « قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن » ؟ قال : إن القرآن أنزل على ثلاثة أقسام : فثلث أحكام ، وثلث وعد ووعيد ، وثلث أسماء وصفات . وقد جمع في ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ أحد الأثلاث وهو الصفات ، فقيل إنها تعدل ثلث القرآن .

الوجه الثاني — من الوجوه الثلاثة التي ذكرها أبو الفرج بن الجوزي — أن معرفة الله هي معرفة ذاته ومعرفة أسمائه وصفاته ومعرفة أفعاله ، فهذه السورة تشتمل على معرفة ذاته ، إذ لا يوجد شيء إلا وجد من شيء [ما خلا الله . فإنه ليس له كفء] ولا له مثل . قال أبو الفرج : ذكره بعض فقهاء السلف .

قال : والوجه الثالث أن المعنى : من عمل ما تضمنته من الإقرار بالتوحيد والإذعان للخالق كان كمن قرأ ثلث القرآن ولم يعمل بما تضمنته ، ذكره ابن عقيل . قال ابن عقيل : ولا يجوز أن يكون المعنى : من قرأها فله أجر ثلث القرآن لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات » .

قلت : كلا الوجهين ضعيف .

أما الأول فيدل على ضعفه وجوه : الأول أن نقول القرآن ليس

كله هو المعرفة المذكورة ، بل فيه أمر بالأعمال الواجبة ونهى عن المحرمات . والمطلوب من العباد المعرفة الواجبة والعمل الواجب . والأمة كلها متفقة على وجوب الأعمال التى فرضها الله ، لم يقل أحد بأنها ليست من الواجبات ، وإن كان طائفة من الناس نازعوا فى كون الأعمال من الإيمان فلم ينازعوا فى أن الله فرض الصلوات الخمس وغيرها من شرائع الإسلام ، وحرم الفواحش : (مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) وإذا كان كذلك وقدر أن سورة من السور تضمنت ثلث المعرفة لم يكن هذا ثلث القرآن .

الثاني أن يقال : قول القائل معرفة ذاته ومعرفة أسمائه وصفاته ومعرفة أفعاله إن أراد بذلك أن ذاته تعرف بدون معرفة شيء من أسمائه وصفاته الثبوتية والسلبية فهذا ممتنع ، ولو قدر إمكان ذلك أو فرض العبد في نفسه ذاتا مجردة عن جميع القيود السلبية والثبوتية فليس ذلك معرفته بالله ألبتة ، ولا هو رب العالمين ذات مجردة عن كل أمر سلبي أو ثبوتي ؛ ولهذا لم يقل أحد من العقلاء هذا إلا القرامطة الباطنية يقولون : يسلب عنه كل أمر ثبوتي وعدمي ، فلا يقال موجود ولا معدوم ، ولا عالم ولا ليس بعالم ولا قادر ولا ليس بقادر ولا نحو ذلك . وهؤلاء مع أن قولهم معلوم الفساد بضرورة العقل فإنهم

متناقضون . أما الأول فلأن سلب النقيضين ممتنع كما أن جمعهما ممتنع ، فيمتنع أن يكون شيء من الأشياء لا موجوداً ولا معدوماً . وأما تناقضهم لابد أن يذكروا ما ذكروا أنه يسلب عنه النقيضان ببعض الأمور التى يتميز بها ليخبر عنه بهذا السلب ، وأي شيء قالوه فلابد أن يتضمن نفياً أو إثباتاً ، بل لابد أن يتضمن إثباتاً ، وقد بسطنا الرد عليهم فى غير هذا الموضع .

ولهذا كان كثير من الملاحدة لا يصلون إلى هذا الحد ؛ بل يقولون كما قال أبو يعقوب السجستانى وغيره من الملاحدة : نحن لا ننفي النقيضين ، بل نسكت عن إضافة واحد منهما إليه ، فلا نقول هو موجود ولا معدوم ولا حي ولا ميت ولا عالم ولا جاهل . فيقال لهم: إعراض قلوبكم عن العلم به وكف ألسنتكم عن ذكره لا يوجب أن يكون هو في نفسه مجرداً عن النقيضين ؛ بل يفيد هذا كفركم بالله وكراهتكم لمعرفته وذكره وعبادته ، وهذا حقيقة مذهبكم .

ومن قال من الملاحدة المنتسبين إلى التصوف والتحقيق كابن سبعين والصدر القونوي وغيرهما : إنه وجود مطلق بشرط الإطلاق عن كل وصف ثبوتى وسلبي فهو من جنس هؤلاء . لكن هؤلاء يقولون هو وجود مطلق فيخصونه بالوجود دون العدم . ثم يقولون هو مطلق ، والمطلق بشرط الإطلاق عن كل قيد سلبي وثبوتى إنما يكون في

الأذهان لا فى الأعيان . وهؤلاء يقولون : الوجود الكلي المقسوم إلى واجب وممكن الذي يجعله الفلاسفة موضوع العلم الإلهي ويسمونه « الحكمة العليا » و « الفلسفة الأولى » إنما يكون كلياً فى الأذهان لا في الأعيان ، فليس فى الخارج قط وجود هو بعينه واجب وهو بعينه ممكن ، ولا وجود هو نفسه يتصف به الواجب وهو نفسه يتصف به الممكن ؛ بل صفة الواجب تختص به وصفة الممكن تختص به ، ووجود الواجب يخصه لا يشركه فيه غيره ، ووجود الممكن يخصه لا يشركه فيه غيره .

ولهذا كان كل ما وصف به الرب نفسه من صفاته فهي صفات مختصة به يمتنع أن يكون له فيها مشارك أو مماثل ، فإن ذاته المقدسة لا تماثل شيئاً من الذوات ، وصفاته مختصة به فلا تماثل شيئاً من الصفات ؛ بل هو سبحانه أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، فاسمه (الأحد) دل على نفي المشاركة والمماثلة ، واسمه (الصمد) دل على أنه مستحق لجميع صفات الكمال ، كما بسط الكلام على ذلك فى الشرح الكبير المصنف في تفسير هذه السورة . وصفات التنزيه كلها ؛ بل وصفات الإثبات : يجمعها هذان المعنيان . وقد بسط الكلام فى التوحيد وأنه نوعان : علمي قولي ، وعملي قصدي . ف (قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَـٰفِرُونَ) اشتملت على التوحيد العملي نصاً ، وهي دالة على العلمي

لزوماً . و (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) اشتملت على التوحيد العلمي القولي نصاً ، وهي دالة على التوحيد العملي لزوماً . ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ بهما في ركعتى الفجر وركعتى الطواف وغير ذلك ، وقد ثبت أنه كان يقرأ أيضاً فى ركعتى الفجر بآية الإيمان التى في البقرة (قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ) في الركعة الأولى وآية الإسلام التى فى آل عمران : (قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) .

والمقصود هنا أن صفات التنزيه يجمعها هذان المعنيان المذكوران فى هذه السورة :

أحدهما نفي النقائص عنه وذلك من لوازم إثبات صفات الكمال ، فمن ثبت له الكمال التام انتفى النقصان المضاد له ، والكمال من مدلول اسمه الصمد .

والثانى أنه ليس كمثله شيء فى صفات الكمال الثابتة ، وهذا من مدلول اسمه الأحد . فهذان الاسمان العظيمان ــ الأحد الصمد ــ يتضمنان تنزيهه عن كل نقص وعيب ، وتنزيهه فى صفات الكمال أن لا يكون له مماثل في شيء منها . واسمه الصمد يتضمن إثبات جميع

صفات الكمال ، فتضمن ذلك إثبات جميع صفات الكمال ونفي جميع صفات النقص ، فالسورة تضمنت كل ما يجب نفيه عن الله ، وتضمنت أيضاً كل ما يجب إثباته من وجهين : من اسمه الصمد ، ومن جهة أن ما نفى عنه من الأصول والفروع والنظراء مستلزم ثبوت صفات الكمال أيضاً . فإن كل ما يمدح به الرب من النفي فلا بد أن يتضمن ثبوتاً ، بل وكذلك كل ما يمدح به شيء من الموجودات من النفي فلابد أن يتضمن ثبوتاً ، وإلا فالنفي المحض معناه عدم محض ، والعدم المحض ليس بشيء ؛ فضلا عن أن يكون صفة كمال .

وهذا كما يذكره سبحانه فى آية الكرسي مثل قوله : (ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) فنفي أخذ السنة والنوم له مستلزم لكمال حياته وقيوميته ، فإن النوم ينافي القيومية ، والنوم أخو الموت ، ولهذا كان أهل الجنة لا ينامون . ثم قال : (لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ) فنفي الشفاعة بدون إذنه مستلزم لكمال ملكه ؛ إذ كل من شفع إليه شافع بلا إذنه فقبل شفاعته كان منفعلا عن ذلك الشافع ، فقد أثرت شفاعته فيه فصيرته فاعلا بعد أن لم يكن ، وكان ذلك الشافع شريكا للمشفوع إليه فى ذلك الأمر المطلوب بالشفاعة ؛ إذ كانت بدون إذنه ، لا سيما والمخلوق إذا شفع إليه بغير إذنه فقبل الشفاعة فإنما يقبلها لرغبة أو لرهبة : إما من

الشافع أو من غيره ، وإلا فلو كانت داعيته مـن تلقاء نفسه تامة مع القدرة لم يحتج إلى شفاعة ، والله تعالى منزه عن ذلك كله ، كما قال فى الحديث الإلهي : « يا عبادي إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعونى ، ولن تبلغوا ضري فتضرونى » . ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه بالشفاعة إليه ، فـكان إذا أتاه طالب حاجة يقول : « اشفعوا تؤجروا ، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء » أخرجاه فى الصحيحين ، وكان مقصوده أنهم يؤجرون على الشفاعة ، وهو إنما يفعل ما أمره الله به .

وكذلك قوله : (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ) بين أنهم لا يعلمون من علمه إلا ما علمهم إياه كما قالت الملائكة : (لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا) فـكان فى هذا النفي إثبـات أن عبـاده لا يعلمون إلا ما علمهـم إياه ، فأثبت أنه الذي علمهـم ، لا ينالون العلم إلا منه . فإنه : (ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ) و (عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) .

ثم قال : (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا) أي لا يكرثه ولا يثقله . وهذا النفي تضمن كمال قدرته ، فإنه مع حفظه للسموات والأرض لا يثقل ذلك عليه كما يثقل على من فى قوته ضعف . وهذا كقوله تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ) فنزه نفسه عن مس اللغوب . قال أهل اللغة

اللغوب الإعياء والتعب . وكذلك قوله : ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ الإدراك عند السلف والأكثرين هو الإحاطة . وقال طائفة هو الرؤية ، وهو ضعيف ؛ لأن نفي الرؤية عنه لا مدح فيه ، فإن العدم لايرى . وكل وصف يشترك فيه الوجود والعدم لا يستلزم أمراً ثبوتياً فلا يكون فيه مدح ، إذ هو عدم محض . بخلاف ما إذا قيل لا يحاط به فإنه يدل على عظمة الرب جل جلاله . وإن العباد مع رؤيتهم له لا يحيطون به رؤية ، كما أنهم مع معرفته لا يحيطون به علما . وكما أنهم مع مدحه والثناء عليه لا يحيطون ثناء عليه ؛ بل هو كما أثنى على نفسه المقدسة . ولهذا قال أفضل الخلق وأعلمهم : « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » وهذه الأمور مبسوطة فى موضع آخر .

والمقصود هنا الكلام على معنى كون ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تعدل ثلث القرآن ، وبيان أن الصواب القول الأول .

الوجه الثالث الذي يدل على فساد القول الثانى أن يقال : قول القائل « معرفة أفعاله » إن أراد بذلك معرفة آياته الدالة عليه فهذه من تمام معرفته ، ويبقى معرفة وعده ووعيده وقصص الأمم المؤمنة والكافرة لم يذكره ، وهو القسم الثانى من أقسام معانى القرآن ، كما لم يذكر أمره ونهيه . وإن جعل هذه من مفعولاته فمعلوم أن معرفة الوعد والوعيد والقصص المطلوب فيها الإيمان باليوم الآخر وجزاء الأعمال ،

كما أن المطلوب بالأمر والنهي طاعته ، فإنه لا بد من الإيمان بالله واليوم الآخر ، ومن العمل الصالح لكل أمة كما قال تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) .

الوجه الرابع أن يقال : ما ذكره من نفي المثل عنه ومن نفى الولادة مذكور فى غير هذه السورة فلم يختص بهذا المعنى .

الوجه الخامس أن يقال : هب أنها تضمنت التنزيه كما ذكره الله فمعرفة الله ليست بمعرفة صفات السلب ، بل الأصل فيها صفات الإثبات ، والسلب تابع ومقصوده تكميل الإثبات ، كما أشرنا إليه من أن كل تنزيه مدح به الرب ففيه إثبات ، ولهذا كان قول « سبحان الله » متضمنا تنزيه الرب وتعظيمه ، ففيها تنزيهه من العيوب والنقائص وفيها تعظيمه سبحانه وتعالى ، كما قد بسط الكلام على ذلك في مواضع .

وأما القول الثالث وهو المراد به أن من عمل بما تضمنته كان كمن قرأ ثلث القرآن ولم يعمل بما تضمنته ، فهذا أيضاً ضعيف ، وما نفاه من المعادلة فهو مبنى على قول من اعتبر فى مقدار الأجر كثرة الحروف وهو قول باطل ، كما قد بين في موضعه ، وذلك أن العمل بها إن أراد

به العمل الواجب من التصديق بمضمونها وتوحيد الله فهذا أجره أعظم من أجر من قرأ القرآن جملة ولم يعمل بذلك ، فإنه إن خلا عن الإيمان بمضمون القرآن فهو منافق ، وإن خلا عما يجب عليه من العمل فهو فاسق . ومعلوم أن هذا لو قرأ القرآن عشر مرات لم يكن أجره مثل أجر المؤمن المتقى . وأيضاً فإن هذا الأجر على الإيمان بمضمونها سواء قرأها أو لم يقرأها ، والأجر المذكور فى الحديث هو لمن قرأها فلابد أن يكون قد قرأها مع الإيمان بما تضمنته . وأيضا فالنبي صلى الله عليه وسلم جعل قراءتها تعدل ثلث القرآن ، وقرأها على أصحابه ، وأخبرهم أنه قرأ عليهم ثلث القرآن : فكانت قراءته لها تعدل قراءته هو للثلث . وكذلك الرجل الذي جعل يرددها . وكذلك إخباره لهم بأنها تعدل ثلث القرآن وإنما يراد به ثلثه إذا قرأوه هم ، لم يرد به الثلث إذا قرأها منافق لا يؤمن بمعنى (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) . ثم إن كون المراد بذلك من قرأ الثلث بلا إيمان بها معنى ليس في اللفظ ما يدل عليه ، وإنما يدل اللفظ على نقيضه . وهذا التأويل وأمثاله هو من تحريف الكلم عن مواضعه الذي ذم الله عليه من فعل ذلك من أهل الكتاب ، وهو نوع من الإلحاد في كلام الله ورسوله .

وقد ذكر أبو حامد الغزالي وجها آخر غير هذه الثلاثة ، فقال فى كتابه : « جواهر القرآن ودرره » : أما قوله : « قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ

تعدل ثلث القرآن » ما أراك تفهم وجه ذلك ، فتارة تقول : ذكر هذا للترغيب فى التلاوة وليس المعنى به التقدير ، وحاشا منصب النبوة عن ذلك . وتارة تقول : هذا بعيد عن الفهم والتأويل ، فإن آيات القرآن تزيد على ستة آلاف آية ، فهذا القدر كيف يكون ثلثها ؟ وهذا لقلة معرفتك بحقائق القرآن ونظرك إلى ظاهر ألفاظه ، فتظن أنها تعظم وتكثر بطول الألفاظ وتقصر بقصرها . وذلك كظن من يؤثر الدراهم الكثيرة على الجوهرة الواحدة نظراً إلى كثرتها . فاعلم أن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن قطعاً ، وترجع إلى الأقسام الثلاثة التى ذكرناها فى مهمات القرآن ، وهي : معرفة الله ، ومعرفة الآخرة ، ومعرفة الصراط المستقيم . فهذه المعارف الثلاثة هي المهمة ، والباقى توابع . وسورة الإخلاص تشتمل على واحدة من الثلاث ، وهي معرفة الله وتقديسه وتوحيده عن مشارك فى الجنس والنوع ، وهو المراد بنفي الأصل والفرع والكفء . والوصف بالصمد يشعر بأنه السيد الذي لا يقصد في الوجود للحوائج سواه . نعم ليس فيها حديث الآخرة والصراط المستقيم ، فلذلك تعدل ثلث القرآن . أي ثلث الأصول من القرآن كما قال : « الحج عرفة » أي هو الأصل والباقى تبع .

قلت آيات القرآن نوعان : علمية وعملية ، وفي الآيات ما يجمع الأمرين . وأبو حامد جمع العلميات المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله دون ما يتعلق

باليوم الآخر والقصص ، وسماها « جواهر القرآن » ، وجمع العمليات وسماها « درر القرآن » . وجعل الشطر الأول من « الفاتحة » من الجواهر ، والثانى من الدرر ، والآيات التى تجمع المعنيين يذكرها في أغلب النوعين عليها . ومجموع ما ذكره من القسمين ربع آيات القرآن نحو ألف وخمسمائة آية . وجعل معانى القرآن ستة أصناف : ثلاثة أصول ، وثلاثة توابع . فذكر أن القرآن هو البحر المحيط ، ومنه يتشعب علم الأولين والآخرين . وقال : سر القرآن ولبابه الأصفى ومقصده الأقصى دعوة العباد إلى الجبار الأعلى رب الآخرة والأولى ، وخالق السموات العلى والأرضين السفلى . فالثلاثة المهمة : تعريف المدعو إليه ، وتعريف الصراط المستقيم الذي تجب ملازمته فى السلوك إليه ، وتعريف الحال عند الوصول إليه . وأما الثلاثة المغنية فأحدها : أحوال المجيبين للدعوة ، ولطائف صنع الله فيهم ، وسره ومقصوده التشويق والترغيب . وتعريف أحوال الناكبين والناكلين عن الإجابة ، وكيفية قمع الله لهم وتنكيله بهم ، وسره ومقصوده الاعتبار والترهيب . وثانيها : حكاية أقوال الجاحدين . وكشف فضائحهم وجهلهم بالمجادلة والمحاجة على الحق . ومقصوده وسره فى جنبة الباطل الإفصاح والتحذير والتنفير ، وفى جنبة الحق الإيضاح والتثبيت والتقرير . وثالثها : تعريف عمارة منازل الطريق وكيفية أخذ الزاد والراحلة والأهبة للاستعداد .

قلت : ما ذكره من أن أصول الإيمان ثلاثة فهو حق كما ذكره ،

ولا بد من الثلاثة فى كل ملة ودين ، كما قال الله تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) .

ونحو ذلك فى سورة المائدة . فذكر هذه الأصول الثلاثة : الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، والعمل الصالح . وأما الثلاثة الأخر التابعة فهي داخلة فى هذه الثلاثة . فإن مافي القرآن من ذكر أحوال السعداء والأشقياء فى الآخرة فهو من تفصيل الإيمان باليوم الآخر . وما فيه من عمارة الطريق فهو من العمل الصالح . وما فيه من المجادلة والمحاجة فذاك من تمام الإخبار بالثلاثة ، فإنه إذا أخبر بالثلاثة ذكر الآيات والأدلة المثبتة لذلك ، وذكر شبه الجاحدين وبين فسادها . وقد ذكر أبو حامد ذلك فقال : القسم الجائي لمحاجة الكفار ومجادلتهم وإيضاح مخازيهم بالبرهان الواضح وكشف أباطيلهم وتخاييلهم . وأباطيلهم ثلاثة أنواع : [الأول] ذكر الله بما لا يليق به من أن الملائكة بناته ، وأن له ولداً شريكا ، وأنه ثالث ثلاثة . الثاني ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه ساحر وكاهن وشاعر ، وإنكار نبوته . وثالثها إنكار اليوم الآخر ، وجحد البعث والنشور والجنة والنار ، وإنكار عاقبة الطاعة والمعصية .

وأما ما فيه من الإخبار بأحوال المؤمنين والكفار فى الدنيا — وهو الذي أراده أبو حامد بذكر أحوال المستجيبين والناكبين — فهذا من

تمام الأدلة والآيات ، فإن هذا أمر شوهد في الدنيا ورؤيت آثاره وتواترت أخباره ، ليس هو مما بعد الموت الذي هو غيب عن العباد . ولهذا يذكر سبحانه هذا فى معرض الاحتجاج والاستدلال ، مع ما في ذلك من الموعظة ، كقوله : (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ) ، (قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ) . وقوله : (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ)

وقوله : (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) وقوله : (فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) وقوله : (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ) الآيات .

وقوله تعالى لما ذكر قصة قوم لوط : (فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ)

والمتوسم : المستدل بالسمة والسيما ، وهي العلامة ، قال تعالى : (وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ) .

فمعرفة المنافقين في لحن القول ثابتة مقسم عليها ، لكن هذا يكون إذا تكلموا ، وأما معرفتهم بالسيما فموقوف على مشيئة الله ؛ فإن ذلك أخفى. وفى الحديث الذي رواه الترمذي وحسنه عن أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله » ثم قرأ قوله تعالى : (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ) قال مجاهد وابن قتيبة للمتفرسين ، قال ابن قتيبة : يقال توسمت في فلان الخير أي تبينته ، وقال الزجاج : المتوسمون في اللغة النظار المثبتون فى نظرهم حتى يعرفوا حقيقة سمة الشيء ، يقال توسمت فى فلان كذا أي عرفت ، وقوله « المثبتون في نظرهم » أي فى نظر أعينهم حتى يعرفوا السيما، بخلاف الذين قيل فيهم : (وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) . وقال الضحاك : الناظرون ، وقال ابن زيد : المنتقدون ، وقال قتادة : المعتبرون . وكل هذا صحيح ، فإن المتوسم يجمع هذا كله . ثم قال تعالى : (وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ) ثم ذكر قصة أصحاب الأيكة . ثم قال : (وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ) أي بطريق متبين للناس واضح .

وكذلك فى موضع آخر لما قال : (فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ * وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

وقال فى سفينة نوح : (وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ)

فأخبر أنه أبقى آيات ، وهي العلامات والدلالات ، فدل ذلك على أن مايخصه من أخبار المؤمنين وحسن عاقبتهم فى الدنيا وأخبار الكفار وسوء عاقبتهم فى الدنيا هو من باب الآيات والدلالات التى يستدل بها ويعتبر بها علماً ووعظاً ، فيفيد معرفة صحة ما أخبرت به الرسل ، ويفيد الترغيب والترهيب ، ويدل ذلك على أن الله يرضى عن أهل طاعته ويكرمهم ، ويغضب على أهل معصيته ويعاقبهم ، كما يستدل بمخلوقاته العامة على قدرته ، فإن الفعل يستلزم قدرة الفاعل [ويستدل] بإحكام الأفعال على علمه ؛ لأن الفعل المحكم يستلزم علم الفاعل ، وبالتخصيص على مشيئته ؛ لأن التخصيص مستلزم لإرادته ، فكذلك يستدل بالتخصيص بما هو أحمد عاقبة على حكمته ؛ لأن تخصيص الفعل بما هو محمود فى العاقبة مستلزم للحكمة ، ويستدل بتخصيص الأنبياء وأتباعهم بالنصر وحسن العاقبة وتخصيص مكذبيهم بالخزي وسوء العاقبة على أنه يأمر ويحب ويرضى ما جاءت به الأنبياء ، ويكره ويسخط ما كان عليه مكذبوهم ؛ لأن تخصيص أحد النوعين بالإكرام والنجاة والذكر الحسن والدعاء ، وتخصيص الآخر بالعذاب والهلاك وقبح الذكر واللعنة : يستلزم محبة ما فعله الصنف الأول ، وبغض ما فعله الصنف الثانى .

وأما الإرادة التى يقال فيها إنها تخص أحد المثلين عن الآخر بلا سبب فتلك هل يوصف الله بها ؟ فيه نزاع . فإن قيل : إنه لا يوصف بها فلا كلام ، وإن قيل : إنه يوصف بها فمعلوم أن تخصيص الأنبياء عليهم السلام بهذا ، وتخصيص أعدائهم بهذا لم يصدر عن تخصيص بلا مخصص ؛ بل يعلم أنه قصد تخصيص هؤلاء بالإكرام وهؤلاء بالعقاب ، وأن إيمان هؤلاء سبب تخصيصهم بهذا ، وكفر هؤلاء سبب تخصيصهم بهذا . ولبسط هذه الأمور موضع آخر .

لكن المقصود هنا أن هذه الثلاثة داخلة فى الثلاثة الأول . ولكن أبو حامد يجعل الحجاج صنعة الكلام ، ويجعل عمارة الطريق علم الفقه ، ويجعل أخبار الأنبياء علم القصص ، ويقول : إن الكلام والجدل ليس فيه بيان حق بدليل ؛ بل إنما فيه دفع البدع ببيان تناقضها ؛ ويجعل أهله من جنس خفراء الحجيج ، ويجعل علم الفقه ليس غايته إلا مصلحة الدنيا ، وهذا مما نازعه فيه أكثر الناس وتكلموا فيه بكلام ليس هذا موضعه ، كما تكلموا على ما ذكره فى هذا الكتاب (جواهر القرآن) وغيره من كتبه من معاني الفلسفة وجعل ذلك هو باطن القرآن ، وكلام علماء المسلمين على رد هذا أكثر من كلامهم على رد ذلك ؛ فإن هذا فيه مما يناقض مقصود الرسول أمور عظيمة ، كما تكلموا على ما ذكره في النبوة بما يشبه كلام الفلاسفة فيها .

والمقصود أن هذا الذي ذكره في (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) أحسن من قول كثير من الناس فيها ، وهو أقرب إلى القول الذي ذكرناه عن ابن سريج ونصرناه ؛ لكن ذلك القول هو الصواب بلا ريب ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بأن الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء . فجعل (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) جزءاً من أجزاء القرآن ، وهذا يقتضي أن مجموع القرآن ثلاثة أجزاء ، ليس هو ستة : ثلاثة أصول وثلاثة فروع . وكذلك أخبر أن (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) تعدل ثلث القرآن ، لم يقل ثلث المهم منه ، ولا ثلث أكثره ، ولا أصوله ، فوجب أن يكون القرآن كله ثلاثة أصناف ، وعلى ما ذكره أبو حامد هو ستة : ثلاثة مهمة وثلاثة توابع ، والسورة أحد الثلاثة المهمة ، وهذا خلاف الحديث . وأيضاً فإن تقسيم القرآن إلى ثلاثة أقسام تقسيم بالدليل ، فإن القرآن كلام ، والكلام إما إخبار وإما إنشاء ، والإخبار إما عن الخالق وإما عن المخلوق ، فهذا تقسيم بين . وأما جعل علم الفقه خارجا عن الصراط المستقيم والعمل الصالح ، وجعل علم الأدلة والحجج خارجا عن الإيمان والمعرفة بالله واليوم الآخر ، فهذا مردود عند جماهير السلف والخلف .

وأبو حامد إنما ذكر هذا لأنه يقول إنما يعرف معاني ذلك بطريق التصفية فقط ، لا بطريق الخبر النبوي ، ولا بطريق النظر الاستدلالي ،

فلا يعرف ذلك بالسمع ولا بالعقل . وهذا مما أنكره عليه الناس وصنفوا كتبا فى رد ذلك كما فعل جماعات من العلماء . ولكن عذر أبى حامد أنه لم يجد فيما علمه من طريق الفلاسفة وأهل الكلام ما يبين الحق في ذلك ، ولم يعلم طرقا عقلية غير ذلك ، فنفى أن يعلم بطريق النظر فيه . وأما الطرق الخبرية النبوية فلم يكن له خبرة بما صح من ألفاظ الرسول ، وبطريق دلالة ألفاظه على مقاصده ، وظن ـــ بما شارك به بعض أهل الكلام والفلسفة ـــ أن الرسول لم يبين مراده بألفاظه ، فتركب من هذا وهذا سد باب الطريق العقلي والسمعي ، وظن أن المطلوب يحصل له بطريق التصفية والعمل ، فسلك ذلك ، فلم يحصل له المقصود أيضاً ، فرجع فى آخر عمره إلى قراءة البخاري ومسلم .

وقد ذكر القاضي عياض أقوالا في كون (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) تعدل ثلث القرآن ، وكذلك المازري قبله ، قال : قال الإمام ـــ يعنى أبا عبد الله المازري ـــ قيل معنى ذلك : أن القرآن على ثلاثة أنحاء : قصص وأحكام ، وأوصاف لله جلت قدرته . و (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) تشتمل على ذكر الصفات فكانت ثلثاً من هذه الجهة . قال : وربما أسعد هذا التأويل ظاهر الحديث الذي ذكر أن الله جزأ القرآن . قلت : هذا هو قول ابن سريج ـــ وهو الذي نصرناه ـــ ذكره المازري فى كلام ابن بطال كما سيأتى . قال : وقيل معنى ثلث القرآن لشخص

بعينه قصده رسول الله صلى الله عليه وسلم . وذكره ابن بطال أيضاً ، قال : وقيل معناه إن الله يتفضل بتضعيف الثواب لقارئها ويكون منتهى التضعيف إلى مقدار ثلث ما يستحق من الأجر على قراءة القرآن من دون تضعيف أجر ، قال : وفى بعض روايات هذا الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حشد الناس وقال : سأقرأ عليكم ثلث القرآن فقرأ (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) . قال المازري : وهذه الرواية تقدح فى تأويل من جعل ذلك لشخص بعينه .

قال القاضي عياض : قال بعضهم قال الله تعالى : (الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) ثم بين التفصيل فقال (أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ) فهذا فصل الألوهية ، ثم قال (إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ) وهذا فصل النبوة ، ثم قال : (وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ) فهذا فصل التكليف ، وما وراءه من الوعد والوعيد وعامة أجزاء القرآن مما فيه من القصص فمن فصل النبوة ، لأنها من من أدلتها وفهمها أيضاً ، وهذا يدل على أن (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) جمعت الفصل الأول .

قلت : مضمون هذا القول أن معانى القرآن ثلاثة أصناف : الإلهيات ، والنبوات ، والشرائع . وأن هذه السورة منها الإلهيات ، وجعل صاحب هذا القول الوعد والوعيد والقصص من قسم

النبوة ؛ لأن ذلك مما أخبر به النبي صلى الله عليــه وسلم أو مما يدل على نبوته . وهذا القول ضعيف أيضاً ، فإنه يقال : والأمر والنهي أيضــاً ممـا جاء به النبي ، كما جاء بالوعد والوعيد .

ويقال أيضاً : القصص تدل على الأمر والنهي كما تدل على النبوة فإنها تدل على إكرامه لمن أطاعــه وعقوبته لمن عصاه ، وهــذا تقرير للأمر والنهي كما تقدم .

وأيضاً فإن مقصود النبوة هو الإخبار بما أمر الله به وبما أخبر به ، وما دل على إثبات النبوة من القصص يدل على إثبات ما جاء به النبي ، وما دل على إثبات ما جاء به النبي يدل على الأمر والنهى الذي جاء بــه النبي ، فهما متلازمان .

ثم الإلهيــات أيضاً هي مما جاء به النبي صلى الله عليــه وسلم فبين الدلائل العقلية على ما يمكن أن يعرف بالعقل ، وأخبر عن الغيب المطلق الذي تعجز العقول عن معرفته . فلا معنى لجعل القصص داخلة فى النبوة دون الإلهيات ، فإنه إن عنى أن القصص تدل على نبوته فهي تدل من جهة إخباره بها كإخباره بغيرها من الغيب ، وفيما أخبر به من الإلهيات والأمـور المستقبلات ما هــو كالقصص في ذلك وأبلغ . وإن عـنى أن تعذيب المـكذبين يــدل على النبوة فهي تدل على جنس النبــوة، وعلى

نبوة من عذب قومه ؛ لا تدل على نبوة المتأخر ، إلا أن يكون ما أخبر به من جنس ما أخبر به الأول . وهذه الأمور كلها موجودة فى الإلهيات وزيادة ، فإنه قد أخبر فيها بمثل ما أخبرت به الأنبياء قبله ، قد ذكر الله ذلك فى غير موضع كقوله : (وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ) وقوله : (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ) وقوله : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ)

وقد أخبر الله عن الأنبياء الذين قص أخبارهم كنوح وهود وصالح وشعيب صلوات الله عليهم أجمعين أن كلا منهم يقول لقومه : (يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ) ؛ بل يفتتح دعوته بذلك . وذكر تعالى عن الأنبياء وأممهم من نوح إلى الحواريين أنهم كانوا مسلمين كما قد بسط فى غير موضع .

وأيضاً فالإلهيات التى تعلم منها قدرة الرب وإرادته وحكمته وأفعاله : منها يعلم النبي من المتنبيء ، ومنها يعلم صدق النبى ، فهي أدل على صدق النبى من مجرد القصص ، وما في القصص من الدلالة على صدقه إنما يدل مع الإلهيات ، وإلا فلو تجرد لم يدل على شيء ، فالنبوة مرتبطة بالإلهيات أعظم من ارتباطها بغيرها ، والأنبياء إنما بعثوا بالدعوة إلى الله

وحده ، وقد يذكرون المعاد مجملا ومفصلا ، والقصص قد يذكر بعضهم بعضها مجملا . وأما الإلهيات فهي الأصل ، ولا بد من تفصيل الأمر بعبادة الله وحده دون ما سواه ، فلا بد لكل نبي من الأصول الثلاثة : الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، والعمل الصالح . والأصول الكلية التى يشترك فيها الأنبياء يذكرها الله في السور المكية مثل الأنعام والأعراف وذوات (الۤر) و (طسۤمۤ) و (حمۤ) ، وأكثر المفصل ، ونحو ذالك . والمدنيات تتضمن خطاب من آمن بجنس الرسل من أهل الكتاب من المؤمنين بالشرائع التى بعث بها خاتم الرسل .

وأما قول من قال : إن هذا فى شخص بعينه ، ففي غاية الفساد لفظاً ومعنى . ثم إن الله إنما يخص الشيء المعين بحكم يخصه لمعنى يختص به كما قال لأبي بردة بن نيار — وكان قد ذبح فى العيد قبل الصلاة — قبل أن يشرع لهم النبى صلى الله عليه وسلم أن الذبح يكون بعد الصلاة ، فلما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « أول ما نبدأ به فى يومنا هذا أن نصلي ثم نذبح ، فمن ذبح قبل الصلاة فليعد ، فإنما هي شاة لحم قدمها لأهله » ذكر له أبو بردة أنه ذبح قبل الصلاة ، ولم يكن يعرف أن ذلك لا يجوز ، وذكر له أن عنده عناقاً خيراً من جذعة فقال : « تجزى عنك ولا تجزى عن أحد بعدك » ، فخصه بهذا الحكم لأنه كان معذوراً فى ذبحه قبل الصلاة ؛ إذ فعل ذلك قبل شرع الحكم

فلم يكن ذلك الذبح منهياً عنه بعد ، مع أنه لم يكن عنده إلا هذا السن وأما أمره لامرأة أبي حذيفة بن عتبة أن ترضع سالما مولاه خمس رضعات ليصير لها محرما فهذا مما تنازع فيه السلف : هل هو مختص ، أو مشترك ؟ وإذا قيل هذا لمن يحتاج إلى ذلك — كما احتاجت هي إليه — كان في ذلك جمع بين الأدلة .

وبالجملة فالشارع حكيم ، لا يفرق بين متماثلين إلا لاختصاص أحدهما بما يوجب الاختصاص ، ولا يسوى بين مختلفين غير متساويين بل قد أنكر سبحانه على من نسبه إلى ذلك وقبح من يحكم بذلك فقال تعالى : (أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ) ، وقال تعالى : (أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ) ، وقال تعالى : (أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) ، وقال تعالى : (أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ) ، وقال تعالى : (يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ) . وإنما يكون الاعتبار إذا سوى بين المتماثلين ، وأما إذا قيل : ليس الواقع كذلك فلا اعتبار .

وقد تنازع الناس في هذا الأصل ، وهو أنه هل يخص بالأمر

والنهي ما يخصه لا لسبب ولا لحكمة قط . بل مجرد تخصيص أحد المتماثلين على الآخر ؟ فقال بذلك جهم بن صفوان ومن وافقه من الجبرية ، ووافقهم كثير من المتكلمين المثبتين للقدر . وأما السلف وأئمة الفقه والحديث والتصوف وأكثر طوائف الكلام المثبتين للقدر كالكرامية وغيرهم ونفاته كالمعتزلة وغيرهم فلا يقولون بهذا الأصل ، بل يقولون : هو سبحانه يخص ما يخص من خلقه وأمره لأسباب ولحكمة له في التخصيص ، كما بسط الكلام على هذا الأصل فى مواضع .

وكذلك قول من قال : يضعف لقارئها مقدار ما يعطاه قارئ ثلث القرآن بلا تضعيف : قول لا يدل عليه الحديث ، ولا فى العقل ما يدل عليه ، وليس فيه مناسبة ولا حكمة ، فإن النص أخبر أن قراءتها تعدل ثلث القرآن ، وأن من قرأها فكأنما قرأ ثلث القرآن فان كان فى هذا تضعيف ففي هذا تضعيف . وإن لم يكن فى هذا تضعيف لم يكن في الآخر ، فتخصيص أحدهما بالتضعيف تحكم . ثم جعل التضعيف بقدر ثلث القرآن إنما هو لما اختصت به السورة من الفضل ، وحينئذ ففضلها هو سبب هذا التقدير من غير حاجة إلى نقص ثواب سائر القرآن ، وأيضاً فهذا تحكم محض لا دليل عليه ولا سبب يقتضيه ولا حكمة فيه . والناس كثيراً ما يغلطون من جهة نقص علمهم وإيمانهم بكلام الله ورسوله وقدر ذلك وما اشتمل عليه

ذلك من العلم الذي يفوق علم الأولين والآخرين .

ومن علم أن الرسول أعلم الخلق بالحق وأفصح الخلق فى البيان وأنصح الخلق للخلق علم أنه قد اجتمع في حقه كمال العلم بالحق وكمال القدرة على بيانه وكمال الإرادة له ، ومع كمال العلم والقدرة والإرادة يجب وجود المطلوب على أكمل وجه ، فيعلم أن كلامه أبلغ ما يكون، وأتم ما يكون؛ وأعظم ما يكون بيانا لما بينه في الدين من أمور الإلهية وغير ذلك ، فمن وقر هذا فى قلبه لم يقدر على تحريف النصوص بمثل هذه التأويلات التى إذا تدبرت وجد من أرادها بذلك القول من أبعد الناس عما يجب اتصاف الرسول به ، وعلم أن من سلك هذا المسلك فإنما هو لنقص ما أوتيه من العلم والإيمان ، وقد قال تعالى : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ . فنسأل الله أن يجعلنا وإخواننا ممن رفع درجاته من أهل العلم والإيمان .

وإذ قد تبين ضعف هذه الأقوال ـــ غير القول الأول الذي نصرناه وهو قول ابن سريج وغيره كالمهلب والأصيلي وغيرهما ـــ فنقول : قد علم أن تفاضل القرآن وغيره من كلام الله ليس باعتبار نسبته إلى المتكلم ، فإنه سبحانه واحد ، ولكن باعتبار معانيه التى يتكلم بها ، وباعتبار ألفاظه المبينة لمعانيه . والذي قد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه فضل من السور سورة الفاتحة وقال : « إنه لم ينزل فى

التوراة ولا فى الإنجيل ولا في القرآن مثلها . والأحكام الشرعية تدل على ذلك ، وقد بسط الكلام على معانيها فى غير هذا الموضع . وفضل من الآيات آية الكرسي . وقال فى الحديث الصحيح لأبي بن كعب « أندري أي آية فى كتاب الله معك أعظم؟ » قال : (ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ) ، فضرب بيده فى صدره وقال « ليهنك العلم أبا المنذر ! » . وليس في القرآن آية واحدة تضمنت ما تضمنته آية الكرسي ، وإنما ذكر الله فى أول سورة الحديد وآخر سورة الحشر عدة آيات لا آية واحدة .

وسنبين إن شاء الله أنه إذا كانت (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) تعدل ثلث القرآن لم يلزم من ذلك أنها أفضل من الفاتحة ، ولا أنها يكتفى بتلاوتها ثلاث مرات عن تلاوة القرآن ، بل قد كره السلف أن تقرأ إذا قرئ القرآن كله إلا مرة واحدة كما كتبت في المصحف ، فإن القرآن يقرأ كما كتب فى المصحف ، لا يزاد على ذلك ولا ينقص منه . والتكبير المأثور عن ابن كثير ليس هو مسنداً عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم يسنده أحد إلى النبى صلى الله عليه وسلم إلا البزي ، وخالف بذلك سائر من نقله فإنهم إنما نقلوه اختياراً ممن هو دون النبي صلى الله عليه وسلم وانفرد هو برفعه ، وضعفه نقلة أهل العلم بالحديث والرجال من علماء القراءة وعلماء الحديث ، كما ذكر ذلك غير

واحد من العلماء . فالمقصود أن من السنة فى القرآن أن يقرأ كما فى المصاحف ، ولكن إذا قرئت (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) مفردة تقرأ ثلاث مرات وأكثر من ذلك ، ومن قرأها فله من الأجر ما يعدل ثلث أجر القرآن ، لكن عدل الشيء — بالفتح — يكون من غير جنسه كما سنذكره إن شاء الله .

والثواب أجناس مختلفة ، كما أن الأموال أجناس مختلفة : من مطعوم ومشروب وملبوس ومسكون ونقد وغير ذلك ، وإذا ملك الرجل من أحد أجناس المال ما يعدل ألف دينار مثلا لم يلزم من ذلك أن يستغنى عن سائر أجناس المال ، بل إذا كان عنده مال وهو طعام فهو محتاج إلى لباس ومسكن وغير ذلك ، وكذلك إن كان من جنس غير النقد فهو محتاج إلى غيره ، وإن لم يكن معه إلا النقد فهو محتاج إلى جميع الأنواع التى يحتاج إلى أنواعها ومنافعها . والفاتحة فيها من المنافع ثناء ودعاء مما يحتاج الناس إليه مالا تقوم (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) مقامه في ذلك ، وإن كان أجرها عظيما فذلك الأجر العظيم إنما ينتفع به صاحبه مع أجر فاتحة الكتاب ، ولهذا لو صلى بها وحدها بدون الفاتحة لم تصح صلاته ، ولو قدر أنه قرأ القرآن كله إلا الفاتحة لم تصح صلاته ، لأن معاني الفاتحة فيها الحوائج الأصلية التى لا بد للعباد منها ، وقد بسط الكلام عليها فى غير هذا الموضع ، وبين أن ما في الفاتحة من الثناء

والدعاء وهو قول : (ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ) هو أفضل دعاء دعا به العبد ربه ، وهو أوجب دعاء دعا به العبد ربه ، وأنفع دعاء دعا به العبد ربه ، فإنه يجمع مصالح الدين والدنيا والآخرة ، والعبد دائمًا محتاج إليه لا يقوم غيره مقامه ، فلو حصل له أجر تسعة أعشار القرآن ــ دع ثلثه ــ ولم يحصل له مقصود هذا الدعاء لم يقم مقامه ولم يسد مسده .

وهذا كما لو قدر أن الرجل تصدق بصدقات عظيمة وجاهد جهاداً عظيماً يكون أفضل من قراءة القرآن مرات وهو لم يصل ذلك اليوم الصلوات الخمس لم يقم ثواب هذه الأعمال مقام هذه ، كما لو كان عند الرجل من الذهب والفضة والرقيق والحيوان والعقار أموال عظيمة وليس عنده ما يتغدى به ويتعشى من الطعام فإنه يكون جائعاً متألماً فاسد الحال ، ولا يقوم مقام الطعام الذي يحتاج إليه تلك الأموال العظيمة ولهذا قال الشيخ أبو مدين رحمه الله : أشرف العلوم علم التوحيد ، وأنفع العلم أحكام العبيد . فليس الأفضل الأشرف هو الذي ينفع في وقت ، بل الأنفع فى كل وقت ما يحتاج إليه العبد فى ذلك الوقت ، وهو فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه ، ولهذا يقال : المفضول فى مكانه وزمانه أفضل من الفاضل ، إذ دل الشرع على أن الصلاة أفضل من القراءة ، والقراءة أفضل من الذكر ، والذكر أفضل من

الدعاء ، فهذا أمر مطلق .

وقد تحرم الصلاة فى أوقات فتكون القراءة أفضل منها فى ذلك الوقت . والتسبيح فى الركوع والسجود هو المأمور به ، والقراءة منهى عنها . ونظائر هذا كثيرة . فهكذا يعلم الأمر فى فضل (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) وغيرها ، فقراءة الفاتحة فى أول الصلاة أفضل من قراءتها ، بل هو الواجب ، والاجتزاء بها وحدها لا يمكن ، بل تبطل معه الصلاة . ولهذا وجب التقرب بالفرائض ، قبل النوافل ، والتقرب بالنوافل إنما يكون تقربا إذا فعلت الفرائض لا كما ظنه بعض الاتحادية كصاحب « الفتوحات المكية » ونحوه ، من أن قرب الفرائض تكون بعد قرب النوافل ! والنوافل تجعل الحق غطاءه وتلك تجعل الحق عينه . فهذا بناء على أصله الفاسد من الاتحاد ، كما بين .

وبين أن الحديث يناقض مذهبه من وجوه ، كما رواه البخاري فى صحيحه عن أبي هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم « يقول الله : من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه . ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشي بها . فبي يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشي . ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه

وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه » .

وقد بين فى هذا الحديث أن المتقرب ليس هو المتقرب إليه ؛ بل هو غيره . وأنه ما تقرب إليه عبده بمثل أداء المفروض ، وأنه لايزال بعد ذلك يتقرب بالنوافل حتى يصير محبوبا لله ، فيسمع به ويبصر به ويبطش به ويمشي به . ثم قال « ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه » ففرق بين السائل والمسؤل والمستعيذ والمستعاذ به ، وجعل العبد سائلا لربه مستعيذاً به . وهذا حديث شريف جامع لمقاصد عظيمة ليس هذا موضعها ، بل المقصود هنا الكلام على (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) .

وقد بينا أن أحسن الوجوه أن معانى القرآن ثلاثة أنواع : توحيد ، وقصص ، وأحكام . وهذه السورة صفة الرحمن فيها التوحيد وحده ، وذلك لأن القرآن كلام الله . والكلام نوعان : إما إنشاء ، وإما إخبار والإخبار إما خبر عن الخالق ، وإما خبر عن المخلوق . فالإنشاء هو الأحكام كالأمر والنهي . والخبر عن المخلوق هو القصص . والخبر عن الخالق هو ذكر أسمائه وصفاته . وليس فى القرآن سورة هي وصف الرحمن محضاً إلا هذه السورة . وفى الصحيحين عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلا على سرية ،

فكان يقرأ لأصحابه فى صلاتهم فيختم بقل هو الله أحد ، فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « سلوه : لأي شيء يصنع ذلك » فسألوه ، فقال : لأنها صفة الرحمن ، فأنا أحب أن أقرأ بها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أخبروه أن الله يحبه » . وقال البخاري فى (باب الجمع بين السورتين في ركعة) : وقال عبيد الله عن ثابت عن أنس : كان رجل من الأنصار يؤمهم فى مسجد قباء ، فكان كلما افتتح سورة يقرأ لهم بها فى الصلاة مما يقرأ به افتتح بـ (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) حتى يفرغ منها ثم يقرأ بسورة أخرى معها ، فكان يصنع ذلك في كل ركعة ، فكلمه أصحابه وقالوا : إنك تفتتح بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجزيك حتى تقرأ بأخرى ، فإما أن تقرأ بها وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى ، فقال : ما أنا بتاركها ، إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت ، وإن كرهتم ذلك تركتكم . وكانوا يرون أنه من أفضلهم ، وكرهوا أن يؤمهم غيره . فلما أتاهم النبي صلى الله عليه وسلم أخبروه الخبر ، فقال : « يا فلان ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك ، وما يحملك على لزوم هذه السورة فى كل ركعة » . قال : إنى أحبها . قال « حبك إياها أدخلك الجنة » . وقول النبي صلى الله عليه وسلم « إنها تعدل ثلث القرآن » حق كما أخبر به ، فإنه صلى الله عليه وسلم الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى لم يخرج من بين شفتيه إلا حق .

والذين أشكل عليهم هذا القول لهم مأخذان :

أحدهما منع تفاضل كلام الله بعضه على بعض ، وقد تبين ضعفه .

الثانى اعتقادهم أن الأجر يتبع كثرة الحروف ، فما كثرت حروفه من الكلام يكون أجره أعظم . قالوا : لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات . أما إنى لاأقول (الٓمٓ) حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » . قال الترمذي حديث صحيح . قالوا ومعلوم أن ثلث القرآن حروفه أكثر بكثير فتكون حسناته أكثر .

فيقال لهم : هذا حق كما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكن الحسنات فيها كبار وصغار ، والنبى صلى الله عليه وسلم مقصوده أن الله يعطى العبد بكل حسنة عشر أمثالها ، كما قال تعالى : (مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) ، فإذا قرأ حرفا كان ذلك حسنة فيعطيه بقدر تلك الحسنة عشر مرات ، لكن لم يقل : إن الحسنات في الحروف متماثلة . كما أن من تصدق بدينار يعطى بتلك الحسنة عشر أمثالها . والواحد من بعد السابقين الأولين لو أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه ، كما ثبت ذلك فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فهو إذا أنفق مداً كان له بهذه الحسنة عشر أمثالها . ولكن

لا تكون تلك الحسنة بقدر حسنة من أنفق مداً من الصحابة السابقين. ونظائر هذا كثيرة. فكذلك حروف القرآن تتفاضل لتفاضل المعانى وغير ذلك، فحروف الفاتحة له بكل حرف منها حسنة أعظم من حسنات حروف من (تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ) وإذا كان الشيء يعدل غيره فعدل الشيء ـــ بالفتح ـــ هو مساويه، وإن كان من غير جنسه. كما قال تعالى: (أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا) والصيام ليس من جنس الطعام والجزاء ولكنه يعادله فى القدر. وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « لايقبل الله منه صرفا ولا عدلا »، وقوله تعالى: (وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ) أي فدية، والفدية ما يعدل بالمفدى وإن كان من غير جنسه: (ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) أي يجعلون له عدلا أي نداً فى الإلهية، وإن كانوا يعلمون أنه ليس من جنس الرب سبحانه.

ولو كان لرجل أموال من أصناف متنوعة، ولآخر ذهب بقدر ذلك لكان مال هذا يعدل مال هذا وإن لم يكن من جنسه؛ ولهذا قد يكون عند الرجل من الذهب وغيره من الأموال ما يعدل شيئاً عظيما، وإذا احتاج إلى دواء أو مركب أو مسكن أو نحو ذلك ولم يكن قادراً على اشترائه لم تنفعه تلك الأموال العظيمة. فالقرآن يحتاج الناس إلى ما فيه من الأمر والنهي والقصص. وإن كان التوحيد أعظم من ذلك. وإذا احتاج الإنسان إلى معرفة ما أمر به وما نهى عنه من الأفعال، أو

احتاج إلى ما يؤمر به ويعتبر به من القصص والوعد والوعيد لم يسد غيره مسده ، فلا يسد التوحيد مسد هذا ، ولا تسد القصص مسد الأمر والنهي ، ولا الأمر والنهي مسد القصص . بل كل ما أنزل الله ينتفع به الناس ويحتاجون إليه .

فإذا قرأ الإنسان (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) حصل له ثواب بقدر ثواب ثلث القرآن ؛ لكن لا يجب أن يكون الثواب من جنس الثواب الحاصل ببقية القرآن ، بل قد يحتاج إلى جنس الثواب الحاصل بالأمر والنهي والقصص ، فلا تسد (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) مسد ذلك ، ولا تقوم مقامه فلهذا لو لم يقرأ (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) فإنه وإن حصل له أجر عظيم لكن جنس الأجر الذي يحصل بقراءة غيرها لا يحصل له بقراءتها ، بل يبقى فقيراً محتاجا إلى ما يتم به إيمانه من معرفة الأمر والنهي والوعد والوعيد ولو قام بالواجب عليه . فالمعارف التى تحصل بقراءة سائر القرآن لا تحصل بمجرد قراءة هذه السورة ، فيكون من قرأ القرآن كله أفضل ممن قرأها ثلاث مرات من هذه الجهة لتنوع الثواب ، وإن كان قارئ (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) ثلاثاً يحصل له ثواب بقدر ذلك الثواب ، لكنه جنس واحد ليس فيه الأنواع التى يحتاج إليها العبد ، كمن معه ثلاثة آلاف دينار وآخر معه طعام ولباس ومساكن ونقد يعدل ثلاثة آلاف دينار ؛ فإن هذا معه ما ينتفع به في جميع أموره ، وذاك محتاج إلى ما مع هذا ، وإن كان ما معه يعدل ما مع هذا . وكذلك لو كان معه

طعام من أشرف الطعام يساوي ثلاثة آلاف دينار فإنه محتاج إلى لباس ومساكن، وما يدفع به الضرر من السلاح والأدوية وغير ذلك مما لا يحصل بمجرد الطعام.

ومما ينبغي أن يعلم أن فضل القراءة والذكر والدعاء والصلاة وغير ذلك قد يختلف باختلاف حال الرجل، فالقراءة بتدبر أفضل من القراءة بلا تدبر، والصلاة بخشوع وحضور قلب أفضل من الصلاة بدون ذلك. وفى الأثر: «إن الرجلين ليكون مقامهما فى الصف واحداً وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض». وكان بعض الشيوخ يرقى بـ (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) وكان لها بركة عظيمة، فيرقى بها غيره فلا يحصل ذلك فيقول: ليس (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) من كل أحد تنفع كل أحد.

وإذا عرف ذلك فقد يكون تسبيح بعض الناس أفضل من قراءة غيره، ويكون قراءة بعض السور من بعض الناس أفضل من قراءة غيره لـ (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) وغيرها. والإنسان الواحد يختلف أيضاً حاله. فقد يفعل العمل المفضول على وجه كامل فيكون به أفضل من سائر أعماله الفاضلة، وقد غفر الله لبغي لسقيها الكلب، كما ثبت ذلك فى الصحيحين، وهذا لما حصل لها فى ذلك العمل من الأعمال القلبية وغيرها. وقد ينفق الرجل أضعاف ذلك فلا يغفر له، لعدم الأسباب المزكية للعمل، فإن الله إنما يتقبل من المتقين، وقد قال النبى صلى الله

عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » يقوله عن أصحابه السابقين الأولين رضي الله عنهم .

فإذا قيل : إن (قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) يعدل ثوابها ثواب ثلث القرآن فلا بد من اعتبار التماثل فى سائر الصفات ، وإلا فإذا اعتبر قراءة غيرها مع التدبر والخشوع بقراءتها مع الغفلة والجهل لم يكن الأمر كذلك ؛ بل قد يكون قول العبد : « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » مع حضور القلب واتصافه بمعانيها أفضل من قراءة هذه السورة مع الجهل والغفلة ، والناس متفاضلون في فهم هذه السورة ، وما اشتملت عليه ، كما أنهم متفاضلون فى فهم سائر القرآن.

فصل

وأصل هذه المسألة أن يعلم أن التفاضل والتماثل إنما يقع بين شيئين فصاعداً ، إذ الواحد من كل وجه لا يعقل فيه شيء أفضل من شيء ، فالتفاضل فى صفاته تعالى إنما يعقل إذا أثبت له صفات متعددة ، كالعلم ، والقدرة ، والإرادة ، والمحبة ، والبغض ، والرضا ، والغضب . وكإثبات أسماء له متعددة تدل على معان متعددة ، وأثبت له كلمات متعددة

تقوم بذاته حتى يقال : هل بعضها أفضل من بعض أم لا ؟ وكل قول سوى قول السلف والأئمة فى هذا الباب فهو خطأ متناقض ، وأي شيء قاله فى جواب هذه المسألة كان خطأ لا يمكنه أن يجيب فيه بجواب صحيح . فمن قال : إنه ليس له صفة ثبوتية بل ليس له صفة إلا سلبية أو إضافية — كما يقول ذلك الجهمية المحضة من المتفلسفة والمتكلمة أتباع جهم بن صفوان — فهذا إذا قيل له أيهما أفضل : نسبته التى هي الخلق إلى السموات والأرض أم إلى بعوضة ؟ أم أيما أفضل : نفى الجهل بكل شيء عنه والعجز عن كل شيء ، أم نفي الجهل بالكليات ؟ لم يمكنه أن يجيب بجواب صحيح على أصله الفاسد .

فإنه إن قال : خلق السموات مماثل خلق البعوضة كان هذا مكابرة للعقل والشرع ، قال تعالى : (لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ) وإن قال : بل ذلك أعظم وأكبر كما فى القرآن ، قيل له ليس عندك أمران وجوديان يفضل أحدهما الآخر ، إذ الخلق على قولك لايزيد على المخلوق فلم يبق إلا العدم المحض، فكيف يعقل في المعدومين من كل وجه أن يكون أحدهما أفضل من صاحبه إذا لم يكن هناك وجود يحصل فيه التفاضل ؟ وكذلك إذا قيل : نفي الجهل والعجز عن بعض الأشياء مثل نفي ذلك عن بعض الأشياء كان هذا مكابرة ، وإن قال : بل نفي الجهل العام أكمل من نفي الجهل الخاص ، قيل له : إذا

لم يلزم من نفي الجهل ثبوت علم بشيء من الأشياء ، بل كان النفيان عدمين محضين فكيف يعقل التفاضل فى الشيء الواحد من كل وجه ؟ فإنه لا يعقل في العدم المحض والنفي الصرف ، فإن ذلك ليس بشيء أصلا ، ولا حقيقة له فى الوجود ولا فيه كمال ولا مدح ، وإنما يكون التفاضل بصفات الكمال ، والكمال لا بد أن يكون وجوداً قائماً بنفسه أو صفة موجودة قائمة بغيرها . فأما العدم المحض فلا كمال فيه أصلا .

ولهذا إنما يصف الله نفسه بصفات التنزيه ، لا السلبية العدمية ، لتضمنها أموراً وجودية تكون كمالا يتمدح سبحانه بها ، كما قد بسط فى غير هذا الموضع ، كقوله تعالى : (ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) فنفى ذلك يتضمن كمال الحياة والقيومية ، وكذلك قوله (مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ) يتضمن كمال الملك والربوبية وانفراده بذلك ، ونفس انفراده بالملك والهداية والتعليم وسائر صفات الكمال هو من صفات الكمال . ولهذا كانت السورة فيها الاسمان الأحد الصمد ، وكل منهما يدل على الكمال . فقوله (أحد) يدل على نفي النظير ، وقوله (الصمد) بالتعريف يدل على اختصاصه بالصمدية .

ولهذا جاء التعريف فى اسمه الصمد دون الأحد لأن أحداً لا يوصف به فى الإثبات غيره ، بخلاف الصمد فإن العرب تسمى السيد صمداً . قال يحيى بن أبى كثير : الملائكة تسمى صمداً والآدمي أجوف ، فقوله

« الصمد » بيان لاختصاصه بكمال الصمدية . وقد ذكرنا تفسير الصمد واشتماله على جميع صفات الكمال ، كما رواه العلماء من تفسير ابن أبى طلحة عن ابن عباس ، وقد ذكره ابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى وغيرهم فى قوله : (الصمد) يقول : السيد الذي قد كمل فى سؤدده ، والشريف الذي قد كمل في شرفه ، والعظيم الذي قد كمل فى عظمته ، والحكيم الذي قد كمل في حكمته ، والعليم الذي قد كمل فى علمه ، والحليم الذي قد كمل في حلمه ، وهو الذي قد كمل فى أنواع الشرف والسؤدد ، وهو سبحانه هذه صفته لا تنبغي إلا له ، ليس له كفؤ وليس كمثله شيء ، سبحانه الواحد القهار .

وكذلك قد ثبت من حديث الأعمش عن أبى وائل ، وقد ذكره البخاري فى صحيحه ، ورواه كثير من أهل العلم في كتبهم قال : الصمد السيد الذي انتهى سؤدده . وقد قال غير واحد من السلف كابن مسعود وابن عباس وغيرهما : الصمد الذي لا جوف له . وكلا القولين حق موافق للغة ، كما قد بسط في موضعه . أما كون الصمد هو السيد فهذا مشهور ، وأما الآخر فهو أيضاً معروف فى اللغة . وقد ذكر الجوهري وغيره أن الصمد لغة في الصمت ، وليس هذا من إبدال الدال بالتاء كما ظنه بعضهم ، بل لفظ صمد يصمد صمداً يدل على ذلك .

والمقصود هنا أن صفات الكمال إنما هي فى الأمور الموجودة ،

والصفات السلبية إنما تكون كمالا إذا تضمنت أموراً وجودية ؛ ولهذا كان تسبيح الرب يتضمن تنزيهه وتعظيمه جميعاً، فقول العبد : « سبحان الله » يتضمن تنزيه الله وبراءته من السوء ، وهذا المعنى يتضمن عظمته فى نفسه ، ليس هو عدما محضا لا يتضمن وجوداً ، فإن هذا لا مدح فيه ولا تعظيم . وكذلك سائر ما تنزه الرب عنه من الشركاء ، والأولاد وغير ذلك ، كقوله تعالى : (أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا — إلى قوله — إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا * سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا * تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) .

وقوله تعالى :

(سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ) وغير ذلك .

فنفى العيوب والنقائص يستلزم ثبوت الكمال ، ونفي الشركاء يقتضي الوحدانية ، وهو من تمام الكمال ، فإن ماله نظير قد انقسمت صفات الكمال وأفعال الكمال فيه وفي نظيره ، فحصل له بعض صفات الكمال لا كلها . فالمنفرد بجميع صفات الكمال أكمل ممن له شريك يقاسمه إياها . ولهذا كان أهل التوحيد والإخلاص أكمل حباً لله من المشركين الذين يحبون غيره ، الذين اتخذوا من دونه أنداداً يحبونهم كحبه . قال

تعالى : (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ) وهـذا مبسوط فى غـير هـذا الموضع ، قد بين فيـه أن هذا من الشرك الأكـبر الذي لا يغفره الله تعالى .

وفي الصحيحـين عن ابن مسعود قال : قلت يا رسول أي الذنب أعظم ؟ قال « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » . قلت ثم أي ؟ قال : « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معـك » . قلت ثم أي ؟ قال « أن تزاني بحليلة جارك » . وأنزل الله تعالى تصديق ذلك : (وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ) الآية . فمن جعل لله نداً يحبه كحب الله فهو ممن دعا مـع الله إلهاً آخر ، وهذا من الشرك الأكبر .

والمقصود هنـا أن الشيء إذا انقسم ووقعت فيه الشركة نقص ما يحصل لـكل واحد ، فإذا كان جميعه لواحد كان أكمل ، فلهـذا كان حب المؤمنين الموحدين المخلصين لله أكمل . وكذلك سائر ما نهوا عنه من كبائر الإثم والفواحش يوجب كمال الأمور الوجوديـة فى عبادتهـم وطاعتهم ومعرفتهم ومحبتهم ، وذلك من زكاتهم ، كما أن الزرع كلما نقى عنه الدغـل كان أزكى له وأكمل لصفات الـكمال الوجودية فيـه ، قال تعالى : (وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ) وأصل الزكاة التوحيد

والإخلاص ، كما فسرها بذلك أكابر السلف . وقال تعالى : (قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ)
وقال : (خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا) . وهذا كله مبسوط في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا : أن من نفى عن الله النقائص ؛ كالموت والجهل والعجز والصمم والعمى والبكم ، ولم يثبت له صفات وجودية ؛ كالحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام ؛ بل زعم أن صفاته ليست إلا عدمية محضة ، وأنه لا يوصف بأمر وجودى ، فهذا لم يثبت له صفة كمال أصلا ، فضلا عن أن يقال أي الصفتين أفضل ؟ فإن التفضيل بين الشيئين فرع كون كل منهما له كمال ما ، ثم ينظر أيهما أكمل ، فأما إذا قدر أن كلا منهما عدم محض فلا كمال ولا فضيلة هناك أصلا .

وكذلك من أثبت له الأسماء دون الصفات فقال إنه حي عليم قدير سميع بصير عزيز حكيم — ولكن هذه الأسماء لا تتضمن اتصافه بحياة ولا علم ولا قدرة ولا سمع ولا بصر ولا عزة ولا حكمة — فإذا قيل له : أي الاسمين أفضل ؟ لم يجب بجواب صحيح ، فإنه إن قال : العليم أعظم من السميع لعموم تعلقه مثلا ، أو قال : العزيز أكمل من القدير لأنه مستلزم للقدرة من غير عكس ، قيل : إذا لم يكن للأسماء عندك

معان موجودة تقوم به لم يكن هناك لا علم ولا سمع ولا بصر ولا عزة ولا قدرة ، ليس إلا ذات مجردة عن صفات ومخلوقات ، والذات المجردة ليس فيها ما يمكن أن يقع فيه تفاضل ولا تماثل . والمخلوقات لم يكن السؤال عن تفضيل بعضها على بعض ، فإن ذلك مما يعلمه كل واحد ولا يشتبه على عاقل .

وكذلك من جعل بعض صفاته بعضاً ، أو جعل الصفة هي الموصوف ، مثل من قال : العلم هو القدرة ، والعلم والقدرة هما العالم القادر ، كما يقول ذلك من يقوله من جهمية الفلاسفة ونحوهم .

أو قال : كلامه كله هو معنى واحد قائم بذاته ، هو الأمر بكل مأمور والخبر عن كل مخبر به ، إن عبر عنه بالعربية كان قرآناً ، وإن عبر عنه بالعبرية كان توراة ، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلا ، وإن معنى آية الكرسي وآية الدين واحد ، وإن الأمر والنهي صفات نسبية للكلام ليست أنواعا ؛ بل ذات الكلام الذي هو أمر هو ذات الكلام الذي هو نهي ، وإنما تنوعت الإضافة . فهذا الكلام الذي تقوله الكلابية وإن كان جمهور العقلاء يقولون إن مجرد تصوره كاف فى العلم بفساده ، فلا يمكن على هذا القول الجواب بتفضيل كلام الله بعضه على بعض ، ولا مماثلة بعضه لبعض ؛ لأن الكلام على قولهم شيء واحد بالعين لا

يتعدد ولا يتبعض ، فكيف يمكن أن يقال : هل بعضه أفضل من بعض ، أم بعضه مثل بعض ولا بعض له عندهم ؟ . وإن قالوا : التماثل والتفاضل يقع في العبارة الدالة عليه ، قيل : تلك ليست كلاما لله على أصله ، ولا عند أئمتهم ، بل هي مخلوق من مخلوقاته ، والتفاضل فى المخلوقات لا إشكال فيه .

ومن قال من أتباعهم : إنها تسمى كلام الله حقيقة . وإن اسم الكلام يقع عليها وعلى معنى ذلك المعنى القائم بالنفس بالاشتراك اللفظي ، فإنه لم يعقل حقيقة قولهم ، بل قوله هذا يفسد أصلهم . لأن أصل قولهم : إن الكلام لا يقوم إلا بالمتكلم لا يقوم بغيره ، إذ لو جاز قيام الكلام بغير المتكلم لجاز أن يكون كلام الله مخلوقا قائماً بغيره مع كونه كلام الله . وهذا أصل الجهمية المحضة والمعتزلة الذي خالفهم فيه الكلابية وسائر المثبتة ، وقالوا : إن المتكلم لا يكون متكلما حتى يقوم به الكلام ، وكذلك فى سائر الصفات قالوا : لا يكون العالم عالماً حتى يقوم به العلم ، ولا يكون المريد مريداً حتى تقوم به الإرادة ، فلو جوزوا أن يكون لله ما هو كلام له وهو مخلوق منفصل عنه بطل هذا الأصل .

وأصل النفاة المعطلة من الجهمية والمعتزلة : أنهم يصفون الله بما لم يقم به ، بل بما قام بغيره ، أو بما لم يوجد ، ويقولون : هذه إضافات لا صفات ، فيقولون : هو رحيم ويرحم ، والرحمة لا تقوم به بل هي

مخلوقة ، وهي نعمته . ويقولون : هو يرضى ويغضب والرضا والغضب لا يقوم به ؛ بل هو مخلوق وهو ثوابه وعقابه ، ويقولون : هو متكلم ويتكلم ، والكلام لا يقوم به بل هو مخلوق قائم بغيره . وقد يقولون : هو مريد ويريد ثم قد يقولون ليست الإرادة شيئاً موجوداً ، وقد يقولون : إنها هي المخلوقات والأمر المخلوق . وقد يقولون أحدث إرادة لا في محل .

وهذا الأصل الباطل الذي أصله نفاة الصفات الجهمية المحضة من المعتزلة وغيرهم هو الذي فارقهم به جميع المثبتة للصفات : من السلف والأئمة وأهل الفقه والحديث والتصوف والتفسير وأصناف نظار المثبتة : كالكلابية ومن اتبعهم من الأشعرية وغيرهم ، وكالهشامية والكرامية وغيرهما من طوائف النظار المثبتة للصفات ، وعلى هذا أئمة المسلمين المشهورون بالإمامة وأئمة الفقهاء من أتباعهم من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة وغيرهم .

فقول من قال : إن الكلام يقع حقيقة على العبارة وهي مع ذلك مخلوقة ، يناقض الأصل الفارق بين المثبتة والمعطلة ، إلا أن يسمى متعلق الصفة باسم الصفة ، كما يسمى المأمور به أمراً ، والمرحوم به رحمة ، والمخلوق خلقاً ، والقدر[1] قدرة ، والمعلوم علماً ؛ لكن يقال له : هذا كله ليس هو الحقيقة عند الإطلاق .

---

(١) هكذا وردت في المطبوع ولعل الصواب (والمقدور)

وأيضاً فهذه الأمور أعيان قائمة بأنفسها . فإذا أضيفت إلى الله علم أنها إضافة ملك لا إضافة وصف ؛ بخلاف العبارة فإنها لا تقوم بنفسها كما لا يقوم المعنى بنفسه ، وهذا هو الأصل الفارق بين إضافة الصفات وإضافة المخلوقات ، فإن المعطلة النفاة من الصابئة والفلاسفة والمعتزلة وغيرهم من الجهمية ومن اتبعهم : كابن عقيل وابن الجوزي وغيرهما فى بعض مصنفاتهما ــ وإن كانا فى موضع آخر يقولان بخلاف ذلك ــ يقولون : ليس في النصوص إلا إضافة هذه الأمور إلى الله ، وهذه الأمور تسمى نصوص الإضافات لا نصوص الصفات . ويقولون : نصوص الإضافات وأحاديث الإضافات ، لا آيات الصفات وأحاديث الصفات . والإضافة تكون إضافة مخلوق ، لاختصاصه ببعض الوجوه كإضافة البيت والناقة والروح فى قوله : (وَطَهِّرْ بَيْتِيَ) ، وقوله : (نَاقَةَ ٱللَّهِ) ، وقوله : (فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا) .

وقالت الحلولية من النصارى ، وغلاة الشيعة ، والصوفية ومن اتبعهم ممن يقول بقدم الروح ــ أرواح العباد ــ وينتسب إلى أئمة المسلمين كالشافعي وأحمد وغيرهما مثل طائفة من أهل جيلان وغيرهم ــ بل إضافة الروح إلى الله كإضافة الكلام والقدرة ، والكلام والقدرة صفاته فكذلك الروح . وقالوا فى قوله : (فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي) دليل على أن روح العبد صفة لله قديمة . وقالت النصارى :

عيسى كلمة الله ، وكلام الله غير مخلوق ، فعيسى غير مخلوق . وقالت الصابئة والجهمية : عيسى كلمة الله وهو مخلوق ، والقرآن كلام الله فهو أيضاً مخلوق .

وهذه المواضع اشتبهت على كثير من الناس ، وقد تكلم فيها الأئمة كأحمد بن حنبل وغيره ، وتكلموا في إضافة الكلام والروح ومناظرة الجهمية والنصارى . وقد سئلت عن ذلك من جهة الحلولية تارة ومن جهة المعطلة تارة ، والسائلون تارة من أهل القبلة وتارة من غير أهلها ، وقد بسط جواب ذلك فى غير موضع ، لكن المقصود هنا أن الفارق بين المضافين : أن المضاف إن كان شيئاً قائما بنفسه أو حالا فى ذلك القائم بنفسه فهذا لا يكون صفة لله ؛ لأن الصفة قائمة بالموصوف . فالأعيان التى خلقها الله قائمة بأنفسها ، وصفاتها القائمة بها تمتنع أن تكون صفات لله ، فإضافتها إليه تتضمن كونها مخلوقة مملوكة ، لكن أضيفت لنوع من الاختصاص المقتضى للإضافة لا لكونها صفة . والروح الذي هو جبريل من هذا الباب ، كما أن الكعبة والناقة من هذا الباب ، ومال الله من هذا الباب ، وروح بنى آدم من هذا ، وذلك كقوله (فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا) ، (فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى) (وَطَهِّرْ بَيْتِىَ) ، (نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا) ، (مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ) .

وأما إن كان المضاف إليه لا يقوم بنفسه ؛ بل لا يكون إلا صفة كالعلم والقدرة والكلام والرضا والغضب فهذا لا يكون إلا إضافة صفة إليه فتكون قائمة به سبحانه ، فإذا قيل : أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك ، فعلمه صفة قائمة به وقدرته صفة قائمة به ، وكذلك إذا قيل : « أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك » فرضاه وسخطه قائم به ، وكذلك عفوه وعقوبته .

وأما أثر ذلك وهو ما يحصل للعبد من النعمة واندفاع النقمة فذاك مخلوق منفصل عنه ليس صفة له ، وقد يسمى هذا باسم ذاك كما فى الحديث الصحيح « يقول الله للجنة : أنت رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادى » فالرحمة هنا عين قائمة بنفسها لا يمكن أن تكون صفة لغيرها . فهذا هو الفارق بين ما يضاف إضافة وصف وإضافة ملك . وإذا قيل « المسيح كلمة الله » فمعناه أنه مخلوق بالكلمة ، إذ المسيح نفسه ليس كلاما . وهذا بخلاف القرآن فإنه نفسه كلام ، والكلام لا يقوم بنفسه إلا بالمتكلم ، فإضافته إلى المتكلم إضافة صفة إلى موصوفها وإن كان يتكلم بقدرته ومشيئته ، وإن سمى فعلا بهذا الاعتبار فهو صفة باعتبار قيامه بالمتكلم .

وإذا كان كذلك فمن قال : إن الكلام معنى واحد قائم بذات المتكلم ، لم يمكنه أن يجيب عن هذه المسألة بجواب صحيح . فإذا قيل

له : كلام الله هل بعضه أفضل من بعض ؟ امتنع الجواب على أصله بنعم أو لا ، لامتناع تبعضه عنده ، ولكون العبارة ، ليست كلاما ؛ لله لكن إذا أريد بالكلام العبارة ، أو قيل له : هل بعض القرآن أفضل من بعض — وأريد بالقرآن الكلام العربي الذي نزل به جبريل فهو عنده مخلوق لم يتكلم الله به ، بل هو عنده إنشاء جبريل أو غيره ؛ أو قيل : هل بعض كتب الله أفضل من بعض — وكتاب الله عنده هو القرآن العربي المخلوق عنده — فهذا السؤال يتوجه على قوله فى الظاهر ، وأما فى نفس الأمر فكلاهما ممتنع على قوله ، لأن العبارة تدل على المعاني فإن المعاني القائمة فى النفس تدل عليها العبارات ، وقد علم أن العبارات تدل على معان متنوعة ، وعلى أصله ليس المعنى إلا واحداً ، فيمتنع بالضرورة العقلية أن يكون القرآن العربي كله والتوراة والإنجيل وسائر ما يضاف إلى الله من العبارات ، إنما يدل على معنى واحد لا يتعدد ولا يتبعض ، وحينئذ فتبعض العبارات الدالة على المعاني بدون تبعض تلك المعاني ممتنع .

ولهذا قيل لهم : موسى عليه السلام لما سمع كلام الله أسمعه كله ، أم سمع بعضه ؟ إن قلتم : « كله » فقد علم كل ما أخبر الله به وما أمر به ، وقد ثبت فى الصحيح أن الخضر قال له « ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر » وقد

قال تعالى : (قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا) . وإن قلتم « سمع بعضه » فقد تبعض ، وعندكم لا يتبعض . وأيضا فقد فرق الله بين تكليمه لموسى عليه الصلاة والسلام وبين إيحائه إلى غيره من النبيين ، وفرق بين الإيحاء وبين التكليم من وراء حجاب ، فلو كان المعنى واحداً لكان الجميع إيحاء ولم يكن هناك تكليم يتميز على ذلك . ولا يمتنع أن يكون الرب تعالى مناديا لأحد ، إذ المعنى القائم بالنفس لا يكون نداء ، وقد أخبر الله تعالى بندائه فى القرآن في عدة مواضع .

وعلى هذا فمن قال من هؤلاء : إن كلام الله لا يفضل بعضه بعضاً فحقيقة قوله أن هذه المسألة ممتنعة ، فليس هناك أمران حتى يقال إن أحدهما يكون مثل الآخر أو أفضل منه . والتماثل والتفاضل إنما يعقل بين اثنين فصاعداً . وهكذا عند هؤلاء في إرادته وعلمه وسمعه وبصره ، فكل من جعل الصفة واحدة بالعين امتنع — على قوله — أن يقال : هل بعضها أفضل من بعض أم لا ؟ إذ لا بعض لها عنده . وكذلك من وافق هؤلاء على وحدة هذه الصفات بالعين وقال : إن كلام الله حروف قديمة الأعيان ، أو حروف وأصوات قديمة الأعيان ، سواء قال مع ذلك إنها أعيان الأصوات المسموعة من القراء ، أو قال إنها بعض الأصوات المسموعة من القراء . وإن كان فساد ذلك معلوما بالاضطرار

وقال ان هذه الأصوات غير تلك .

فمن قال بأن الكلام حروف أو حروف وأصوات مقترن بعضها ببعض أزلا وأبداً وهي مع ذلك شيء واحد فقوله معلوم الفساد عند جمهور العقلاء ، كما أن من جعلها قولا واحداً فقوله معلوم الفساد عند جمهور العقلاء على كل تقدير ، فيمتنع مع القول بوحدة شيء أن يقال : هل بعضه أفضل من بعض أم لا ؟ وأما من أثبت ما يتعدد من المعاني والحروف أو أحدهما فهذا يعقل على قوله : السؤال عن التماثل والتفاضل . ثم حينئذ يقع السؤال : هل يتفاضل كلام الله وصفاته وأسماؤه ، أم لا يقع التفاضل إلا فى المخلوق ؟ .

وعلى هذا فما ذكره ابن بطال فى شرح البخاري لما تكلم على هذا الحديث حيث قال : قال المهلب — وحكاه عن الأصيلي — ومذهب الأشعري وأبى بكر بن الطيب وابن أبي زيد والداودي وأبى الحسن القابسي وجماعة علماء السنة أن القرآن لا يفضل بعضه بعضاً ، إذ كله كلام الله تعالى وصفته ، وهو غير مخلوق ، ولا يجوز التفاضل إلا فى المخلوقات ، هو نقل لأقوال هؤلاء بحسب ما ظنه لازماً لهم حيث اعتقد أن التفاضل لا يكون إلا في المخلوق ، والقرآن عند هؤلاء ليس بمخلوق . لكن قدمنا أن السلف الذين قالوا إنه غير مخلوق لم ينقل عن أحد منهم أنه قال ليس بعضه أفضل من بعض ، بل المنقول عنهم

خلاف ذلك . وأما نقل هذا القول عن الأشعري وموافقيه فغلط عليهم ؛ إذ كلام الله عندهم ليس له كل ولا بعض ، ولا يجوز أن يقال : هل يفضل بعضه بعضاً أو لا يفضل ، فامتناع التفاضل فيه عنده كامتناع التماثل ، ولا يجوز أن يقال إنه متماثل ولا متفاضل ، إذ ذلك لا يكون إلا بين شيئين .

ولكن هذا السؤال يتصور عنده في الصفات المتعددة كالعلم والقدرة فيقال : أيها أفضل ؟ فإن كان قال : إن صفات الرب لا تتفاضل ؛ لأن مقتضى الأفضل نقص المفضول عنه فإنما يستقيم هذا الجواب فى هذه الصفات المتعددة لا فى نفس الكلام ، مع أن هذا النقل عن الأشعري فى نفي تفاضل الصفات غير محرر ، فإن الأشعري لم يقل : إن الصفات لا تتفاضل ، بل هذا خطأ عليه ، ولكن هو يقول : إن الكلام لا يدخله التفاضل كما لا يدخله التماثل ، لأنه واحد عنده ، لا لما ذكر . وأما الصفات المتعددة فإنه قد صرح بأنها ليست متماثلة ، ومذهبه أن الذات ليست مثل الصفات ، ولا كل صفة مثل الأخرى ، فهو لا يثبت تماثل المعانى القديمة عنده فكيف يقال — على أصله — ما يوجب تماثلها ، وإذا امتنع من إطلاق التفاضل فهو كامتناعه من إطلاق لفظ التماثل ، وكامتناعه من إطلاق لفظ التغاير .

وفى الجملة فمن نقل عنه أنه نفى التفاضل وأثبت التماثل فقد أخطأ

لكن قد لا يطلق لفظ التفاضل كما لا يطلق لفظ التماثل ، لا لأن الصفات متماثلة عنده ؛ بل هو ينفي التماثل لعدم التعدد ، ولعدم إطلاق التغاير ، كما يقال : هل يقال الصفات مختلفة أم لا ؟ وهل هي متغايرة أم لا ؟ وهل يقال فى كل صفة إنها الذات أو غيرها ، أو لا يجمع بين نفيهما ، وإنما يفرد كل نفي منهما ، أو لا يطلق شيء من ذلك ؟ فهذه الامور لا اختصاص لها بهذه المسألة مسألة التفضيل .

ولا ريب أن التماثل أو التفاضل لا يعقل إلا مع التعدد ، وتعدد أسماء الله وصفاته وكلماته هو القول الذي عليه جمهور المسلمين ، وهو الذي كان عليه سلف الأمة وأئمتها ، وهو الموافق لفطرة الله التى فطر عليها عباده ، فلهذا كان الناس يتخاطبون بموجب الفطرة والشرعة ، وإن كانت لبعضهم أقوال أخر تنافى الفطرة والشرعة ، وتستلزم بطلان ما يقوله بمقتضى الفطرة والشرعة ، فإن القرآن والسنة قد دلا على تعدد كلمات الله في غير موضع ، وقد قال تعالى : (قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)
وقال تعالى : (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ)

وقد ذكرنا فى غير هذا الموضع قول السلف وأنهم كانوا يثبتون لله كلمات لا نهاية لها ؛ وبينا النزاع فى تعدد العلوم والإرادات ، وأن

كثيراً من أهل الكلام يقول ما عليه جمهور الناس من تعدد ذلك ، وأن الذين قالوا يريد جميع المرادات بإرادة واحدة إنما أخذوه عن ابن كلاب ، وجمهور العقلاء قالوا : هذا معلوم الفساد بالضرورة ، حتى إن من فضلاء النظار من ينكر أن يذهب إلى هذا عاقل من الناس ، لأنه رآه ظاهر الفساد فى العقل ، ولم يعلم أنه قاله طائفة من النظار .

وكذلك من جعل نفس إرادته هي رحمته وهي غضبه يكون قوله صلى الله عليه وسلم « أعوذ برضاك من سخطك » معناه يكون مستعيذاً عنده بنفس الإرادة من نفس الإرادة ، وهذا ممتنع ، فإنه ليس عنده للإرادة صفة ثبوتية يستعاذ بها من أحد الوجهين باعتبار ذلك الوجه منها باعتبار الوجه الآخر . بل الإرادة عنده لها مجرد تعلق بالمخلوقات والتعلق أمر عدمي . وهذا بخلاف الاستعاذة به منه ، لأن له سبحانه صفات متنوعة فيستعاذ به باعتبار ، ومنه باعتبار . ومن قال : إنه ذات لا صفة لها ، أو موجود مطلق لا يتصف بصفة ثبوتية فهذا يمتنع تحققه فى الخارج ، وإنما يمكن تقدير هذا فى الذهن كما تقدر الممتنعات . فضلا عن أن يكون ربا خالقاً للمخلوقات ، كما قد بسط في موضعه .

وهؤلاء ألجأهم إلى هذه الأمور مضايقات الجهمية والمعتزلة لهم فى مسائل الصفات ، فإنهم صاروا يقولون لهم : كلام الله هو الله أو غير الله ؟ إن قلتم هو غيره فما كان غير الله فهو مخلوق ، وإن قلتم هو

هو فهو مكابرة . وهذا أول ما احتجوا به على الإمام أحمد فى المحنة ، فإن المعتصم لما قال لهم : ناظروه ، قال له عبد الرحمن بن إسحق : يا أبا عبد الله ! ما تقول فى القرآن — أو قال فى كلام الله — يعنى أهو الله أو غيره ؟ فقال له أحمد : ما تقول فى علم الله أهو الله أو غيره ؟ فعارضه أحمد بالعلم ، فسكت عبد الرحمن . وهذا من حسن معرفة أبى عبد الله بالمناظرة رحمه الله ، فإن المبتدع الذي بنى مذهبه على أصل فاسد متى ذكرت له الحق الذي عندك ابتداء أخذ يعارضك فيه ؛ لما قام في نفسه من الشبهة ، فينبغي إذا كان المناظر مدعياً أن الحق معه أن يبدأ بهدم ما عنده ، فإذا انكسر وطلب الحق فأعطه إياه ، وإلا فما دام معتقداً نقيض الحق لم يدخل الحق إلى قلبه ، كاللوح الذي كتب فيه كلام باطل امحه أولا ، ثم اكتب فيه الحق . وهؤلاء كان قصدهم الاحتجاج لبدعتهم ، فذكر لهم الإمام أحمد رحمه الله من المعارضة والنقض ما يبطلها .

وقد تكلم الإمام أحمد فى رده على الجهمية فى جواب هذا ، وبين أن لفظ « الغير » لم ينطق به الشرع لا نفياً ولا إثباتاً ، وحينئذ فلا يلزم أن يكون داخلا لفظ « الغير » فى كلام الشارع ولا غير داخل ، فلا يقوم دليل شرعى على أنه مخلوق . وأيضاً فهو لفظ مجمل : يراد بالغير ما هو منفصل عن الشيء ، ويراد بالغير ما ليس هو الشيء ،

فلهذا لا يطلق القول بأن كلام الله وعلم الله ونحو ذلك هو هو ، لأن هذا باطل . ولا يطلق أنه غيره ، لئلا يفهم أنه بائن عنه منفصل عنه . وهذا الذي ذكره الإمام أحمد عليه الحذاق من أئمة السنة ، فهؤلاء لا يطلقون أنه هو ، ولا يطلقون أنه غيره ، ولا يقولون ليس هو هو ولا غيره . فإن هذا أيضاً إثبات قسم ثالث وهو خطأ ، ففرق بين ترك إطلاق اللفظين لما فى ذلك من الإجمال ، وبين نفى مسمى اللفظين مطلقاً وإثبات معنى ثالث خارج عن مسمى اللفظين .

فجاء بعد هؤلاء « أبو الحسن » وكان أحذق ممن بعده فقال : ننفي مفرداً لا مجموعا ، فنقول مفرداً : ليست الصفة هي الموصوف ، ونقول مفرداً : ليست غيره ، ولا يجمع بينهما فيقال : لا هي هو ولا هي غيره ، لأن الجمع بين النفي فيه من الإيهام ما ليس فى التفريق . وجاء بعده أقوام فقالوا : بل ننفي مجموعا فنقول : لا هي هو ولا هي غيره . ثم كثير من هؤلاء إذا بحثوا يقولون هذا المعنى ، أما أن يكون غيره فيتناقضون .

وسبب ذلك أن لفظ « الغير » مجمل : يراد بالغير : المباين المنفصل ، ويراد بالغير : ماليس هو عين الشيء . وقد يعبر عن الأول بأن الغيرين ما جاز وجود أحدهما وعدمه ، أو ما جاز مفارقة أحدهما الآخر بزمان أو مكان أو وجود ، ويعبر عن الثانى بأنه ما جاز العلم بأحدهما مع عدم

العلم بالآخر . وبين هذا وهذا فرق ظاهر ، فصفات الرب اللازمة له لا تفارقه ألبتة ، فلا تكون غيراً بالمعنى الأول ، ويجوز أن تعلم بعض الصفات دون بعض وتعلم الذات دون الصفة فتكون غيراً باعتبار الثاني ، ولهذا أطلق كثير من مثبتة الصفات عليها أغياراً للذات . ومنهم من قال : نقول إنها غير الذات ولا نقول إنها غير الله ، فإن لفظ الذات لا يتضمن الصفات بخلاف اسم الله فإنه يتناول الصفات ؛ ولهذا كان الصواب — على قول أهل السنة — أن لا يقال في الصفات : إنها زائدة على مسمى اسم الله ؛ بل من قال ذلك فقد غلط عليهم .

وإذا قيل : هل هي زائدة على الذات أم لا ؟ كان الجواب : إن الذات الموجودة فى نفس الأمر مستلزمة للصفات ، فلا يمكن وجود الذات مجردة عن الصفات ؛ بل ولا يوجد شيء من الذوات مجرداً عن جميع الصفات ، بل لفظ « الذات » تأنيث « ذو » ولفظ « ذو » مستلزم للإضافة . وهذا اللفظ مولد ، وأصله أن يقال : ذات علم ، ذات قدرة ، ذات سمع ، كما قال تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ ويقال: فلانة ذات مال ، ذات جمال . ثم لما علموا أن نفس الرب ذات علم وقدرة وسمع وبصر — رداً على من نفى صفاتها — عرفوا لفظ الذات ، وصار التعريف يقوم مقام الإضافة ، فحيث قيل لفظ الذات فهو ذات كذا ، فالذات لا تكون إلا ذات علم وقدرة

ونحو ذلك من الصفات لفظاً ومعنى . وإنما يريد محققوا أهل السنة بقولهم « الصفات زائدة على الذات » أنها زائدة على ما أثبته نفاة الصفات من الذات ، فإنهم أثبتوا ذاتاً مجردة لا صفات لها ، فأثبت أهل السنة الصفات زائدة على ما أثبته هؤلاء ، فهي زيادة فى العلم والاعتقاد والخبر ، لا زيادة على نفس الله جل جلاله وتقدست أسماؤه . بل نفسه المقدسة متصفة بهذه الصفات لا يمكن أن تفارقها ، فلا توجد الصفات بدون الذات ولا الذات بدون الصفات . وهذه الأمور مبسوطة فى غير هذا الموضع .

والمقصود أن الأشعري وغيره من الصفاتية — الذين سلكوا مسلك ابن كلاب — إذا قال أحدهم فى الصفات إنها متماثلة فإن هذا لا يقوله عاقل ، إذ المثلان ما سد أحدهما مسد الآخر وقام مقامه ، والعلم ليس مثلا للقدرة ، ولا القدرة مثلا للإرادة ، وأما الكلام فإنه عنده شيء واحد ، والواحد يمتنع فيه تفاضل أو تماثل .

وفى الجملة فالذين يمنعون أن يكون كلام الله بعضه أفضل من بعض لهم مأخذان :

« أحدهما » أن صفات الرب لا يكون بعضها أفضل من بعض ، وقد يعبرون عن ذلك بأن القديم لا يتفاضل .

« والثانى » أنه واحد ، والواحد لا يتصور فيه تفاضل ولا تماثل .

وهذا على قول من يقول : إنه واحد بالعين ، وهؤلاء الذين يقولون إنه واحد بالعين منهم من يجعله مع ذلك حروفا أو حروفا وأصواتاً قديمة الأعيان ، ويقول : هو مع ذلك شيء واحد ، كما يوجد فى كلام طائفة من المتأخرين الذين أخذوا عن الكلابية أنه ليس له إلا إرادة واحدة وعلم واحد وقدرة واحدة وكلام واحد وأن القرآن قديم . وأخذوا عن المعتزلة وغيرهم أنه مجرد الحروف والأصوات ، والتزموا أن الحروف والأصوات قديمة الأعيان ، مع أنها مترتبة فى نفسها ترتبا ذاتيا فى الوجود أزلية لم يزل بعضها مقارناً لبعض ، وفرقوا بين ذات الشيء وبين وجوده في الخارج موافقة لمن يقول ذلك من المعتزلة وكثير من القائلين بقدمه ، وأنه حروف وأصوات ، لا يقولون إنه شيء واحد بل يجعلونه متعدداً مع قدم القرآن ، وقدم أعيان الحروف والأصوات .

والقول الآخر لمن يقول إنه واحد بالعين : أن القديم هو معنى واحد لا يتعدد ولا يتبعض ، كما قد بين حقيقة قولهم . وهذا هو القول المنسوب إلى ابن كلاب والأشعري . وهذا القول أول من عرف أنه قاله فى الإسلام ابن كلاب لم يسبقه إليه أحد من الصحابة ولا التابعين ولا غيرهم من أئمة المسلمين ، مع كثرة ما تكلم الصحابة والتابعون فى كلام الله تعالى ، ومع أنه من أعظم وأهم أمور الدين الذي تتوفر

الهمم على معرفته وذكره ، ومـع تواتر نص الكتاب والسنة وآثار الصحابة على خلاف هذا القول . وكل مـن هذه الأقوال ممـا يدل الكتاب والسنة وآثار السلف على خلافه . وكل منها ممـا اتفق جمهور العقلاء الذين يتصورونه على أن فساده معلوم بضرورة العقل ، ويجوز اتفاق طائفة من العقلاء على قول يعـلم فساده بضرورة العقل إذا كان عن تواطؤ ، كما يجوز اتفاقهم على الكذب تواطؤاً ، وأما بدون ذلك فلا يجوز .

فالمذهب الذي تقلده بعض النـاس عن بعض — كقول النصارى والرافضة والجهمية والدهرية ونحو ذلك — يجوز أن يكون فيه ما يعلم فساده بضرورة العقل ، وإن كان طائفة من العقلاء قالوه على هذا الوجه ، فأما أن يقولوه من غير تواطؤ فهذا لا يقع ، وأكثر المتقلدين للأقوال الفاسدة لا يتصورونها تصوراً تاماً حـتى يكون تصورها التام موجبـاً للعلم بفسادها . ثم إذا اشتهر القول عند طائفة لم يعلموا غيره عن أهل السنة ظنوا أنه قول أهل السنة .

ولما كان المشهور عند المسلمين أن أهل السنـة لا يقولون القرآن مخلوق صار كل من رأى طائفة تنكر قول من يقول القرآن مخـلوق يظن أن كل ما قالته فى هـذا الباب هو قول السلف وأئمـة السنـة — والذين قالوا إن القرآن غير مخـلوق بل قائم بذات الله ، ووافقوا

السلف والأئمة فى هذا لما ظهرت محنة الجهمية ــ وثبت فيها الإمام أحمد الذي أيد الله به السنة ونصر السنة ــ صار شعار أهل السنة أن القرآن كلام الله غير مخلوق وأن الله يُرى فى الآخرة ، فكل من أنكر ذلك فهو من أهل البدعة فى اللسان العام ـــ فكثر حينئذ من يوافق أهل السنة والحديث على ذلك ، وإن كان لا يعرف حقيقة قولهم ، بل معه أصول من أصول أهل البدع الجهمية يريد أن يجمع بينها وبين قول أهل السنة ، كما يريد المتفلسف أن يجمع بين أقوال المتفلسفة المخالفين للرسل وبين ما جاءت به الرسل .

فلهذا صار المتسبون إلى السنة الذين يقولون القرآن كلام الله غير مخلوق لهم أقوال :

(أحدها) قول من يقول : إنه قديم العين ، وإن الله لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، ولا يتكلم بكلام بعد كلام . ثم هؤلاء على قولين : منهم من يقول ذلك القديم هو معنى واحد لازم لذات الله أبداً ، أو خمسة معان . (ومنهم) من يقول : بل هو حروف وأصوات قديمة الأعيان لازمة لذات الله أبداً . (الثالث) قول من يقول : بل الرب فى أزله لم يكن الكلام ممكنا له ، كما لم يكن الفعل ممكنا له عندهم ؛ لأن وجود الكلام والفعل لا يكون إلا بمشيئته واختياره ، ووجود ما يكون بالمشيئة والاختيار محال عندهم دوامه . ثم (المشهور) عن هؤلاء قول من يقول :

تكلم فيما لا يزال بحروف وأصوات تقوم بذاته ، كما يقوله طوائف متعددة منهم الكرامية . وبعض الناس يذكر ما يقتضى أن الكلام الذي قام به شيئاً بعد شيء إنما هو علوم وإرادات ، وأبو عبد الله الرازي يميل إلى هذا فى بعض كتبه .

و (الخامس) قول من يقول : لم يزل متكلما كيف شاء . وهـذا هو المعروف عن السلف وأئمة السنة ، مثل عبد الله بن المبارك وأحمـد بن حنبل وسائر أهل الحديث والسنة .

ثم هؤلاء منهم من يقول : لم يزل متكلما لا يسكت ، بل لا يزال متكلما بمشيئته وقدرته . وهذا هو الذي جعله ابن حامـد المشهور من مذهب أحمد وأصحابه ، مع أنه حكى أنه لا يختلف قول أحمـد أنه لم يزل متكلما كيف شاء وكما شاء . والقول الثاني أنه يتكلم إذا شـاء ويسكت إذا شاء . وهذا القول حكاه أبو بكر عبد العزيز عن طائفة من أصحاب أحمـد ، وكذلك خرجه ابن حامد قولا فى المذهب ، مع ذكره أنه لم يختلف مذهبه فى أنه لم يزل متكلما كيف شاء وكما شاء ، وأنـه لا يجوز أن يكون لم يزل ساكتاً ثم صار متكلما كما يقوله الكرامية . وهذه الأقوال وتوابعها مبسوطة فى موضع آخر ،

والمقصود هنا أن الذين قالوا : « كلام الله غير مخلوق » تنازعوا

بعد ذلك على هذه الأقوال ، مع أن أكثر الذين قالوا بعض هذه الأقوال لا يعلمون ما قال غيرهم ، بل غاية ما عند أئمتهم المصنفين فى هذا الباب معرفة قولين أو ثلاثة أو أربعة من هذه الأقوال ـ كقول المعتزلة والكلابية والسالمية والكرامية ـ ولا يعرفون أن في الإسلام من قال سوى ذلك ، وبصنف أحدهم كتاباً كبيراً في « مقالات الإسلاميين » وفى « الملل والنحل » ، ويذكر عامة الأقوال المبتدعة فى هذا الباب ، والقول المأثور عن السلف والأئمة لا يعرفه ولا ينقله ، مع أن الكتاب والسنة مع المعقول الصريح لا يدل إلا عليه ، وكل ما سواه أقوال متناقضة كما بسط فى موضعه .

والقصد هنا : أن من كان عنده أن قول المعتزلة مثلا ، أو قول المعتزلة والكرامية ، أو قول هؤلاء وقول الكلابية ، أو قول هؤلاء وقول السالمية ـ هو باطل من أقوال أهل البدع ، لم يبق عنده قول أهل السنة إلا القول الآخر الذي هو أيضاً من الأقوال المبتدعة المخالفة لصريح المعقول وصحيح المنقول ، فيفرع على ذلك القول ما يضيفه إلى السنة ، ثم إذا تدبر نصوص الكتاب والسنة وآثار السلف وجدها تخالف ذلك القول أصلاً وفرعا ، كما وقع لمن أنكر فضل « فاتحة الكتاب » و« آية الكرسي » و (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) على غيرها من القرآن ، فإن عمدتهم ما قدمته من الأصل الفاسد . أما كون الكلام واحداً فلا يتصور فيه

تفاضل ولا تماثل ولا تعدد . وأما كون صفات الرب لا تتفاضل — وربما قالوا : القديم لا يتفاضل · وهو من جنس قول الجهمية والمعتزلة ونحوهم : القديم لا يتعدد — فهذا لفظ مجمل : فإن القديم إذا أريد به رب العالمين : فرب العالمين إله واحد لا شريك له ، وإذا أريد به صفاته . فمن قال إن صفات الرب لا تتعدد فهو يقول : العلم هو القدرة ، والقدرة هي الإرادة ؛ والسمع والبصر هو العلم . وقد يقول بعضهم أيضاً : العلم هو الكلام ، ويقول آخرون : العلم والقدرة هو الإرادة ، ثم قد يقولون إن الصفة هي الموصوف : فالعلم هو العالم والقدرة هي القادر . وهذه الأقوال صرح بها نفاة الصفات من الفلاسفة والجهمية ونحوهم كما حكيت ألفاظهم فى غير هذا الموضع . ومعلوم أن فى هذه الأقوال من مخالفة المعقول الصريح والمنقول الصحيح — بل مخالفة المعلوم بالاضطرار للعقلاء . والمعلوم بالاضطرار من دين الإسلام ودين الرسل — ما يبين أنها في غاية الفساد شرعا وعقلا .

ثم إن هؤلاء تأولوا نصوص الكتاب والسنة بتأويلات باطلة : منهم من قال : المراد بكونه أعظم وأفضل وخيراً كونه عظيما فى نفسه ، وامتنع هؤلاء من إجراء التفضيل عليه ، وحكى هذا عن الأشعري وابن الباقلاني وجماعة غيرهما . ومعلوم أن من تدبر ألفاظ الكتاب والسنة تبين له أنها لا تحتمل هذا المعنى ، بل هو من نوع القرمطة . فإن الله

تعالى يقول : (ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : لأبي « أتدري أي آية معك في كتاب الله أعظم » وقال : « لأعلمنك سورة لم ينزل فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا في الزبور ولا فى القرآن مثلها » إلى غير ذلك مما تقدم ذكره .

ومنهم من قال : بل المراد بقوله « خير منها » أي خير منها لكم أي أكثر ثواباً أو أقل تعباً ، وقال : ما دل على أن بعضه أفضل من بعض فليس هو تفضيلا لنفس الكلام بل لمتعلقه ، وهو أن تلاوة هذا والعمل به يحصل به من الأجر أكثر مما يحصل بالآخر . فيقال لهؤلاء : ما ذكرتموه حجة عليكم ، مع ما فيه من مخالفة النص . وذلك أن كون الثواب على أحد القولين أو الفعلين أكثر منه على الثاني إنما كان لأنه فى نفسه أفضل ، ولهذا إنما تنطق النصوص بفضل القول والعمل في نفسه ، كما قد سئل النبي صلى الله عليه وسلم غير مرة : أي العمل أفضل ؟ فيجيب بتفضيل عمل على عمل ، وذلك مستلزم لرجحان ثوابه . وأما رجحان الثواب مع تماثل العملين فهذا مخالف للشرع والعقل .

وكذلك الكلام ، ففى صحيح مسلم عن سمرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أفضل الكلام بعد القرآن أربع — وهن من القرآن — سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » ،

فأخبر أنها أفضل الكلام بعد القرآن مع كونها من القرآن ، ففضل نفس هذه الأقوال بعد القرآن على سواها . وكذلك في صحيح مسلم أنه سئل : أي الكلام أفضل ؟ فقال « ما اصطفى الله لملائكته : سبحان الله وبحمده » . وفي الموطأ وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير » ، فأخبر أن هذا الكلام أفضل ما قاله هو والنبيون من قبله . وفي سنن ابن ماجه عنه أنه قال : « أفضل الذكر : لا إله إلا الله . وأفضل الدعاء : الحمد لله » وقد رواه ابن أبي الدنيا . وفي الصحيحين أنه قال « الإيمان بضع وستون — أو وسبعون — شعبة ، أعلاها قول لا إله إلا الله » . ومثل هذا كثير في النصوص يفضل العمل على العمل ، والقول على القول . ويعلم من ذلك فضل ثواب أحدهما على الآخر .

أما تفضيل الثواب بدون تفضيل نفس القول والعمل فلم يرد به نقل ، ولا يقتضيه عقل ، فإنه إذا كان القولان متماثلين من كل وجه ، أو العملان متماثلين من كل وجه ، كان جعل ثواب أحدهما أعظم من ثواب الآخر ترجيحاً لأحد المتماثلين على الآخر بلا مرجح . وهذا أصل قول القدرية والجهمية الذين يقولون : إن القادر يرجح أحد مقدوريه بلا مرجح ، وظنوا أنهم بهذا الأصل ينصرون الإسلام ، فلا للإسلام

نصروا ولا لعدوه كسروا . بـل تسلط عليهم سلف الأمـة وأئمتها بالتبديع والتضليل والتـكفير والتجهيل ، وتسلط عليهم خصومهم الدهرية وغيرهم بإلزامهم مخالفة المعقول ، وجعـلوا ذلك ذريعة إلى الزيادة فى مخالفة المشروع والمعقول كما جرى للملحدين مع المبتدعين .

وأيضاً فقول القائل : إنه ليس بعض ذلك خيراً مـن بعض بل بعضه أكثر ثواباً : رد لخبر الله الصريح ، فإن الله يقول : (نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ) فكيف يقال ليس بعضه خيراً من بعض ؟ وإذا كان الجميع متماثلا فى نفسه امتنع أن يكون فيه شيء خيراً من شيء . وكون معنى الخير أكثر ثوابا مع كونه متماثلا في نفسه أمر لا يدل عليه اللفظ حقيقة ولا مجازاً ، فلا يجوز حمله عليه ، فإنه لا يعرف قط أن يقـال هذا خير من هذا وأفضل من هذا مـع تساوي الذاتين بصفاتهما من كل وجه ، بل لا بد — مع إطلاق هذه العبارة — من التفاضل ولو ببعض الصفات ، فأما إذا قدر أن مختاراً جعل لأحدهما مع التماثل ما ليس للآخر مع استوائهما بصفاتهما من كل وجـه فهذا لا يعقل وجوده ، ولو عقل لم يقل إن هذا خير من هذا أو أفضل لأمر لا يتصف به أحدهما ألبتة .

وأيضاً ففي الحديث الصحيح أنه قال فى الفاتحة : « لم ينزل فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى القرآن مثلها » ، فقـد صرح الرسول

بأن الله لم ينزل لها مثلا ، فمن قال : إن كل ما نزل من كلام الله فهو مثل لها من كل وجه فقد ناقض الرسول فى خبره .

وأيضاً فقد تقدم قوله : (أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ) ومع تماثل كل حديث لله فليس القرآن أحسن من التوراة والإنجيل . وكذلك تقدم ما خص الله به القرآن من الأحكام .

فإن قيل : نحن نسلم لكم أن الله خص بعض كلامه من الثواب والأحكام بما لا يشركه فيه غيره ، لكن هذا عندنا بمحض مشيئته ؛ لا لاختصاص ذلك الكلام بوصف امتاز به عن الآخر . قيل : أولا هذا مخالف لصريح نصوص الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة ، مع مخالفته لصريح المعقول . ثم هذا مبني على أصل الجهمية والقدرية ، وهو أن القادر المختار يرجح أحد المتماثلين على الآخر بلا مرجح . وهؤلاء لما جوزوا هذا قالوا : إن الرب لم يزل معطلا ، وما كان يمكن فى الأزل أن يتكلم ولا أن يفعل . ثم صار الكلام والفعل ممكناً من غير حدوث شيء اقتضى انتقالها من الامتناع إلى الإمكان ، وقالوا : إن القادر المرجح يرجح بلا مرجح .

ثم قالت الجهمية : والعبد ليس بقادر فى الحقيقة ، فلا يرجح شيئاً ، بل الله هو الفاعل لفعله ، وفعله هو نفس فعل الرب . وقالت

القدرية : العبد قادر تام القدرة يرجح أحد مقدوريه على الآخر بلا سبب حادث ، ولا حاجة إلى أن يحدث الله ما به يختص به فعل أحدهما ؛ بل هو — مع أن نسبته إلى الضدين الإيمان والكفر سواء — يرجح أحدهما بلا مرجح لا من الله ولا من العبد ، ولا يفتقر إلى إعانة الله ولا إلى أن يجعله شائياً ولا يجعله يقيم الصلاة ولا يجعله مسلماً . ومعلوم بالعقول خلاف هذا ، والله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن لكن المدح فى هذا الكلام معناه أنه مطلق المشيئة لا معوق له إذا أراد شيئاً ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يقولن أحدكم : اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت ، ولكن ليعزم المسألة ، فإن الله لا مكره له » . فبين صلى الله عليه وسلم أنه لا يفعل إلا بمشيئته ، ليس له مكره حتى يقال له افعل إن شئت ، ولا يفعل إن لم يشأ .

فهو سبحانه إذا أراد شيئاً كان قادراً عليه لا يمنعه منه مانع . لا يعنى بذلك أنه يفعل لمجرد مشيئة ليس معها حكمة ، بل يفعل عندهم ما وجود فعله وعدمه بالنسبة إليه سواء من كل وجه . فإن هذا ليس بمدح ، بل المعقول من هذا أنه صفة ذم ، فمن فعل لمجرد إرادته الفعل من غير حكمة لفعله ولا تضمن غاية مجردة كان أن لا يفعل خيراً له . وقد ذم الله سبحانه في كتابه من نسبه إلى هذا فقال تعالى

(وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ) ، وقال تعالى :

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ) ، قال المفسرون : العبث أن يعمل عملا لا لحكمة ، وهو جنس من اللعب . وقال : (وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ) ، وقال : (أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى) . قال المفسرون وأهل اللغة : السدى المهمل الذي لا يؤمر ولا ينهى ؛ كالذي يترك الإبل سدى مهملة ، وقال تعالى : (وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ) ، وقال تعالى : (وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ) .

وقد بين سبحانه الفرق بين ما أمر به وما نهى عنه ، وبين من يحمده ويكرمه من أوليائه ، ومن يذمه ويعاقبه من أعدائه ، وأنهم مختلفون لا يجوز التسوية بينهما . وجعل خلاف ذلك من المنكر الذي لا مساغ له . فقال تعالى : (أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) ، وقال : (أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ) . وقال تعالى :

(أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ) فبين أن هذا الحكم سيء فى نفسه ليس الحكم به مساوياً للحكم بالتفاضل . ثم قال : (وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ) فأخبر أنه خلق الخلق ليجزى كل نفس بما كسبت ، وأنه لا يظلم أحداً فينقص من حسناته شيئاً ، بل كما قال : (وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا) .

وقد نزه نفسه فى غير موضع من القرآن أن يظلم أحداً من خلقه فلا يؤتيه أجره أو يحمل عليه ذنب غيره فقال تعالى : (وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا) ، وقال تعالى :
(لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ)
وقال تعالى : (ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ * وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ)
وفي الحديث الصحيح الإلهي « يا عبادي ، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً ، فلا تظالموا » .

وما تزعمه القدرية من أن تفضيل بعض عباده على بعض بفضله وإحسانه من باب الظلم جهل منهم ، وكذلك جزاؤهم بأعمالهم التى جرى

بها القدر ليس بظلم ، فإن الواحد من الناس إذا عاقبه غيره بسيئاته وانتصف للمظلوم من الظالم لم يكن ذلك ظلماً منه باتفاق العقلاء ، بل ذلك أمر محمود منه ، ولا يقول أحد إن الظالم معذور لأجل القدر . فرب العالمين إذا أنصف بعض عباده من بعض وأخذ للمظلومين حقهم من الظالمين كيف يكون ذلك ظلماً منه لأجل القدر ؟ ! وكذلك الواحد من العباد إذا وضع كل شيء موضعه ، فجعل الطيب مع الطيب فى المكان المناسب له وجعل الخبيث مع الخبيث في المكان المناسب له كان ذلك عدلا منه وحكمة . فرب العالمين إذا وضع كل شيء موضعه ولم يجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض، ولم يجعل المتقين كالفجار ، ولا المسلمين كالمجرمين . والجنة طيبة لا يصلح أن يدخلها إلا طيب ، ولهذا لا يدخلها أحد إلا بعد القصاص الذي ينظفهم من الخبث ، كما ثبت فى الصحيح عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إن المؤمنين إذا عبروا الجسر — وهو الصراط المنصوب على متن جهنم — فإنهم يوقفون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا ، فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة » وهذه الأمور مبسوطة فى غير هذا الموضع .

والمقصود : هنا أن ما يقوله القدرية من الظلم والعدل الذي يقيسون به الرب على عباده من بدعهم التى ضلوا بها وخالفوا بها الكتاب والسنة

وإجماع سلف الأمة ، وكذلك من قابلهم فنفى حكمة الرب الثابتة فى خلقه وأمره وما كتبه على نفسه من الرحمة ، وما حرمه على نفسه من الظلم ، وما جعله للمخلوقات والمشروعات من الأسباب التى شهد بها النص مع العقل والحس ، واتفق عليها سلف الأمة وأئمة الدين ، كقوله تعالى : (وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) وقوله تعالى : (فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ) ونحو ذلك ، فإن هذه الأقاويل أصلها مأخوذ من الجهم بن صفوان إمام غلاة المجبرة وكان ينكر رحمة الرب ، ويخرج إلى الجذمى فيقول : أرحم الراحمين يفعل مثل هذا ؟ ! يريد بذلك أنه ما ثم إلا إرادة رجح بها أحد المتماثلين بلا مرجح ، لا لحكمة ولا رحمة .

ولهذا كان الذين وافقوه على قوله من المنتسبين إلى مذهب أهل السنة والجماعة يتناقضون ، لأنهم إذا خاضوا فى الشرع احتاجوا أن يسلكوا مسالك أئمة الدين فى إثبات محاسن الشريعة وما فيها من الأمر بمصالح العباد ، وما ينفعهم من النهي عن مفاسدهم وما يضرهم ، وأن الرسول الذي بعث بها بعث رحمة ، كما قال تعالى : (وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ) وقد وصفه الله تعالى بقوله : (وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ

عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ) فأخبر أنه يأمر بما هو معروف وينهى عما هو منكر ، ويحل ما هو طيب ويحرم ما هو خبيث .

ولو كان المعروف لا معنى له إلا المأمور به والمنكر لا معنى له إلا ما حرم لكان هذا كقول القائل : يأمرهم بما يأمرهم وينهاهم عما ينهاهم ، ويحل لهم ما أحل لهم ويحرم عليهم ما حرم عليهم. وهذا كلام لا فائدة فيه ، فضلا عن أن يكون فيه تفضيل له على غيره . ومعلوم أن كل من أمر بأمر يوصف بذلك ، وكل نبي بعث فهذه حاله . وقد قال تعالى : (فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ) فعلم أن الطيب وصف للعين ، وأن الله قد يحرمها مع ذلك عقوبة للعباد ، كما قال تعالى لما ذكر ما حرمه على بني إسرائيل : (ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ) وقال تعالى : (يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ) فلو كان معنى الطيب هو ما أحل كان الكلام لا فائدة فيه . فعلم أن الطيب والخبيث وصف قائم بالأعيان .

وليس المراد به مجرد التذاذ الأكل فإن الإنسان قد يلتذ بما يضره من السموم وما يحميه الطبيب منه ، ولا المراد به التذاذ طائفة من الأمم كالعرب ، ولا كون العرب تعودته ؛ فإن مجرد كون أمة من الأمم تعودت أكله وطاب لها ، أو كرهته لكونه ليس في بلادها لا

يوجب أن يحرم الله على جميع المؤمنين مالم تعتده طباع هؤلاء ، ولا أن يحل لجميع المؤمنين ما تعودوه . كيف وقد كانت العرب قد اعتادت أكل الدم والميتة وغير ذلك وقد حرمه الله تعالى . وقد قيل لبعض العرب : ما تأكلون ؟ قال : ما دب ودرج ، إلا أم حبين . فقال : ليهن أم حبين العافية . ونفس قريش كانوا يأكلون خبائث حرمها الله وكانوا يعافون مطاعم لم يحرمها الله . وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قدم له لحم ضب فرفع يده ولم يأكل ، فقيل : أحرام هو يا رسول الله ؟ قال : « لا ، ولكنه لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه » . فعلم أن كراهة قريش وغيرها لطعام من الأطعمة لا يكون موجباً لتحريمه على المؤمنين من سائر العرب والعجم .

وأيضاً فإن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لم يحرم أحد منهم ما كرهته العرب ، ولم يبح كل ما أكلته العرب . وقوله تعالى : (وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ) إخبار عنه أنه سيفعل ذلك ، فأحل النبي صلى الله عليه وسلم الطيبات وحرم الخبائث مثل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير فإنها عادية باغية ، فإذا أكلها الناس — والغاذي شبيه بالمغتذي — صار في أخلاقهم شوب من أخلاق هذه البهائم وهو البغي والعدوان ، كما حرم الدم المسفوح لأنه مجمع قوى النفس الشهوية الغضبية ، وزيادته توجب طغيان هذه القوى وهو

مجرى الشيطان من البدن ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم » . ولهذا كان شهر رمضان إذا دخل صفدت الشياطين ، لأن الصوم جنة .

فالطيبات التى أباحها هي المطاعم النافعة للعقول والأخلاق ، والخبائث هي الضارة للعقول والأخلاق ، كما أن الخمر أم الخبائث لأنها تفسد العقول والأخلاق ، فأباح الله للمتقين الطيبات التى يستعينون بها على عبادة ربهم التى خلقوا لها ، وحرم عليهم الخبائث التى تضرهم في المقصود الذي خلقوا له ، وأمرهم مع أكلها بالشكر ، ونهاهم عن تحريمها ، فمن أكلها ولم يشكر ترك ما أمر الله به واستحق العقوبة . ومن حرمها — كالرهبان — فقد تعدى حدود الله فاستحق العقوبة ، قال تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) وفى الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ، ويشرب الشربة فيحمده عليها » وفى حديث آخر : « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » وقال تعالى : (لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ) أي عن شكره ، فإنه لا يبيح شيئاً ويعاقب من فعله ، ولكن يسأله عن الواجب الذي أوجبه معه وعما حرمه عليه : هل فرط بترك مأمور أو فعل محظور ، كما قال تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ

لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ) فنهاهم عن تحريم الطيبات . كما كان طائفة من الصحابة قد عزموا على الترهب ، فأنزل الله هذه الآية . وفى الصحيحين أن رجالا من الصحابة قال أحدهم : أما أنا فأصوم لا أفطر ، وقال آخر : أما أنا فأقوم لا أنام ، وقال آخر : أما أنا فلا أقرب النساء ، وقال آخر : أما أنا فلا آكل اللحم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما بال رجال يقول أحدهم كذا وكذا .. لكني أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء ، وآكل اللحم . فمن رغب عن سنتى فليس مني » ولبسط هذه الأمور موضع آخر .

والمقصود هنا : أن الله بين في كتابه وعلى لسان رسوله حكمته فى خلقه وأمره كقوله : (وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا) فعلل التحريم بأنها فاحشة بدون النهي ، وأن ذلك علة للنهي عنها ، وقوله : (وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ) فذكر براءته من هذا على وجه المدح له بذلك وتنزيهه عن ذلك ، فدل على أن من الأمور مالا يجوز أن يضاف إلى الله الأمر به ، ليست الأشياء كلها مستوية في أنفسها ولا عنده ، وأنه لا يخصص المأمور على المحظور لمجرد التحكم ، بل يخصص المأمور بالأمر والمحظور بالحظر لما اقتضته حكمته .

وقد تدبرت عامة ما رأيته من كلام السلف — مع كثرة البحث عنه ، وكثرة ما رأيته من ذلك — هل كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان أو أحد منهم على ما ذكرته من هذه الأقوال التى وجدتها فى كتب أهل الكلام : من الجهمية والقدرية ومن تلقى ذلك عنهم : مثل دعوى الجهمية أن الأمور المتماثلة يأمر الله بأحدها وينهى عن الآخر لا لسبب ولا لحكمة ، أو أن الأقوال المتماثلة والأعمال المتماثلة من كل وجه يجعل الله ثواب بعضها أكثر من الآخر بلا سبب ولا حكمة . ونحو ذلك مما يقولونه : كقولهم إن كلام الله كله متماثل ، وإن كان الأجر في بعضه أعظم ، فما وجدت فى كلام السلف ما يوافق ذلك . بل يصرحون بالحكم والأسباب ، وبيان مافى المأمور به من الصفات الحسنة المناسبة للأمر به ، وما فى المنهي عنه من الصفات السيئة المناسبة للنهي عنه . ومن تفضيل بعض الأقوال والأعمال في نفسها على بعض . ولم أر عن أحد منهم قط أنه خالف النصوص الدالة على ذلك . ولا استشكل ذلك ، ولا تأوله على مفهومه ، مع أنه يوجد عنهم فى كثير من الآيات والأحاديث استشكال واشتباه ، وتفسيرها على أقوال مختلفة قد يكون بعضها خطأ . والصواب هو القول الآخر . وما وجدتهم فى مثل قوله تعالى : (ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ) وقول النبى صلى الله عليه وسلم لأبى « أي آية فى كتاب الله أعظم » وقوله فى الفاتحة « لم ينزل فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا في القرآن مثلها »

ونحو ذلك إلا مقرين لذلك قائلين بموجبه .

والنبي صلى الله عليه وسلم سأل أبيا « أي آية في كتاب الله أعظم ؟ » فأجابه أبي بأنها آية الكرسي فضرب بيده فى صدره وقال « ليهنك العلم أبا المنذر » . ولم يستشكل أبي ولا غيره السؤال عن كون بعض القرآن أعظم من بعض ، بل شهد النبي صلى الله عليه وسلم بالعلم لمن عرف فضل بعضه على بعض وعرف أفضل الآيات ، وكذلك قوله تعالى : (مَانَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْنُنسِهَا) .

وما رأيتهم تنازعوا فى تفسير (بِخَيْرٍ مِّنْهَا) . فإن هذه الآية فيها قراءتان مشهورتان : قراءة الأكثرين (أَوْنُنسِهَا) من أنساه ينسيه ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (أو ننسأها) بالهمز من نسأه ينسأه . فالأول من النسيان ، والثاني من نسأ إذا أخر . قال أهل اللغة : نسأته نسأ إذا أخرته . وكذلك أنسأته ، يقال نسأته البيع وأنسأته . قال الأصمعي : أنسأ الله في أجله ونسأ في أجله بمعنى . ومن هذه المادة بيع النسيئة . ومن كلام العرب : من أراد النساء ولا نساء ، فليبكر الغداء ، وليخفف الرداء ، وليقلل من غشيان النساء .

فأما القراءة الأولى فمعناها ظاهر عند أكثر المفسرين ، قالوا : المراد به ما أنساه الله من القرآن كما جاءت الآثار بذلك ، فإن ما يرفع

من القرآن إما أن يكون رفعاً شرعياً بإزالته من القلوب وهو الإنساء فأخبر تعالى أن ما ينسخه أو ينسيه فإنه يأتي بخير منه أو مثله ، بـين ذلك فضله ورحمته لعباده المؤمنين ، فإنه قال قبل ذلك : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ * مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ)

فنهاهم عن التشبه بأهل الكتاب فى سوء أدبهم على الرسول وعلى ما جاء به ، وأخبر أنهم لحسدهم ما يودون أن الله ينزل عليه شيئاً من الكتاب والحكمة ، ثم أخبر بنعمته على المؤمنين ، فإنه قد كان بعض القرآن ينسخ وبعضه ينسى — كما جاءت الآثار بذلك — وما أنساه سبحانه هو مما نسخ حكمه وتلاوته ، بخلاف المنسوخ الذي يتلى وقد نسخ ما نسخ من حكمه أو نسخ تلاوته ولم ينس ، وفى النسخ والإنساء نقص ما أنزله على عباده .

فبين سبحانه أنه لا نقص في ذلك بل كل ما نسخ أو ينسى فإن الله يأتي بخير منه أو مثله ، فلا يزال المؤمنون فى نعمة من الله لاتنقص بل تزيد ، فإنه إذا أتى بخير منها زادت النعمة ، وإن أتى بمثلها كانت النعمة باقية ، وقال تعالى : (أَوۡ نُنسِهَا) فأضاف الإنساء إليـه ، فإن هذا الإنساء ليس مذموماً ، بخلاف نسيان ما يجب حفظه فإنه مذموم

فإن هذا إنساء لما رفعه الله ، وأما نسيان ما أمر بحفظه فمذموم ، قال تعالى : (كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ) وهـذا النسيان وإن كان متضمناً لترك العمل بهـا مع حفظهـا ، فإذا نسيت الآيات بالكلية حتى لا يعرف ما فيها كان ذلك أبلغ فى ترك العمل بهـا فـكان هذا مذموما . قال النبي صـلى الله عليه وسـلم فى الحديث الذي في السنن « من قرأ القرآن ثم نسيه لقي الله وهو أجذم »، ولهذا كره النبى صـلى الله عليه وسـلم أن يضيف الإنسان النسيـان إلى نفسـه ، فقال فى الحديث المتفق عليه « بئس ما لأحدهم أن يقول : نسيت آية كيت وكيت ، بل هو أنسى . استذكروا القرآن فلهو أشد تفلتاً من صدور الرجال من النعم من عقلها »

ثم منهم من جعل (مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ) هو ما ترك تلاوته ورسمه ونسخ حكمه ، وما أنسى هو ما رفـع فلا يتلى . ومنهم من أدخل في الأول ما نسخت تلاوته وإن كان محفوظاً . فالأول قول مجاهد وأصحاب عبد الله بن مسعود ، وروى الناس بالأسانيد الثابتة عن ابن أبى نجيح عن مجاهد قوله : (مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ) قال : نثبت خطهـا ونبـدل حكمها ، قال : وهو قول عبد الله بن مسعود (أَوْ نُنسِهَا) أي نمحوها فإن ما نسى لم يترك . وروى ابن أبي حاتم بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان مما ينزل على النبى صلى الله عليه وسـلم الوحي بالليل

وينساه بالنهار ، فأنزل الله : (مَانَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآ) . وكذلك روى عن سعد بن أبى وقاص ومحمد بن كعب وقتادة وعكرمة . وكان سعد بن أبى وقاص يقرأها (أو تنسها) بالخطاب أي تنسها أنت يا محمد ، وتلا قوله : (سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ) وقوله : (وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ)

وقد جاءت الآثار بأن أحدهم كان يحفظ قرآناً ثم ينساه ، ويذكرون ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فيقول : « إنه رفع » ، مثل ما صح من حديث الزهري : حدثنى أبو أمامة بن سهل بن حنيف فى مجلس سعيد بن المسيب أن رجلا كان معه سورة فقام يقرأها من الليل فلم يقدر عليها ، وقام آخر يقرأها فلم يقدر عليها ، وقام آخر يقرأها فلم يقدر عليها ، فأصبحوا فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضهم : ذهبت البارحة لأقرأ سورة كذا وكذا فلم أقدر عليها ، وقال الآخر : ما جئت إلا لذلك ، وقال الآخر : ما جئت إلا لذلك ، وقال الآخر : وأنا يارسول الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنها نسخت البارحة »

وقوله : (أو ننسأها) النسأ بمعنى التأخير ، وفيه قولان للسلف : القول الأول يروى عن طائفة ، قال السدي : (مَانَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ) قال : نسخها قبضها (أو ننسأها) فنتركها لا ننسخها (نَأۡتِ بِخَيۡرٖ) من

الذي نسخناه أو مثل الذي تركناه . وكذلك في تفسير الوالبي عن ابن عباس : (ما ننسخ من آية أو ننسأهـا) يقول ما نبدل من آية أو نتركها فلا نرفعها من عندكم (نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَا) ، روى ذلك عن الربيع بن أنس . ومن الناس من فسر بهذا المعنى القراءة الأولى فقالوا : معنى ننسها نتركها عندكم فإن النسيان هو الترك . وقال الأزهري ننسها نأمر بتركها . يقال أنسيت الشيء ، وأنشد :

إني على عقبة أقضيهـا لست بناسيها ولا منسيها

أي ولا آمر بتركهـا . والقول الثالث نؤخرها عن العمل بها بنسخنا إياهـا .

والصواب القول الأوسط . روى ابن أبي حاتم بإسنـاده عن ابن عباس قال : خطبنا عمر رضي الله عنه فقال : يقول الله (ما ننسخ من آية أو ننسأها) أي نؤخرهـا . وبإسناده المعروف عن أبى العـالية (مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ) فلا يعمل بها (أو ننسأها) أي نرجئها عندنا وفي لفظ عن أبى العالية : نؤخرها عندنا . وعن عطاء : نؤخرها . وقد ذكر قول ثالث عن السلف وهو قـول رابع أن المعنى : (مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ) وهو ما أنزلنـاه إليـكم ولا نرفعه (أو ننسأهـا) أي نؤخر تنزيله فلا ننزله . ونقل هذا بعضهم عن سعيد بن المسيب وعطاء ، أما

(مَانَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ) فهو ما قد نزل من القرآن ، جعلاه من النسخة (أَوۡ نُنسِهَا) أي نؤخرها فلا يكون ، وهو ما لم ينزل .

وهذا فيه نظر ، فإن ابن أبي حاتم روى بالإسناد الثابت عن عطاء (مَانَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ) : أما ما نسخ فهو ما ترك من القرآن (بالكاف) وكأنه تصحف على من ظنه نزل من النزول ، فإن لفظ ترك فيه إبهام . ولذلك قال ابن أبي حاتم : يعني ترك لم ينزل على محمد ، وليس مراد عطاء هذا ، وإنما مراده أنه ترك مكتوباً متلوا ونسخ حكمه كما تقدم عن غيره ، وما أنسأه هو ما أخره لم ينزله . وسعيد وعطاء من أعلم التابعين لا يخفى عليهما هذا . وقد قرأ ابن عامر (ما نُنسِخ من آية) وزعم أبو حاتم أنه غلط ، وليس كما قال ، بل فسرها بعضهم بهذا المعنى فقال ما ننسخ نجعلكم تنسخونها كما يقال أكتبته هذا . وقيل : أنسخ جعله منسوخا ، كما يقال : قبره إذا أراد دفنه ، وأقبره أي جعل له قبراً . وطرده إذا نفاه ، وأطرده إذا جعله طريداً . وهذا أشبه بقراءة الجمهور .

والصواب قول من فسر (أو ننسأها) أي نؤخرها عندنا فلا ننزلها . والمعنى : أن ما ننسخه من الآيات التي أنزلناها ، أو نؤخر نزوله من الآيات التي لم ننزلها بعد (نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآ) ، فكما أنه يعوضهم من المرفوع يعوضهم من المنتظر الذي لم ينزله بعد إلى أن ينزله ،

فإن الحكمة اقتضت تأخير نزوله فيعوضهم بمثله أو خير منه فى ذلك الوقت ، إلى أن يجيء وقت نزوله فينزله أيضاً مع ما تقدم ، ويكون ما عوضه مثله أو خيراً منه قبل نزوله . وأما ما أنزله إليهم ولم ينسخه فهذا لا يحتاج إلى بدل ، ولو كان كل ما لم ينسخه الله يأت بخير منه أو مثله لزم إنزال مالا نهاية له .

وكذلك إن قدر أن المراد يؤخر نسخه إلى وقت ثم ينسخه ، فإنه ما دام عندهم لم يحتج إلى بدل يكون مثله أو خيراً منه ، وإنما البدل لما ليس عندهم مما أنسوه أو أخر نزوله فلم ينزله بعد ، ولهذا لم يجعل البدل لكل ما لم ينزله ، بل لما نسأه فأخر نزوله ، إذ لو كان كل ما لم ينزل يكون له بدل لزم إنزال مالا نهاية له ، بل ما كان يعلم أنه سينزله وقد أخر نزوله يكونون فاقديه إلى حين ينزل ، كما يفقدون ما نزل ثم نسخ ، فيجعل سبحانه لهذا بدلا ولهذا بدلاً . وأما ما أنزله وأقره عندهم وأخر نسخه إلى وقت فهذا لا يحتاج إلى بدل ، فإنه نفسه باق . ولو كان هذا مراداً لكان كل قرآن قد نسخه يجب أن ينزل قبل نسخه ما هو مثله أو خير منه ، ثم إذا نسخه يأتى بخير منه أو مثله ، فيكون لكل منسوخ بدلان : بدل قبل نسخه ، وبدل بعد نسخه . والبدل الذي قبل نسخه لا ابتداء لنزوله ، فيجب أن ينزل من أول الأمر ، فيلزم نزول ذلك كله فى أول الوحي ، وهذا باطل قطعاً .

فإن قيل : فهذا يلزم فيما أخره فلم ينزله فإن له بدلا ولا وقت لنزول ذلك البـدل ، قيل : ما أخر نزوله وهو يريـد إنزاله معلوم ، والبدل الذي هو مثله أو خير منه يؤتى به في كل وقت ، فإن القرآن ما زال ينزل ، وقد تضمن هذا أن كل ما أخر نزوله فلا بد أن ينزل قبله ما هو مثله أو خير منه ، وهذا هو الواقع ، فإن الذي تقدم من القرآن نزوله لم ينسخ كثير منه خير مما تأخر نزوله ، كالآيات المكية ، فإن فيها من بيان التوحيد والنبوة والمعاد وأصول الشرائع ما هو أفضل من تفاصيل الشرائع ، كمسائل الربا ، والنكاح ، والطلاق ، وغير ذلك . فهذا الذي أخره الله مثل آية الربا فإنها من أواخر ما نزل من القرآن ، وقد روى أنها آخر ما نزل ، وكذلك آية الدين والعدة والحيض ونحو ذلك ، قد أنزل الله قبله ما هو خير منه من الآيات التى فيها من الشرائع ما هو أهم من هذا ، وفيها من الأصول ما هو أهم من هذا .

ولهذا كانت سورة « الأنعام » أفضل من غيرها ، وكذلك سورة «يس» ونحوها من السور التى فيها أصول الدين التى اتفق عليها الرسل كلهم صلوات الله عليهم . ولهذا كانت (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) مع قلة حروفها تعدل ثلث القرآن ؛ لأن فيها التوحيد ، فعلم أن آيات التوحيد أفضل من غيرها ، وفاتحة الكتاب نزلت بمكة بلا ريب ، كما دل عليه قوله

تعالى : (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ) وقد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليــه وسلم أنه قال : « هي السبع المثانى والقرآن العظيم الذي أوتيته » وسورة الحجر مكية بلا ريب ، وفيهـا كلام مشركي مكة وحاله معهم ، فدل ذلك على أن ما كان الله ينسـأه فيؤخر نزوله من القرآن كان ينزل قبله ما هو أفضل منــه ، و (قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ) مكية بلا ريب ، وهو قول الجمهور . وقـد قيل إنها مدنية ، وهو غلط ظاهر .

وكذلك قول من قال : الفـاتحة لم تنزل إلا بالمدينـة غلط بلا ريب . ولو لم تـكن معنا أدلة صحيحة تدلنـا على ذلك لـكان من قال إنها مكية معه زيادة علم . وسورة (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) أكثرهم على أنها مكية . وقد ذكر فى أسباب نزولها سؤال المشركين بمـكة وسؤال الكفار من أهل الكتاب اليهود بالمدينة ، ولا منافاة ، فإن الله أنزلهـا بمكة أولا ، ثم لما سئل نحو ذلك أنزلها مرة أخرى . وهذا مما ذكره طائفة من العلماء وقالوا : إن الآيـة أو السورة قـد تنزل مرتـين وأكثر من ذلك .

فما يذكر من أسباب النزول المتعددة قد يكون جميعه حقاً . والمراد بذلك أنه إذا حدث سبب يناسبها نزل جبريل فقرأها عليه ليعلمه أنهـا تتضمن جواب ذلك السبب ، وإن كان الرسول يحفظهـا قبل ذلك .

والواحد منا قد يسأل عن مسألة فيذكر له الآية أو الحديث ليبين له دلالة النص على تلك المسألة وهو حافظ لذلك ، لكن يتلى عليه ذلك النص ليتبين وجه دلالته على المطلوب .

فقد تبين أن البدل لما أخر نزوله بخلاف ما كان عندهم لم ينسخ فإن هذا لا بدل له ، ولو قدر أنه سينسخ فإنه ما دام محكما لم يكن بدله خيراً منه . وكذلك البدل عن المنسوخ يكون خيراً منه . وأكثر السلف أطلقوا لفظ « خير منها » كما فى القرآن ، ولم يستشكل ذلك أحد منهم . وفى تفسير الوالبي : خير لكم فى المنفعة وأرفق بكم . وعن قتادة (نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ) آية فيها تخفيف ، فيها رخصة ، فيها أمر ، فيها نهي . وهذان لم يستشكلا كونها خيراً من الأولى ، بل بينا وجه الفضيلة ، كما تقدم من أن الكلام الأمري يتفاضل بحسب المطلوب ، فإذا كان المطلوب أنفع للمأمور كان طلبه أفضل ، كما أن رحمة الله التى سبقت غضبه هي أفضل من غضبه . فما قالاه تقرير للخيرية لا نفي لها .

فإن قيل : فآية الكرسي قد ثبت أنها أعظم آية فى كتاب الله ، وإنما نزلت فى سورة البقرة — وهي مدنية بالاتفاق — فقد أخر نزولها ولم ينزل قبلها ما هو خير منها ولا مثلها . قيل : عن هذا أجوبة :

أحدها : أن الله قال : (نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ) ولم يقل بآية خير منها بل يأتي بقرآن خير منها أو مثلها . وآية الكرسي وإن كانت أفضل الآيات فقد يكون مجموع آيات أفضل منها . والبقرة وإن كانت مدنية بالاتفاق وقد قيل إنها أول ما نزل بالمدينة فلا ريب أن هذا فى بعض ما نزل ، وإلا فتحريم الربا إنما نزل متأخراً . وقوله : (وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ) من آخر ما نزل . وقوله : (وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ) نزلت عام الحديبية سنة ست باتفاق العلماء ، وقد كانت سورة الحشر قبل ذلك ، فإنها نزلت فى بني النضير باتفاق الناس ، وقصة بني النضير كانت متقدمة على الحديبية ، بل على الخندق باتفاق الناس ، وإنما تأخر عن الخندق أمر بني قريظة ، فهم الذين حاصرهم النبي صلى الله عليه وسلم عقب الخندق ، وأما بنو النضير فكان أجلاهم قبل ذلك باتفاق العلماء . وكذلك سورة الحديد مدنية عند الجمهور ، وقد قيل إنها مكية وهو ضعيف ، لأن فيها ذكر المنافقين وذكر أهل الكتاب ، وهذا إنما نزل بالمدينة ، لكن يمكن أنها نزلت قبل كثير من البقرة .

ففي الجملة نزول أول الحديد وآخر الحشر قبل آية الكرسي ممكن ، والأنعام ويس وغيرها نزل قبل آية الكرسي بالاتفاق .

الجواب الثاني : أنه تعالى إنما وعد أنه إذا نسخ آية أو نسأها أتى

بخير منها أو مثلها لما أنزل هذه الآية قوله (مَانَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآ) فإن هذه الآية جملة شرطية تضمنت وعده أنه لا بد أن يأتى بذلك وهو الصادق الميعاد . فما نسخه بعد هـذه الآية ، أو أنسأ نزوله مما يريد إنزاله ، يأت بخير منه أو مثله . وأما ما نسخـه قبل هذه أو أنسأه فلم يكن قد وعد حينئذ أنه يأتى بخير منه أو مثله . وبهذا أيضاً يندفع الجواب عن الفاتحـة ، فإنه لا ريب أنه تأخر نزولهـا عن سورة (ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ) وهي أفضل منها . فعلم أنه قـد يتأخر إنزال الفاضل ، وأنه ليس كل ما تأخر نزوله نزل قبـله مثله أو خير منه . لـكن إذا كان الموعود به بعد الوعد لم يرد هذا السؤال .

يدل على ذلك قوله (مَانَنسَخۡ) فإن هذا الفعل المضارع المجزوم إنما يتنـاول المستقبل ، وجوازم الفعـل « إنْ » وأخواتها ونواصبـه تخلصه للاستقبال .

وقد يجاب بجواب ثالث ، وهو أن يقـال : ما نزل فى وقتـه كان خيراً لهم وإن كان غيره خيراً لهم فى وقت آخر ، وحينئذ فيكون فضل بعضه على بعض على وجهين : لازم كفضل آية الـكرسي وفاتحة الـكتاب وقل هو الله أحد . وفضل عارض بحيث تكون هـذه أفضل فى وقت وهذه أفضل فى وقت آخر ، كما قـد يقال فى آية التخيير للمقيم بـين الصوم والفطر مع الفدية ومع آية إيجاب الصوم عـزما ، وهـذا كما أن

الأفعال المأمور بها كل منها في وقته أفضل ، فالصلاة إلى القدس قبل النسخ كانت أفضل وبعد النسخ الصلاة إلى الكعبة أفضل .

وعلى ما ذكر فيتوجه الاحتجاج بهذه الآية على أنه لا ينسخ القرآن إلا قرآن كما هو مذهب الشافعي ، وهو أشهر الروايتين عن الإمام أحمد بل هي المنصوصة عنه صريحاً أن لا ينسخ القرآن إلا قرآن يجيء بعده ، وعليها عامة أصحابه ، وذلك لأن الله قد وعد أنه لا بد للمنسوخ من بدل مماثل أو خير ، ووعد بأن ما أنساه المؤمنين فهو كذلك ، وأن ما أخره فلم يأت وقت نزوله فهو كذلك ، وهذا كله يدل على أنه لا يزال عند المؤمن القرآن الذي رفع ، أو آخر مثله ، أو خير منه ، ولو نسخ بالسنة فإن لم يأت قرآن مثله أو خير منه فهو خلاف ما وعد الله . وإن قيل بل يأتى بعد نسخه بالسنة كان بين نسخه وبين الإتيان بالبدل مدة خالية عن ذلك وهو خلاف مقصود الآية ، فإن مقصودها أنه لا بد من المرفوع أو مثله أو خير منه .

وأيضاً فقوله (نَأْتِ) لم يرد به بعد مدة فإن الذي نسأه وهو يريد إنزاله قد علم أنه ينزله بعد مدة ، فلما أخبر أن ما أخره يأتى بمثله أو خير منه قبل نزوله علم أنه لا يؤخر الأمر بلا بدل ، فلو جاز أن يبقى مدة بلا بدل لكان ما لم ينزل أحق بأن لا يكون له بدل من المنسوخ ، فلما كان ذلك قد حصل له بدل قبل وقت نزوله لتكميل الإنعام فلأن يكون البدل لما نسخ من

حين نسخ بعد أولى وأحرى ، ولأنه قد علم أن القرآن نزل شيئاً بعد شيء ، فلو كان ما ينزله بدلا عن المنسوخ يؤخره لم يعرف أنـه بدل ، ولم يتميز البدل من غيره ، ولم يكن لقوله (نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ) فائدة إلا كالفائدة المعلومة لو لم ينسخ شيء .

غاية ما يقال : أنه لو لم ينسخ شيء لجـاز أن لا ينزل بعد ذلك شيء ، وإذا نسخ شيء فلا بد من بدله ولو بعد حين . وهذا مما يعتقدونه فإنهم قد اعتادوا نزول القرآن عند الحوادث والمسائل والحاجة ، فما كانوا يظنونه ـــ إذا نسخت آية ـــ أن لا ينزل بعدها شيء ، فإنها لو لم تنسخ لم يظنوا ذلك ، فكيف يظنون إذا نسخت ؟ الثانى : أنه إذا كان قد ضمن لهم الإتيان بالبدل عن المنسوخ علم أن مقصـوده أنه لا ينقصهم شيء مما أنزله ، بل لا بد من مثل المرفوع أو خير منه ، ولو بقوا مدة بلا بدل لنقصوا .

وأيضاً فإن هذا وعد معلق بشرط ، والوعد المعلق بشرط يـلزم عقبه ، فإنه من جنس المعاوضة وذلك مما يلزم فيه أداء العوض عـلى الفور إذا قبض المعوض ، كما إذا قال : ما ألقيت من متاعك في البحر فعلي بدله ، وليس هذا وعـداً مطلقاً كقوله (لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ) . ولهذا يفرق بين قوله : والله لأعطينك مائة ، وبين قوله : والله لا آخذ منك شيئاً إلا أعطيتك بدله ، فإن هذا واجب على الفور .

ومما يدل على المسألة أن الصحابة والتابعين الذين أخذ عنهم علم الناسخ والمنسوخ إنما يذكرون نسخ القرآن بقرآن ، لا يذكرون نسخه بلا قرآن بل بسنة ، وهذه كتب الناسخ والمنسوخ المأخوذة عنهم إنما تتضمن هذا . وكذلك قول علي رضي الله عنه للقاص : هل تعرف الناسخ من المنسوخ في القرآن ؟ فلو كان ناسخ القرآن غير القرآن لوجب أن يذكر ذلك أيضاً .

وأيضاًالذين جوزوا نسخ القرآن بلا قرآن من أهل الكلام والرأي إنما عمدتهم أنه ليس فى العقل ما يحيل ذلك ، وعدم المانع الذي يعلم بالعقل لا يقتضي الجواز الشرعى ، فإن الشرع قد يعلم بخبره ما لا علم للعقل به ، وقد يعلم من حكمة الشارع التى علمت بالشرع ما لا يعلم بمجرد العقل . ولهذا كان الذين جوزوا ذلك عقلا مختلفين فى وقوعه شرعا ، وإذا كان كذلك فهذا الخبر الذي فى الآية دليل على امتناعها شرعا .

وأيضاً فإن الناسخ مهيمن على المنسوخ ، قاض عليه ، مقدم عليه ، فينبغي أن يكون مثله أو خيراً منه كما أخبر بذلك القرآن ، ولهذا لما كان القرآن مهيمناً على ما بين يديه من الكتاب بتصديق ما فيه من حق ، وإقرار ما أقره ، ونسخ ما نسخه كان أفضل منه . فلو كانت السنة ناسخة للكتاب لزم أن تكون مثله أو أفضل منه .

وأيضاً فلا يعرف فى شيء من آيات القرآن أنه نسخه إلا قرآن .
والوصية للوالدين والأقربين منسوخة بآية المواريث ، كما اتفق على ذلك السلف ، قال تعالى : (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ) . والفرائض المقدرة من حدوده ، ولهذا ذكر ذلك عقب ذكر الفرائض ، فمن أعطى صاحب الفرائض أكثر من فرضه فقد تعدى حدود الله ، بأن نقص هذا حقه ، وزاد هذا على حقه ، فدل القرآن على تحريم ذلك وهو الناسخ .

فصـــــل

والناس في هذا المقام ــ وهو مقام حكمة الأمر والنهي ــ على ثلاثة أصناف : فالمعتزلة القدرية يقولون : إن ما أمر به ونهى عنه كان حسناً وقبيحاً قبل الأمر والنهي ، والأمر والنهي كاشف عن صفته التى كان عليها لا يكسبه حسناً ولا قبحاً ، ولا يجوز عندهم أن يأمر وينهى لحكمة تنشأ من الأمر نفسه . ولهذا أنكروا جواز النسخ قبل التمكن من فعل العبادة ، كما فى قصة الذبيح ، ونسخ الخمسين صلاة التى أمر بها ليلة المعراج إلى خمس ، ووافقهم على منع النسخ قبل وقت العبادة

طائفة من أهل السنة المثبتين للقدر لظنهم أنه لا بد من حكمة تكون فى المأمور به والمنهى عنه : فلا يجوز أن ينهى عن نفس ما أمر به . وهذا قياس مـن يقول إن النسخ تخصيص فى الأزمـان ، فإن التخصيص لا يكون برفع جميع مدلول اللفظ ، لكنهم تناقضوا ،

والجهمية الجبرية يقولون : ليس للأمر حكمة تنشأ ، لا من نفس الأمر ، ولا من نفس المأمور به ، ولا يخلق الله شيئاً لحكمة ، ولكن نفس المشيئة أوجبت وقوع ما وقع وتخصيص أحد المتماثلين بلا مخصص ، وليست الحسنات سبباً للثواب ولا السيئات سبباً للعقاب ، ولا لواحد منها صفة صار بها حسنة وسيئة ، بل لا معنى للحسنة إلا مجرد تعلق الأمر بها ، ولا معنى للسيئة إلا مجرد تعلق النهي بهـا ، فيجوز أن يأمر بكل أمر حتى الكفر والفسوق والعصيان ، ويجوز أن ينهي عن كل أمر حتى عن التوحيد والصدق والعدل ، وهو لو فعل لكان كما لو أمر بالتوحيد والصدق والعـدل ، ونهى عـن الشرك والكذب والظلم . هكذا يقول بعضهم ، وبعضهم يقول : يجـوز الأمر بكل ما لا ينافى معرفة الأمر . بخلاف ما ينافي معرفته . وليس في الوجود عندهم سبب ، ولكن إذا اقترن أحد الشيئين بالآخر خلقاً أو شرعاً صار علامة عليه ، فالأعمال مجرد علامات محضة لا أسباب مقتضية .

وقالوا : أمر من لم يؤمن بالإيمان معناه إني أريد أن أعذبكم ،

وعدم إيمانكم علامة على العذاب . وكذلك أمره بالإيمان من علم أنه يؤمن معناه إني أريد أن أثيبك ، والإيمان علامة . وهؤلاء منهم من ينفى القياس فى الشرع والتعليل للأحكام ، ومن أثبت القياس منهم لم يجعل العلل إلا مجرد علامات . ثم إنه مع هذا قد علم أن الحكم فى الأصل ثابت بالنص والإجماع ، وذلك دليل عليه ، فأي حاجة إلى العلة ؟ وكيف يتصور أن تكون العلة علامة على الحكم فى الأصل ، وإنما تطلب علته بعد أن يعلم ثبوت الحكم ، وحينئذ فلا فائدة فى العلامة . وأما الفرع فلا يكون علة له حتى يكون علة للأصل ، وهؤلاء منهم من ينكر العلل المناسبة ويقول : المناسبة ليست طريقاً لمعرفة العلل وهم أكثر أصحاب هذا القول . ومن قال بالمناسبة من متأخريهم يقول إنه قد اعتبر فى الشرع اعتبار المناسب ، فيستدل بمجرد الاقتران ، لا لأن الشارع حكم بما حكم به لتحصيل المصلحة المطلوبة بالحكم ، ولا لدفع مفسدة أصلا ، فإن عندهم أنه ليس في خلقه ولا أمره لام كى . فجهم ـ رأس الجبرية ـ وأتباعه في طرف ، والقدرية فى الطرف الآخر .

وأما الصحابة والتابعون لهم بإحسان وأئمة الإسلام كالفقهاء المشهورين وغيرهم ومن سلك سبيلهم من أهل الفقه والحديث والمتكلمين فى أصول الدين وأصول الفقه فيقرون بالقدر ، ويقرون بالشرع ، ويقرون بالحكمة لله فى خلقه وأمره ـ لكن قد يعرف أحدهم الحكمة وقد لا يعرفها ـ

ويقرون بما جعله من الأسباب ، وما في خلقه وأمره من المصالح التى جعلها رحمة بعباده ، مع أنه خالق كل شيء وربه ومليكه : أفعال العباد ، وغير أفعال العباد . وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأن كل ما وقع من خلقه وأمره فعدل وحكمة ، سواء عرف العبد وجه ذلك أو لم يعرفه .

والحكمة الناشئة من الأمر ثلاثة أنواع :

أحدها : أن تكون فى نفس الفعل — وإن لم يؤمر به — كما فى الصدق والعدل ونحوهما من المصالح الحاصلة لمن فعل ذلك وإن لم يؤمر به ، والله يأمر بالصلاح وينهى عن الفساد .

والنوع الثانى : أن ما أمر به ونهى عنه صار متصفاً بحسن اكتسبه من الأمر ، وقبح اكتسبه من النهي ، كالخمر التى كانت لم تحرم ثم حرمت فصارت خبيثة ، والصلاة إلى الصخرة التى كانت حسنة فلما نهى عنها صارت قبيحة . فإن ما أمر به يحبه ويرضاه ، وما نهى عنه يبغضه ويسخطه . وهو إذا أحب عبداً ووالاه أعطاه من الصفات الحسنة ما يمتاز بها على من أبغضه وعاداه . وكذلك المكان والزمان الذي يحبه ويعظمه — كالكعبة وشهر رمضان — يخصه بصفات يميزه بها على ما سواه ، بحيث يحصل فى ذلك الزمان والمكان من رحمته

وإحسانه ونعمته ما لا يحصل فى غيره .

فإن قيل : الخمر قبل التحريم وبعده سواء ، فتخصيصها بالخبث بعد التحريم ترجيح بلا مرجح ؟ .

قيل : ليس كذلك ، بل إنما حرمها فى الوقت الذي كانت الحكمة تقتضي تحريمها . وليس معنى كون الشيء حسناً وسيئاً مثل كونه أسود وأبيض ، بل هو من جنس كونه نافعاً وضاراً ، وملائماً ومنافراً وصديقاً وعدواً ، ونحو هذا من الصفات القائمة بالموصوف التى تتغير بتغير الأحوال : فقد يكون الشيء نافعاً فى وقت ضاراً فى وقت ، والشيء الضار قد يترك تحريمه إذا كانت مفسدة التحريم أرجح ، كما لو حرمت الخمر فى أول الإسلام ؛ فإن النفوس كانت قد اعتادتها عادة شديدة ، ولم يكن حصل عندهم من قوة الإيمان ما يقبلون ذلك التحريم ، ولا كان إيمانهم ودينهم تاماً حتى لم يبق فيه نقص إلا ما يحصل بشرب الخمر من صدها عن ذكر الله وعن الصلاة ، فلهذا وقع التدريج فى تحريمها . فأنزل الله أولا فيها : (يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا) ثم أنزل فيها — لما شربها طائفة وصلوا فغلط الإمام في القراءة — آية النهي عن الصلاة سكارى : ثم أنزل الله آية التحريم :

والنوع الثالث : أن تكون الحكمة ناشئة من نفس الأمر ، وليس فى الفعل ألبتة مصلحة ، لكن المقصود ابتلاء العبد هل يطيع أو يعصي ، فإذا اعتقد الوجوب وعزم على الفعل حصل المقصود بالأمر فينسخ حينئذ ، كما جرى للخليل فى قصة الذبح : فإنه لم يكن الذبح مصلحة ، ولا كان هو مطلوب الرب فى نفس الأمر ، بل كان مراد الرب ابتلاء إبراهيم ليقدم طاعة ربه ومحبته على محبة الولد ، ولا يبقى فى قلبه التفات إلى غير الله ، فإنه كان يحب الولد محبة شديدة ، وكان قد سأل الله أن يهبه إياه — وهو خليل الله — فأراد تعالى تكميل خلته لله بأن لا يبقى فى قلبه ما يزاحم به محبة ربه : (فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ) ومثل هذا الحديث الذي في صحيح البخاري : حديث أبرص وأقرع وأعمى ، كان المقصود ابتلاءهم لا نفس الفعل . وهذا الوجه والذي قبله مما خفى على المعتزلة ، فلم يعرفوا وجه الحكمة الناشئة من الأمر ، ولا من المأمور لتعلق الأمر به ، بل لم يعرفوا إلا الأول . والذين أنكروا الحكمة عندهم الجميع سواء ، لا يعتبرون حكمة ، ولا تخصيص فعل بأمر ، ولا غير ذلك ، كما قد عرف من أصلهم .

ثم إن كثيراً من هؤلاء وهؤلاء يتكلمون فى تفسير القرآن والحديث والفقه فيبنون على تلك الأصول التى لهم ولا يعرف حقائق أقوالهم إلا

من عرف مأخذهم . فقول القائل : إن (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) وفاتحة الكتاب قد تكون كل واحدة منها فى نفسها مماثلة لسائر السور ، وآية الكرسي مماثلة لسائر الآيات ، وإنما خصت بكثرة ثواب قارئها ، أو لم تتعين الفاتحة في الصلاة ونحو ذلك إلا لمحض المشيئة من غير أن يكون فيها صفة تقتضي التخصيص ، هو مبنى على أصول جهم فى الخلق والأمر وإن كان وافقه عليه أبو الحسن وغيره . وكتب السنة المعروفة التى فيها آثار السلف يذكر فيها هذا وهذا ، ويجعل هذا القول قول الجبرية المتبعين لجهم في أقوال القدرية الجبرية المبتدعة . والسلف كانوا ينكرون قول الجبرية الجهمية كما ينكرون قول المعتزلة القدرية ، وهذا معروف عن سفيان الثوري والأوزاعى والزبيدي وعبد الرحمن بن مهدي وأحمد ابن حنبل وغيرهم ، وقد ذكر ذلك غير واحد من أتباع الأئمة من الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية وسائر أهل السنة فى كتبهم كما قد بسط في مواضعه ، وذكرت أقوال السلف والأئمة في ذلك .

وإنما نبهنا هنا على الأصل لأن كثيراً من الناس لا يعرف ذلك ، ولا يظن قول أهل السنة فى القدر إلا القول الذي هو عند أهل السنة قول جهم وأتباعه المجبرة أو ما يشبه ذلك . كما أن منهم من يظن أن قول أهل السنة في مسائل الأسماء والأحكام والوعد والوعيد هو أيضاً القول المعروف عند أهل السنة بقول جهم . وهذا يعرفه من يعرف

أقوال الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام المشهورين في هـذه الأصول . وذلك موجود فى الـكتب المصنفة التى فيهـا أقوال جمهور الأئمـة التى يذكر فيها أقوالهم فى الفقه كثيراً ، والعلماء الأكابر مـن أتباع الأئمة الأربعة على مذهب السلف فى ذلك ، وكثير مـن الـكتب المصنفة التى يذكر فيها أقوال السلف على وجه الاتباع مـن تصنيف أصحاب مالك والشافعي وأبى حنيفة وأحمد بن حنبل وغيرهم يذكرون ذلك فيها .

وينبغي للعاقل أن يعرف أن مثل هذه المسائل العظيمة التى هي من أعظم مسائل الدين لم يكن السلف جاهلين بها ولا معرضين عنهـا . بل من لم يعرف ما قالوه فهو الجاهل بالحق فيها ، وبأقوال السلف ، وبمـا دل عليه الـكتاب والسنة ، والصواب فى جميع مسائل النزاع ما كان عليـه السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وقولهم هو الذي يدل عليه الـكتاب والسنة والعقل الصريح . وقد بسط هذا فى مواضع كثيرة . والله سبحانه أعلم .

وسئل شيخ الإسلام

ومفتى الأنام : تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية ــــ رضي الله عنه ــــ عن فتيا صورتها :

ما تقول السادة العلماء فى تفسير قول النبي صلى الله عليه وسلم فى سورة الإخلاص : « إنها تعدل ثلث القرآن » فكيف ذلك مع قلة حروفها ، وكثرة حروف القرآن ؟ بينوا لنا ذلك بياناً مبسوطا شافيا ، وأفتونا مأجورين ــــ إن شاء الله تعالى ــــ

فأجاب ــــ رضي الله عنه ــــ بما صورته :

الحمد لله ؛ الأحاديث المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم فى فضل (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) وأنها تعدل ثلث القرآن من أصح الأحاديث وأشهرها ، حتى قال طائفة من الحفاظ كالدارقطني : لم يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم فى فضل سورة من القرآن أكثر مما صح عنه فى فضل (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) ، وجاءت الأحاديث بالألفاظ كقوله : « قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن » وقوله : « من قرأ قل هو الله أحد

مرة فكأنما قرأ ثلث القرآن ، ومن قرأها مرتين فكأنما قرأ ثلثي القرآن ، ومن قرأها ثلاثا فكأنما قرأ القرآن كله » وقوله للناس : « احتشدوا حتى أقرأ عليكم ثلث القرآن ، فحشدوا حتى قرأ عليهم : (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) قال : والذي نفسي بيده إنها تعدل ثلث القرآن » .

وأما توجيه ذلك : فقد قالت طائفة من أهل العلم : إن القرآن باعتبار معانيه ثلاثة أثلاث : ثلث توحيد ، وثلث قصص ، وثلث أمر ونهي . و (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) هي صفة الرحمن ونسبه ، وهي متضمنة ثلث القرآن ؛ وذلك لأن القرآن كلام الله تعالى ، والكلام إما إنشاء وإما إخبار ، فالإنشاء هو الأمر والنهي ، وما يتبع ذلك كالإباحة ونحوها وهو الأحكام . والإخبار : إما إخبار عن الخالق ، وإما إخبار عن المخلوق ، فالإخبار عن الخالق هو التوحيد ، وما يتضمنه من أسماء الله وصفاته ، والإخبار عن المخلوق هو القصص ، وهو الخبر عما كان وعما يكون ، ويدخل فيه الخبر عن الأنبياء وأممهم ، ومن كذبهم ، والإخبار عن الجنة والنار ، والثواب والعقاب . قالوا : فبهذا الاعتبار تكون (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) تعدل ثلث القرآن ، لما فيها من التوحيد الذي هو ثلث معاني القرآن .

بقي أن يقال : فإذا كانت تعدل ثلث القرآن مع قلة حروفها كان

للرجل أن يكتفي بها عن سائر القرآن .

فيقال في جواب ذلك : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إنها تعدل ثلث القرآن » وعدل الشيء ــ بالفتح ــ يقال على ما ليس من جنسه ، كما قال تعالى : ﴿ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا ﴾ فجعل الصيام عدل كفارة . وهما جنسان . ولا ريب أن الثواب أنواع مختلفة في الجنة ، فإن كل ما ينتفع به العبد ويلتذ به من مأكول ومشروب ومنكوح ومشموم هو من الثواب ، وأعلاه النظر إلى وجه الله تعالى ، وإذا كانت أحوال الدنيا لاختلاف منافعها يحتاج إليها كلها ، وإن كان بعضها يعدل ما هو أكبر منه في الصورة ، كما أن ألف دينار تعدل من الفضة والطعام والثياب وغير ذلك ما هو أكبر منها ، ثم من ملك الذهب فقد ملك ما يعدل مقدار ألف دينار من ذلك ، وإن كان لا يستغني بذلك عن سائر أنواع المال التي ينتفع بها ؛ لأن المساواة وقعت في القدر لا في النوع والصفة ، فكذلك ثواب : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ وإن كان يعدل ثواب ثلث القرآن في القدر ، فلا يجب أن يكون مثله في النوع والصفة ، وأما سائر القرآن ففيه من الأمر والنهي والوعد والوعيد ما يحتاج إليه العباد ، فلهذا كان الناس محتاجين لسائر القرآن ، ومنتفعين به منفعة لا تغني عنها هذه السورة ، وإن كانت تعدل ثلث القرآن .

فهذه المسألة مبنية على أصل : وهو أن القرآن هل يتفاضل في

نفسه ، فيكون بعضه أفضل من بعض ؟ وهـذا فيـه للمتأخرين قولان مشهوران ، منهم من قـال : لا يتفاضل فى نفسه ؛ لأنـه كله كلام الله ، وكلام الله صفة له قالوا : وصفة الله لا تتفاضل . لا سـيما مع القول بأنـه قديم ، فإن القديم لا يتفاضـل ، كذلك قال هؤلاء فى قوله تعـالى : (مَانَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآ) قالوا فخـير إنما يعود إلى غير الآية ، مثل نفع العباد وثوابهم .

والقول الثانى : أن بعض القرآن أفضـل من بعض ، وهـذا قول الأكثرين من الخلف والسلف ؛ فإن النبي صـلى الله عليه وسلم قال فى الحديث الصحيح في الفاتحة : إنه لم ينزل فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا الزبور ولا القرآن مثلها » فنفى أن يكون لها مثـل ، فكيف يجوز أن يقال : إنه متماثل ؟ وقد ثبت عنه فى الصحيح أنه قال لأبي بن كعب : « يا أبا المنذر ! أتدري أي آيـة فى كتاب الله أعظم ؟ قال : (ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ) فضرب بيده فى صدره وقال له ليهنك العلم أبا المنذر » فقد بين أن هذه الآية أعظم آية فى القرآن ، وهـذا بين أن بعض الآيات أعظم من بعض .

وأيضاً فإن القرآن كلام الله والكلام يشرف بالمتـكلم بـه ، سواء كان خبراً أو أمراً ، فالخبر يشرف بشرف المخبر ، وبشرف المخبر عنه ، والأمر يشرف بشرف الآمر ، وبشرف المأمور به ، فالقرآن وإن كان

كله مشتركا ، فإن الله تكلم به ، لكن منه ما أخبر الله به عن نفسه ، ومنه ما أخبر به عن خلقه ، ومنه ما أمرهم به ، فمنه ما أمرهم فيه بالإيمان ، ونهاهم فيه عن الشرك ، ومنه ما أمرهم به بكتابة الدين ، ونهاهم فيه عن الربا .

ومعلوم أن ما أخبر به عن نفسه : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ أعظم مما أخبر به عن خلقه : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ وما أمر فيه بالإيمان . وما نهى فيه عن الشرك أعظم مما أمر فيه بكتابة الدين ونهى فيه عن الربا ، ولهذا كان كلام العبد مشتركا بالنسبة إلى العبد ، وهو كلام لمتكلم واحد ، ثم إنه يتفاضل بحسب المتكلم فيه ، فكلام العبد الذي يذكر به ربه ويأمر فيه بالمعروف وينهى فيه عن المنكر أفضل من كلامه الذي يذكر فيه خلقه ، ويأمر فيه بمباح أو محظور ، وإنما غلط من قال بالأول ؛ لأنه نظر إلى إحدى جهتي الكلام ، وهي جهة المتكلم به ، وأعرض عن الجهة الأخرى وهي جهة المتكلم فيه ، وكلاهما للكلام به تعلق يحصل به التفاضل والتماثل .

قالوا : ومن أعاد التفاضل إلى مجرد كثرة الثواب أو قلته من غير أن يكون الكلام فى نفسه أفضل ، كان بمنزلة من جعل عملين متساويين وثواب أحدهما أضعاف ثواب الآخر ، مع أن العملين فى أنفسهما لم يختص أحدهما بمزية ، بل كدرهم ودرهم تصدق بهما رجل واحد فى وقت واحد

ومكان واحد على اثنين متساويين فى الاستحقاق ونيته بهما واحدة ، ولم يتميز أحدهما على الآخر بفضيلة ، فكيف يكون ثواب أحدهما أضعاف ثواب الآخر ، بل تفاضل الثواب والعقاب دليل على تفاضل الأعمال فى الخير والشر . وهذا الكلام متصل بالكلام فى اشتمال الأعمال على صفات بها كانت صالحة حسنة ، وبها كانت فاسدة قبيحة . وقد بسط هذا فى غير هذا الموضع .

وقول من قال : صفات الله لا تتفاضل ونحو ذلك ؛ قول لا دليل عليه ، بل هو مورد النزاع ، ومن الذي جعل صفته التى هي الرحمة لا تفضل على صفته التى هي الغضب ، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله كتب في كتاب موضوع عنده فوق العرش : إن رحمتى تغلب غضبى — وفى رواية — تسبق غضبى » وصفة الموصوف من العلم والإرادة والقدرة والكلام والرضا والغضب وغير ذلك من الصفات تتفاضل من وجهين :

أحدهما : أن بعض الصفات أفضل من بعض ، وأدخل في كل الموصوف بها ، فإنا نعلم أن اتصاف العبد بالعلم والقدرة والرحمة أفضل من اتصافه بضد ذلك ؛ لكن الله تعالى لا يوصف بضد ذلك ، ولا يوصف إلا بصفات الكمال ، وله الأسماء الحسنى يدعى بها ، فلا يدعى إلا بأسمائه الحسنى ، وأسماؤه متضمنة لصفاته ، وبعض أسمائه أفضل من بعض ،

وأدخــل في كمال الموصوف بها ؛ ولهــذا في الدعاء المأثور : « أسألك باسمك العظيم الأعظم ، الكبير الأكـبر » ، و « لقــد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى » وأمثال ذلك فتفاضل الأسماء والصفات من الأمور البينات .

والثاني : أن الصفة الواحـدة قـد تتفاضل ، فالأمر بمأمور يكون أكمل من الأمر بمأمور آخر ، والرضا عن النبيين أعظم من الرضا عمن دونهم ، والرحمة لهم أكمل من الرحمة لغيرهم ، وتكليم الله لبعض عباده أكمل من تـكليمه لبعض ، وكذلك سائر هذا الباب ، وكما أن أسمـاءه وصفاته متنوعة ، فهي أيضاً متفاضلة ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع مع العقل ، وإنما شبهة من منع تفاضلها من جنس شبهة من منع تعددها ، وذلك يرجع إلى نفي الصفات . كما يقوله الجهمية لما ادعوه من التركيب ، وقد بينا فساد هذا مبسوطاً فى موضعه .

وسئل :

عمن يقرأ القرآن . هل يقرأ (سورة الاخلاص) مرة أو ثلاثاً ؟ وما السنة في ذلك ؟ .

فأجاب : إذا قرأ القرآن كله ينبغي أن يقرأها كما في المصحف مرة واحدة ، هكذا قال العلماء ؛ لئـلا يزاد على ما في المصحف . وأمـا إذا قرأها وحدها ، أو مع بعض القرآن فإنه إذا قرأها ثلاث مرات عدلت القرآن . والله أعلم .

وقال شيخ الإسلام قدس الله روحه



الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له . ومن يضلل فلا هادي له . ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . ونشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله تعالى عليه وسلم تسليما .

فصل

في تفسير ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾(١)

والاسم « الصمد » فيه للسلف أقوال متعددة قد يظن أنها مختلفة ، وليست كذلك ؛ بل كلها صواب . والمشهور منها قولان :

أحدهما : أن الصمد هو الذي لا جوف له .

والثانى : أنه السيد الذي يصمد إليه فى الحوائج ، والأول هو قول

(١) تسمى : تفسير « سورة الإخلاص » .

أكثر السلف من الصحابة والتابعين وطائفة من أهل اللغة . والثاني قول طائفة من السلف والخلف ، وجمهور اللغويين ، والآثار المنقولة عن السلف بأسانيدها فى كتب التفسير المسندة ، وفى كتب السنة وغير ذلك ، وقد كتبنا من الآثار في ذلك شيئاً كثيراً بإسناده فيما تقدم .

وتفسير « الصمد » بأنه الذي لا جوف له معروف عن ابن مسعود موقوفا ومرفوعا ، وعن ابن عباس ، والحسن البصري ، ومجاهد . وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، والضحاك ، والسدي ، وقتادة ، وبمعنى ذلك قال سعيد بن المسيب قال : هو الذي لا حشو له . وكذلك قال ابن مسعود : هو الذي ليست له أحشاء ، وكذلك قال الشعبى : هو الذي لا يأكل ولا يشرب . وعن محمد بن كعب القرظي ، وعكرمة : هو الذي لا يخرج منه شيء . وعن ميسرة قال : هو المصمت . قال ابن قتيبة : كأن الدال فى هذا التفسير مبدلة من تاء ، والصمت من هذا .

قلت : لا إبدال في هذا ولكن هذا من جهة الاشتقاق الأكبر وسنبين إن شاء الله وجه القول من جهة الاشتقاق ، واللغة .

وفي الحديث المأثور في سبب نزول هذه الآية رواه الإمام أحمد فى المسند وغيره من حديث أبى سعد الصغانى : حدثنا أبو جعفر الرازي ،

عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية عن أبي بن كعب : « أن المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: انسب لنا ربك فأنزل الله: (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ) إلى آخر السورة . قال : الصمد الذي لم يلد ولم يولد ؛ لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت ، وليس شيء يموت إلا سيورث ، وأن الله لا يموت ولا يورث » .

وأما تفسيره بأنه السيد الذي يصمد إليه فى الحوائج فهو أيضاً مروى عن ابن عباس موقوفا ومرفوعا ، فهو من تفسير الوالبي عن ابن عباس . قال : (الصمد) السيد الذي كمل فى سؤدده ، وهذا مشهور عن أبى وائل شقيق بن سلمة قال : هو السيد الذي انتهى سؤدده . وعن أبى إسحق الكوفى عن عكرمة الصمد الذي ليس فوقه أحد . ويروى هذا عن علي ، وعن كعب الأحبار : الذي لا يكافئه من خلقه أحد ، وعن السدي أيضاً : هو المقصود إليه في الرغائب ، والمستغاث به عند المصائب . وعن أبى هريرة رضي الله عنه هو المستغنى عن كل أحد المحتاج إليه كل أحد ، وعن سعيد بن جبير أيضاً : الكامل فى جميع صفاته وأفعاله . وعن الربيع الذي لا تعتريه الآفات . وعن مقاتل بن حيان الذي لا عيب فيه . وعن ابن كيسان هو الذي لا يوصف بصفته أحد . قال أبو بكر الأنباري : لاخلاف بين أهل اللغة أن الصمد السيد الذي ليس فوقه أحد ، الذي يصمد إليه الناس فى حوائجهم وأمورهم .

وقال الزجاج هو الذي ينتهي إليه السؤدد ، فقد صمد له كل شيء أي قصد قصده ، وقد أنشدوا فى هذا بيتين مشهورين أحدهما :

ألا بكر الناعى بخيرى بني أسد بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

وقال الآخر :

علوته بحسامي ثم قلت له : خذها حذيف فأنت السيد الصمد

وقال بعض أهل اللغة : الصمد هو السيد المقصود فى الحوائج ، تقول العرب صمدت فلاناً أصمده ـــ بكسر الميم ـــ وأصمده ـــ بضم الميم ـــ صمداً ـــ بسكون الميم ـــ إذا قصدته ، والمصمود صمد كالقبض بمعنى المقبوض ، والنقض بمعنى المنقوض ، ويقال بيت مصمود ومصمد إذا قصده الناس فى حوائجهم قال طرفة :

وإن يلتق الحي الجميع تلاقنى إلى ذروة البيت الرفيع المصمد

وقال الجوهرى : صمده يصمده صمداً إذا قصده ، والصمد بالتحريك السيد لأنه يصمد إليه في الحوائج ، ويقال بيت مصمد بالتشديد أى مقصود .

وقال الخطابى : أصح الوجوه أنه السيد الذي يصمد إليه فى الحوائج لأن الاشتقاق يشهد له . فإن أصل الصمد القصد ، يقال : اصمد صمد فلان أي اقصد قصده ، فالصمد السيد الذي يصمد إليه فى الأمور ، ويقصد فى الحوائج ، وقال قتادة : الصمد الباقي بعد خلقه ، وقال مجاهد ، ومعمر : هو الدائم ، وقد جعل الخطابى وأبو الفرج ابن الجوزي : الأقوال فيه أربعة هذين ، واللذين تقدما . وسنبين إن شاء الله أن بقاءه ودوامه من تمام الصمدية . وعن مرة الهمدانى هو الذي لا يبلى ولا يفنى . وعنه أيضاً قال : هو الذي يحكم ما يريد ، ويفعل ما يشاء لا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه .

وقال ابن عطاء : هو المتعالي عن الكون والفساد . وعنه أيضاً قال : الصمد الذي لم يتبين عليه أثر فيما أظهر ، يريد قوله : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ وقال الحسين بن الفضل : هو الأزلي بلا ابتداء ، وقال محمد ابن علي الحكيم الترمذي : هو الأول بلا عدد والباقى بلا أمد ، والقائم بلا عمد . وقال أيضاً الصمد الذي لا تدركه الأبصار ، ولا تحويه الأفكار ، ولا تبلغه الأقطار ، وكل شيء عنده بمقدار . وقيل : هو الذي جل عن شبه المصورين . وقيل هو بمعنى نفى التجزي والتأليف عن ذاته وهذا قول كثير من أهل الكلام ، وقيل هو الذي أيست العقول من الاطلاع على كيفيته . وكذلك قيل هو الذي لا تدرك حقيقة نعوته

وصفاته ، فلا يتسع له اللسان ، ولا يشير إليه البنان . وقيل هو الذي لم يعط خلقه من معرفته إلا الاسم والصفة . وعن الجنيـد قال : الذي لم يجعل لأعدائه سبيلا إلى معرفته .

ونحن نذكر ما حضرنا من ألفاظ السلف بأسانيدها . فروى ابن أبي حاتم فى تفسيره قال : « ثنا أبى ، ثنا محمـد بن موسى بن نفيع الجرشي ، ثنا عبـد الله بن عيسى يعني أبا خلف الخزاز ، ثنا داود بن أبى هند ، عن عكرمة ، عن ابن عباس فى قوله : (ٱلصَّمَدُ) قال : الصمد الذي تصمد إليه الأشياء إذا نزل بهم كربة أو بلاء .

حدثنا أبو زرعة ، ثنا محمد بن ثعلبة بن سواء السدوسي ، ثنا محمد ابن سواء ، ثنا سعيد بن أبي عروبة ، عـن أبي معشر ، عن إبراهيم ، قال : الصمد الذي يصمد العبـاد إليه فى حوائجهم ، حدثنا أبى ، ثنـا عبد الرحمن بن الضحـاك ، ثنا سويد بن عبد العزيز ، ثنا سفيان بن حسين ، عن الحسن ، قال : الصمد الحي القيـوم الذي لا زوال له . حدثنا أبى ، ثنا نصر بن علي ، ثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن الحسن ، قال : الصمد الباقي بعد خلقـه وهو قول قتـادة حدثنا أبو سعيد الأشج ، ثنـا ابن نمير ، عن الأعمش ، عن شقيق فى قوله : (الصمد) قال السيد الذي قد انتهى سؤدده .

حدثنا أبي ، ثنا أبو صالح ، ثنا معاوية بن صالح ، عن علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : (الصمد) قال : السيد الذي قد كمل فى سؤدده ، والشريف الذي قد كمل فى شرفه ، والعظيم الذي قد كمل في عظمته ، والحليم الذي قد كمل في حلمه ، والعليم الذي قد كمل فى علمه ، والحكيم الذي قد كمل فى حكمته ، وهو الذي قد كمل فى أنواع الشرف والسؤدد ، هو الله سبحانه وتعالى هذه صفته لا تنبغي لأحد إلا له ليس له كفؤ ، وليس كمثله شيء سبحان الله الواحد القهار .

حدثنا كثير بن شهاب المذحجي القزويني ، ثنا محمد بن سعيد بن سابق ، ثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس فى قوله : (الصمد) قال : الذي لم يلد ولم يولد . حدثنا أبو سعيد الأشج ، ثنا ابن علية ، عن أبي رجاء ، عن عكرمة فى قوله (الصمد) قال : الذي لم يخرج منه شيء . حدثنا أبو سعيد الأشج ، ثنا أبو أحمد ، ثنا مندل بن علي ، عن أبي روق عطية بن الحارث ، عن أبي عبد الرحمن السلمى ، عن عبد الله بن مسعود قال : (الصمد) الذي ليس له أحشاء وروى عن سعيد بن المسيب مثله .

حدثنا أبي ، ثنا محمد بن عمر بن عبد الله الرومي ، ثنا عبيد الله ابن سعيد قائد الأعمش ، عن صالح بن حيان ، عن عبد الله بن بريدة عن أبيه ، قال لا أعلمه إلا قد رفعه قال : (الصمد) الذي لا جوف

له . وروى عن عبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود فى إحدى الروايات ، والحسن وعكرمة وعطية وسعيد بن جبير ، ومجاهد فى إحدى الروايات ، والضحاك مثل ذلك. حدثنا أبى ثنا قبيصة ثنا سفيان عن منصور عن مجاهد قال : الصمد المصمت الذي لا جوف له .

حدثنا أبو عبد الله الطهرانى ، ثنا حفص بن عمر العدنى ، ثنا الحكم بن إبان ، عن عكرمة في قوله (الصمد) قال : (الصمد) الذي لا يطعم . حدثنا أبى ، ثنا على بن هاشم بن مرزوق ، ثنا هشيم عن إسماعيل بن أبى خالد ، عن الشعبى أنه قال : (الصمد) الذي لا يأ كل الطعام ولا يشرب الشراب . حدثنا أبى وأبو زرعة قالا ثنا أحمد بن منيع ثنا محمد بن ميسر — يعنى أبا سعد الصغانى — ثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب فى قوله : (الصمد) قال : (الصمد) الذي لم يلد ولم يولد ؛ لأنه ليس شيء يلد إلا يموت ، وليس شيء يموت إلا يورث ، وإن الله لا يموت ، ولا يورث ، (وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ) قال : لم يكن له شبه ولا عدل ، وليس كمثله شيء .

حدثنا علي بن الحسين ، ثنا محمود بن خداش ، ثنا أبو سعد الصغانى . ثنا أبو جعفر الرازي ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية عن أبى بن كعب : « أن المشركين قالوا : انسب لنا ربك ، فأنزل الله

هذه السورة » حدثنا أبو زرعة ثنا العباس بن الوليد ثنا يزيد بن زريع عن سعيد عن قتادة (وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ) قال : إن الله لا يكافئه من خلقه أحد . حدثنا علي بن الحسين ثنا أبو عبد الله الجرشي ، ثنا أبو خلف عبد الله بن عيسى ، ثنا داود بن أبي هند ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : « إن اليهود جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم منهم كعب بن الأشرف ، وحيي بن أخطب ، وجدي بن أخطب ، فقالوا: يا محمد ! صف لنا ربك الذي بعثك فأنزل الله : (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ) فيخرج منه الولد (وَلَمْ يُولَدْ) فيخرج من شيء »

وقال ابن جرير الطبري فى تفسيره : حدثنا أحمد بن منيع المروزي . ومحمود بن خداش الطالقاني فذكر مثل إسناد ابن أبي حاتم عن أبي بن كعب سؤال المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم انسب لنا ربك فأنزل الله : (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) . حدثنا ابن حميد ، ثنا يحيى ابن واضح ، ثنا الحسين عن يزيد ، عن عكرمة أن المشركين قالوا : لرسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرنا عن صفة ربك ما هو ؟ ومن أي شيء هو ؟ فأنزل الله هذه السورة ، ورواه أيضاً عن أبي العالية وعن جابر بن عبد الله حدثنا شريح ، ثنا إسماعيل بن مجاهد ، عن الشعبي ، عن جابر فذكره قال : وقيل : هو من سؤال اليهود .

حدثنا ابن حميد ، ثنا سلمة ، ثنا ابن إسحق ، عن محمد بن سعيد

قال : « أتى رهط من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد هذا الله خلق الخلق فمن خلقه ؟ فغضب النبي صلى الله عليه وسلم حتى انتقع لونه ثم ساورهم غضبا لربه فجاءه جبريل فسكنه ، وقال اخفض عليك جناحك يامحمد ، وجاءه من الله جواب ما سألوه عنه قال : يقول الله : (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) إلى آخرها فلما تلاها عليهم النبي صلى الله عليه وسلم قالوا له : صف لنا ربك كيف خلقه كيف عضده ؟ كيف ساعده ؟ وكيف ذراعه ، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم أشد من غضبه الأول ، وساورهم فأتاه جبريل فقال له : مثل مقالته الأولى وأتاه بجواب ما سألوه فأنزل الله (وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ) .

وروى الحكم بن معبد في (كتاب الرد على الجهمية) قال ثنا عبد الله بن محمد بن النعمان ، ثنا سلمة بن شبيب ، ثنى يحيى بن عبد الله ، ثنى ضرار ، عن أبان ، عن أنس ، قال : « أتت يهود خيبر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا أبا القاسم خلق الله الملائكة من نور الحجاب ، وآدم من حمأ مسنون ، وإبليس من لهب النار ، والسماء من دخان ، والأرض من زبد الماء ، فأخبرنا عن ربك ؟ قال : فلم يجبهم النبي صلى الله عليه وسلم فأتاه جبريل فقال يا محمد : (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ) ليس له عروق شعب إليها . (الصمد) ليس بأجوف ولا يأكل

ولا يشرب (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ) ليس له ولد ولا والد ينسب إليه (وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ) ليس شيء من خلقه يعدل مكانه يمسك السموات والأرض أن تزولا » الحديث .

وقال ابن جرير : ثنا عبد الرحمن بن الأسود ، ثنا محمد بن ربيعة عن سلمة بن سابور ، عن عطية ، عن ابن عباس قال : (الصمد) الذي ليس بأجوف ، حدثنا ابن بشار ، ثنا عبد الرحمن ، ثنا سفيان عن منصور ، عن مجاهد (الصمد) المصمت الذي لا جوف له ، حدثنا أبو كريب ، ثنا وكيع ، عن سفيان ، عن منصور مثله سواء .

حدثنا الحارث ، ثنا الحسن ، ثنا ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد مثله ، حدثنا ابن بشار ، ثنا عبد الرحمن ، ثنا الربيع بن مسلم عن الحسن ، قال : (الصمد) الذي لا جوف له ، وبهذا الإسناد عن إبراهيم ابن ميسرة قال : أرسلني مجاهد إلى سعيد بن جبير أسأله عن (الصمد) فقال : الذي لا جوف له ، حدثنا ابن بشار ، ثنا يحيى ، ثنا إسماعيل ابن أبي خالد ، عن الشعبي قال : (الصمد) الذي لا يطعم الطعام ورواه يعقوب عن هشيم عن إسماعيل عنه قال : لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب .

حدثنا ابن بشار وزيد بن أخزم قالا : ثنا ابن داود عن المستقيم ابن عبد الملك ، عن سعيد بن المسيب قال : (الصمد) الذي لا حشو

له ، حدثنا الحسين ، ثنا أبو معاذ ، ثنا عبيد قال : سمعت الضحاك يقول : (الصمد) الذي لا جوف له ، وروى عن ابن بريدة فيه حديثاً مرفوعا لكنه ضعيف قال : وقال آخرون هو الذي لا يخرج منه شيء حدثنا يعقوب بن أبي علية ، عن أبي رجاء ، سمعت عكرمة قال فى قوله : (الصمد) لم يخرج منه شيء : لم يلد ، ولم يولد ، حدثنا ابن بشار ، ثنا محمد بن جعفر ، ثنا شعبة ، عن أبي رجاء محمد بن يوسف ، عن عكرمة قال : (الصمد) الذى لا يخرج منه شيء .

وقال آخرون لم يلد ولم يولد ، وذكر حديث أبى بن كعب الذى رواه ابن أبى حاتم ، والذى فيه : أنه سبحانه لا يموت ولا يورث ، قال : وقال آخرون : هو السيد الذى انتهى فى سؤدده ، قال : وثنا أبو السائب ، ثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن شقيق ، قال : (الصمد) هو السيد الذى انتهى فى سؤدده ، حدثنا أبو كريب وابن بشار وابن عبد الأعلى قالوا : ثنا وكيع عن الأعمش عن أبى وائل قال (الصمد) السيد الذى انتهى فى سؤدده ، حدثنا ابن حميد ، ثنا مهران ، عن سفيان ، عن الأعمش ، عن أبى وائل مثله ، حدثنا أبو صالح ، ثنا معاوية ، عن علي ، عن ابن عباس فى قوله : (الصمد) قال السيد الذى قد كمل في سؤدده ، وذكر مثل الحديث الذى رواه ابن أبى حاتم كما تقدم .

قلت : الاشتقاق يشهد للقولين جميعاً قول من قال : إن (الصمد) الذى لا جوف له ، وقول من قال إنه السيد ، وهو على الأول أدل ؛ فإن الأول أصل للثانى ، ولفظ (الصمد) يقال على مالا جوف له فى اللغة . قال يحيى بن أبي كثير الملائكة صمد والآدميون جوف ، وفى حديث آدم أن إبليس قال عنه أنه أجوف ليس بصمد ، وقال الجوهرى : المصمد لغة فى المصمت وهو الذى لا جوف له ، قال والصاد عفاص القارورة ، وقال : الصمد المكان المرتفع الغليظ قال أبو النجم :

« يغادر الصمد كظهر الأجزل »

وأصل هذه المادة الجمع والقوة ، ومنه يقال بصمد المال : أي يجمعه ، وكذلك « السيد » أصله سيود اجتمعت ياء وواو وسبقت إحداها بالسكون فقلبت الواو ياء وادغمت . كما قيل ميت وأصله ميوت . والمادة في السواد والسؤدد تدل على الجمع ، واللون الأسود هو الجامع للبصر . وقد قال تعالى : (وَسَيِّدًا وَحَصُورًا) قال أكثر السلف (سَيِّدًا) حليما ، وكذلك يروى عن الحسن . وسعيد بن جبير . وعكرمة وعطاء . وأبى الشعثاء والربيع بن أنس . ومقاتل ، وقال : أبو روق عن الضحاك أنه الحسن الخلق . وروى سالم عن سعيد بن جبير أنه التقى ، ولا يسود الرجل الناس حتى يكون فى نفسه مجتمع الخلق ثابتاً .

وقال عبد الله بن عمر : ما رأيت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أسود من معاوية ! فقيل له : ولا أبو بكر ، ولا عمر ، قال : كان أبو بكر وعمر خيراً منه ، وما رأيت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أسود من معاوية . قال أحمد بن حنبل : يعنى به الحليم ، أو قال : الكريم ولهذا قيل :

إذا شئت يوما أن تسود قبيلة　　فبالحلم سد لا بالتسرع والشتم

ولهذا فسر طائفة من السلف السيد بأنه سيد قومه فى الدين ، وقال ابن زيد : هو الشريف ، وقال الزجاج : الذي يفوق قومه فى الخير . وقال ابن الأنباري : السيد هنا الرئيس ، والإمام في الخير ، وعن ابن عباس ومجاهد : هو الكريم على ربه ، وعن سعيد بن المسيب هو الفقيه العالم ، وقد تقدم أنهم يقولون لعفاص القارورة : صماد ، قال الجوهري العفاص جلد يلبسه رأس القارورة ، وأما الذي يدخل في فمه فهو الصمام وقد عفصت القارورة شددت عليها العفاص .

(قلت) : وفى الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم فى اللقطة : « ثم اعرف عفاصها ووكاءها » والمراد بالعفاص : ما يكون فيه الدراهم كالخرقة التى تربط فيها الدراهم ، والوكاء : مثل الخيط الذي يربط به ، وهذا من جنس عفاص القارورة . ولفظ العفص والسد والصمد

والجمع والسؤدد معانيها متشابهة ، فيها الجمع والقوة ، ويقال طعام عفص ، وفيه عفوصة ؛ أي تقبض ، ومنه العفص الذي يتخذ منه الحبر .

وقد قال الجوهرى : هو مولد ليس من كلام أهل البادية ، وهذا لا يضر ؛ لأنه لم يكن عندهم عفص يسمونه بهذا الاسم ، لكن التسمية به جارية على أصول كلام العرب ، وكذلك تسميتهم لما يدخل فى فمها صمام ، فإن هذه المادة فيها معنى الجمع والسد .

قال الجوهرى : صمام القارورة سدادها ، والحجر الأصم الصلب المصمت ، والرجل الأصم هو الذى لا يسمع ، لا نسداد سمعه ، والرجل الصمة الشجاع ، والصمة الذكر من الحيات ، وصميم الشيء خالصه ، حيث لم يدخل إليه ما يفرقه ويضعفه ، يقال صميم الحر ، وصميم البرد ، وفلان من صميم قومه ، والصمصام : الصارم القاطع ، الذى لا ينثنى ، وصمم فى السير وغيره أى مضى ، ورجل صم أى غليظ .

ومنه فى الاشتقاق الأكبر الصوم ، فإن الصوم هو الإمساك . قال أبو عبيدة : كل ممسك عن طعام أو كلام أو سير فهو صائم ، لأن الإمساك فيه اجتماع ، والصائم لا يدخل جوفه شيء ، ويقال صام الفرس إذا قام في غير اعتلاف . قال النابغة :

خيل صيام وخيل غير صائمة تحت العجاج ، وأخرى تعلك اللجما

وكذلك السد والسداد والسؤدد والسواد ، وكذلك لفظ الصمد فيه الجمع ، والجمع فيه القوة ، فإن الشيء كلما اجتمع بعضه إلى بعض ، ولم يكن فيه خلل كان أقوى مما إذا كان فيه خلو . ولهذا يقال للمكان الغليظ المرتفع : صمد ، لقوته وتماسكه ، واجتماع أجزائه ، والرجل الصمد هو السيد المصمود ؛ أي المقصود ، يقال قصدته ، وقصدت له ، وقصدت إليه ، وكذلك هو مصمود ، ومصمود له وإليه ، والناس إنما يقصدون فى حوائجهم من يقوم بها . وإنما يقوم بها من يكون فى نفسه مجتمعا قوياً ثابتا ، وهو السيد الكريم ، بخلاف من يكون هلوعا جزوعا يتفرق ويقلق ويتمزق من كثرة حوائجهم وثقلها ، فإن هذا ليس بسيد صمد يصمدون إليه فى حوائجهم .

فهم إنما سموا السيد من الناس صمدا ؛ لما فيه من المعنى الذي لأجله يقصده الناس في حوائجهم ، فليس معنى السيد في لغتهم معنى إضافي فقط ـ كلفظ القرب والبعد ـ بل هو معنى قائم بالسيد ؛ لأجله يقصده الناس ، والسيد من السؤدد والسواد ، وهذا من جنس السداد فى الاشتقاق الأكبر ، فإن العرب تعاقب بين حرف العلة ، والحرف المضاعف . كما يقولون : تقضى البازى ، وتقضض ، والساد هو الذي يسد غيره ، فلا يبقى فيه خلو ، ومنه سداد القارورة ، وسداد الثغر بالكسر فيهما ، وهو ما يسد ذلك ، ومنه السداد بالفتح : وهو الصواب ، ومنه القول السديد . قال

الله تعالى : (اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا) قالوا قصدا حقا . وعن ابن عباس صوابا . وعن قتادة ومقاتل عدلا . وعن السدى مستقيما ، وكل هذه الأقوال صحيح ، فإن القول السديد هو المطابق الموافق ، فإن كان خبراً كان صدقاً مطابقا لمخبره ، لا يزيد ولا ينقص ، وإن كان أمراً كان أمرا بالعدل الذي لا يزيد ولا ينقص ؛ ولهذا يفسرون السداد بالقصد ، والقصد بالعدل .

قال الجوهري : التسديد التوفيق للسداد ، وهو الصواب ، والقصد في القول والعمل ، ورجل مسدد إذا كان يعمل بالسداد ، والقصد . والمسدد المقوم ، وسدد رمحه ، وأمر سديد وأسد أي قاصد ، وقد استد الشيء استقام . قال الشاعر :

أعلمه الرماية كل يوم فلما استد ساعده رماني

وقال الأصمعي : اشتد بالشين المعجمة ليس بشيء ، وتعبيرهم عن السد بالقصد يدلك على أن لفظ القصد فيه معنى الجمع والقوة ، والقصد العدل كما أنه السداد ، والصواب ، وهو المطابق الموافق الذي لا يزيد ولا ينقص ، وهذا هو الجامع المطابق ، ومنه قوله تعالى : (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ) أي السبيل القصد ، وهو السبيل العدل : أي إليه تنتهي السبيل العادلة ، كما قال تعالى : (إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ) أي الهدى إلينا

هذا أصح الأقوال فى الآيتين . وكذلك قوله تعالى : (قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ) .

ومنه فى الاشتقاق الأوسط : الصدق ، فإن حروفه حروف القصد ، فمنه الصدق فى الحديث لمطابقته مخبره ، كما قيل فى السداد . والصدق بالفتح الصلب من الرماح ويقال المستوى فهو معتدل صلب ليس فيـه خلل ولا عوج ، والصندوق واحد الصناديق ، فإنه يجمع ما يوضع فيه .

ومما ينبغي أن يعرف في باب الاشتقاق أنه إذا قيل هذا مشتق من هذا فله معنيان :

أحدهما : أن بين القولين تناسبا فى اللفظ والمعنى ، سواء كان أهل اللغة تكلموا بهذا بعد هذا أو بهذا بعد هذا ، وعلى هذا فـكل من القولين مشتق من الآخر ، فإن المقصود أنه مناسب له لفظاً ومعنى كما يقال : هذا الماء من هذا الماء ، وهذا الـكلام من هذا الـكلام ، وعلى هذا فإذا قيل : إن الفعل مشتق من المصدر ، أو المصدر مشتق من الفعل ، كان كلا القولـين صحيحا ، وهـذا هو الاشتقـاق الذي يقوم عليـه دليل التصريف .

وأما المعنى الثانى فى الاشتقاق وهو أن يكون أحدهما أصلا للآخر ،

فهذا إذا عنى به أن أحدهما تكلم به قبل الآخر لم يقم على هـذا دليل في أكثر المواضع ، وان عنى به أن أحدهما متقدم على الآخر فى العقل لكون هذا مفردا وهذا مركبا فالفعل مشتق من المصدر ، والاشتقاق الأصغر اتفاق القولين فى الحروف وترتيبها ، والأوسط اتفاقهما فى الحروف لا في الترتيب ، والأكبر اتفاقهما في أعيان بعض الحروف ، وفى الجنس لا في الباقى ، كاتفاقهما فى كونهما مـن حروف الحلق ، إذا قيل حزر وعزر وأزر ، فإن الجميع فيه معنى القوة والشدة وقد اشتركت مع الراء والزاى والحاء فى أن الثلاثة حروف حلقية ، وعلى هذا فإذا قيل : الصمد بمعنى المصمت ، وأنه مشتق منه بهذا الاعتبار فهو صحيح ، فإن الدال أخت التاء ؛ فإن الصمت السكوت ، وهو إمساك ، وإطباق للفم عن الـكلام .

قال أبو عبيد : المصمت الذي لا جوف له ، وقـد أصمتـه أنا ، وباب مصمت قـد أبهم إغـلاقـه ، والمصمت مـن الخيـل ، البهيم أي لا يخالط لونه لون آخر ، ومنه قول ابن عباس : إنما حرم مـن الحرير المصمت ، فالمصمد والمصمت متفقان فى الاشتقـاق الأكبر ، وليست الدال منقلبة عن التاء ، بل الدال أقوى ، والمصمد أكمل في معناه من المصمت ، وكلما قوى الحرف كان معناه أقوى ، فإن لغـة العرب فى غاية الإحكام والتناسب ، ولهذا كان الصمت إمساك عن الـكلام مع

إمكانه ، والإنسان أجوف يخرج الكلام من فيه لكنه قد يصمت بخلاف الصمد فإنه إنما استعمل فيما لا تفرق فيه ، كالصمد والسيد والصمد من الأرض وصماد القارورة ، ونحو ذلك . فليس فى هذه الألفاظ المتناسبة أكمل من ألفاظ الصمد ، فإن فيه الصاد والميم والدال وكل من هذه الحروف الثلاثة لها مزية على ما يناسبها من الحروف ، والمعانى المدلول عليها بمثل هذه الحروف أكمل .

ومما يناسب هذه المعانى معنى «الصبر» فإن الصبر فيه جمع وإمساك ، ولهذا قيل : الصبر حبس النفس عن الجزع ، يقال صبر وصبرته أنا ، ومنه قوله تعالى : (وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ) وكذلك معنى السيد الصمد خلاف معنى الجزوع المنوع ، ومنه الصبرة من الطعام فإنها مجتمعة مكومة ، والصبارة الحجارة ، وصبر الشيء غلظه ، وضده الجزع ، وفيه معنى التقطع والتفرق ، يقال جزع له جزعة من المال أي قطع له قطعة ، والجزوعة القطعة من الغنم ، واجتزعت من الشجر عودا أي اقتطعته ، واكتسرته ، وجزعت الوادى إذا قطعته عرضا ، والجزع منعطف الوادى ، ومنه الجزع وهو الخرز اليمانى الذي فيه بياض وسواد ، وكذلك جزع البسر تجزيعا إذا أرطب نصفه [أو] ثلثاه ، وهو خلاف قولهم مصمت للون الواحد لما في ذلك من الاجتماع ، وفي هذا من التفرق .

وقد قال تعالى : (إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا

مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا) قال الجوهري : الهلع أفحش الجزع ، وقال غيره : هو فى اللغة أشد الحرص ، وأسوأ الجزع ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « شر ما فى المرء شح هالع وجبن خالع » وناقة هلوع إذا كانت سريعة السير خفيفة ، وذئب هلع بلع ، والهلع من الحرص ، والبلع من الابتلاع ، ولهذا كان كلام السلف فى تفسيره يتضمن هذه المعاني ، فروى عن ابن عباس قال : هو الذي إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا . وروى عنه أنه قال : هو الحريص على ما لا يحل له . وعن سعيد بن جبير : شحيحاً . وعن عكرمة : ضجوراً . وعن جعفر : حريصاً ، وعن الحسن والضحاك : بخيلا ، وعن مجاهد : شرهاً ، وعن الضحاك أيضاً : الهلوع الذي لا يشبع ، وعن مقاتل : ضيق القلب ، وعن عطاء : عجولا ، وهذه المعاني كلها تنافى الثبات والقوة والاجتماع ، والإمساك والصبر ، وقد قال تعالى : (لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ) وهذا وإن كان قد قيل إن المراد به أنها تنصدع فيموتون ، فإنه كما قيل : فى مثل ذلك قد انصدع قلبه ، وقد تفرق قلبى ، وقد تشتت قلبى ، وقد تقسم قلبى ، ومنه يقال للخوف : قد فرق قلبه ويقال : بإزاء ذلك هو ثابت القلب مجتمع القلب ، مجموع القلب .

فصـــــــل

قال الله تعالى : (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ) فأدخل اللام فى الصمد ، ولم يدخلها في أحد ؛ لأنه ليس في الموجودات ما يسمى أحداً في الإثبات مفرداً غير مضاف إلا الله تعالى ؛ بخلاف النفي وما فى معناه : كالشرط والاستفهام فإنه يقال : هل عندك أحد ؟ وإن جاءني أحد من جهتك أكرمته ، وإنما استعمل فى العدد المطلق ، يقال : أحد ، اثنان . ويقال : أحد عشر . وفى أول الأيام يقال : يوم الأحد ، فإن فيه — على أصح القولين — ابتدأ الله خلق السموات والأرض . وما بينهما . كما دل عليه القرآن والأحاديث الصحيحة ، فإن القرآن أخبر فى غير موضع : أنه خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، وقد ثبت فى الحديث الصحيح المتفق على صحته : أن آخر المخلوقات كان آدم ، خلق يوم الجمعة . وإذا كان آخر الخلق كان يوم الجمعة دل على أن أوله كان يوم الأحد لأنها ستة .

وأما الحديث الذي رواه مسلم فى قوله : « خلق الله التربة يوم السبت » فهو حديث معلول قدح فيه أئمة الحديث كالبخاري وغيره ،

قال البخاري : الصحيح أنه موقوف على كعب ، وقد ذكر تعليله البيهقى أيضاً ، وبينوا أنه غلط ليس مما رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو مما أنكر الحذاق على مسلم إخراجه إياه ، كما أنكروا عليه إخراج أشياء يسيرة ، وقد بسط هذا فى مواضع أخر ، وقد ذكر أبو الفرج ابن الجوزي فى قوله تعالى : (خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ) قال ابن عباس : خلق الأرض في يوم الأحد والاثنين ، وبه قال عبد الله بن سلام والضحاك ومجاهد وابن جريج والسدي والأكثرون . وقال مقاتل في يوم الثلاثاء والأربعاء .

قال : وقد أخرج مسلم حديث أبي هريرة « خلق الله التربة يوم السبت » قال : وهذا الحديث مخالف لما تقدم ، وهو أصح فصحح هذا لظنه صحة الحديث ، إذ رواه مسلم ، ولكن هذا له نظائر روى مسلم أحاديث قد عرف أنها غلط ، مثل قول أبي سفيان لما أسلم : أريد أن أزوجك أم حبيبة ، ولا خلاف بين الناس أنه تزوجها قبل إسلام أبي سفيان ، ولكن هذا قليل جداً ، ومثل ما روى فى بعض طرق حديث صلاة الكسوف أنه صلاها بثلاث ركوعات وأربع ، والصواب أنه لم يصلها إلا مرة واحدة بركوعين ، ولهذا لم يخرج البخاري إلا هذا ، وكذلك الشافعي ، وأحمد بن حنبل في إحدى الروايتين عنه ، وغيرهما ، والبخاري سلم من مثل هذا ؛ فإنه إذا وقع في بعض

الروايات غلط ذكر الروايات المحفوظة التى تبين غلط الغالط ، فإنه كان أعرف بالحديث وعلله ، وأفقه فى معانيه من مسلم ونحوه ، وذكر ابن الجوزي فى موضع آخر أن هـذا قول ابن إسحاق قال : وقال ابن الأنباري : وهذا إجماع أهل العلم .

وذكر قولا ثالثاً فى ابتداء الخلق : أنه يوم الاثنين . وقاله ابن إسحاق ، وهذا تناقض . وذكر أن هذا قول أهل الإنجيل ، والابتداء بيوم الأحد قول أهل التوراة ، وهذا النقل غلط على أهل الإنجيل . كما غلط من جعل الأول إجماع أهل العلم من المسلمين . وكأن هؤلاء ظنوا أن كل أمة تجعل اجتماعها فى اليوم السابع من الأيام السبعة التى خلق الله فيها العالم ، وهذا غلط ؛ فإن المسلمين إنما اجتماعهم فى آخر يوم خلق الله فيه العالم ، وهو يوم الجمعة ، كما ثبت ذلك فى الأحاديث الصحيحة .

والمقصود هنا : أن لفظ الأحد لم يوصف به شيء من الأعيان إلا الله وحده ، وإنما يستعمل فى غير الله فى النفي ، قال أهل اللغة يقول : لا أحد فى الدار ، ولا تقل فيها أحد . ولهذا لم يجيء في القرآن إلا في غير الموجب ، كقوله تعالى : (فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ) وكقوله : (لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ) وقوله : (وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ

ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ) وفى الإضافة كقوله : (فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم) (جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ) .

وأما اسم (ٱلصَّمَدُ) فقد استعمله أهل اللغة فى حق المخلوقين . كما تقدم . فلم يقل الله صمد ، بل قال : (ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ) فبين أنه المستحق ؛ لأن يكون هو الصمد دون ما سواه ، فإنه المستوجب لغايته على الكمال ، والمخلوق وإن كان صمداً من بعض الوجوه ، فإن حقيقة الصمدية منتفية عنه ؛ فإنه يقبل التفرق والتجزئة ، وهو أيضاً محتاج إلى غيره ، فإن كل ما سوى الله محتاج إليه من كل وجه ، فليس أحد يصمد إليه كل شيء ولا يصمد هو إلى شيء إلا الله تبارك وتعالى ، وليس في المخلوقات إلا ما يقبل أن يتجزأ ، ويتفرق ، ويتقسم ، وينفصل بعضه من بعض ، والله سبحانه هو الصمد الذي لا يجوز عليه شيء من ذلك ، بل حقيقة الصمدية وكمالها له وحده واجبة لازمة لا يمكن عدم صمديته بوجه من الوجوه . كما لا يمكن تثنية أحديته بوجه من الوجوه ، فهو أحد لا يماثله شيء من الأشياء بوجه من الوجوه ، كما قال في آخر السورة : (وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ) استعملها هنا فى النفي أي ليس شيء من الأشياء كفوا له فى شيء من الأشياء لأنه أحد .

وقال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم : أنت سيدنا فقال : « السيد

الله » ودل قوله . (الأحد ، الصمد) ، عـلى أنه لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ؛ فإن الصمد هـو الذي لا جوف له ولا أحشاء ، فلا يدخل فيه شيء ، فلا يأ كل ولا يشرب سبحـانه وتعالى كما قال :

(قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ)

وفي قراءة الأعمش وغيره ولا يَطعم بالفتح . وقال تعالى :

(وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ) ومـن مخلوقاته الملائـكة ، وهم صمد لا يأ كلون ولا يشربون ، فالخالق لهم جل جلاله أحق بكل غنى وكمال جعله لبعض مخـلوقاته ، فلهذا فسر بعض السلف الصمد بأنه الذي لا يأ كل ولا يشرب ، والصمد المصمد الذي لا جوف له ، فلا يخرج منه عين من الأعيان ، فلا يلد .

ولذلك قال من قال من السلف : هو الذي لا يخرج منه شيء ، ليس مرادهم أنه لا يتكلم ، وإن كان يقال فى الـكلام إنه خرج منه ، كما قال فى الحديث : « ما تقرب العباد إلى الله بشيء أفضل مما خرج منه » يعنى القرآن ، وقال أبو بكر الصديق لما سمع قرآن مسيلمة : إن هـذا لم يخرج من إل . فخروج الـكلام من المتـكلم هو بمعنى أنه يتـكلم به فيسمع منه ، ويبلغ إلى غيره ليس بمخلوق فى غيره ، كما يقول الجهمية : ليس بمعنى أن شيئاً من الأشياء القائمة به يفارقه ، وينتقل عنه إلى غيره ،

فإن هذا ممتنع في صفات المخلوقين . أن تفارق الصفة محلها ، وتنتقل إلى غير محلها ، فكيف بصفات الخالق جل جلاله . وقد قال تعالى في كلام المخلوقين : (كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا) وتلك الكلمة هي قائمة بالمتكلم ، وسمعت منه ليس خروجها من فيه ، أن ما قام بذاته من الكلام فارق ذاته ، وانتقل إلى غيره ، فخروج كل شيء بحسبه ، ومن شأن العلم والكلام إذا استفيد من العالم والمتكلم أن لا ينقص من محله ، ولهذا شبه بالنور الذي يقتبس منه كل أحد الضوء ، وهو باق على حاله لم ينقص ، فقول من قال من السلف : الصمد هو الذي لم يخرج منه شيء كلام صحيح ، بمعنى أنه لا يفارقه شيء منه .

ولهذا امتنع عليه أن يلد وأن يولد ، وذلك أن الولادة والتولد وكل ما يكون من هذه الألفاظ لا يكون إلا من أصلين ، وما كان من المتولد عينا قائمة بنفسها فلا بد لها من مادة تخرج منها ، وما كان عرضا قائماً بغيره فلا بد له من محل يقوم به ، فالأول نفاه بقوله : (أحد) ، فإن الأحد هو الذي لا كفؤ له ولا نظير ، فيمتنع أن تكون له صاحبة ، والتولد إنما يكون بين شيئين ، قال تعالى : (أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

فنفى سبحانه الولد بامتناع لازمه عليه ، فإن انتفاء اللازم يدل

على انتفاء الملزوم ، وبأنه خالق كل شيء ، وكل ما سواه مخلوق له ، ليس فيه شيء مولود له .

والثاني : نفاه بكونه سبحانه الصمد ، وهذا المتولد من أصلين يكون بجزئين ينفصلان من الأصلين ، كتولد الحيوان من أبيه وأمه بالمنى الذي ينفصل من أبيه وأمه ، فهذا التولد يفتقر إلى أصل آخر ، وإلى أن يخرج منها شيء ، وكل ذلك ممتنع فى حق الله تعالى ، فإنه أحد فليس له كفؤ يكون صاحبة ونظيراً ، وهو صمد لا يخرج منه شيء ، فكل واحد من كونه أحداً ، ومن كونه صمداً يمنع أن يكون والداً ، ويمنع أن يكون مولوداً بطريق الأولى والأحرى .

وكما أن التوالد فى الحيوان لا يكون إلا من أصلين ــ سواء كان الأصلان من جنس الولد ، وهو الحيوان المتوالد أو من غير جنسه ، وهو المتولد ــ فكذلك فى غير الحيوان كالنار المتولدة من الزندين ، سواء كانا خشبتين ، أو كانا حجراً وحديداً ، أو غير ذلك قال الله تعالى : (فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا) وقال تعالى : (أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ * ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ * نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ) وقال تعالى : (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ)

قال غير واحد من المفسرين هما شجرتان يقال لإحداهما : المرخ ، والأخرى العفار . فمن أراد منهما النار قطع منهما غصنين مثل السواكين، وهما خضراوان يقطر منهما الماء ، فيسحق المرخ — وهو ذكر — على العفار . — وهو أنثى — فتخرج منهما النار بإذن الله تعالى ، وتقول العرب فى كل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار . وقال بعض الناس فى كل شجرة نار إلا العناب ، (فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ) فذلك زنادهم .

وقد قال أهل اللغة الجوهرى وغيره : الزند العود الذي يقدح به النار ، وهو الأعلى . والزندة السفلى فيها ثقب ، وهي الأنثى ، فإذا اجتمعا قيل زندان .

وقال أهل الخبرة بهذا : إنهم يسحقون الثقب الذي فى الأنثى بالأعلى كما يفعل ذكر الحيوان فى أنثاه ، فبذلك السحق والحك يخرج منهما أجزاء ناعمة تنقدح منها النار ، فتتولد النار من مادة الذكر والأنثى كما يتولد الولد من مادة الرجل والمرأة ، وسحق الأنثى بالذكر وقدحها به يقتضي حرارة كل منهما ، ويتحلل من كل منهما مادة تنقدح منها النار كما أن إيلاج ذكر الحيوان فى أنثاه بقدح وحك فرجها بفرجه ،فتقوى حرارة كل منهما ، ويتحلل من كل منهما مادة تمتزج بالأخرى ، ويتولد منهما الولد ، ويقال : علقت النار فى المحل الذي يقدح عليه ، الذي هو

كالرحم للولد ، وهو الحراق والصوفان ، ونحو ذلك مما يكون أسرع قبولا للنار من غيره ، كما علقت المرأة من الرجل ، وقد لا تعلق النار كما قد لا تعلق المرأة ، وقد لا تنقدح نار كما لا ينزل مني ، والنار ليست من جنس الزنادين ، بل تولد النار منهما كتولد حيوان من الماء والطين ، فإن الحيوان نوعان متوالد كالإنسان وبهيمة الأنعام ، وغير ذلك مما يخلق من أبوين ، ومتولد كالذي يتولد من الفاكهة والخل ، وكالقمل الذي يتولد من وسخ جلد الإنسان ، وكالفأر والبراغيث وغير ذلك مما يخلق من الماء والتراب .

وقد تنازع الناس فيما يخلقه الله من الحيوان والنبات والمعدن والمطر والنار التى تورى بالزناد وغير ذلك هل تحدث أعيان هذه الأجسام فيقلب هذا الجنس إلى جنس آخر . كما يقلب المنى علقة ثم مضغة ، أولا تحدث إلا أعراض وأما الأعيان التى هي الجواهر فهي باقية بغير صفاتها بما يحدثه فيها من الأكوان الأربعة : الاجتماع ، والافتراق ، والحركة ، والسكون ؟ على قولين :

فالقائلون بأن الأجسام مركبة من الجواهر المنفردة . التى لا تقبل التجزي كما يقوله كثير من أهل الكلام . وإما من جواهر لا نهاية لها كما يحكى عن النظام .

فالقائلون بأن الأجسام مركبة من الجواهر يقولون : إن الله لا يحدث شيئاً قائماً بنفسه ، وإنما يحدث الأعراض التى هي الاجتماع والافتراق ، والحركة والسكون وغير ذلك من الأعراض . ثم من قال منهم بأن الجواهر محدثة قال : إن الله أحدثها ابتداء ، ثم جميع ما يحدثه إنما هو إحداث أعراض فيها لا يحدث الله بعد ذلك جواهر ، وهذا قول أكثر المعتزلة والجهمية والأشعرية ونحوهم ، ومن أكابر هؤلاء من يظن أن هذا مذهب المسلمين ، ويذكر إجماع المسلمين عليه ، وهو قول لم يقل به أحد من سلف الأمة ، ولا جمهور الأمة ؛ بل جمهور الأمة حتى من طوائف أهل الكلام ينكرون الجوهر الفرد ، وتركب الأجسام من الجواهر ، وابن كلاب إمام أتباعه هو ممن ينكر الجوهر الفرد وقد ذكر ذلك أبو بكر بن فورك فى مصنفه الذي صنفه فى مقالات ابن كلاب ، وما بينه وبين الأشعري من الخلاف ، وهكذا نفي الجوهر الفرد قول الهشامية والضرارية ، وكثير من الكرامية والنجارية أيضاً .

وهؤلاء القائلون بأن الأجسام مركبة من الجواهر المفردة : المشهور عنهم ؛ بأن الجواهر متماثلة ؛ بل ويقولون أو أكثرهم : إن الأجسام متماثلة ؛ لأنها مركبة من الجواهر المتماثلة وإنما اختلفت باختلاف الأعراض ، وتلك صفات عارضة لها ليست لازمة ، فلا تنفي التماثل ، فإن حد المثلين أن يجوز على أحدهما ما يجوز على الآخر ، ويجب له ما يجب له ويمتنع عليه ما يمتنع عليه . وهم يقولون : إن الجواهر متماثلة ، فيجوز

على كل واحد ما جاز على الآخر ، ويجب له ما يجب له ، ويمتنع عليه ما يمتنع عليه .

وكذلك الأجسام المؤلفة من الجواهر ؛ ولهذا إذا أثبتوا حكما لجسم قالوا : هذا ثابت لجميع الأجسام ، بناء على التماثل ، وأكثر العقلاء ينكرون هذا ، وحذاقهم قد أبطلوا الحجج التى احتجوا بها على التماثل ، كما ذكر ذلك الرازي والآمدي وغيرهما . وقد بسط الكلام على هذا في مواضع . والأشعري في « كتاب الإبانة » جعل القول بتماثل الأجسام من أقوال المعتزلة التى أنكرها .

وهؤلاء يقولون : إن الله يخص أحد الجسمين المتماثلين بأعراض دون الآخر بمجرد المشيئة ، على أصل الجهمية ، أو لمعنى آخر كما تقوله القدرية ، ويقولون يمتنع انقلاب الأجناس ، فلا ينقلب الجسم عرضاً ، ولا جنس من الأعراض إلى جنس آخر ، فلو قالوا : إن الأجسام مخلوقة ، وإن المخلوق ينقلب من جنس إلى جنس آخر ، لزم انقلاب الأجناس . فهؤلاء يقولون : إن التولد الحاصل في الرحم ، والثمر الحاصل فى الشجر ، والنار الحاصلة من الزناد هي جواهر كانت في المادة التى خلق ذلك منها ، وهي باقية ؛ لكن غيرت صفتها بالاجتماع والافتراق والحركة والسكون .

ولهذا لما ذكر أبو عبد الله الرازي أدلة « إثبات الصانع » ذكر أربعة طرق : إمكان الذوات وحدوثها ، وإمكان الصفات وحدوثها والطرق الثلاثة الأول ضعيفة ؛ بل باطلة ؛ فإن الذوات التى ادعوا حدوثها أو إمكانها أو إمكان صفاتها ذكروها بألفاظ مجملة لا يتميز فيها الخالق عن المخلوق ، ولم يقيموا على ما ادعوه دليلا صحيحاً .

وأما « الطريق الرابع » وهو الحدوث لما يعلم حدوثه فهو طريق صحيح ، وهو طريق القرآن ، لكن قصروا فيه غاية التقصير ؛ فإنهم على أصلهم لم يشهدوا حدوث شيء من الذوات ، بل حدوث الصفات ، وطريقة القرآن تبين أن كل ما سوى الله مخلوق ، وأنه آية لله ، وقد بسط الكلام على مافي القرآن من البراهين والآيات التى لم يصل إليها هؤلاء المتكلمة والمتفلسفة ، وإن كل ما عندهم من حق فهو جزء مما دل عليه القرآن فى غير موضع .

والمقصود هنا أن هؤلاء لما كان هذا أصلهم فى ابتداء الخلق وهو القول بإثبات الجوهر الفرد — كان أصلهم فى المعاد مبنيا عليه فصاروا على قولين :

منهم من يقول تعدم الجواهر ثم تعاد . ومنهم من قال : تتفرق الأجزاء ثم تجتمع فأورد عليهم الإنسان الذي يأكله حيوان ، وذلك

الحيوان أكله إنسان آخر ، فإن أعيدت تلك الأجزاء من هـذا لم تعد من هذا . وأورد عليهم أن الإنسان يتحلل دائماً فـما الذي يعاد أهو الذي كان وقت الموت ؟ فإن قيل : بذلك لزم أن يعاد عـلى صورة ضعيفة ، وهو خلاف ما جاءت به النصوص ، وإن كان غير ذلك فليس بعض الأبدان بأولى من بعض . فادعى بعضهـم أن فى الإنسان أجزاء أصلية لا تتحلل ، ولا يكون فيهـا شيء من ذلك الحيوان الذي أكله الثانى ، والعقلاء يعلمون أن بدن الإنسان نفسه كله يتحلل ، ليس فيه شيء باق ، فصار ما ذكروه فى المعاد مما قوى شبهة المتفلسفـة في إنكار معاد الأبدان ، وأوجب أن صار طائفة من النظار إلى أن الله يخلق بدنا آخر تعود الروح إليه .

والمقصود تنعيم الروح وتعـذيبها سواء كان هذا فى البدن أو فى غيره ، وهذا أيضاً مخالف للنصوص الصريحة بإعادة هذا البدن ، وهذا المذكور فى كتب الرازي ، فليس فى كتبه وكتب أمثاله في مسائل أصول الدين الكبار القول الصحيح الذي يوافق المنقول والمعقول ، الذي بعث الله به الرسول ، وكان عليه سلف الأمـة وأئمتهـا ، بل يذكر بحوث المتفلسفة الملاحدة ، وبحوث المتكلمين المبتدعـة الذين بنوا على أصول الجهمية والقدرية في مسائل الخلق ، والبعث والمبـدإ ، والمعاد ، وكلا الطريقين فاسد . إذ بنوه على مقدمات فاسـدة ، والقول الذي عليـه

السلف وجمهور العقلاء من أن الأجسام تنقلب من حال إلى حال ، إنما يذكره عن الفلاسفة والأطباء ؛ وهذا القول — وهو القول فى خلق الله للأجسام التى يشاهد حدوثها أنه يقلبها ويحيلها من جسم إلى جسم — هو الذي عليه السلف والفقهاء قاطبة ، والجمهور .

ولهذا يقول الفقهاء فى النجاسة هل تطهر بالاستحالة أم لا ؟ كما تستحيل العذرة رماداً ، والخنزير وغيره ملحاً ، ونحو ذلك ، والمنى الذي فى الرحم يقلبه الله علقة ، ثم مضغة ، وكذلك الثمر يخلق بقلب المادة التى يخرجها من الشجرة من الرطوبة مع الهواء والماء الذي نزل عليها وغير ذلك من المواد التى يقلبها ثمرة بمشيئته وقدرته ، وكذلك الحبة يفلقها وتنقلب المواد التى يخلقها منها سنبلة وشجرة وغير ذلك ، وهكذا خلقه لما يخلقه سبحانه وتعالى . كما خلق آدم من الطين ، فقلب حقيقة الطين فجعلها عظاما ولحما وغير ذلك من أجزاء البدن ، وكذلك المضغة يقلبها عظاما ، وغير عظام . قال الله تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ) .

وكذلك النار يخلقها بقلب بعض أجزاء الزناد ناراً ، كما قال تعالى :

(ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارًا) . فنفس تلك الأجزاء التى خرجت من الشجر الأخضر جعلها الله نارا من غير أن يكون كان فى الشجر الأخضر نار أصلا ، كما لم يكن فى الشجرة ثمرة أصلا ، ولا كان في بطن المرأة جنين أصلا ؛ بل خلق هـذا الموجود من مادة غيره بقلبه تلك المادة إلى هذا ، وبما ضمه إلى هـذا من مواد أخر ، وكذلك الإعادة يعيده بعد أن يبـلى كله إلا عجب الذنب ، كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليـه وسـلم أنه قال : « كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب . منه خلق ابن آدم ، ومنه يركب » .

وهو إذا أعاد الإنسان فى النشأة الثانيـة لم تكن تلك النشأة مماثلة لهذه ، فإن هذه كائنة فاسدة ، وتلك كائنة لا فاسدة ، بل باقية دائمة ، وليس لأهل الجنة فضلات فاسدة تخرج منهم ، كما ثبت فى الصحيح عن النبي صـلى الله عليـه وسلم أنـه قال : « أهل الجنـة لا يبولون ولا يتغوطون ولا يبصقون ولا يتمخطون وإنما هو رشح كرشح المسك » وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يحشر الناس حفاة عراة غرلا ثم قرأ (كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ) فهم يعودون غلفا لامختونين .

وقال الحسن البصري ومجاهد : كما بدأكم ، فخلقكم فى الدنيا ولم تكونوا شيئاً ، كذلك تعودون يوم القيامة أحياء ، وقال قتادة بدأهم من

التراب ، وإلى التراب يعودون . كما قال تعالى : (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ) وقال : (فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ) .

وهو قد شبه سبحانه إعادة الناس فى النشأة الأخرى بإحياء الأرض بعد موتها فى غير موضع . كقوله : (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

وقال : (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ) إلى قوله : (وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ) وقال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) وقال تعالى : (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ) .

وهو سبحانه مع إخباره أنه يعيد الخلق ، وأنه يحيي العظام وهي رميم ، وأنه يخرج الناس من الأرض تارة أخرى ، هو يخبر أن المعاد هو المبدأ . كقوله تعالى : (وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ) ويخبر أن الثاني مثل الأول ، كقوله تعالى : (وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ) وقال تعالى :

(وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا * يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا)

وقال تعالى : (أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ) وقال تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) وقال : (أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ) .

والمراد بقدرته على خلق مثلهم هو قدرته على إعادتهم ، كما أخبر

بذلك . في قوله : (أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ) فإن القوم ما كانوا ينازعون في أن الله يخلق في هذه الدار ناساً أمثالهم ، فإن هذا هو الواقع المشاهد يخلق قرنا بعد قرن ، يخلق الولد من الوالدين ، وهذه هي النشأة الأولى ، وقد علموها ، وبها احتج عليهم على قدرته على النشأة الآخرة ، كما قال : (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ) وقال : (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) وقال : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ) .

ولهذا قال : (عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ)

قال الحسن بن الفضل البجلي : الذي عندي في هذه الآية (وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ) أي أخلقكم للبعث بعد الموت من حيث لا تعلمون ، كيف شئت ، وذلك أنكم علمتم النشأة الأولى ، كيف كانت في بطون الأمهات ، وليست الأخرى كذلك ، ومعلوم أن النشأة الأولى كان الإنسان نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة مخلقة ، ثم ينفخ فيه الروح ، وتلك النطفة من مني الرجل والمرأة ، وهو يغذيه بدم الطمث الذي يربي الله به الجنين في ظلمات ثلاث : ظلمة المشيمة ، وظلمة

الرحم ، وظلمة البطن ، والنشأة الثانية لا يكونون فى بطن امرأة ، ولا يغذون بدم ، ولا يكون أحدهم نطفة رجل وامرأة ، ثم يصير علقة بل ينشئون نشأة أخرى ، وتكون المادة من التراب ، كما قال : (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ) وقال تعالى : (فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ) وقال (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا) وفي الحديث : « إن الأرض تمطر مطراً كمنى الرجال ينبتون في القبور كما ينبت النبات » كما قال تعالى : (كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ) (كَذَٰلِكَ النُّشُورُ) (كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) .

فعلم أن النشأتين نوعان تحت جنس ، يتفقان ويتماثلان ويتشابهان من وجه ، ويفترقان ويتنوعان من وجه آخر ، ولهذا جعل المعاد هو المبدأ ، وجعل مثله أيضاً . فباعتبار اتفاق المبدأ والمعاد فهو هو ، وباعتبار ما بين النشأتين من الفرق فهو مثله . وهكذا كل ما أعيد . فلفظ الإعادة يقتضى المبدأ و المعاد ، سواء في ذلك إعادة الأجسام والأعراض كإعادة الصلاة وغيرها ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم مر برجل يصلي خلف الصف وحده فأمره أن يعيد الصلاة ، ويقال للرجل : أعد كلامك ، وفلان قد أعاد كلام فلان بعينه ، ويعيد الدرس . فالكلام هو الكلام وإن كان صوت الثاني غير صوت الأول وحركته ، ولا

يطلق القول عليه أنه مثله ، بل قد قال تعالى : (قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا .

وإن كان يسمى مثلا مقيداً حتى يقال لمن حكى كلام غيره هكذا قال فلان ، أي مثل هذا قال ، ويقال فعل هذا عوداً على بدء ، إذا فعله مرة ثانية بعد أولى ، ومنه البئر البدي ، والبئر العادي ، فالبدي التى ابتدئت ، والعادي التى أعيدت ، وليست بنسبة إلى عاد . كما قيل . ويقال استعدته الشيء فأعاده إذا سألته أن يفعله مرة ثانية ، ومنه سميت العادة ، يقال : عاده واعتاده وتعوده أي صار عادة له : وعود كلبه الصيد فتعوده ، وهو من المعاودة ، والمعاودة الرجوع إلى الأمر الأول ، ويقال الشجاع معاود ؛ لأنه لا يمل المراس . وعاودته الحمى وعاوده بالمسألة أي سأله مرة بعد مرة ، وتعاود القوم في الحرب وغيرها إذا عاد كل فريق إلى صاحبه ، والعواد بالضم ما أعيد من الطعام ، بعد ما أكل منه مرة أخرى ، وعواد بمعنى عد مثل نزال بمعنى انزل .

ففي جميع هذه المواضع يستعمل لفظ الإعادة باعتبار الحقيقة فإن الحقيقة الموجودة فى المرة الثانية هي الأولى ، وإن تعدد الشخص ، ولهذا يقال : هو مثله ، ويقال هذا هو هذا ، وكلاهما صحيح وأعني بالحقيقة الأمر الذي يختص بذلك الشخص ، ليس المراد القدر المشترك بين

الفاعلين ، فإن من فعل مثل فعل غيره لا يقال أعاده ، وإنما يقال حاكاه وشابهه ، بخلاف ما إذا أعاد فعلا ثانياً مثل ما فعل أولا فإنه يقال أعاد فعله ، وكذلك يقال لمن أعاد كلام غيره قد أعاده ، ولا يقال لمن أنشأ مثله قد أعاده ، ويقال قرىء على هذا ، وأعاد على هذا ، وهذا يقرأ أي يدرس ، وهـذا يعيد ، ولو كان كلاما آخر مما يماثله لم يقل فيـه يعيد ، وكذلك من كسر خاتما أو غيره من المصوغ يقال أعده كما كان ويقال لمن هدم داراً أعدها كما كانت ، بخلاف من أنشأ أخرى مثلها ، فإن هذا لا يسمى معيداً ، والمعـاد يقال فيه هـذا هو الأول بعينه ، ويقال هذا مثل الأول من كل وجه ، ونحو ذلك من العبـارات الدالة على أنه هو هو من وجه وهو مثله من وجه .

وبهذا تزول الشبهات الواردة على هذا الموضع ، كقول من قال : الإعادة لا تكون إلا مع إعادة ذلك الزمان ونحو ذلك مما يمنع إعادته فى صريح العقل ، وإنما يعاد بالإتيـان بمثله ، وإن قال بعض المتكلمين أنه لا مغايرة أصلا بوجه من الوجوه .

والإعادة التى أخبر الله بها هي الإعادة المعقولة في هـذا الخطاب ، وهي الإعادة التى فهمها المشركون والمسلمون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى التى يدل عليها لفظ الإعادة ، والمعاد هو الأول بعينه وإن كان بين لوازم الإعادة ، ولوازم البدأة فرق ، فذلك الفرق لايمنع

أن يكون قد أعيد الأول ليس الجسد الثانى مبايناً للأول من كل وجه ، كما زعم بعضهم ، ولا أن النشأة الثانية كالأولى من كل وجه ، كما ظن بعضهم وكما أنه سبحانه خلق الإنسان ، ولم يكن شيئاً ، كذلك يعيده بعد أن لم يكن شيئاً ، وعلى هذا فالإنسان الذي صار ترابا ونبت من ذلك التراب نبات آخر أكله إنسان آخر ، وهلم جرا ، والإنسان الذي أكله إنسان أو حيوان ، وأكل ذلك الحيوان إنسانا آخر ، ففي هذا كله قد عدم هذا الإنسان وهذا الإنسان ، وصار كل منها ترابا ، كما كان قبل أن يخلق ، ثم يعاد هذا ويعاد هذا من التراب ، وإنما يبقى عجب الذنب ، منه خلق ، ومنه يركب .

وأما سائره فعدم ، فيعاد من المادة التى استحال إليها ، فإذا استحال فى القبر الواحد ألف ميت ، وصاروا كلهم ترابا ، فإنهم يعادون ويقومون من ذلك القبر ، وينشئهم الله تعالى بعد أن كانوا عدما محضاً كما أنشأهم أولا بعد أن كانوا عدما محضاً ، وإذا صار ألف إنسان ترابا فى قبر ، أنشأ هؤلاء من ذلك القبر من غير أن يحتاج أن يخلقهم كما خلقهم في النشأة الأولى التى خلقهم منها من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ، وجعل نشأتهم بما يستحيل إلى أبدانهم من الطعام والشراب ، كما يستحيل إلى بدن أحدهم ما يأكله من نبات وحيوان ، وكذلك لو أكل إنساناً ، أو أكل حيواناً قد أكل إنساناً : فالنشأة

الثانية لا يخلقهم فيها بمثل هذه الاستحالة ، بل يعيد الأجساد من غير أن ينقلهم من نطفة إلى علقة إلى مضغة ، ومن غير أن يغذوها بدم الطمث ومن غير أن يغذوها بلبن الأم وبسائر ما يأكله من الطعام والشراب ، فمن ظن أن الإعادة تحتاج إلى إعادة الأغذية التى استحالت إلى أبدانهم فقد غلط .

وحينئذ فإذا أكل إنسان إنساناً فإنما صار غذاء له كسائر الأغذية وهو لا يحتاج إلى إعادة الأغذية ، ومعلوم أن الغذاء ينزل إلى المعدة طعاما وشرابا ، ثم يصير كلوساً كالثردة ثم كيموساً كالحريرة ، ثم ينطبخ دما فيقسمه الله تعالى في البدن كله ، ويأخذ كل جزء من البدن نصيبه ، فيستحيل الدم إلى شبيه ذلك الجزء العظم عظما ، واللحم لحماً ، والعرق عرقا ، وهذا فى الرزق كاستحالتهم فى مبدأ الخلق نطفة ثم علقة ، ثم مضغة . وكما أنه سبحانه لا يحتاج فى الإعادة إلى أن يحيل أحدهم نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة فكذلك أغذيتهم لا يحتاج أن يجعلها خبزاً وفاكهة ولحماً ثم يجعلها كلوساً وكيموساً ، ثم دما ، ثم عظماً ولحماً وعروقا ، بل يعيد هذا البدن على صفة أخرى ، لنشأة ثانية ليست مثل هذه النشأة ، كما قال : (وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ) ولا يحتاج مع ذلك إلى شيء من هذه الاستحالات التى كانت فى النشأة الأولى .

وبهذا يظهر الجواب عن قوله البدن دائماً فى التحلل ، فإن تحلل البدن ليس بأعجب من انقلاب النطفة علقة ، والعلقة مضغة ، وحقيقة كل منهما خلاف حقيقة الأخرى .

وأما البدن المتحلل فالأجزاء الثانية تشابه الأولى وتماثلها ، وإذا كان في الإعادة لا يحتاج إلى انقلابه من حقيقة إلى حقيقة فكيف بانقلابه بسبب التحلل ؟! ومعلوم أن من رأى شخصاً وهو شاب ثم رآه وهو شيخ علم أن هذا هو ذاك مع هذه الاستحالة ، وكذلك سائر الحيوان والنبات ، كمن غاب عن شجرة مدة ثم جاء فوجدها علم أن هذه هي الأولى مع أن التحلل والاستحالة ثابت فى سائر الحيوان والنبات ، كما هو فى بدن الإنسان ، ولا يحتاج عاقل في اعتقاده أن هذه الشجرة هي الأولى ، وأن هذه الفرس هي التى كانت عنده من سنين ، ولا أن هذا الإنسان هو الذي رآه من عشرين سنة إلى أن يقدر بقاء أجزاء أصلية لم تتحلل ، ولا يخطر هذا ببال أحد ، ولا يقتصر العقلاء في قولهم هذا هو ذاك على تلك الأجزاء التى لا تعرف ولا تتميز عن غيرها ، بل إنما يشيرون إلى جملة الشجرة والفرس والإنسان ، مع أنه قد يكون كان صغيراً فكبر ، ولا يقال إنما كان هو ذاك باعتبار أن النفس الناطقة واحدة كما زعمه من ادعى أن البدن الثاني ليس هو ذاك الأول ، ولكن المقصود جزاء النفس بنعيم أو عذاب ،

ففي أي بدن كانت حصل المقصود ، فإن هـذا أيضاً باطـل مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف ، مخالف للمعقول من الإعادة .

فإنا قد ذكرنا أن العقلاء كلهم يقولون : هـذا الفرس هو ذاك ، وهـذه الشجرة هي تلك التي كانت من سنين ، مع علم العقلاء أن النبات ليس له نفس ناطقة تفارقه وتقوم بذاتها ، وكذلك يقولون : مثل هـذا في الحيوان . وفي الإنسان ، مع أنه لم يخطر بقلوبهم أن المشار إليه بهذا وذاك نفس مفارقة ؛ بل قد لا يخطر هذا بقلوبهم ، فدل على أن العقلاء كانوا يعلمون أن هذا البدن هو ذاك ، مع وجود الاستحالة ، وعلم بذلك أن ما ذكر من الاستحالة لا ينافي أن يكون البدن الذي يعاد في النشأة الثانية هو هذا البدن ، ولهذا يشهد البدن المعاد بما عمل في الدنيا . كما قال تعالى : (ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ) وقال تعالى : (حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ)

ومعلوم أن الإنسان لو قال قولا ، أو فعل فعلا . أو رأى غـيره يفعل ، أو سمعه يقول ثم بعد ثلاثين سنة شهد على نفسه بما قال أو فعل ، وهو الإقرار الذي يؤاخذ بموجبه ، أو شهد على غيره بما قبضه

من الأموال ، وأقربه من الحقوق ، لكانت الشهادة على عين ذلك المشهود عليه مقبولة ، مع استحالة بدنه فى هذه المدة الطويلة ، ولا يقول عاقل من العقلاء : إن هذه الشهادة على مثله أو على غيره . ولو قدر أن المعين حيوان أو نبات ، وشهد أن هذا الحيوان قبضه هذا من هذا ، وأن هذا الشجر سلمه هذا إلى هذا : كان كلاما معقولا مع الاستحالة ، وإذا كانت الاستحالة غير مؤثرة . فقول القائل يعيده على صفة ما كان وقت موته أو سمنه أو هزاله أو غير ذلك جهل منه فإن صفة تلك النشأة الثانية ليست مماثلة لصفة هذه النشأة ، حتى يقال : إن الصفات هي المغيرة ؛ إذ ليس هناك استحالة ، ولا استفراغ ، ولا امتلاء ، ولا سمن ، ولا هزال ، ولا سيما أهل الجنة إذا دخلوها فإنهم يدخلونها على صورة أبيهم آدم : طول أحدهم ستون ذراعا ، كما ثبت في الصحيحين وغيرها ، وروى أن عرضه سبعة أذرع ، وهم لا يبولون ولا يتغوطون ، ولا يبصقون ، ولا يتمخطون .

وليست تلك النشأة من أخلاط متضادة حتى يستلزم مفارقة بعضها بعضاً ، كما في هذه النشأة ، ولاطعامهم مستحيلا ، ولاشرابهم مستحيلا من التراب والماء والهواء ، كما هي أطعماتهم فى هذه النشأة ، ولهذا أبقى الله طعام الذي مر على قرية وشرابه مائة عام لم يتغير ، ودلنا سبحانه بهذا على قدرته ، فإذا كان فى دار الكون والفساد يبقى الطعام الذي

هو رطب وعنب أو نحـو ذلك ، والشراب الذي هو ماء أو مـافيه ماء مائة عام لم يتغير ، فقدرته سبحانه وتعـالى على أن يجعل الطعـام والشراب فى النشأة الأخرى لا يتغير بطريق الأولى والأحرى ، وهـذه الأمور لبسطها موضع آخر .

فصـــل

والمقصود هنا : أن التولد لا بد له من أصلين ، وإن ظن ظان أن نفس الهواء الذي بين الزنادين يستحيل ناراً بسخونته من غـير مادة تخرج منها تنقلب ناراً فقد غلط ، وذلك لأنه لا تخرج نار إن لم يخرج منها مادة بالحك ، ولا تخرج النار بمجرد الحك .

وأيضاً فإنهم يقـدحون عـلى شيء أسفل مـن الزنادين كالصوفان والحراق فتنزل النار عليه ، وإنما ينزل الثقيل ، فلولا أن هناك جـزءاً ثقيلا من الزناد الحديد والحجر لما نزلت النار ، ولو كان الهواء وحده انقلب نارا لم ينزل ، لأن الهواء طبعه الصعود لا الهبوط ، لكن بعـد أن تنقلب المادة الخارجة نارا قد ينقلب الهواء القريب منها نارا : إما دخانا وإما لهيباً .

والمقصود أن المتولدات خلقت من أصلين ، كما خلق آدم من التراب والماء ، وإلا فالتراب المحض الذي لم يختلط به ماء لا يخلق منه شيء ، لا حيوان ولا نبات . والنبات جميعه إنما يتولد من أصلين أيضا ، والمسيح خلق من مريم ونفخة جبريل . كما قال تعالى : (وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا) وقال : (وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا) وقال ، (فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا) .

وقد ذكر المفسرون أن جبريل نفخ في جيب درعها . والجيب هو الطوق الذي في العنق ، ليس هو ما يسميه بعض العامة جيبا ، وهو ما يكون في مقدم الثوب لوضع الدراهم ونحوها ، وموسى لما أمره الله أن يدخل يده في جيبه : هو ذلك الجيب المعروف في اللغة ، وذكر أبو الفرج وغيره قولين : هل كانت النفخة في جيب الدرع ؟ أو في الفرج . فإن من قال بالأول قال في فرج درعها ، وإن من قال هو مخرج الولد قال الهاء كناية عن غير مذكور ، لأنه إنما نفخ في درعها ، لا في فرجها وهذا ليس بشيء ، بل هو عدول عن صريح القرآن . وهذا النقل إن كان ثابتا لم يناقض القرآن ، وإن لم يكن ثابتا لم يلتفت إليه ، فإن من نقل أن جبريل نفخ في جيب الدرع ، فمراده أنه صلى الله عليه وسلم

لم يكشف بدنها ، وكذلك جبريل كان إذا أتى النبي صلى الله عليه وسلم وعائشة متجردة لم ينظر إليهـا متجردة ، فنفخ فى جيب الدرع فوصلت النفخة إلى فرجها .

والمقصود إنما هو النفخ فى الفرج ، كما أخـبر الله به فى آيتين ، وإلا فالنفخ فى الثوب فقط من غير وصول النفخ إلى الفرج مخـالف للقرآن ، مع أنه لا تأثير له في حصول الولد ، ولم يقل ذلك أحـد من أئمة المسلمين ، ولا نقله أحد عن عالم معروف من السلف .

والمقصود هنا أن المسيح خلق من أصلين : من نفخ جبريل ومن أمه مريم ، وهذا النفخ ليس هو النفخ الذي يكون بعد مضي أربعـة أشهر والجنين مضغة ؛ فإن ذلك نفخ في بدن قد خلق ، وجبريل حين نفخ لم يكن المسيح خلق بعد ، ولا كانت مريم حملت ، وإنمـا حملت به بعد النفخ بدليل قوله: (قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا) (فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا) فلما نفخ فيها جبريل حملت به ، ولهذا قيل فى المسيح (روح منه) ، باعتبار هذا النفخ . وقد بـين الله سبحانه أن الرسول الذي هو روحه ، وهو جبريل ، هـو الروح الذي خاطبها ، وقال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا فقوله (فَنَفَخْنَا فِيهَا) أو (فِيهِ مِن رُّوحِنَا) أي من هذا الروح الذي هـو جبريل ، وعيسى روح من هذا الروح ، فهو روح من الله ، بهـذا

الاعتبار ، ومن لابتداء الغاية .

والمقصود هنا : أنه قد يكون الشيء من أصلين بانقلاب المادة التى بينهما إذا التقيا كان بينهما مادة فتنقلب ، وذلك لقوة حك أحدهما بالآخر فلا بد من نقص أجزائها ، وهذا مثل تولد النار بين الزنادين إذا قدح الحجر بالحديد ، أو الشجر بالشجر ، كالمرخ والعفار ، فإنه بقوة الحركة الحاصلة من قدح أحدهما بالآخر يستحيل بعض أجزائها ، ويسخن الهواء الذي بينهما فيصير نارا ، والزندان كلما قدح أحدهما بالآخر نقصت أجزاؤهما بقوة الحك ، فهذه النار استحالت عن الهواء وتلك الأجزاء بسبب قدح أحد الزندين بالآخر .

وكذلك النور الذي يحصل بسبب انعكاس الشعاع على ما يقابل المضيء ، كالشمس والنار ، فإن لفظ النور والضوء يقال تارة على الجسم القائم بنفسه : كالنار التى في رأس المصباح ، وهذه لا تحصل إلا بمادة تنقلب نارا كالحطب والدهن ، ويستحيل الهواء أيضاً نارا ، ولا ينقلب الهواء أيضاً نارا إلا بنقص المادة التى اشتعلت ، أو نقص الزندين ، وتارة يراد بلفظ النور والضوء والشعاع : الشعاع الذي يكون على الأرض والحيطان من الشمس ، أو من النار ، فهذا عرض ليس بجسم قائم بنفسه ، لا بد له من محل يقوم به يكون قابلا له ، فلا بد فى الشعاع من جسم مضيء ، ولا بد من شيء يقابله حتى ينعكس عليه الشعاع .

وكذلك النار الحاصلة في ذبالة المصباح إذا وضعت في النـار ، أو وضع فيها حطب ، فإن النار تحيل أولا المادة التى هي الدهن أو الحطب فيسخن الهواء المحيط بها فينقلب ناراً ، وإنما ينقلب بعد نقص المادة ، وكذلك الريح التى تحرك النار مثل ما تهب الريح فتشتعل النـار فى الحطب ، ومثل ما ينفخ في الكير وغيره تبقى الريح المنفوخة تضرم النار لما فى محل النار كالخشب والفحم من الاستعداد لانقلابه ناراً ، ومـا في حركة الريح القوية من تحريك النار إلى المحل القابل له ، وقد ينقلب أيضاً الهواء القريب من النـار ؛ فإن اللهب هو الهواء انقلب نارا ، مثل ما فى ذبالة المصباح ، ولهذا إذا طفئت صار دخانا ، وهو هـواء مختلط بنار كالبخار ، وهو هواء مختلط بماء ، والغبار هواء مختلط بتراب .

وقد يسمى البخار دخانا ، ومنه قوله تعـالى : (ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ) قال المفسرون : بخار الماء ، كما جاءت الآثار : « إن الله خلق السموات من بخار الماء » وهو الدخان . فإن الدخان الهواء المختلط بشيء حار ، ثم قد لا يكون فيه ماء ، وهو الدخان الصرف ، وقد يكون فيه ماء ، فهو دخان ، وهو بخـار كبخار القدر . وقد يسمى الدخان بخاراً ، فيقال لمن استجمر بالطيب تبخر ، وإن كان لا رطوبة هنا ، بل دخان الطيب سمى بخاراً . قال الجوهري : بخار الماء ما يرتفع منه كالدخان ، والبخور بالفتح ما يتبخر به ؛ لكن إنما يصير الهواء ناراً

بعد أن تذهب المادة التى انقلبت ناراً ، كالحطب والدهن ، فلم تتولد النار إلا من مادة ، كما لم يتولد الحيوان إلا من مادة .

فصل

والمقصود أن كل ما يستعمل فيه لفظ التولد من الأعيان القائمة فلا بد أن يكون من أصلين ، ومن انفصال جزء من الأصل . وإذا قيل فى الشبع والري : إنه متولد ، أو في زهوق الروح ونحو ذلك من الأعراض أنه متولد ، فلا بد فى جميع ما يستعمل فيه هذا اللفظ من أصلين ، لكن العرض يحتاج إلى محل ، لا يحتاج إلى مادة تنقلب عرضاً ؛ بخلاف الأجسام فإنها إنما تخلق من مواد تنقلب أجساماً ، كما تنقلب إلى نوع آخر ، كانقلاب المني علقة ، ثم مضغة ، وغير ذلك من خلق الحيوان والنبات .

وأما ما كان من أصل واحد : كخلق حواء من الضلع القصرى لآدم ، وهو وإن كان مخلوقا من مادة أخذت من آدم ، فلا يسمى هذا تولداً ؛ ولهذا لا يقال : إن آدم ولد حواء ، ولا يقال إنه أبو حواء ، بل خلق الله حواء من آدم ، كما خلق آدم من الطين .

وأما المسيح فيقال : إنه ولدته مريم ، ويقال : المسيح بن مريم فكان المسيح جزءاً من مريم ، وخلق بعد نفخ الروح فى فرج مريم ، كما قال تعالى : (وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ)
وفى الأخرى : (فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ).

وأما حواء فخلقها الله من مادة أخذت من آدم ، كما خلق آدم من المادة الأرضية ، وهي الماء والتراب والريح الذي أيبسته حتى صار صلصالا ، فلهذا لا يقال إن آدم ولد حواء ، ولا آدم ولده التراب ، ويقال فى المسيح : ولدته مريم فإنه كان من أصلين من مريم ومن النفخ الذي نفخ فيها جبريل . قال الله تعالى : (فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا * ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا)
إلى آخر القصة . فهي إنما حملت به بعد النفخ ، لم تحمل به مدة بلا نفخ ثم نفخت فيه روح الحياة كسائر الآدميين ، ففرق بين النفخ للحمل ، وبين النفخ لروح الحياة .

فتبين أن ما يقال أنه متولد من غيره من الأعيان القائمة بنفسها فلا يكون إلا من مادة تخرج من ذلك الوالد ، ولا يكون إلا من أصلين ، والرب تعالى صمد ، فيمتنع أن يخرج منه شيء ، وهو سبحانه لم يكن له صاحبة ، فيمتنع أن يكون له ولد .

وأما ما يستعمل من تولد الأعراض . كما يقال : تولد الشعاع ، وتولد العلم عن الفكر ، وتولد الشبع عن الأكل ، وتولدت الحرارة عن الحركة ، ونحو ذلك ، فهذا ليس من تولد الأعيان ؛ مع أن هذا لا بد له من محل ، ولا بد له من أصلين . ولهذا كان قول النصارى إن المسيح ابن الله — تعالى الله عن ذلك — مستلزما لأن يقولوا : إن مريم صاحبة الله ، فيجعلون له زوجة وصاحبة ، كما جعلوا له ولداً وبأي معنى فسروا كونه ابنه ، فإنه يفسر الزوجة بذلك المعنى ، والأدلة الموجبة تنزيهه عن الصاحبة ، توجب تنزيهه عن الولد ، فإذا كانوا يصفونه بما هو أبعد عن اتصافه به كان اتصافه بما هو أقل بعداً لازماً لهم ، وقد بسط هذا فى الرد على النصارى .

فصل

وهذا مما يبين أن ما نزه الله نفسه ونفاه عنه بقوله : (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ) وبقوله : (أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ

لَكَٰذِبُونَ) وقوله : (وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ)

يعم جميع الأنواع التى تذكر فى هـذا الباب عن بعض الأمم ، كما أن ما نفاه من اتخاذ الولد يعم أيضاً جميع أنواع الاتخاذات الاصطفائية كما قال تعالى : (وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ) .

قال السدي : قالوا : إن الله أوحى إلى إسرائيل أن ولدك بكرى من الولد فأدخلهم النار فيكونون فيها أربعين يوماً حتى تطهرهم وتأكل خطاياهم ، ثم ينادى مناد أخرجوا كل مختون من بني إسرائيل .

وقد قال تعالى : (مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ)
وقال : (وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ) وقال : (تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا * ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا)
وقال : (وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُۥ

بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ)

وقال : (وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ * وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا) إلى قوله :
(وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا) إلى قوله : (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ) وقال : (وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا * أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا * قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا)

وقال : (فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ * أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ * أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ * فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ * فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ) وقال : (أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ * أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ * إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم

(مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ)

إلى قوله : (إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ)

وقال تعالى : (وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا) .

قال بعض المفسرين : (جزءاً) أي نصيباً وبعضا ، وقال بعضهم : جعلوا لله نصيبا من الولد ، وعن قتادة ومقاتل عدلا . وكلا القولين صحيح ، فإنهم يجعلون له ولداً ، والولد يشبه أباه ، ولهذا قال : (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا) أي البنات . كما قال في الآية الأخرى : (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ) فقد جعلوها للرحمن مثلا ، وجعلوا له من عباده جزءاً ، فإن الولد جزء من الوالد ، كما تقدم قال صلى الله عليه وسلم : « إنما فاطمة بضعة مني » وقوله : (وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍۚ) قال الكلبي نزلت في الزنادقة قالوا : إن الله وإبليس شريكان ، فالله خالق النور والناس والدواب والأنعام . وإبليس خالق الظلمة والسباع والحيات والعقارب .

وأما قوله : (وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا) فقيل هو قولهم : الملائكة بنات الله ، وسمى الملائكة جنا لاجتنانهم عن الأبصار . وهو قول مجاهد وقتادة ، وقيل قالوا لحي من الملائكة يقال لهم الجن ،

ومنهم إبليس وهم بنات الله ، وقال الكلبي قالوا — لعنهم الله — ، بل تزوج من الجن فخرج بينهما الملائكة .

وقوله : (وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ) قال بعض المفسرين كالثعلبي وهم كفار العرب قالوا الملائكة والأصنام بنات الله . واليهود قالوا عزير ابن الله ، والنصارى قالوا المسيح ابن الله .

فصل

وأما الذين كانوا يقولون من العرب : إن الملائكة بنات الله ، وما نقل عنهم من أنه صاهر الجن ، فولدت له الملائكة فقد نفاه الله عنه بامتناع الصاحبة ، وبامتناع أن يكون منه جزء فإنه صمد ، وقوله : (وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞ) . وهذا كما تقدم من أن الولادة لا تكون إلا من أصلين سواء في ذلك تولد الأعيان التي تسمى الجواهر ، وتولد الأعراض والصفات ، بل ولا يكون تولد الأعيان إلا بانفصال جزء من الوالد ، فإذا امتنع أن يكون له صاحبة امتنع أن يكون له ولد ، وقد علموا كلهم أن لا صاحبة له لا من الملائكة ، ولا من الجن ، ولا من الإنس فلم يقل أحد منهم أن له صاحبة ، فلهذا احتج بذلك عليهم ، وما حكى عن بعض كفار العرب أنه صاهر الجن ، فهذا فيه نظر ، وذلك إن

كان قد قيل : فهو مما يعلم انتفاؤه من وجوه كثيرة ، وكذلك ما قالته النصارى : من أن المسيح ابن الله ، وما قاله طائفة من اليهود أن العزير ابن الله ، فإنه قد نفاه سبحانه بهذا وبهذا .

فإن قيل : أما عوام النصارى فلا تنضبط أقوالهم ، وأما الموجود في كلام علمائهم وكتبهم فإنهم يقولون : إن أقنوم الكلمة ، ويسمونها الابن تدرع المسيح ، أي اتخذه درعا ، كما يتدرع الإنسان قميصه ، فاللاهوت تدرع الناسوت ، ويقولون : باسم الأب والابن وروح القدس إله واحد ، قيل قصدهم أن الرب موجود حي عليم ، فالموجود هو الأب ، والعلم هو الابن ، والحياة هو روح القدس ، هذا قول كثير منهم ، ومنهم من يقول بل موجود عالم قادر ، ويقول العلم هو الكلمة ، وهو المتدرع ، والقدرة هي روح القدس ، فهم مشتركون فى أن المتدرع هو أقنوم الكلمة وهي الابن .

ثم اختلفوا فى التدرع واختلفوا هل هما جوهر أو جوهران ؟ وهل لهما مشيئة أو مشيئتان ، ولهم فى الحلول والاتحاد ، كلام مضطرب ليس هذا موضع بسطه . فإن مقالة النصارى فيها من الاختلاف بينهم ما يتعذر ضبطه ، فإن قولهم ليس مأخوذاً عن كتاب منزل ، ولا نبي مرسل ، ولا هو موافق لعقول العقلاء ، فقالت اليعقوبية صار جوهراً واحداً ، وطبيعة واحدة ، وأقنوماً واحداً كالماء في اللبن . وقالت

النسطورية : بل هما جوهران ، وطبيعتان ، ومشيئتان ؛ لكن حل اللاهوت فى الناسوت حلول الماء فى الظرف . وقالت الملكية : بل هما جوهر واحد ، له مشيئتان ، وطبيعتان ، أو فعلان ، كالنار فى الحديد .

وقد ذهب بعض الناس إلى أن قوله تعالى : (لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ) هم اليعقوبية ، وفى قوله : (وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ) هم الملكية ، وقوله : (لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ) هم النسطورية وليس بشيء ، بل الفرق الثلاث تقول المقالات التى حكاها الله عز وجل عن النصارى ، فكلهم يقولون : إنه الله ويقولون : إنه ابن الله ، وكذلك فى أمانتهم التى هم متفقون عليها ، يقولون إله حق من إله حق ، وأما قوله : « ثالث ثلاثة » فإنه قال تعالى : (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ) .

قال أبو الفرج ابن الجوزي فى قوله : (لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ) قال المفسرون : معنى الآية أن النصارى قالوا بأن الإلهية مشتركة بين الله وعيسى ومريم ، كل واحد منهم إله وذكر عن الزجاج : الغلو مجاوزة القدر في الظلم ، وغلو النصارى في عيسى قول بعضهم هو الله ، وقول بعضهم هو ابن الله ، وقول بعضهم هو ثالث

ثلاثة . فعلماء النصارى الذين فسروا قولهم هو ابن الله بما ذكروه من أن الكلمة هي الابن ، والفرق الثلاثة متفقة على ذلك ، وفساد قولهم معلوم بصريح العقل من وجوه :

أحدها : أنه ليس فى شيء من كلام الأنبياء تسمية صفة الله ابنا ، لا كلامه ولا غيره فتسميتهم صفة الله ابنا تحريف لكلام الأنبياء عن مواضعه ، وما نقلوه عن المسيح من قوله عمدوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس ، لم يرد بالابن صفة الله التى هي كلمته ، ولا بروح القدس حياته ، فإنه لا يوجد فى كلام الأنبياء إرادة هذا المعنى ، كما قد بسط هذا فى الرد على النصارى .

الوجه الثاني : أن هذه الكلمة التى هي الابن أهي صفة الله قائمة به ، أم هي جوهر قائم بنفسه ؟ فإن كانت صفته بطل مذهبهم من وجوه .

أحدها : أن الصفة لا تكون إلها يخلق ويرزق ويحيي ويميت ، والمسيح عندهم إله يخلق ويرزق ، ويحيى ويميت ، فإذا كان الذي تدرعه ليس بإله فهو أولى أن لا يكون إلها .

الثاني : أن الصفة لا تقوم بغير الموصوف فلا تفارقه ، وإن قالوا : نزل عليه كلام الله أو قالوا : إنه الكلمة أو غير ذلك ، فهذا قدر مشترك بينه وبين سائر الأنبياء .

الثالث : أن الصفة لا تتحد ، وتتدرع شيئاً إلا مع الموصوف ، فيكون الأب نفسه هو المسيح ، والنصارى متفقون على أنه ليس هو الأب ، فإن قولهم متناقض : ينقض بعضه بعضاً ، يجعلونه إلها يخلق ويرزق ، ولا يجعلونه الأب الذي هو الإله ، ويقولون : إله واحد ، وقد شبهه بعض متكلميهم : كيحيى بن عدى بالرجل الموصوف بأنه طبيب وحاسب وكاتب ، وله بكل صفة حكم ، فيقال : هذا حق ، لكن قولهم ليس نظير هذا ، فإذا قلتم إن الرب موجود حي عالم ، وله بكل صفة حكم ، فمعلوم أن المتحد إن كان هو الذات المتصفة فالصفات كلها تابعة لها فإنه إذا تدرع زيد الطبيب الحاسب الكاتب درعا كانت الصفات كلها قائمة به ، وإن كان المتدرع صفة دون صفة عاد المحذور . وإن قالوا : المتدرع الذات بصفة دون صفة لزم افتراق الصفتين ، وهذا ممتنع ؛ فإن الصفات القائمة بموصوف واحد وهي لازمة له لا تفترق ، وصفات المخلوقين قد يمكن عدم بعضها مع بقاء الباقي ، بخلاف صفات الرب تبارك وتعالى .

الرابع : إن المسيح نفسه ليس هو كلمات الله ، ولا شيئاً من صفاته ، بل هو مخلوق بكلمة الله ، وسمي كلمة لأنه خلق بكن من غير الحبل المعتاد ، كما قال تعالى : (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) وقال تعالى : (ذَٰلِكَ عِيسَى

ٱبْنُ مَرْيَمَۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍۖ سُبْحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) ولو قدر أنه نفسه كلام الله كالتوراة والإنجيل وسائر كلام الله لم يكن كلام الله ، ولا شيء من صفاته خالقاً ولا ربا ولا إلها . فالنصارى إذا قالوا : إن المسيح هو الخالق ، كانوا ضالين من جهة جعل الصفة خالقة ، ومن جهة جعله هو نفس الصفة ، وإنما هو مخلوق بالكلمة ، ثم قولهم بالتثليث وإن الصفات ثلاث باطل ، وقولهم أيضاً : بالحلول والاتحاد باطل . فقولهم يظهر بطلانه من هذه الوجوه وغيرها .

فلو قالوا : إن الرب له صفات قائمة به ، ولم يذكروا اتحاداً ولا حلولا ، كان هذا قول جماهير المسلمين المثبتين للصفات . وإن قالوا : إن الصفات أعيان قائمة بنفسها ، فهذا مكابرة ، فهم يجمعون بين المتناقضين .

وأيضاً فجعلهم عدد الصفات ثلاثة باطل ، فإن صفات الرب أكثر من ذلك فهو سبحانه موجود حي عليم قدير . والأقانيم عندهم التى جعلوها الصفات ليست إلا ثلاثة ؛ ولهذا تارة يفسرونها بالوجود والحياة والعلم ، وتارة يفسرونها بالوجود والقدرة والعلم ، واضطرابهم كثير . فإن قولهم فى نفسه باطل ، ولا يضبطه عقل عاقل ، ولهذا يقال : لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا على أحد عشر قولا .

وأيضاً فكلمات الله كثيرة لا نهاية لهـا . كما قال سبحانـه وتعالى :
(قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا)
وهذا قول جماهير الناس من المسلمين ، وغير المسلمين ، وهذا مذهب سلف الأمة الذين يقولون لم يزل سبحانه متكلما بمشيئته . وقول من قال : إنـه لم يزل قادراً عـلى الكلام لكن تكلم بمشيئته كلاما قائماً بذاتـه حادثا ، وقول من قال كلامـه مخلوق فى غيره .

وأما من قال : كلامه شيء واحد قديم العين ، فهؤلاء منهـم من يقول : إنه أمور لا نهاية لها مع ذلك . ومنهـم من يقول : بـل هو معنى واحد ، ولكن العبارات عنه متعـددة ، وهؤلاء يمتنع عنـدهم أن يكون ذلك المعنى قائماً بغير الله ، وإنما يقوم بغيره عندهم العبارات المخلوقة ، ويمتنع أن يكون المسيح شيئاً من تلك العبارات ، فإذا امتنع أن يكون المسيح غير كلام الله على قول هؤلاء فعلى قول الجمهور أشد امتناعا ؛ لأن كلمات الله كثيرة ، والمسيح ليس هو جميعها ، بل ولا مخلوقا بجميعها ، وإنما خلق بكلمة منها ، وليس هو عـين تلك الكلمة ، فإن الكلمة صفة من الصفات ، والمسيح عين قائم بنفسه .

ثم يقال لهم : تسميتكم العلم والكلمة ولداً وابناً تسمية باطلة باتفاق العلماء والعقلاء ، ولم ينقل ذلك عن أحد من الأنبياء ، قالوا : لأن الذات

يتولد عنها العلم والكلام كما يتولد ذلك عن نفس الرجل العالم منها ، فيتولد من ذاته العلم والحكمة والكلام ، فلهذا سميت الكلمة ابنا ، قيل هذا باطل من وجوه .

أحدها : أن صفاتنا حادثة تحدث بسبب تعلمنا ونظرنا وفكرنا واستدلالنا ، وأما كلمة الرب وعلمه فهو قديم لازم لذاته ، فيمتنع أن يوصف بالتولد ، إلا أن يدعي المدعي أن كل صفة لازمة لموصوفها متولدة عنه ، وهي ابن له ، ومعلوم أن هذا من أبطل الأمور فى العقول واللغات ، فإن حياة الإنسان ونطقه وغير ذلك من صفاته اللازمة له لا يقال إنها متولدة عنه ، وإنها ابن له ، وأيضاً فيلزم أن تكون حياة الرب أيضاً ابنه ومتولدة ، وكذلك قدرته ، وإلا فما الفرق بين تولد العلم وتولد الحياة والقدرة وغير ذلك من الصفات .

وثانيها أن هذا إن كان من باب تولد الجواهر والأعيان القائمة بنفسها فلا بد له من أصلين ، ولا بد أن يخرج من الأصل جزء ، وأما علمنا وقولنا فليس عيناً قائماً بنفسه ، وإن كان صفة قائمة بموصوف وعرضاً قائماً فى محل كعلمنا وكلامنا فذاك أيضاً لا يتولد إلا عن أصلين ، ولا بد له من محل يتولد فيه ، والواحد منا لا يحدث له العلم والكلام إلا بمقدمات تتقدم على ذلك ، وتكون أصولا للفروع ويحصل العلم والكلام فى محل لم يكن حاصلا فيه قبل ذلك .

فإن قلتم إن علم الرب كذلك لزم أن يصير عالماً بالأشياء بعد أن لم يكن عالماً بها ، وأن تصير ذاته متكلمة بعد أن لم يكن متكلما ، وهذا مع أنه كفر عند جماهير الأمم من المسلمين والنصارى وغيرهم فهو باطل في صريح العقل ، فإن الذات التى لا تكون عالمة يمتنع أن تجعل نفسها عالمة بلا أحد يعلمها ، والله تعالى يمتنع عليه أن يكون متعلماً من خلقه ، وكذلك الذات التى تكون عاجزة عن الكلام ، يمتنع أن تصير قادرة عليه بلا أحد يجعلها قادرة ، والواحد منها لا يولد جميع علومه ، بل ثم علوم خلقت فيه لا يستطيع دفعها ، فإذا نظر فيها حصلت له علوم أخرى . فلا يقول أحد من بنى آدم : إن الإنسان يولد علومه كلها ، ولا يقول أحد : إنه يجعل نفسه متكلمة بعد أن لم تكن متكلمة ، بل الذي يقدره على النطق هو الذي أنطق كل شيء .

فإن قالوا : إن الرب يولد بعض علمه ، وبعض كلامه دون بعض : بطل تسمية العلم ـ الذي هو الكلمة مطلقاً ـ الابن ، وصار لفظ الابن إنما يسمى به بعض علمه ، أو بعض كلامه ، وهم يدعون أن المسيح هو الكلمة ، وهو أقنوم العلم مطلقاً ، وذلك ليس متولداً عنه كله ، ولا يسمى كله ابنا باتفاق العقلاء .

وثالثها أن يقال : تسمية علم العالم وكلامه ولداً له لا يعرف في شيء من اللغات المشهورة ، وهو باطل بالعقل ، فإن علمه وكلامه كقدرته وعلمه ، فإن

جاز هذا جاز تسمية صفات الإنسان كلها الحادثة متولدات عنه له ، وتسميتها أبناءه ، ومن قال من أهل الكلام القدرية : إن العلم الحاصل بالنظر متولد عنه ، فهو كقوله إن الشبع والري متولد عن الأكل والشرب ، لا يقول إن العلم ابنه وولده ، كما لا يقول إن الشبع والري ابنه ولا ولده ، لأن هذا من باب تولد الأعراض والمعانى القائمة بالإنسان ، وتلك لا يقال إنها أولاده وأبناؤه . ومن استعار فقال بنيات فكره ، فهو كما يقال بنيات الطريق ، ويقال ابن السبيل، ويقال لطير الماء ابن ماء ، وهذه تسمية مقيدة ، قد عرف أنها ليس المراد بها ماهو المعقول من الأب والابن والوالد والولد ، وأيضاً فكلام الأنبياء ليس فى شيء منه تسمية شيء من صفات الله ابناً ، فمن حمل شيئاً من كلام الأنبياء على ذلك فقد كذب عليهم ، وهذا مما يقربه علماء النصارى ، وما وجد عندهم من لفظ الابن فى حق المسيح وإسرائيل وغيرها ، فهو اسم للمخلوق لا لشيء من صفات الخالق ، والمراد به أنه مكرم معظم .

ورابعها : أن يقال فإذا قدر أن الأمر كذلك فالذي حصل للمسيح إن كان هو ما علمه الله إياه من علمه وكلامه فهذا موجود لسائر النبيين ، فلا معنى لتخصيصه بكونه ابن الله ، وإن كان هو أن العلم والكلام إله اتحد به فيكون العلم والكلام جوهراً قائماً بنفسه ، فإن كان هو الأب فيكون المسيح هو الأب ، وإن كان العلم والكلام جوهراً آخر ، فيكون إلهان قائمان

بأنفسها ، فتبين فساد ما قالوه بكل وجـه .

وخامسها : أن يقـال : من المعلوم عند الخاصة والعامة أن المعنى الذي خص به المسيح إنما هو أن خلق من غير أب ، فلما لم يكن له أب من البشر جعل النصارى الرب أباه ، وبهذا ناظر نصارى نجران النبي صلى الله عليـه وسلم وقالوا : إن لم يكن هو ابن الله . فقل لنا من أبوه ؟ فعلم أن النصارى إنما ادعوا فيه البنوة الحقيقية ، وأن ما ذكر من كلام علمائهم هو تأويل منهم للمذهب ، ليزيلوا به الشناعة التى لا يبلغها عاقل ، وإلا فليس فى جعله ابن الله وجه يختص بـه معقول ، فعلم أن النصـارى جعلوه ابن الله ، وأن الله أحبل مريم ، والله هو أبوه ، وذلك لا يكون إلا بإنزال جزء منه فيها ، وهو سبحانه الصمد ، ويلزمهم أن تكون مريم صاحبة وزوجة له ، ولهذا يتألهونها كما أخبر الله عنهم . وأي معنى ذكروه فى بنوة عيسى غير هـذا لم يكن فيـه فرق بين عيسى وبين غـيره ، ولا صار فيـه معنى البنوة ، بل قالوا : كما قال بعض مشركي العرب أنه صاهر الجن فولدت له الملائكة ، وإذا قالوا : اتخذه ابناً على سبيل الاصطفاء ، فهـذا هو المعنى الفعلي ، وسيأتي إن شاء الله تعالى إبطاله .

وقوله تعـالى : (وَرُوحٌ مِّنْهُ) ليس فيه أن بعض الله صـار فى عيسى ، بل من لابتداء الغاية كما قال : (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي

﴿ ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ وقال : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ وما أضيف إلى الله أو قيل هو منه فعلى وجهين ، إن كان عيناً قائمة بنفسها فهو مملوك له ، ومن لا بتداء الغاية كما قال تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ وقال في المسيح : ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ وما كان صفة لا يقوم بنفسه كالعلم والكلام فهو صفة له ، كما يقال كلام الله وعلم الله ، وكما قال تعالى : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ وقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾

وألفاظ المصادر يعبر بها عن المفعول فيسمى المأمور به أمراً ، والمقدور قدرة ، والمرحوم به رحمة ، والمخلوق بالكلمة كلمة . فإذا قيل فى المسيح : إنه كلمة الله ، فالمراد به أنه خلق بكلمة قوله كن ، ولم يخلق على الوجه المعتاد من البشر ، وإلا فعيسى بشر قائم بنفسه ليس هو كلاما صفة للمتكلم يقوم به ، وكذلك إذا قيل عن المخلوق : إنه أمر الله . فالمراد أن الله كونه بأمره ، كقوله : ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ وقوله : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ فالرب تعالى أحد صمد ، لا يجوز أن يتبعض ويتجزأ ، فيصير بعضه فى غيره ، سواء سمى ذلك روحا أو غيره ، فبطل ما يتوهمه النصارى من كونه ابناً له ، وتبين أنه عبد من عباد الله .

وقد قيل : منشأ ضلال القوم أنه كان فى لغة من قبلنا يعبر عن

الرب بالأب ، وبالابن عن العبد المربى الذي يربه الله ويربيه ، فقال المسيح : عمدوا الناس باسم الأب والابن ، وروح القدس ، فأمرهم أن يؤمنوا بالله ويؤمنوا بعبده ورسوله المسيح ، ويؤمنوا بروح القدس جبريل . فكانت هذه الأسماء لله ، ولرسوله الملكى ، ورسوله البشري . قال الله تعالى : (ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ)

وقد أخبر تعالى : فى غير آية أنه أيد المسيح بروح القدس ، وهو جبريل عند جمهور المفسرين ، كقوله تعالى : (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ) فعند جمهور المفسرين أن روح القدس هو جبريل ؛ بل هذا قول ابن عباس وقتادة والضحاك والسدى وغيرهم ، ودليل هذا قوله تعالى : (وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ)

وروى الضحاك عن ابن عباس أنه الاسم الذي كان يحيي به الموتى ، وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنه الإنجيل . وقال تعالى : (أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ) وقال تعالى : (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا) وقال تعالى :

فما ينزله الله فى (يُنَزِّلُ الْمَلَٰٓئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ) قلوب أنبيائه مما تحيا به قلوبهم من الإيمان الخالص يسميه روحا ، وهو ما يؤيد الله به المؤمنين من عباده فكيف بالمرسلين منهم ؟! والمسيح عليه السلام من أولي العزم ، فهو أحق بهذا من جمهور الرسل والأنبياء ، وقال تعالى : (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ) وقد ذكر الزجاج في تأييده بروح القدس ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه أيده به لإظهار أمره ودينه .

الثاني : لدفع بني إسرائيل عنه إذ أرادوا قتله .

الثالث : أنه أيده به فى جميع أحواله .

ومما يبين ذلك أن لفظ الابن فى لغتهم ليس مختصاً بالمسيح ، بل عندهم أن الله تعالى قال فى التوراة لإسرائيل : أنت ابنى بكري ، والمسيح كان يقول أبى وأبوكم فيجعله أبا للجميع ، ويسمى غيره ابناً له ، فعلم أنه لا اختصاص للمسيح بذلك ، ولكن النصارى يقولون : هو ابنه بالطبع ، وغيره ابنه بالوضع ، فيفرقون فرقا لا دليل عليه ، ثم قولهم هو ابنه بالطبع يلزم عليه من المحالات عقلا وسمعاً ما يبين بطلانه .

فصل

وأما ما يقوله الفلاسفة القائلون بأن العالم قديم صدر عن علة موجبة بذاته ، وأنه صدر عنه عقل ، ثم عقل ، ثم عقل ، إلى تمام عشرة عقول ، وتسعة أنفس . وقد يجعلون العقل بمنزلة الذكر ، والنفس بمنزلة الأنثى فهؤلاء قولهم أفسد من قول مشركي العرب وأهل الكتاب عقلا وشرعا ، ودلالة القرآن على فساده أبلغ ، وذلك من وجوه .

أحدها : أن هؤلاء يقولون : بقدم الأفلاك ، وقدم هذه الروحانيات التى يثبتونها ، ويسمونها المجردات والمفارقات ، والجواهر العقلية ، وأن ذلك لم يزل قديماً أزلياً ، وما كان قديماً أزلياً امتنع أن يكون مفعولا بوجه من الوجوه ، ولا يكون مفعولا إلا ما كان حادثاً ، وهذه قضية بديهية عند جماهير العقلاء ، وعليها الأولون والآخرون من الفلاسفة ، وسائر الأمم ، ولهذا كان جماهير الأمم يقولون كل ممكن أن يوجد ، وأن لا يوجد فلا يكون إلا حادثاً ، وإنما ادعى وجود ممكن قديم معلول طائفة من المتأخرين : كابن سينا ، ومن وافقه : زعموا أن الفلك

قديم معلول لعلة قديمة . وأما الفلاسفة القدماء فمن كان منهم يقول بحدوث الفلك ، وهم جمهورهم ، ومن كان قبل أرسطو ، فهؤلاء موافقون لأهل الملل ، ومن قال بقدم الفلك كأرسطو وشيعته ، فإنما يثبتون له علة غائية يتشبه الفلك بهـا ، لا يثبتون له علة فاعلة ، وما يثبتونه من العقول والنفوس فهو من جنس الفلك ، كل ذلك قديم واجب بنفسه ، وإن كان له علة غائيـة ، وهؤلاء أكفر من هـؤلاء المتأخرين ، لكن الغرض أن يعرفوا أن قول هؤلاء ليس قول أولئك .

الثاني : أن هؤلاء يقولون : إن الرب واحـد ، والواحد لا يصدر عنه إلا واحد ، ويعنون بكونه واحداً أنه ليس له صفة ثبوتية أصلا ، ولا يعقل فيه معان متعددة ؛ لأن ذلك عندهم تركيب ، ولهذا يقولون : لا يكون فاعلا وقابلا لأن جهة الفعل غير جهة القبول ، وذلك يستلزم تعدد الصفة المستلزم للتركيب ، ومع هذا يقولون : إنـه عاقل ومعقول وعقل ، وعاشق ومعشوق وعشق ، ولذيذ وملتذ ولذة ، إلى غير ذلك من المعانى المتعددة ، ويقولون : إن كل واحـدة من هذه الصفات هي الصفة الأخرى ، والصفة هي الموصوف ، والعلم هو القدرة ، وهو الإرادة والعلم هو العالم وهو القادر .

ومن المتأخرين منهم من قال : العلم هو المعلوم ، فإذا تصور العاقل أقوالهم حـق التصور تبين له أن هـذا الواحد الذي أثبتوه لا يتصور

وجوده إلا في الأذهان ، لا فى الأعيان ، وقد بسط الكلام عليه ، وبين فساد ما يقولونه فى التوحيد والصفات ، وبين فساد شبه التركيب من وجوه كثيرة فى مواضع غير هذا ، وإذا كان كذلك فالأصل الذي بنوا عليه قولهم : « إن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد » أصل فاسد .

الثالث : أن يقال قولهم بصدور الأشياء مع ما فيها من الكثرة والحدوث عن واحد بسيط فى غاية الفساد .

الرابع : أنه لا يعلم فى العالم واحد بسيط صدر عنه شيء لا واحد ولا اثنان ، فهذه الدعوى الكلية لا يعلم ثبوتها في شيء أصلا .

الخامس : أنهم يقولون صدر عنه واحد ، وعن ذلك الواحد عقل ونفس وفلك ، فيقال : إن كان الصادر عنه واحداً من كل وجه ، فلا يصدر عن هذا الواحد إلا واحد أيضاً ، فيلزم أن يكون كل ما فى العالم إنما هو واحد عن واحد وهو مكابرة ، وإن كان في الصادر الأول كثرة ما بوجه من الوجوه فقد صدر عن الأول ما فيه كثرة ليس واحدا من كل وجه ، فقد صدر عن الواحد ما ليس بواحد .

ولهذا اضطرب متأخروهم ، فأبو البركات صاحب « المعتبر » أبطل هذا القول ورده غاية الرد ، وابن رشد الحفيد زعم أن الفلك بما فيه صادر عن الأول . والطوسي وزير الملاحدة يقرب من هذا ؛ فجعل الأول

شرطاً فى الثاني ، والثانى شرطاً فى الثالث ، وهم مشتركون في الضلال وهو إثبات جواهر قائمة بنفسها أزلية مع الرب لم تزل ولا تزال معه ، لم تكن مسبوقة بعدم ، وجعل الفلك أيضاً أزلياً ، وهذا وحده فيه من مخالفة صريح المعقول والكفر بما جاءت به الرسل ما فيه كفاية ، فكيف إذا ضم إليه غير ذلك من أقاويلهم المخالفة للعقل والنقل ؟!

الوجه السادس : أن الصوادر المعلومة في العالم إنما تصدر عن اثنين ، وأما واحد وحده فلا يصدر عنه شيء ، كما تقدم التنبيه عليه في المتولدات من الأعيان والأعراض . وكل ما يذكرونه من صدور الحرارة عن الحار ، والبرودة عن البارد ، والشعاع عن الشمس ، وغير ذلك : فإنما هو صدور أعراض ، ومع هذا فلا بد لها من أصلين . وأما صدور الأعيان عن غيرها فهذا لا يعلم إلا بالولادة المعروفة ، وتلك لا تكون إلا بانفصال جزء من الأصل ، وهذا الصدور والتولد والمعلولية التى يدعونها في العقول والنفوس والأفلاك يقولون إنها جواهر قائمة بأنفسها صدرت عن جوهر واحد بسيط ، فهذا من أبطل قول قيل فى الصدور والتولد ، لأن فيه صدور جواهر عن جوهر واحد ، وهذا لا يعقل ، وفيه صدوره عنه من غير جزء منفصل من الأصل ، وهذا لا يعقل ، وهم غاية ما عندهم أن يشبهوا هذا بحدوث بعض الأعراض كالشعاع عن الشمس ، وحركة الخاتم عن حركة اليد ، وهذا تمثيل

باطل ، لأن تلك ليست علة فاعلة ، وإنما هي شرط فقط ، والصادر هناك لم يكن عن أصل واحد ، بل عن أصلين ، والصادر عرض لا جوهر قائم بنفسه .

فتبين أن ما ذكره هؤلاء من التولد العقلي الذي يدعونه من أبعد الأمور عن التولد والصدور ، وهو أبعد من قول النصارى ومشركي العرب ، وهم جعلوا مفعولاته بمنزلة صفة أزلية لازمة لذاته ، وقد ذكرنا أن هذا مما يمتنع أن يقال فيه إنه متولد عنه ، وحينئذ فهم فى دعواهم إلهية العقول والنفوس والكواكب أكفر من هؤلاء وهؤلاء ، ومن جعل من المنتسبين إلى الملل منهم هؤلاء هم الملكية ، فقوله في جعل الملائكة متولدين عن الله شر من قول العرب وعوام النصارى ، فإن أولئك أثبتوا ولادة حسية ، وكونه صمداً يبطلها ؛ لكن ما أثبتوه معقول ، وهؤلاء ادعوا تولداً عقلياً باطلا من كل وجه أبطل مما ادعته النصارى من تولد الكلمة عن الذات ، فكان نفى ما ادعوه أولى من نفى ما ادعاه أولئك لأن المحال الذي يعلم امتناعه فى الخارج لا يمكن تصوره موجوداً في الخارج ، فإنه يمتنع وجوده فى الخارج ، بل هو يفرض في الذهن وجوده فى الخارج ، وذلك إنما يمكن إذا كان له نظير من بعض الوجوه فيقدر له فى الوجود الخارجي ما يشبهه ، كما إذا قدر مع الله إلهاً آخر ، وقدر أن له ولداً فإنه يشبه من له ولد من العباد ، ومن له شريك من

العباد ، ثم يبين امتناع ذلك عليه . فكلما كان المحال أبعد عن مشابهة الموجود كان أعظم استحالة .

والولادة التى ادعتها النصارى ثم هؤلاء الفلاسفة : أبعد عن مشابهة الولادة المعلومة من الولادة التى ادعاها بعض مشركي العرب وعوام النصارى واليهود ، فكانت هذه الولادة العقلية أشد استحالة من تلك الولادة الحسية ، إذ الولادة الحسية تعقل فى الأعيان القائمة بنفسها ، وأما الولادة العقلية فلا تعقل في الأعيان أصلا ، وأيضاً فأولئك أثبتوا ولادة من أصلين ، وهذا هو الولادة المعقولة ، وهؤلاء أثبتوا ولادة من أصل واحد ، وأولئك أثبتوا ولادة بانفصال جزء . وهذا معقول . وهؤلاء أثبتوا ولادة بدون ذلك ، وهو لا يعقل ، وأولئك أثبتوا ولادة قاسوها على ولادة الأعيان للأعيان ، وهؤلاء أثبتوا ولادة قاسوها على تولد الأعراض عن الأعيان ، فعلم أن قول أولئك أقرب إلى المعقول وهو باطل كما بين الله فساده وأنكره ، فقول هؤلاء أولى بالبطلان ، وهذا كما أن الله إذا كفر من أثبت مخلوقا يتخذ شفيعا معبوداً من دون الله ، فمن أثبت قديماً دون الله يعبد ، ويتخذ شفيعا كان أولى بالكفر . ومن أنكر المعاد مع قوله بحدوث هذا العالم فقد كفره الله ، فمن أنكره مع قوله بقدم العالم فهو أعظم كفراً عند الله تعالى .

وهذا كما أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نهى أمته عن مشابهة

فارس المجوس والروم النصارى فنهيه عن مشابهة الروم اليونان المشركين والهند المشركين أعظم وأعظم ، وإذا كان ما دخل في بعض المسلمين من مشابهة اليهود والنصارى وفارس والروم مذموما عند الله ورسوله فما دخل من مشابهة اليونان والهند والترك المشركين وغيرهم من الأمم الذين هم أبعد عن الإسلام من أهل الكتاب ومن فارس والروم أولى أن يكون مذموماً عند الله تعالى ، وأن يكون ذمه أعظم من ذلك .

فهؤلاء الأمم الذين هم أبعد عن الإسلام الذين ابتلى بهم أواخر المسلمين شر من الأمم الذين ابتلى بهم أوائل المسلمين ؛ وذلك لأن الإسلام كان أهله أكمل وأعظم علما ودينا ، فإذا ابتلى بمن هو أرجح من هؤلاء غلبهم المسلمون لفضل علمهم ودينهم، وأما هؤلاء المتأخرون فالمسلمون وإن كانوا أنقص من سلفهم فإنه يظهر رجحانهم على هؤلاء لعظم بعدهم عن الإسلام ، ولكن لما كثرت البدع من متأخري المسلمين استطال عليهم من استطال من هؤلاء ، ولبسوا عليهم دينهم ، وصارت شبه الفلاسفة أعظم عند هؤلاء من غيرهم ، كما صار قتال الترك الكفار أعظم من قتال من كان قبلهم عند أهل الزمان ، لأنهم إنما ابتلوا بسيوف هؤلاء ، وألسنة هؤلاء ، وكان فيهم من نقص الإيمان ما أورث ضعفا فى العلم والجهاد ، وكما كان كثير من العرب فى زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، فهذا هذا .

ومما يبين هذا أن مشركي العرب واليهود والنصـارى يقولون إن الله خلق السموات والأرض بمشيئته وقـدرته ؛ بل يقولون : إنه خلق ذلك فى ستة أيام ، وهؤلاء المتفلسفة عندهم لم يحدثها بعد أن لم تكن ، فضلا عن أن يكون ذلك فى ستـة أيام ، ثم يلبسون عـلى المسلمين فيقولون العالم محدث ، يعنون بحدوثه أنه معلول علة قديمة ، فهو بمنزلة قولهم متولد عن الله تعالى ، لكن هو أمر لا حقيقة له ولا يعقل .

وأيضاً فمشركو العرب وأهـل الكتاب يقرون بالملائكة وإن كان كثير منهم يجعلون الملائكة والشياطين نوعا واحـداً ، فمن خرج منهم عن طاعة الله أسقطه وصار شيطـانا ، وينكرون أن يكون إبليس كان أبا الجن ، وأن يكون الجن ينكحون ويولدون ويأكلون ويشربون ، فهؤلاء النصارى الذين ينكرون هـذا مع كفرهم هم خـير من هؤلاء المتفلسفة فإن هؤلاء لا حقيقة للملائكة عندهم إلا ما يثبتونه من العقول والنفوس ، أو من أعراض تقوم بالأجسـام كالقوى الصـالحة ، وكذلك الجن جمهور أولئك يثبتونهـا ، فإن العرب كانت تثبت الجـن ، وكذلك أكثر أهل الكتاب ، وهؤلاء لا يثبتونها ، ويجعلون الشياطين القوى الفـاسدة ، وأيضاً فمشركو العرب مع أهل الكتاب يدعون الله ، ويقولون إنه يسمع دعاءهم ويجيبهم .

وهؤلاء عندهم لا يعلم شيئاً من جزئيات العالم ، ولا يسمع دعاء أحد

ولا يجيب أحداً ، ولا يحدث في العالم شيئاً ولا سبب للحدوث عندهم إلا حركات الفلك ، والدعاء عندهم يؤثر ، لأنه تصرف النفس الناطقة في هيولى العالم ، وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله عز وجل : شتمني ابن آدم وما ينبغي له ذلك ، وكذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك ، فأما شتمه إياي فقوله إني اتخذت ولدا وأنا الأحد ، الصمد ، الذي لم ألد ولم أولد ، ولم يكن لي كفوا أحد ، وأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته » وهذا وإن كان متناولا قطعاً لكفار العرب الذين قالوا هذا وهذا ، كما قال تعالى : (وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا) إلى قوله : (وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا * تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ) فذكر الله هذا وهذا فتناول النصوص لهؤلاء بطريق الأولى ، فإن هؤلاء ينكرون الإعادة والابتداء أيضاً ، فلا يقولون : إن الله ابتدأ خلق السموات والأرض ، ولا كان للبشر ابتداء أولهم آدم ، وأما شتمهم إياه بقولهم اتخذ ولدا فهؤلاء عندهم الفلك كله لازم له ، معلول له أعظم من لزوم الولد والده ، والوالد له اختيار وقدرة في حدوث الولد منه ، وهؤلاء عندهم ليس لله مشيئة وقدرة في لزوم الفلك له ، بل ولا يمكنه أن يدفع لزومه عنه ، فالتولد الذي يثبتونه أبلغ من التولد الموجود في الخلق ، ولا يقولون : إنه اتخذ ولدا بقدرته ، فإنه لا يقدر

عندهم على تغيير شيء من العالم ، بل ذلك لازم له لزوما : حقيقته أنه لم يفعل شيئا ؛ بل ولا هو موجود ، وإن سموه علة ومعلولا فعند التحقيق لا يرجعون إلى شيء محصل ، فإن فى قولهم من التناقض والفساد أعظم مما في قول النصارى .

وقد ذكر طائفة من أهل الكلام أن قولهم بالعلة والمعلول من جنس قول غيرهم بالوالد والولد ، وأرادوا بذلك أن يجعلوهم من جنسهم فى الذم ، وهذا تقصير عظيم ، بل أولئك خير من هؤلاء ، وهؤلاء إذا حققت ما يقوله من هو أقربهم إلى الإسلام ، كابن رشد الحفيد وجدت غايته أن يكون الرب شرطا فى وجود العالم لا فاعلا له ، وكذلك من سلك مسلكهم من المدعين للتحقيق من ملاحدة الصوفية ، كابن عربى وابن سبعين ، حقيقة قولهم أن هذا العالم موجود واجب أزلى ، ليس له صانع غير نفسه ، وهم يقولون : الوجود واحد ، وحقيقة قولهم أنه ليس في الوجود خالق خلق موجودا آخر ، وكلامهم فى المعاد والنبوات والتوحيد شر من كلام اليهود والنصارى وعباد الأصنام ، فإن هؤلاء يجوزون عبادة كل صنم فى العالم ، لا يخصون بعض الأصنام بالعبادة .

فصـــــل

وقد احتج بـ (سورة الإخلاص) من أهل الـكلام المحدث من يقول : الرب تعالى جسم كبعض الذين وافقوا هشام بن الحكم ، ومحمد ابن كرام ، وغيرهما ، ومن ينفى ذلك ويقول ليس بجسم ممن وافق جهم ابن صفوان ، وأبا الهذيل العلاف ، ونحوهما ، فأولئك قالوا : هو صمد والصمد لا جوف له ، وهذا إنما يكون فى الأجسـام المصمتة ، فإنهـا لا جوف لها ، كما في الجبال والصخور وما يصنع من عواميد الحجارة ، وكما قيل : إن الملائكة صمد ؛ ولهذا قيل إنه لا يخرج منـه شيء ، ولا يدخل فيه شيء ، ولا يأكل ولا يشرب ، ونحو ذلك ، ونفى هذا لا يعقل إلا عمن هو جسم ، وقالوا : أصل (الصمد) الاجتماع ، ومنه تصميد المال ، وهذا إنما يعقل فى الجسم المجتمع ، وأما النفاة فقـالوا : (الصمد) الذي لا يجوز عليه التفرق والانقسام ، وكل جسم فى العـالم يجوز عليه التفرق والانقسام .

وقالوا أيضاً : (الأحد) الذي لا يقبـل التجزى والانقسـام ، وكل جسم فى العالم يجوز عليه التفرق والتجزى والانقسام . وقالوا :

إذا قلتم هو جسم كان مركباً مؤلفاً من الجواهر الفردة ، أو من المادة والصورة ، وما كان مركباً مؤلفاً من غيره كان مفتقراً إليه ، وهو سبحانه صمد ، والصمد الغني عما سواه ، فالمركب لا يكون صمداً .

فيقال : أما القول بأنه سبحانه مركب مؤلف من أجزاء ، وأنه يقبل التجزى والانقسام والانفصال فهذا باطل شرعا وعقلا ، فإن هذا ينافي كونه صمداً ، كما تقدم ، وسواء أريد بذلك أنه كانت الأجزاء متفرقة ، ثم اجتمعت ، أو قيل : إنها لم تزل مجتمعة لكن يمكن انفصال بعضها عن بعض ، كما فى بدن الإنسان وغيره من الأجسام ، فإن الإنسان وإن كان لم يزل مجتمع الأعضاء ، لكن يمكن أن يفرق بين بعضه من بعض ، والله سبحانه منزه عن ذلك ؛ ولهذا قدمنا أن كمال الصمدية له ، فإن هذا إنما يجوز على ما يجوز أن يفنى بعضه أو يعدم ، وما قبل العدم والفناء لم يكن واجب الوجود بذاته ، ولا قديماً أزلياً ؛ فإن ما وجب قدمه امتنع عدمه ، وكذلك صفاته التى لم يزل موصوفا بها وهي من لوازم ذاته ، فيمتنع أن يعدم اللازم إلا مع عدم الملزوم .

ولهذا قال من قال من السلف : (الصمد) هو الدائم ، وهو الباقى بعد فناء خلقه ، فإن هذا من لوازم الصمدية ، إذ لو قبل العدم لم تكن صمديته لازمة له ؛ بل جاز عدم صمديته فلا يبقى صمداً ، ولا

تنتفي عنه الصمدية إلا بجواز العدم عليه ، وذلك محال . فلا يكون مستوجبا للصمدية ، إلا إذا كانت لازمة له ، وذلك ينافي عدمه ، وهو مستوجب للصمدية ، لم يصر صمداً بعد أن لم يكن تعالى وتقدس ، فإن ذلك يقتضي أنه كان متفرقا فجمع ، وأنه مفعول محدث مصنوع ، وهذه صفة مخلوقاته . وأما الخالق القديم الذي يمتنع عليه أن يكون معدوما أو مفعولا أو محتاجا إلى غيره بوجه من الوجوه ، فلا يجوز عليه شيء من ذلك ، فعلم أنه لم يزل صمداً ، ولا يزال صمداً ، فلا يجوز أن يقال : كان متفرقا فاجتمع ، ولا أنه يجوز أن يتفرق ، بل ولا أن يخرج منه شيء ولا يدخل فيه شيء .

وهذا مما هو متفق عليه بين طوائف المسلمين ، سنيهم وبدعيهم ، وإن كان أحد من الجهال أو من لايعرف قد يقول خلاف ذلك ، فمثل هؤلاء لا تنضبط خيالاتهم الفاسدة ، كما أنه ليس في طوائف المسلمين من يقول إنه مولود ووالد ، وإن كان هذا قد قاله بعض الكفار ، وقد قال المتفلسفة المنتسبون إلى الإسلام من التولد والتعليل ما هو شر من قول أولئك ، وأما إثبات الصفات له ، وأنه يرى فى الآخرة ، وأنه يتكلم بالقرآن وغيره ، وكلامه غير مخلوق : فهذا مذهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وأئمة المسلمين وأهل السنة والجماعة ، من جميع الطوائف . والخلاف فى ذلك مشهور مع الجهمية والمعتزلة ،

وكثير من الفلاسفة والباطنية .

وهؤلاء يقولون إن إثبات الصفات يوجب أن يكون جسما وليس بجسم ، فلا تثبت له الصفات . قالوا : لأن المعقول من الصفات أعراض قائمة بجسم ، لا تعقل صفته إلا كذلك . قالوا : والرؤية لاتعقل إلا مع المعاينة ، فالمعاينة لا تكون إلا إذا كان المرئي بجهة ، ولا يكون بجهة إلا ما كان جسما . قالوا : ولأنه لو قام به كلام أو غيره للزم أن يكون جسما ، فلا يكون الكلام المضاف إليه إلا مخلوقا منفصلا عنه .

وهذه المعاني مما ناظروا بها الإمام أحمد فى « المحنة » ، وكان ممن احتج على أن القرآن مخلوق بنفى التجسيم أبو عيسى محمد بن عيسى برغوث ، تلميذ حسين النجار ، وهو من أكابر المتكلمين ، فإن ابن أبي دؤاد كان قد جمع للإمام أحمد من أمكنه من متكلمي البصرة وبغداد وغيرهم ممن يقول : إن القرآن مخلوق ، وهذا القول لم يكن مختصاً بالمعتزلة كما يظنه بعض الناس ؛ فإن كثيراً من أولئك المتكلمين أو أكثرهم لم يكونوا معتزلة ، وبشر المريسي لم يكن من المعتزلة ، بل فيهم نجارية ، ومنهم برغوث . وفيهم ضرارية . وحفص الفرد الذي ناظر الشافعي كان من الضرارية أتباع ضرار بن عمرو . وفيهم مرجئة ، ومنهم بشر المريسي . ومنهم جهمية محضة ، ومنهم معتزلة ، وابن أبي

دؤاد لم يكن معتزلياً ؛ بل كان جهميا ينفي الصفات ، والمعتزلة تنفي الصفات ، فنفاة الصفات الجهمية أعم من المعتزلة ، فلما احتج عليه برغوث بأنه لو كان يتكلم ويقوم به الكلام لكان جسما ، وهذا منفي عنه ، وأحمد وأمثاله من السلف كانوا يعلمون أن هذه الألفاظ التي ابتدعها المتكلمون كلفظ الجسم وغيره ينفيها قوم ليتوصلوا بنفيها إلى نفي ما أثبته الله تعالى ورسوله ، ويثبتها قوم ليتوصلوا بإثباتها إلى إثبات ما نفاه الله ورسوله .

فالأولى طريقة الجهمية : من المعتزلة وغيرهم : ينفون الجسم حتى يتوهم المسلمون ان قصدهم التنزيه ، ومقصودهم بذلك أن الله لا يرى فى الآخرة ، وأنه لم يتكلم بالقرآن ولا غيره بل خلق كلاما فى غيره ، وأنه ليس له علم يقوم به ، ولا قدرة ولا حياة ، ولا غير ذلك من الصفات قال الإمام أحمد في خطبته فى « الرد على الجهمية والزنادقة » :

الحمد لله الذي جعل فى كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ، ويصبرون منهم على الأذى ، يحيون بكتاب الله الموتى ، ويبصرون بنوره أهل العمى ، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه ، وكم ضال تائه قد هدوه ، فما أحسن أثرهم على الناس ، وأقبح أثر الناس عليهم ، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، الذين عقدوا ألوية البدعة ، وأطلقوا عنان الفتنة ،

فهم مختلفون فى الكتاب مخالفون للكتاب مجتمعون على مخالفة الكتاب، يقولون على الله وفى الله وفى كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم. فنعوذ بالله من فتن المضلين.

والثانية طريقة هشام وأتباعه يحكى عنهم: أنهم أثبتوا ما قد نزه الله نفسه عنه من اتصافه بالنقائص، ومماثلته للمخلوقات، فأجابهم الإمام أحمد بطريقة الأنبياء وأتباعهم وهو الاعتصام بحبل الله الذي قال الله فيه:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا) وقال: (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) وقال تعالى:

(المص * كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ)

وقال تعالى: (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى *

قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ)

وقال تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا)

وقال تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) .

وقال تعالى : (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا * أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا * وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا * فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا

شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) وقوله تعالى : (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ) وقوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) وقوله تعالى : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) وقوله : (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) .

فهذه النصوص وغيرها تبين أن الله أرسل الرسل، وأنزل الكتب لبيان الحق من الباطل ، وبيان ما اختلف فيه الناس ، وأن الواجب على الناس اتباع ما أنزل إليهم من ربهم ، ورد ما تنازعوا فيه إلى الكتاب والسنة ، وأن من لم يتبع ذلك كان منافقا ، وأن من اتبع الهدى الذي جاءت به الرسل فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذلك حشر أعمى ضالا شقيا معذبا ، وأن الذين فرقوا دينهم قد برئ الله ورسوله منهم .

فاتبع الإمام أحمد طريقة سلفه من أئمة السنة والجماعة المعتصمين

بالكتاب والسنة ، المتبعين ما أنزل [الله] إليهم من ربهم ، وذلك أن ننظر فما وجدنا الرب قد أثبته لنفسه فى كتابه أثبتناه ، وما وجدناه قد نفاه عن نفسه نفيناه ، وكل لفظ وجد فى الكتاب والسنة بالإثبات أثبت ذلك اللفظ ، وكل لفظ وجد منفياً نفي ذلك اللفظ ، وأما الألفاظ التى لا توجد فى الكتاب والسنة ، بل ولا فى كلام الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وسائر أئمة المسلمين لا إثباتها ولا نفيها .

وقد تنازع فيها الناس ، فهذه الألفاظ لا تثبت ولا تنفى إلا بعد الاستفسار عن معانيها ، فإن وجدت معانيها مما أثبته الرب لنفسه أثبتت ، وإن وجدت مما نفاه الرب عن نفسه نفيت ، وإن وجدنا اللفظ أثبت به حق وباطل ، أو نفى به حق وباطل ، أو كان مجملا يراد به حق وباطل ، وصاحبه أراد به بعضها ، لكنه عند الإطلاق يوهم الناس أو يفهمهم ما أراد وغير ما أراد ، فهذه الألفاظ لا يطلق إثباتها ولا نفيها ، كلفظ الجوهر والجسم والتحيز والجهة ونحو ذلك من الألفاظ التى تدخل فى هذا المعنى ، فقل من تكلم بها نفياً أو إثباتا إلا وأدخل فيها باطلا ، وإن أراد بها حقاً .

والسلف والأئمة كرهوا هذا الكلام المحدث ؛ لاشتماله على باطل وكذب ، وقول على الله بلا علم ، وكذلك ذكر أحمد فى رده على الجهمية أنهم يفترون على الله فيما ينفونه عنه ، ويقولون عليه بغير علم ، وكل

ذلك مما حرمه الله ورسوله ، ولم يكره السلف هذه لمجرد كونها اصطلاحية ، ولا كرهوا الاستدلال بدليل صحيح جاء به الرسول ، بل كرهوا الأقوال الباطلة المخالفة للكتاب والسنة ، ولا يخالف الكتاب والسنة إلا ماهو باطل ، لا يصح بعقل ولا سمع .

ولهذا لما سئل أبو العباس ابن سريج عن التوحيد فذكر توحيد المسلمين وقال : وأما توحيد أهل الباطل فهو الخوض فى الجواهر والأعراض ، وإنما بعث [الله] النبى صلى الله عليه وسلم بإنكار ذلك ، ولم يرد بذلك أنه أنكر هذين اللفظين ، فإنهما لم يكونا قد أحدثا فى زمنه ، وإنما أراد إنكار ما يعنى بهما من المعاني الباطلة ، فإن أول من أحدثهما الجهمية والمعتزلة ، وقصدهم بذلك إنكار صفات الله تعالى أو أن يرى ، أو أن يكون له كلام يتصف به ، وأنكرت الجهمية أسماءه أيضاً .

وأول من عرف عنه إنكار ذلك الجعد بن درهم ، فضحى به خالد ابن عبد الله القسري بواسط . وقال : يا أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم ، فإنى مضح بالجعد بن درهم ، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما ، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً . ثم نزل فذبحه .

وكلام السلف والأئمة فى ذم هذا الكلام وأهله مبسوط فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا: أن أئمة السنة كأحمد بن حنبل وغيره كانوا إذا ذكرت لهم أهل البدع الألفاظ المجملة: كلفظ الجسم والجوهر والحيز ونحوها لم يوافقوهم لا على إطلاق الإثبات، ولا على إطلاق النفي، وأهل البدع بالعكس ابتدعوا ألفاظاً ومعانى، إما في النفي، وإما فى الإثبات، وجعلوها هي الأصل المعقول المحكم، الذي يجب اعتقاده، والبناء عليه، ثم نظروا فى الكتاب والسنة فما أمكنهم أن يتأولوه على قولهم تأولوه، وإلا قالوا هذا من الألفاظ المتشابهة المشكلة التى لا ندري ما أريد بها. فجعلوا بدعهم أصلا محكماً، وما جاء به الرسول فرعا له ومشكلا: إذا لم يوافقه. وهذا أصل الجهمية والقدرية وأمثالهم، وأصل الملاحدة من الفلاسفة الباطنية، جميع كتبهم توجد على هذا الطريق، ومعرفة الفرق بين هذا وهذا من أعظم ما يعلم به الفرق بين الصراط المستقيم الذي بعث الله به رسوله، وبين السبل المخالفة له، وكذلك الحكم في المسائل العلمية الفقهية، ومسائل أعمال القلوب وحقائقها وغير ذلك، كل هذه الأمور قد دخل فيها ألفاظ ومعان محدثة، وألفاظ ومعان مشتركة.

فالواجب أن يجعل ما أنزله الله من الكتاب والحكمة أصلا في جميع هذه الأمور، ثم يرد ما تكلم فيه الناس إلى ذلك، ويبين مافى الألفاظ المجملة من المعانى الموافقة للكتاب والسنة فتقبل، وما فيها من المعانى

المخالفة للكتاب والسنة فترد .

ولهذا كل طائفة أنكر عليها ما ابتدعت احتجت بما ابتدعته الأخرى ، كما يوجد فى ألفاظ أهـل الرأي والكلام والتصوف ، وإنمـا يجوز أن يقال فى بعض الآيات إنه مشكل ومتشابه إذا ظن أنه يخالف غيره من الآيات المحكمة البينة ، فإذا جاءت نصوص بينة محكمة بأمر ، وجاء نص آخر يظن أن ظاهره يخالف ذلك يقال في هذا إنـه يرد المتشابه إلى المحكم . أما إذا نطق الكتاب أو السنة بمعنى واحد لم يجز أن يجعل ما يضاد ذلك المعنى هو الأصل ، ويجعل ما فى القرآن والسنة مشكلا متشابها ، فلا يقبل مادل عليه .

نعم قد يشكل على كثير من الناس نصوص لا يفهمونها ، فتكون مشكلة بالنسبة إليهم لعجز فهمهم عن معانيهـا ، ولا يجوز أن يكون فى القرآن ما يخالف صريح العقل والحس إلا وفي القرآن بيان معناه ، فإن القرآن جعله الله شفاءاً لما في الصدور ، وبيانا للناس ، فـلا يجوز أن يكون بخلاف ذلك ؛ لكن قد تخفى آثار الرسالة فى بعض الأمكنة والأزمنة ، حتى لا يعرفون ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم . إما أن لا يعرفوا اللفظ ، وإما أن يعرفوا اللفظ ولا يعرفوا معناه ، فحينئذ يصيرون فى جاهلية بسبب عدم نور النبوة ، ومن ههنـا يقع الشرك ، وتفريق الدين شيعا ، كالفتن التى تحدث السيف ، فالفتن القولية والعملية

هي من الجاهلية بسبب خفاء نور النبوة عنهم ، كما قال مالك بن أنس : إذا قل العلم ظهر الجفاء ، وإذا قلت الآثار ظهرت الأهواء .

ولهذا شبهت الفتن بقطع الليل المظلم ، ولهذا قال أحمد فى خطبته : الحمد لله الذي جعل فى كل زمان فترة بقايا من أهل العلم . فالهدى الحاصل لأهل الأرض إنما هو من نور النبوة كما قال تعالى : (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ) فأهل الهدى والفلاح : هم المتبعون للأنبياء وهم المسلمون المؤمنون فى كل زمان ومكان . وأهل العذاب والضلال : هم المكذبون للأنبياء ، يبقى أهل الجاهلية الذين لم يصل إليهم ماجاءت به الأنبياء .

فهؤلاء فى ضلال وجهل وشرك وشر ، لكن الله يقول : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) وقال : (رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) وقال : (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ) فهؤلاء لايهلكهم الله ويعذبهم حتى يرسل إليهم رسولا . وقد رويت آثار متعددة فى أن من لم تبلغه الرسالة في الدنيا فإنه يبعث إليه رسول يوم القيامة في عرصات القيامة .

وقد زعم بعضهم أن هـذا يخالف دين المسلمين ؛ فإن الآخرة لا تكليف فيها ، وليس كما قال ، إنمـا ينقطع التكليف إذا دخـلوا دار الجزاء الجنة أو النـار ، وإلافهـم فى قبورهم ممتحنون ومفتونون ، يقال لأحدهم : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ . وكذلك فى عرصات القيامة يقال : ليتبع كل قوم ما كانوا يعبدون ، فيتبع من كان يعبـد الشمس الشمس ، ومن كان يعبد القمر القمر ، ومن كان يعبد الطواغيت الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها منـافقوها ، فيأتيهم الله فى صورة غير الصورة التى رأوه فيها أول مرة ، ويقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك ، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا . وفى رواية فيسألهـم ويثبتهم ، وذلك امتحان لهم ، هل يتبعون غير الرب الذي عرفوا أنـه الله الذي تجلى لهم أول مرة فيثبتهم الله تعالى عند هذه المحنة ، كما يثبتهم فى فتنة القبر ، فإذا لم يتبعوه لـكونه أتى فى غير الصورة الـتى يعرفون ، أتاهم حينئذ فى الصورة التى يعرفون فيكشف عن ساق ، فإذا رأوه خروا له سجداً ، إلا من كان منافقـاً فإنه يريـد السجود فلا يستطيعه ، يبقى ظهره مثل الطبق وهذا المعنى مستفيض عن النبى صـلى الله عليـه وسلم فى عدة أحاديث ثابتة من حديث أبى هريرة ، وأبى سعيد ، وقد أخرجاها فى الصحيحين ، ومن حديث جابر ، وقد رواه مسلـم من حديث ابن مسعود ، وأبى موسى ، وهو معروف من رواية أحمد وغيره . فـدل

ذلك على أن المحنة إنما تنقطع إذا دخلوا دار الجزاء ، وأمـا قبـل دار الجزاء امتحان وابتلاء .

فإذا انقطع عن الناس نور النبوة وقعوا في ظلمة الفتن ، وحدثت البدع والفجور ، ووقع الشر بينهم . كما في الصحيح عن النبي صـلى الله عليه وسلم أنه قال : « سألت ربي ثـلاثا فأعطاني اثنتـين ، ومنعنى الثالثة ، سألته أن لا يهلك أمتى بسنة عامة فأعطانيها ، وسألتـه أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فيجتاحهم فأعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها » والبأس مشتق من البؤس . قال الله تعالى (قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ) وفى الصحيحين عن النبي صـلى الله عليه وسلم « أنه لما نزل قوله تعالى : (قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ) قال أعوذ بوجهك (أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) قال : أعوذ بوجهك . (أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ) قال هاتان أهون » . فدل على أنـه لا بـد أن يلبسهم شيعـاً ، ويذيق بعضهم بأس بعض ، مع براءة الرسول فى هذه الحال ، وهم فيها في جاهلية .

ولهـذا قال الزهري وقعت الفتنة وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسـلم متوافرون ، فأجمعوا على أن كل دم أو مـال أو فرج

أصيب بتأويل القرآن فهو هدر ، أنزلوهم منزلة الجاهلية ، وقد روى مالك بإسناده الثابت عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول : ترك الناس العمل بهذه الآية تعني قوله تعالى : (وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا) فإن المسلمين لما اقتتلوا كان الواجب الإصلاح بينهم كما أمر الله تعالى ، فلما لم يعمل بذلك صارت فتنة وجاهلية .

وهكذا مسائل النزاع التي تنازع فيها الأمة في الأصول والفروع إذا لم ترد إلى الله والرسول لم يتبين فيها الحق ، بل يصير فيها المتنازعون على غير بينة من أمرهم ، فإن رحمهم الله أقر بعضهم بعضاً ، ولم يبغ بعضهم على بعض ، كما كان الصحابة في خلافة عمر وعثمان يتنازعون في بعض مسائل الاجتهاد فيقر بعضهم بعضاً ، ولا يعتدى عليه وإن لم يرحموا وقع بينهم الاختلاف المذموم ، فبغى بعضهم على بعض ، إما بالقول مثل تكفيره وتفسيقه ، وإما بالفعل مثل حبسه وضربه وقتله . وهذه حال أهل البدع والظلم كالخوارج وأمثالهم ، يظلمون الأمة ويعتدون عليهم ، إذا نازعوهم في بعض مسائل الدين ، وكذلك سائر أهل الأهواء ، فإنهم يبتدعون بدعة ، ويكفرون من خالفهم فيها ، كما تفعل الرافضة والمعتزلة والجهمية وغيرهم ، والذين امتحنوا الناس بخلق القرآن كانوا من هؤلاء ؛ ابتدعوا بدعة وكفروا من خالفهم فيها ،

واستحلوا منع حقه وعقوبته .

فالناس إذا خفي عليهم بعض ما بعث الله به الرسول صلى الله عليه وسلم إما عادلون ، وإما ظالمون ، فالعـادل فيهم الذي يعمل بمـا وصل إليه من آثار الأنبياء ولا يظلم غيره ، والظالم الذي يعتدى على غيره ، وهؤلاء ظالمون مع علمهم بأنهم يظلمون ، كما قال تعـالى : (وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ) وإلا فلو سلـكوا ما علموه من العدل أقر بعضهم بعضـاً ، كالمقلدين لأئمة الفقـه الذين يعرفون من أنفسهم أنهم عاجزون عن معرفة حكم الله ورسوله فى تلك المسائل ، فجعلوا أئمتهم نوابا عن الرسول ، وقالوا هذه غاية ماقدرنا عليه ، فالعادل منهم لا يظلم الآخر ، ولا يعتدى عليه بقول ولا فعل ، مثل أن يدعى أن قول متبوعه هو الصحيح بلا حجة يبديهـا ، ويذم من يخالفه مع أنه معذور .

وكان الذين امتحنوا أحمـد وغيره من هؤلاء الجـاهلين فابتدعوا كلاماً متشابهاً نفوا به الحـق ، فأجابهم أحمد لمـا ناظروه فى المحنـة ، وذكروا الجسم ونحو ذلك ، وأجابهم بأنى أقول كما قال الله تعالى : (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ) وأما لفظ الجسم فلفظ مبتدع محدث ، ليس على أحـد ، أن يتكلم به ألبتـة ، والمعنى الذي يراد به مجمل ، ولم تبينوا مرادكم حتى نوافقـكم على المعنى الصحيح ، فقال مـا أدرى ما تقولون ؟

لكن أقول : (ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ) .

يقول : ما أدري ما تعنون بلفظ الجسم ، فأنا لا أوافقكم على إثبات لفظ ونفيه ، إذ لم يرد الكتاب والسنة بإثباته ولا نفيه ، إن لم ندر معناه الذي عناه المتكلم ، فإن عنى فى النفي والإثبات ما يوافق الكتاب والسنة وافقناه ، وإن عنى ما يخالف الكتاب والسنة فى النفى والإثبات لم نوافقه .

ولفظ « الجسم » و « الجوهر » ونحوهما لم يأت فى كتاب الله ولا سنة رسوله، ولا كلام أحد ــ من الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين وسائر أئمة المسلمين ــ التكلم بها في حق الله تعالى ، لا بنفي ولا إثبات ، ولهذا قال أحمد فى رسالته إلى المتوكل : لا أحب الكلام فى شيء من ذلك إلا ما كان في كتاب الله ، أو فى حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عن الصحابة أو التابعين لهم بإحسان ، وأما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود .

وذكر أيضاً فيما حكاه عن الجهمية أنهم يقولون : ليس فيه كذا ولا كذا ولا كذا ، وهو كما قال ، فإن لفظ الجسم له فى اللغة التى نزل بها القرآن معنى ، كما قال تعالى : (وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ

وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ) وقال تعالى : (وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ) قال ابن عباس : كان طالوت أعلم بنى إسرائيل بالحرب ، وكان يفوق الناس بمنكبيه وعنقه ورأسه ، و « البسطة » السعة ، قال ابن قتيبة : هو من قولك بسطت الشيء إذا كان مجموعا ففتحته ووسعته ، قال بعضهم : والمراد بتعظيم الجسم فضل القوة ، إذ العادة أن من كان أعظم جسما كان أكثر قوة . فهذا لفظ الجسم فى لغة العرب التى نزل بها القرآن . قال الجوهري : قال أبو زيد الأنصاري : الجسم الجسد ، وكذلك الجسمان والجثمان ، وقال الأصمعي : الجسم ، والجسد ، والجثمان الشخص ، وقال جماعة جسم الإنسان يقال له الجثمان وقد جسم الشيء أي عظم ، فهو جسيم وجسام ، والجسام بالكسر جمع جسيم . قال أبو عبيدة تجسمت فلانا من بين القوم أي اخترته ، كأنك قصدت جسمه . كما تقول : تأنيته أي قصدت أتيه وشخصه ، وأنشد أبو عبيدة .

تجسمته من بينهن بمرهف

وتجسمت الأرض إذا أخذت نحوها تريدها ، وتجسم من الجسم ، وقال ابن السكيت : تجسمت الأمر : أي ركبت أجسمه وجسيمه ، أي معظمه ، قال : وكذلك تجسمت الرمل والجبل أي ركبت أعظمه ، والأجسم الأضخم قال عامر بن الطفيل :

لقد علم الحي من عامر   بأن لنا الذروة الأجسما

فهذا الجسم فى لغة العرب ، وعلى هذا فلا يقال للهواء جسم ، ولا للنفس الخارج من الإنسان جسم ، ولا لروحه المنفوخة فيه جسم ، ومعلوم أن الله سبحانه لا يماثل شيئاً من ذلك ، لا بدن الإنسان ولا غيره فلا يوصف الله تعالى بشيء من خصائص المخلوقين ، ولا يطلق عليه من الأسماء ما يختص بصفات المخلوقين . فلا يجوز أن يقال : هو جسم ، ولا جسد .

(وأما أهل الكلام) فالجسم عندهم أعم من هذا ، وهم مختلفون فى معناه اختلافا كثيراً عقلياً واختلافا لفظياً اصطلاحياً ، فهم يقولون كل ما يشار إليه إشارة حسية فهو جسم ، ثم اختلفوا بعد هذا فقال كثير منهم : كل ما كان كذلك فهو مركب من الجواهر الفردة ، ثم منهم من قال : الجسم أقل ما يكون جوهراً ، بشرط أن ينضم إلى غيره ، وقيل بل الجوهران ، والجواهر فصاعداً ، وقيل بل أربعة فصاعداً ، وقيل بل ستة ، وقيل بل ثمانية ، وقيل بل ستة عشر ، وقيل بل اثنان وثلاثون ، وهذا قول من يقول إن الأجسام كلها مركبة من الجواهر التى لا تنقسم .

وقال آخرون من أهل الفلسفة كل الأجسام مركبة من الهيولى ،

والصورة لا من الجواهر الفردة .

وقال كثير من أهل الكلام وغير أهل الكلام ليست مركبة لا من هذا ولا من هذا، ولا من هذا ولا من هذا ، وهذا قول الهشامية والكلابية والضرارية وغيرهم من الطوائف الكبار ، لا يقولون بالجوهر الفرد ولا بالمادة والصورة ، وآخرون يدعون إجماع المسلمين على إثبات الجوهر الفرد ، كما قال أبو المعالي وغيره : اتفق المسلمون على أن الأجسام تتناهى في تجزئها وانقسامها حتى تصير أفراداً ، ومع هذا فقد شك هو فيه ، وكذلك شك فيه أبو الحسين البصري . وأبو عبد الله الرازي .

ومعلوم أن هذا القول لم يقله أحد من أئمة المسلمين لا من الصحابة ولا من التابعين لهم بإحسان ، ولا أحد من أئمة العلم المشهورين بين المسلمين ، وأول من قال ذلك فى الإسلام طائفة من الجهمية والمعتزلة ، وهذا من الكلام الذي ذمه السلف وعابوه ، ولكن حاكي هذا الإجماع لما لم يعرف أصول الدين إلا ما في كتب الكلام ، ولم يجد إلا من يقول بذلك اعتقد هذا إجماع المسلمين ، والقول بالجوهر الفرد باطل ، والقول بالهيولى والصورة باطل ، وقد بسط الكلام على هذه المقالات فى مواضع أخر .

وقال آخرون : الجسم هو القائم بنفسه ، وكل قائم بنفسه جسم ، وكل جسم فهو قائم بنفسه ، وهو مشار إليه ، واختلفوا فى الأجسام هل هي متماثلة أم لا ؟ على قولين مشهورين .

وإذا عرف ذلك فمن قال : إنه جسم ، وأراد أنه مركب من الأجزاء فهذا قوله باطل ، وكذلك إن أراد أنه يماثل غيره من المخلوقات فقد علم بالشرع والعقل أن الله ليس كمثله شيء في شيء من صفاته ، فمن أثبت لله مثلا في شيء من صفاته فهو مبطل ، ومن قال إنه جسم بهذا المعنى فهو مبطل ، ومن قال إنه ليس بجسم بمعنى أنه لا يرى فى الآخرة ، ولا يتكلم بالقرآن وغيره من الكلام ، ولا يقوم به العلم والقدرة وغيرهما من الصفات ، ولا ترفع الأيدي إليه فى الدعاء ، ولا عرج بالرسول صلى الله عليه وسلم إليه ، ولا يصعد إليه الكلم الطيب ولا تعرج الملائكة والروح إليه ، فهذا قوله باطل . وكذلك كل من نفى ما أثبته الله ورسوله ، وقال إن هذا تجسيم فنفيه باطل ، وتسمية ذلك تجسيماً تلبيس منه ، فإنه إن أراد أن هذا فى اللغة يسمى جسماً فقد أبطل ، وإن أراد أن هذا يقتضى أن يكون جسماً مركباً من الجواهر الفردة أو من المادة والصورة ، أو أن هذا يقتضي أن يكون جسماً ، والأجسام متماثلة ، قيل له أكثر العقلاء يخالفونك في تماثل الأجسام المخلوقة ، وفى أنها مركبة ، فلا يقولون : إن الهواء مثل الماء

ولا أبدان الحيوان مثل الحديد والجبال، فكيف يوافقونك على أن الرب تعالى يكون مماثلا لخلقه ، إذا أثبتوا له ما أثبت له الكتاب والسنة ؟! والله تعالى قد نفى المماثلات في بعض المخلوقات ، وكلاهما جسم كقوله : (وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم) مع أن كلاهما بشر . فكيف يجوز أن يقال : إذا كان لرب السموات علم وقدرة أنه يكون مماثلا لخلقه ؟! والله تعالى ليس كمثله شيء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله .

ونكتة الأمر أن الجسم في اعتقاد هذا النافى يستلزم مماثلة سائر الأجسام ، ويستلزم أن يكون مركباً من الجواهر الفردة ، أو من المادة والصورة ، وأكثر العقلاء يخالفونه فى هذا التلازم ، وهذا التلازم منتف باتفاق الفريقين ، وهو المطلوب .

فإذا اتفقوا على انتفاء النقص المنفى عن الله شرعا وعقلا بقى بحثهم فى الجسم الاصطلاحي ، هل هو مستلزم لهذا المحذور ؟ وهو بحث عقلي ، كبحث الناس في الأعراض هل تبقى أو لا تبقى ؟ وهذا البحث العقلي لم يرتبط به دين المسلمين ، بل لم ينطق كتاب ولا سنة ولا أثر من السلف بلفظ الجسم فى حق الله تعالى لا نفياً ولا إثباتاً ، فليس لأحد أن يبتدع اسماً مجملا يحتمل معاني مختلفة ، لم ينطق به الشرع ويعلق به دين المسلمين ، ولو كان قد نطق باللغة العربية ، فكيف إذا

أحدث للفظ معنى آخر ؟!

والمعنى الذي يقصده إذا كان حقاً عبر عنه بالعبارة التى لا لبس فيها فإذا كان معتقده أن الأجسام متماثلة ، وأن الله ليس كمثله شيء ، وهو سبحانه لا سمي له ، ولا كفوله ، ولا ند له ، فهذه عبارات القرآن تؤدي هذا المعنى بلا تلبيس ولا نزاع ، وإن كان معتقده أن الأجسام غير متماثلة ، وأن كل ما يرى وتقوم به الصفات فهو جسم ، فإن عليه أن يثبت ما أثبته الله ورسوله من علمه وقدرته وسائر صفاته . كقوله : (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ) وقوله : (إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ) وقوله عليه السلام فى حديث الاستخارة : « اللهم إنى أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك » وقوله في الحديث الآخر : « اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق » ويقول كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنكم ترون ربكم يوم القيامة عيانا كما ترون الشمس والقمر لا تضامون في رؤيته » فشبه الرؤية بالرؤية ، وإن لم يكن المرئي كالمرئي .

فهذه عبارات الكتاب والسنة عن هذا المعنى الصحيح بلا تلبيس ولا نزاع بين أهل السنة المتبعين للكتاب والسنة وأقوال الصحابة ، ثم بعد هذا من كان قد تبين له معنى من جهة العقل أنه لازم للحق لم يدفعه عن عقله ، فلازم الحق حق ، لكن ذلك المعنى لا بد أن يدل

الشرع عليه فيبينه بالألفاظ الشرعية ، وإن قدر أن الشرع لم يدل عليه لم يكن مما يجب على الناس اعتقاده ، وحينئذ فليس لأحد أن يدعو الناس إليه ، وإن قدر أنه فى نفسه حق .

(ومسألة) تماثل الأجسام وتركيبها من الجواهر الفردة قد اضطرب فيها جماهير أهل الكلام . وكثير منهم يقول بهذا تارة وبهذا تارة . وأكثر ذلك لأجل الألفاظ المجملة والمعاني المتشابهة ، وقد بسط الكلام عليه فى غير هذا الموضع .

لكن المقصود هنا : أنه لو قدر أن الإنسان تبين له أن الأجسام ليست متماثلة ، ولا مركبة لا من هذا ولا من هذا لم يكن له أن يبتدع فى دين الإسلام قوله : إن الله جسم ، ويناظر على المعنى الصحيح الذي دل عليه الكتاب والسنة ، بل يكفيه إثبات ذلك المعنى بالعبارات الشرعية ولو قدر أنه تبين له أن الأجسام متماثلة ، وأن الجسم مركب ، لم يكن له أن يبتدع النفي بهذا الاسم ، ويناظر على معناه الذي اعتقده بعقله ؛ بل ذلك المعنى المعلوم بالشرع والعقل يمكن إظهاره بعبارة لا إجمال فيها ولا تلبيس ، والذين يقولون : إن الجسم مركب من الجواهر ، يدعى كثير منهم أنه كذلك فى لغة العرب ؛ لأن العرب يقولون هذا أجسم من هذا ، يريدون به أنه أكثر أجزاء منه . ويقولون : هذا جسيم ، أي كثير الأجزاء .

قال : والتفضيل بصيغة أفعل ، إنما يكون لما يدل عليه الاسم ، فإذا قيل : هذا أعلم وأحلم ، كان ذلك دالا على الفضيلة فيما دل عليه لفظ العلم والحلم ، فلما قالوا : أجسم ، لما كان أكثر أجزاء دل على أن لفظ الجسم عندهم المراد به المركب ، فمن قال جسم وليس بمركب فقد خرج عن لغة العرب .

قالوا : وهذه تخليطة في اللفظ ، وإن كنا لا نكفره ، إذا لم يثبت خصائص الجسم من التركيب والتأليف ، وقد نازعهم بعضهم فى قولهم هذا أجسم من هذا ، وقالوا : ليس هذا اللفظ من لغة العرب ، كما يحكى عن أبى زيد فيقال له : لا ريب أن العرب تقول هذا جسيم أي عظيم الجثة . وهذا أجسم من هذا أي أعظم جثة ، لكن كون العرب تعتقد أن ذلك لكثرة الأجزاء التى هي الجواهر الفردة ، إنما يكون إذا كان أهل اللغة قاطبة يعتقدون أن الجسم مركب من الجواهر الفردة ، والجوهر الفرد هو شيء قد بلغ من الصغر والحقارة إلى أنه لا يتميز يمينه من يساره . ومعلوم أن أكثر العقلاء من بني آدم لايتصور الجوهر الفرد ، والذين يتصورونه أكثرهم لا يثبتونه ، والذين أثبتوه إنما يثبتونه بطرق خفية طويلة بعيدة ، فيمتنع أن يكون اللفظ الشائع فى اللغة التى ينطق بها خواصها وعوامها أرادوا به هذا .

وقد علم بالاضطرار أن أحداً من الصحابة والتابعين لهم بإحسان لم

ينطق بإثبات الجوهر الفرد ، ولا بما يدل على ثبوته عنده ، بل ولا العرب قبلهم ، ولا سائر الأمم الباقين على الفطرة ، ولا أتباع الرسل ، فكيف يدعى عليهم أنهم لم يقولوا لفظ جسم إلا لما كان مركبا مؤلفا ؟! ولو قلت لمن شئت من العرب الشمس والقمر والسماء مركب عندك من أجزاء صغار كل منها لا يقبل التجزى ، أو الجبال أو الهواء أو الحيوان أو النبات لم يتصور هذا المعنى إلا بعد كلفة ، ثم إذا تصوره قد يكذبه بفطرته ، ويقول : كيف يمكن أن يكون شيء لا يتميز منه جانب عن جانب ؟ ! وأكثر العقلاء من طوائف المسلمين وغيرهم ينكرون الجوهر الفرد ، فالفقهاء قاطبة تنكره ، وكذلك أهل الحديث والتصوف.

ولهذا كان الفقهاء متفقين على استحالة بعض الأجسام إلى بعض ، كاستحالة العذرة رماداً ، والخنزير ملحا . ثم تكلموا في هذه الاستحالة هل تطهر أم لا تطهر ؟ والقائلون بالجوهر الفرد لا تستحيل الذوات عندهم ، بل تلك الجواهر التى كانت في الأول هي بعينها في الثانى ، وإنما اختلف التركيب ، ولهذا يتكلم بلفظ التركيب فى الماء ونحوه من الفقهاء المتأخرين من كان قد أخذ هذا التركيب عن المتكلمين ، ويقول : إن الماء يفارق غيره في التركيب فقط . وكذلك القائلون بالجوهر الفرد عندهم أنا لم نشاهد قط إحداث الله تعالى لشيء من الجواهر والأعيان القائمة بنفسها . وأن جميع ما يخلقه من الحيوان والنبات والمعدن والثمار والمطر

والسحاب وغير ذلك إنما هو جمع الجواهر وتفريقها . وتغيير صفاتها من حال إلى حال ، لا أنه يبدع شيئاً من الجواهر والأجسام القائمة بأنفسها ، وهذا القول أكثر العقلاء ينكره ، ويقول : هو مخالف للحس والعقل والشرع ، فضلا عن أن يكون الجسم فى لغة العرب مستلزما لهذا المعنى .

ثم الجسم قد يراد به الغلظ نفسه ، وهو عرض قائم بغيره ، وقد يراد به الشيء الغليظ ، وهو القائم بنفسه . فنقول : هذا الثوب له جسم : أي غلظ ، وقوله : (وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ) قد يحتج به على هذا ، فإنه قرن الجسم بالعلم الذي هو مصدر . فنقول المعنى (زَادَهُ بَسْطَةً) فى قدره ، فجعل قدر بدنه أكبر من بدن غيره ، فيكون الجسم هو القدر نفسه لا نفس المقدر .

وكذلك قوله تعالى : (تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ) أي صورهم القائمة بأبدانهم ، كما تقول : أعجبني حسنه وجماله ولونه وبهاؤه ، فقد يراد صفة الأبدان ، وقد يراد نفس الأبدان ، وهم إذا قالوا : هذا أجسم من هذا أرادوا أنه أغلظ وأعظم منه ، أما كونهم يريدون بذلك أن ذلك العظم والغلظ كان لزيادة الأجزاء فهذا مما يعلم قطعاً أنه لم يخطر ببال أهل اللغة ، إلا من أخذ ذلك عمن اعتقده من أهل الكلام المحدث الذي أحدث فى الإسلام بعد انقراض عصر الصحابة ، وأكثر التابعين . فإن هذا لم

يعرف فى الإسلام من تكلم به أو بمعناه إلا في أواخر الدولة الأموية ، لما ظهر جهم بن صفوان ، والجعد بن درهم ، ثم ظهر فى المعتزلة .

فقد تبين أن من قال : الجسم هو المؤلف المركب ، واعتقد أن الأجسام مركبة من الجواهر الفردة فقد ادعى معنى عقليا ينازعه فيه أكثر العقلاء من بنى آدم ، ولم ينقل عن أحد من السلف أنه وافقه عليه ، وأنه جعل لفظ الجسم في اصطلاحه يدل على معنى لا يدل عليه اللفظ فى اللغة ، فقد غير معنى اللفظ فى اللغة ، وادعى معنى عقليا فيه نزاع طويل ، وليس معه من الشرع ما يوافق ما ادعاه من معنى اللفظ ، ولا ما ادعاه من المعنى العقلي ، فاللغة لا تدل على ما قال ، والشرع لا يدل على ما قال ، والعقل لم يدل على مسميات الألفاظ ، وإنما يدل على المعنى المجرد ، وذلك فيه نزاع طويل ، ونحن نعلم بالاضطرار أن ذلك المعنى الذي وجب نفيه عن الله لا يحتاج نفيه إلى ما أحدثه هذا من دلالة اللفظ ، ولا ما ادعاه من المعنى العقلي ، بل الذين جعلوا هذا عمدتهم فى تنزيه الرب على نفى مسمى الجسم ، لا يمكنهم أن ينزهوه عن شيء من النقائص ألبتة ، فإنهم إذا قالوا : هذا من صفات الأجسام ، فكل ما أثبتوه هو أيضاً من صفات الأجسام ، مثل كونه حيا عليما قديراً ، بل كونه موجوداً قائما بنفسه ، فإنهم لا يعرفون هذا فى الشاهد

إلا جسما ، فإذا قال المنازع : أنا أقول فيما نفيتموه نظير قولكم فيما أثبتموه انقطعوا

ثم هؤلاء لهم في استحقاق الرب لصفات الكمال عندهم ، هل علم بالإجماع فقط ، أو علم بالعقل أيضا ؟ فيه قولان . فمن قال إن ذلك لم يعلم بالعقل كأبي المعالي والرازي وغيرهما لم يبق معهم دليل عقلي ينزهون به الرب عن كثير من النقائص ، هذا إذا لم ينف إلا ما يجب نفيه عن الله ، مثل نفيه للنقائص ، فإنه يجب تنزيه الرب عنها ، وينفى عنه مماثلة المخلوقات ، فإنه كما يجب تنزيه الرب عن كل نقص وعيب يجب تنزيهه عن أن يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفات الكمال الثابتة له ، وهذان النوعان يجمعان التنزيه الواجب لله ، و (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) دلت على النوعين .

فقوله : (أحد) مع قوله : (وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ) ينفى المماثلة والمشاركة ، وقوله : (الصمد) يتضمن جميع صفات الكمال ، فالنقائص جنسها منفى عن الله تعالى ، وكل ما اختص به المخلوق فهو من النقائص التى يجب تنزيه الرب عنها ، بخلاف ما يوصف به الرب . ويوصف العبد بما يليق به : مثل العلم والقدرة والرحمة ، ونحو ذلك ، فإن هذه ليست نقائص ، بل ما ثبت لله من هذه المعانى فإنه يثبت لله على وجه لا يقاربه فيه أحد من المخلوقات ، فضلا عن أن يماثله فيه ، بل ما خلقه الله في

الجنة من المآكل والمشارب والملابس ، لا يماثل ما خلقه فى الدنيا وإن اتفقا فى الاسم ، وكلاهما مخلوق . قال : ابن عباس رضي الله عنهما ليس فى الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء ، فقد أخبر الله أن في الجنة لبنا وخمراً وعسلا وماء وحريراً وذهبا وفضة ، وتلك الحقائق ليست مثل هذه ، وكلاهما مخلوق . فالخالق تعالى أبعد عن مماثلة المخلوقات من المخلوق إلى المخلوق .

وقد سمى الله نفسه عليما ، حليما ، رؤوفا رحيما ، سميعا ، بصيرا ، عزيزا ، ملكا ، جبارا ، متكبرا ، مؤمنا ، عظيما ، كريما ، غنيا ، شكورا . كبيرا ، حفيظا ، شهيدا ، حقا ، وكيلا ، وليا ، وسمى أيضا بعض مخلوقاته بهذه الأسماء فسمى الإنسان سميعا بصيرا ، وسمى نبيه رؤوفا رحيما ، وسمى بعض عباده ملكا ، وبعضهم شكورا ، وبعضهم عظيما ، وبعضهم حليما وعليما ، وسائر ما ذكر من الأسماء مع العلم بأنه ليس المسمى بهذه الأسماء من المخلوقين مماثلا للخالق جل جلاله فى شيء من الأشياء .

وكذلك النزاع في لفظ التحيز والجهة ونحو ذلك ، فمن الناس من يقول : هو متحيز ، وهو في جهة ، ومنهم من يقول : ليس بمتحيز ، وليس فى جهة ، ومنهم من يقول : هو فى جهة وليس بمتحيز ، ولفظ المتحيز يتناول الجسم ، والجوهر الفرد ، ولفظ الجوهر قد يراد به

المتحيز ، وقد يراد به الجوهر الفرد . ومن الفلاسفة من يدعى إثبات جواهر قائمة بأنفسها غير متحيزة . ومتأخروا أهل الكلام كالشهرستانى والرازى والآمدى ونحوهم يقولون : ليس فى العقل ما يحيل ذلك ، ولهذا كان من سلك سبيل هؤلاء — وهو إنما يثبت حدوث العالم بحدوث الأجسام — يقول بتقدير وجود جواهر عقلية ، فليس فى هذا الدليل ما يدل على حدوثها ، ولهذا صار طائفة ممن خلط الكلام بالفلسفة إلى قدم الجواهر العقلية ، وحدوث الأجسام ، وأن السبب الموجب لحدوثها هو حدوث تصور من تصورات النفس ، وبعض أعيان المصنفين كان يقول بهذا .

وكذلك الأرموى صاحب « اللباب » الذي أجاب عن شبهة الفلاسفة على دوام الفاعلية المتضمنة أنه لا بد للحدوث من سبب ، فأجاب بالجواب الباهر الذي أخذه من كلام الرازي فى « المطالب العالية » فإنه أجاب به ، وهو في « المطالب العالية » يخلط كلام الفلاسفة بكلام المتكلمين ، وهو فى مسألة الحدوث والقدم حائر ، وهذا الجواب من أفسد الأجوبة .

فإنه يقال : ما الموجب لحدوث تلك التصورات دائما ، ثم إن النفس عندهم لا بد أن تكون متصلة بالجسم ، فيمتنع وجود نفس بدون جسم .

وأيضاً فالذي علم بالاضطرار من دين الرسـل أن كل ما سوى الله مخلوق محدث كائن بعد أن لم يكن .

وأيضا فما تثبته الفلاسفة من الجواهر العقلية إنما يوجد فى الذهن لا فى الخارج ، وأما أكثر المتكلمين فقالوا انتفاء هذه معلوم بضرورة العقل . وقد بسط الكلام على هذا فى غير هـذا الموضع ، وبين أن ما تدعى الفلاسفة إثبـاته من الجواهر العقليـة التى هي العقل والنفس والمادة والصورة فلا حقيقة لها فى الخارج ، وإنمـا هي أمور معقولة في الذهن يجردها العقل من الأمور المعينـة كما يجرد العقـل الكليات المشتركة بين الأصناف : كالحيوانية الكلية ، والإنسانية الكلية ، والكليات إنما تكون كليات فى الأذهان لا فى الأعيان .

ومن هؤلاء من يظن أنها تكون فى الخارج كليات ، وأن فى الخارج ماهيات كلية مقارنة للأعيان غير الموجودات المعينة ، وكذلك منهم مـن يثبت كليات مجردة عن الأعيان يسمونها « المثل الأفلاطونية » ، ومنهم من يثبت دهراً مجردا عن المتحرك والحركة ، ويثبت خلاء مجردا ليس هو متحيزا ولا قائما بمتحيز . ويثبت هيولى مجردة عن جميع الصور ، والهيولى فى لغتهم بمعنى المحل . يقال الفضة هيولى الخاتم و الدرهم ، والخشب هيولى الكرسي . أي هذا المحل الذي تصنع فيه هذه الصورة ، وهـذه الصورة الصناعية عرض من الأعراض ، ويدعون أن للجسم هيولى محل

الصورة الجسمية غير نفس الجسم القائم بنفسه ، وهذا غلط . وإنما هذا يقدر فى النفس كما يقدر امتداد مجرد عن كل ممتد ، وعدد مجـرد عن كل معدود ، ومقدار مجرد عن كل مقدر ، وهذه كلها أمور مقـدرة فى الأذهان ، لا وجود لها فى الأعيان . وقد اعترف بذلك من عادته نصر الفلاسفة من أهل النظر . كما قد بسط هذا فى غير هذا الموضع .

فالجواهر العقلية التى يثبتها هؤلاء الفلاسفة يعلم بصريح العقل بعد التصور التام انتفاؤها فى الخارج . وأما الملائكة الذين أخبر الله عنهم فهذه لا يعرفها هؤلاء الفلاسفة أتبـاع أرسطو ، ولا يذكرونها بنفى ولا إثبـات ، كما لا يعرفون النبوات ، ولا يتكلمون عليهـا بنفي ولا إثبات ، إنما تكلم فى ذلك متأخروهم كابن سينا وأمثاله ، الذين أرادوا أن يجمعوا بين النبوات وبين الفلسفة ، فلبسوا ودلسوا .

وكذلك « العلة الأولى » التى يثبتونها لهذا العالم إنمـا أثبتوا علة غائية يتحرك الفلك للتشبه بها ، وتحريكها للفلك مـن جنس تحريك الإمام المقتدى به للمؤتم المقتدي ، إذا كان يحب أن يتشبه بإمامه ويقتدى بإمامه ، ولفظ « الإله » فى لغتهـم يراد به المتبوع الإمام الذي يتشبه به ، فالفلك عندهم يتحرك للتشبه بالإله ، ولهذا جعلوا « الفلسفة العليا » و « الحكمة الأولى » ، إنما هي التشبه بالإله على قدر الطاقة ، وكلام أرسطو فى علم ما بعد الطبيعة فى « مقالة اللام » التى هي منتهى فلسفته

وفي غيرها كله يدور على هــذا ، وتارة يشبه تحريكه للفلك بتحريك المعشوق للعــاشق ، لكن التحريك هنا قد يكون لمحبــة العاشق ذات المعشوق ، أو لغرض يناله منه ، وحركة الفلك عندهم ليست كذلك ، بل يتحرك ليتشبه بالعــلة الأولى ، فهو يحبهــا أي يحب التشبه بها ، لا يحب أن يعبدها ، ولا يحب شيئاً يحصل منها ، وبشبه ذلك أرسطو بحركة النواميس لأتباعها ، أي أتباع الناموس قائمون بما في الناموس ، ويقتــدون به ، والناموس عنــدهم هي السياسة الـكلية للمدائن التي وضعهــا لهم ذوو الرأي والعقــل ، لمصلحة دنيــاهم ؛ لئلا يتظالموا ولا تفسد دنيــاهم .

ومن عرف النبوات منهــم يظن أن شرائع الأنبيــاء مــن جنس نواميسهم ، وأن المقصود بها مصلحة الدنيا ؛ بوضع قانون عدلي ؛ ولهذا أوجب ابن سينا وأمثاله النبوة ، وجعلوا النبوة لا بد منها لأجل وضع هذا الناموس ، ولما كانت الحـكمة العملية عندهم هي الخلقية ، والمنزلية ، والمدنية : جعلوا ما جاءت به الرسل مــن العبادات والشرائع والأحكام هي من جنس الحــكمة الخلقية ، والمنزلية ، والمدنية . فإن القوم لا يعرفون الله ، بــل هم أبعد عن معرفته مــن كفار اليهود والنصارى بكثير . وأرسطو المعلم الأول من أجهل الناس برب العالمين إلى الغاية . لكن لهم معرفة جيدة بالأمور الطبيعية ، وهــذا بحر علمهم ، وله تفرغوا ،

وفيه ضيعوا زمانهم ، وأما معرفة الله تعالى فحظهم منها مبخوس جداً . وأما ملائكته وأنبياؤه وكتبه ورسله والمعاد . فلا يعرفون ذلك ألبتة ، ولم يتكلموا فيه لا بنفي ولا إثبات ، وإنما تكلم فى ذلك متأخروهم الداخلون في الملل .

وأما قدماء اليونان فكانوا مشركين من أعظم الناس شركا وسحراً ، يعبدون الكواكب والأصنام ، ولهذا عظمت عناياتهم بعلم الهيئة والكواكب لأجل عبادتها . وكانوا يبنون لها الهياكل . وكان آخر ملوكهم (بطليموس) صاحب « المجسطي » ، ولما دخلت الروم فى النصرانية فجاء دين المسيح صلوات الله عليه وسلامه أبطل ما كانوا عليه من الشرك .

ولهذا بدل من بدل دين المسيح فوضع ديناً مركباً من دين الموحدين ودين المشركين ، فإن أولئك كانوا يعبدون الشمس والقمر والكواكب ، ويصلون لها ويسجدون . فجاء قسطنطين ملك النصارى ومن اتبعه فابتدعوا الصلاة إلى المشرق ، وجعلوا السجود إلى الشمس بدلا عن السجود لها ، وكان أولئك يعبدون الأصنام المجسدة التى لها ظل ، فجاءت النصارى وصورت تماثيل القداديس فى الكنائس ، وجعلوا الصور المرقومة فى الحيطان والسقوف بدل الصور المجسدة القائمة بأنفسها التى لها ظل .

وأرسطو كان وزير الإسكندر بن فيلبس المقدوني — نسبة إلى مقدونية — وهي جزيرة هؤلاء الفلاسفة اليونانيين ، الذين يسمون المشائين ، وهي اليوم خراب أو غمرها الماء ، وهو الذي يؤرخ له النصارى واليهود التاريخ الرومي ، وكان قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة ، فيظن من يعظم هؤلاء الفلاسفة أنه كان وزيرا لذي القرنين المذكور فى القرآن ، ليعظم بذلك قدره ، وهذا جهل ؛ فإن ذا القرنين كان قبل هذا بمدة طويلة جداً ، وذو القرنين بنى سد يأجوج ومأجوج ، وهذا المقدوني ذهب إلى بلاد فارس ، ولم يصل إلى بلاد الصين ؛ فضلا عن السد .

والملائكة التى أخبر الله ورسوله بها لا يعلم عددهم إلا الله تعالى ، ليسوا عشرة ولا تسعة ، وهم عباد الله أحياء ، ناطقون ، ينزلون إلى الأرض ، ويصعدون إلى السماء ، ولا يفعلون إلا بإذن ربهم . كما أخبر الله عنهم بقوله : (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) وقال تعالى : (وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ) وأمثال هذه النصوص .

وهؤلاء يدعون أن العقول قديمة أزلية ، وأن العقل الفعال هو

رب كل ما تحت هذا الفلك ، والعقل الأول هو رب السموات والأرض وما بينهما ، والملاحدة الذين دخلوا معهم من أتباع بنى عبيد : كأصحاب رسائل إخوان الصفا ، وغيرهم ، وكملاحدة المتصوفة : مثل ابن عربي ، وابن سبعين ، وغيرهما يحتجون لمثل ذلك بالحديث الموضوع : « أول ما خلق الله العقل » . وفي كلام أبي حامد الغزالي فى « الكتب المضنون بها على غير أهلها » وغير ذلك من معانى هؤلاء قطعة كبيرة ، ويعبر عن مذاهبهم بلفظ الملك والملكوت والجبروت ، ومراده بذلك الجسم والنفس والعقل . فيأخذ هؤلاء العبارات الإسلامية ، ويودعونها معانى هؤلاء ، وتلك العبارات مقبولة عند المسلمين ، فإذا سمعوها قبلوها ثم إذا عرفوا المعانى التى قصدها هؤلاء ضل بها من لم يعرف حقيقة دين الإسلام ، وأن هذه معانى هؤلاء الملاحدة ليست هي المعانى التى عناها محمد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وإخوانه المرسلون : مثل موسى وعيسى — صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ولهذا ضل كثير من المتأخرين بسبب هذا الالتباس ، وعدم المعرفة بحقيقة ما جاء به الرسول ، وما يقوله هؤلاء حتى يضل بهم خلق من أهل العلم والعبادة والتصوف ، ومن ليس له غرض في مخالفة محمد صلى الله عليه وسلم ، بل يحب اتباعه مطلقاً ، ولو عرف أن هذا مخالف لما جاء به لم يقبله ، لكن لعدم كمال علمه بمعانى ما أخبر

به الرسول ومقاصد هؤلاء . يقبل هذا . لا سيما إذا كان المتكلم به ممن له نصيب وافر في العلم والكلام والتصوف والزهد والفقه والعبادة .

ورأى الطالب أن هذا مرتبته فوق مرتبة الفقهاء الذين إنما يعرفون الشرع الظاهر ، وفوق مرتبة المحدث ، الذي غايته أن ينقل ألفاظاً لايعلم معانيها ، وكذلك المقرئ والمفسر ، ورأى من يعظمه من أهل الكلام ، إما موافق لهم وإما خائف منهم ، ورأى بحوث المتكلمين معهم في مواضع كثيرة لم يأتوا بتحقيق يبين فساد قولهم ، بل تارة يوافقونهم على أصول لهم تكون فاسدة ، وتارة يخالفونهم فى أمر قالته الفلاسفة ويكون حقاً ، مثل من يرى كثيراً من المتكلمين يخالفهم فى أمور طبيعية ورياضية ظاناً أنه ينصر الشرع ، ويكون الشرع موافقاً لما علم بالعقل . مثل استدارة الأفلاك ، فإنه لم يعلم بين السلف خلاف في أنها مستديرة والآثار بذلك معروفة ، والكتاب والسنة قد دلا على ذلك ، وكذلك استحالة الأجسام بعضها إلى بعض ، هو مما اتفق عليه الفقهاء ، كما قال هؤلاء . إلى أمور أخر .

لكن كثير من المتكلمين أو أكثرهم لا خبرة لهم بما دل عليه الكتاب والسنة وآثار الصحابة والتابعين لهم بإحسان ؛ بل ينصر مقالات يظنها دين المسلمين ، بل إجماع المسلمين ، ولا يكون قد قالها أحد من

السلف ؛ بل الثابت عن السلف مخالف لها ، فلما وقع بين المتكلمين تقصير وجهل كثير بحقائق العلوم الشرعية ، وهم فى العقليات تارة يوافقون الفلاسفة على باطلهم ، وتارة يخالفونهم فى حقهم ، صارت المناظرات بينهم دولا . وإن كان المتكلمون أصح مطلقاً في العقليات الإلهية والكلية ، كما أنهم أقرب إلى الشرعيات من الفلاسفة ؛ فإن الفلاسفة كلامهم فى الإلهيات والكليات العقلية كلام قاصر جداً ، وفيه تخليط كثير ، وإنما يتكلمون جيداً فى الأمور الحسية الطبيعية ، وفى كلياتها ، فكلامهم فيها فى الغالب جيد .

وأما الغيب الذي تخبر به الأنبياء ، والكليات العقلية التى تعم الموجودات كلها ، وتقسيم الموجودات كلها قسمة صحيحة فلا يعرفونها ألبتة ؛ فإن هذا لايكون إلا ممن أحاط بأنواع الموجودات ، وهم لايعرفون إلا الحسيات وبعض لوازمها ، وهذا معرفة بقليل من الموجودات جداً ، فإن ما لا يشهده الآدميون من الموجودات أعظم قدراً وصفة مما يشهدونه بكثير .

ولهذا كان هؤلاء الذين عرفوا ما عرفته الفلاسفة إذا سمعوا أخبار الأنبياء بالملائكة والعرش والكرسي والجنة والنار ، وهم يظنون أن لا موجود إلا ما علموه هم والفلاسفة : يصيرون حائرين متأولين لكلام الأنبياء على ما عرفوه ، وإن كان هذا لا دليل عليه ، وليس لهم بهذا

النفي علم ؛ فإن عدم العلم ليس علما بالعدم ، لكن نفيهم هذا كنفي الطبيب للجن ؛ لأنه ليس في صناعة الطب ما يدل على ثبوت الجن ، وإلا فليس فى علم الطب ما ينفي وجود الجن . وهكذا تجد من عرف نوعا من العلم وامتاز به على العامة الذين لا يعرفونه فيبقى بجهله نافياً لما لم يعلمه ، وبنوا آدم ضلالهم فيما جحدوه ونفوه بغير علم أكثر من ضلالهم فيما أثبتوه وصدقوا به . قال تعالى : (بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ) وهذا لأن الغالب على الآدميين صحة الحس والعقل ، فاذا أثبتوا شيئاً وصدقوا به كان حقاً .

ولهذا كان التواتر مقبولا من جميع أجناس بني آدم ؛ لأنهم يخبرون عما شاهدوه وسمعوه ، وهذا أمر لا يشترك الخلق العظيم فى الغلط فيه ، ولا فى تعمد الكذب فيه ، فإذا علم أنهم لم يتواطئوا عليه ، ولم يأخذه بعضهم عن بعض ، كما تؤخذ المذاهب والآراء التى يتلقاها المتأخر عن المتقدم ، وقد علم أن هذا مما لا يغلط فيه عادة علم قطعاً صدقهم ، فإن المخبر إما أن يتعمد الكذب ، وإما أن يغلط ، وكلاهما مأمون فى المتواترات ، بخلاف ما نفوه وكذبوا به ، فإن غالبهم أو كثيراً منهم ينفون ما لا يعلمون ، ويكذبون بما لم يحيطوا بعلمه .

فصار هؤلاء الذين ظنوا الموجودات ما عرفه هؤلاء المتفلسفة ، إذا سمعوا ما أخبرت به الأنبياء من العرش والكرسي قالوا : العرش هو

الفلك التاسع ، والكرسي هو الثامن ، وقد تكلمنا على ذلك فى « مسألة الإحاطة » وبينا جهل من قال هذا عقلا وشرعا ، وإذا سمعهم يذكرون الملائكة ظن أنهم العقول والنفوس التى يثبتها المتفلسفة ، والقوى التى في الأجسام ، وكذلك الجن والشياطين يظن أنها أعراض قائمة بالنفوس ، حيث كان هذا مبلغه من العلم ، وكذلك يظن ماذكره ابن سينا وأمثاله من أن الغرائب فى هذا العالم سببها قوة فلكية ، أو طبيعية أو نفسانية ويجعل معجزات الأنبياء من باب القوى النفسانية ، وهي من جنس السحر ، لكن الساحر قصده الشر ، والنبي قصده الخير ، وهذا كله من الجهل بالأمور الكلية المحيطة بالموجودات وأنواعها ، ومن الجهل بما جاء به الرسول ، فلا يعرفون من العلوم الكلية ولا العلوم الإلهية إلا ما يعرفه الفلاسفة المتقدمون ، وزيادات تلقوها عن بعض أهل الكلام ، أو عن أهل الملة .

فلهذا صار كلام المتأخرين كابن سينا وأمثاله فى الإلهيات والكليات أجود من كلام سلفه ، ولهذا قربت فلسفة اليونان إلى أهل الإلحاد المبتدعة من أهل الملل ، لما فيها من شوب الملة ، ولهذا دخل فيها بنو عبيد الملاحدة ، فأخذوا عن هؤلاء الفلاسفة الصابئة المشركين العقل والنفس ، وعن المجوس النور والظلمة ، وسموه هم السابق والتالي ، وكذلك الملاحدة المنتسبون إلى التصوف والتأله : كابن سبعين ، وأمثاله سلكوا

مسلكا جمعوا فيه بزعمهم بين الشرع والفلسفة ، وهم ملاحدة ليسوا من الثنتين والسبعين فرقة ، .وقد بسط الكلام على هؤلاء وهؤلاء في غير هذا الموضع .

وإنما ذكروا هنا لأن أهل الكلام المحدث صاروا ـ لعدم علمهم بما عليه السلف وأئمة السنة من الكتاب والسنة وآثار الصحابة ، ولما وقعوا فيه من الكلاميات الباطلة ـ يدخل بسببهم هؤلاء الفلاسفة في الإسلام أموراً باطلة ، ويحصل بهم من الضلال والغي مالا يتسع هذا الموضع لذكره .

ولما أحدثت الجهمية محنتهم ، ودعوا الناس إليها وضرب أحمد بن حنبل فى سنة عشرين ومائتين ، كان مبدأ حدوث القرامطة الملاحدة الباطنية من ذلك الزمان ، فصارت البدع باب الإلحاد ، كما أن المعاصي بريد الكفر ، ولبسط هذا موضع آخر .

والمقصود هنا : الكلام على لفظ التحيز والجهة ، وهؤلاء المتكلمون المتفلسفة صار بينهم نزاع فى الملائكة . هل هي متحيزة أم لا ؟ فمن مال إلى الفلسفة ورأى أن الملائكة هي العقول والنفوس التى يثبتها الفلاسفة ، وأن تلك ليست متحيزة ، قال : إن الملائكة ليست متحيزة . لا سيما وطائفة من الفلاسفة لم تجعل عددها عشرة عقول وتسعة نفوس ، كما

هو المشهور عن المشائين ، بل قال : لا دليل على نفى الزيادة ، ورأى النبوات قد أخبرت بكثرة الملائكة ، فأراد أن يثبت كثرتهم بطريقة فلسفية ، كما فعل ذلك أبو البركات صاحب « المعتبر » والرازي في « المطالب العالية » وغيرها .

وأما المتكلمون فإنهم يقولون : إن كل ممكن أوكل محدث ، أو كل مخلوق : فهو إما متحيز ، وإما قائم بمتحيز ، وكثير منهم يقول : كل موجود إما متحيز ، وإما قائم بمتحيز ، ويقولون : لا يعقل موجود إلا كذلك ، كما قاله طوائف من أهل الكلام والنظر ، ثم المتفلسفة كابن سينا وأتباعه ، والشهرستانى والرازي وغيرهم ، لما أرادوا إثبات موجود ليس كذلك ، كان أكبر عمدتهم إثبات الكليات كالإنسانية المشتركة ، والحيوانية المشتركة ، وإذا كانت هذه لا تكون كليات إلا فى الذهن ، فلم ينازعهم الناس فى ذلك ، وإنما نازعوهم في إثبات موجود خارج الذهن قائم بنفسه ، لا يمكن الإحساس به بحال ، بل لا يكون معقولا .

وقالوا لهم : المعقول ما كان فى العقل ، وأما ما كان موجوداً قائماً بنفسه فلا بد أن يمكن الإحساس به ، وإن لم نحس نحن به فى الدنيا ، كما لا نحس بالجن والملائكة وغير ذلك ، فلا بد أن يحس به غيرنا كالملائكة والجن ، وأن يحس به بعد الموت ، أو فى الدار الآخرة ، أو

يحس به بعض الناس دون بعض فى الدنيا ، كالأنبياء الذين رأوا الملائكة ، وسمعوا كلامهم .

وهذه الطريقة — وهو أن كل قائم بنفسه يمكن رؤيته — هي التى سلكها أئمة النظار : كابن كلاب وغيره ، وسلكها ابن الزاغونى وغيره . وأما من قال : إن كل موجود يجوز رؤيته أو يجوز أن يحس بسائر الحواس الخمس ، كما يقوله الأشعري وموافقوه كالقاضي أبي يعلى ، وأبى المعالي وغيرهما ، فهذه الطريقة مردودة عند جماهير العقلاء ، بل يقولون فسادها معلوم بالضرورة ، بعد التصور التام كما بسط فى موضعه .

وكذلك نزاعهم فى روح الإنسان التى تفارقه بالموت على قول الجمهور الذين يقولون : هي عين قائمة بنفسها ، ليست عرضاً من أعراض البدن كالحياة وغيرها ، ولا جزءاً من أجزاء البدن كالهواء الخارج منه ، فإن كثيراً من المتكلمين زعموا أنها عرض قائم بالبدن ، أو جزء من أجزاء البدن ، لكن هذا مخالف للكتاب والسنة ، وإجماع السلف والخلف ، ولقول جماهير العقلاء من جميع الأمم ، ومخالف للأدلة العقلية .

وهذا مما استطال به الفلاسفة على كثير من أهل الكلام . قال القاضي أبو بكر : أكثر المتكلمين على أن الروح عرض من الأعراض ،

وبهذا نقول إذا لم يعن بالروح النفس ، فإنـه قال : الروح الـكائن فى الجسد ضربان :

أحدهما : الحياة القائمة به ، والآخر النفس ، والنفس ريح ينبث به ، والمراد بالنفس ما يخـرج بنفس التنفس من أجزاء الهـواء المتحلل من المسام ، وهذا قول الإسفرائينى وغيره ، وقال ابن فورك : هو ما يجري في تجاويف الأعضاء ، وأبو المعالي خالف هؤلاء وأحسن فى مخالفتهم فقال : إن الروح أجسام لطيفة مشابكة للأجسام المحسوسـة ، أجرى الله العادة بحياة الأجساد ما استمرت مشابكتها لها ، فإذا فارقتها تعقب الموت الحياة فى استمرار العادة .

ومذهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر سلف الأمة وأئمـة السنة : أن الروح عين قائمة بنفسها ، تفارق البدن ، وتنعـم وتعذب ، ليست هي البدن ، ولا جزءاً من أجزائه ، كالنفس المذكور . ولما كان الإمام أحمد ممن نص على ذلك ، كما نص عليـه غيره من الأئمـة لم يختلف أصحابه فى ذلك ؛ لكن طائفة منهم كالقاضي أبي يعلى زعموا أنها جسم ، وأنها الهواء المتردد في مخاريق البدن ؛ موافقة لأحـد المعنيين الذين ذكرهما ابن الباقلانى . وهذه الأقوال لما كانت من أضعف الأقوال تسلط بها عليهم خلق كثير .

والمقصود هنا أن الذين قالوا : إنها عين قائمة بنفسها غير البدن وأجزائه وأعراضه تنازعوا : هل هي جسم متحيز ؟ على قولين ، كتنازعهم فى الملائكة .

فالمتكلمون منهم يقولون : جسم ، والمتفلسفة يقولون : جوهر عقلي ليس بجسم ، وقد أشرنا فيما تقدم إلى أن ما تسميه المتفلسفة جواهر عقلية ، لا توجد إلا في الذهن ، وأصل تسميتهم المجردات والمفارقات هو مأخوذ من نفس الإنسان فإنها لما كانت تفارق بدنه بالموت ، وتتجرد عنه سموها مفارقة مجردة ثم أثبتوا ما أثبتوه من العقول والنفوس وسموها مفارقات ومجردات ، بناء على ذلك ، وهم يريدون بالمفارق للمادة مالا يكون جسما ولا قائماً بجسم ، لكن النفس متعلقة بالجسم تعلق التدبير والعقل ، ولا تعلق له بالأجسام أصلا ، ولا ريب أن جماهير العقلاء على إثبات الفرق بين البدن والروح التى تفارق ، والجمهور يسمون ذلك روحا ، وهذا جسما ، لكن لفظ الجسم فى اللغة ليس هو الجسم فى اصطلاح المتكلمين ، بل الجسم هو الجسد كما تقدم ، وهو الجسم الغليظ أو غلظه ، والروح ليست مثل البدن فى الغلظ والكثافة ، ولذلك لا تسمى جسما ، فمن جعل الملائكة والأرواح ونحو ذلك ليست أجساماً بالمعنى اللغوي فقد أصاب فى ذلك ، ورب العالمين أولى أن لا يكون جسما ، فإنه من المشهور فى اللغة الفرق بين الأرواح والأجسام .

(وأما أهل الاصطلاح) من المتكلمين والمتفلسفة فيجعلون مسمى الجسم أعم من ذلك ، وهو ما أ مكنت الإشارة الحسية إليه ، وما قيل إنه هنا وهناك ، وما قبل الأبعاد الثلاثة ، ونحو ذلك .

وكذلك المتحيز في اصطلاح هؤلاء هو الجسم ، ويدخل فيه الجوهر الفرد عند من أثبته ، وقد تقدم معنى الجسم فى اللغة ، وأما المتحيز فقد قال تعالى : (وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ) .

وقال الجوهري : الحوز الجمع ، وكل من ضم إلى نفسه شيئاً فقد حازه حوزاً ، وحيازة ، واحتازه أيضاً ، والحوز والحيز السوق اللين ، وقد حاز الإبل يحوزها ويحيزها ، وحوز الإبل ساقها إلى الماء ، وقال الأصمعي : إذا كانت الإبل بعيدة المرعى عن الماء فأول ليلة توجهها إلى الماء ليلة الحوز ، وتحوزت الحية وتحيزت تلوت . يقال مالك تتحوز تحوز الحية ، وتتحيز تحيز الحية ، قال سيبويه هو تفعل من حزت الشيء قال القطامي :

تحيز مني خشية أن أضيفها كما انحازت الأفعى مخافة ضارب

يقول تتنحى عنى هذه العجوز وتتأخر خشية أن أنزل عليها ضيفاً .

والحيز ما انضم إلى الدار من مرافقها ، وكل ناحية حيز ، وأصله من الواو ، والحيز تخفيف الحيز ، مثل هين وهين ، ولين ولين ، والجمع أحياز ، والحوزة الناحية ، وانحاز عنه انعدل ، وانحاز القوم تركوا مركزهم إلى آخر ، يقال للأولياء انحازوا عن العدو ، وحاصوا ، والأعـداء انهزموا وولوا مـدبرين ، وتحاوز الفريقـان فى الحرب انحاز كل فريـق عن الآخر .

فهذا المذكور عن أهل اللغة فى هذا اللفظ ومادته يقتضي أن التحيز والانحياز والتحوز ونحو ذلك يتضمن عدولا من محل إلى محل ، وهذا أخص من كونه يحوزه أمر موجود ، فهم يراعون في معنى الحوز ذهابه من جهة إلى جهة ؛ ولهذا يقولون : حزت المال ، وحزت الإبـل ، وذلك يتضمن نقله من جهة إلى جهة ، فالشيء المستقر فى موضعه كالجبل والشمس والقمر لايسمونه متحيزاً ، وأعم من هذا أن يراد بالمتحيز ما يحيط به حيز موجود ، فيسمى كل ما أحاط به غيره أنـه متحيز ، وعلى هذا فما بين السماء والأرض متحيز ؛ بل ما فى العـالم متحيز إلا سطـح العـالم الذي لا يحيط بـه شيء ، فإن ذلك ليس بمتحيز ، وكذلك العالم جملة ليس بمتحيز بهـذا الاعتبار ، فإنـه ليس في عالم آخر أحاط بـه ، والمتكلمون يريدون بالمتحيز ما هو أعم من هذا ، والحيـز عندهم أعـم من المكان ، فالعـالم كله فى حيز ، وليس هو في مكان ،

والمتحيز عندهم لا يعتبر فيه أنه يحوزه غيره ، ولا يكون له حيز وجودي ، بل كلما أشير إليه وامتاز منه شيء عن شيء فهو متحيز عندهم .

ثم هم مختلفون بعد هذا فى المتحيز : هل هو مركب من الجواهر المنفردة ؟! أو من المادة والصورة ؟ أو هو غير مركب لا من هذا ولا من هذا ؟ كما تقدم نزاعهم فى الجسم . فالجسم عندهم متحيز ، ولا يخرج عنه شيء إلا الجوهر الفرد عند من أثبته ، وهؤلاء يعتقد كثير منهم أو أكثرهم أن كل متحيز فهو مركب أي يقبل الانقسام إلى جزء لا يتجزأ بل يظن بعضهم أن هذا إجماع المسلمين ، وأكثرهم يقولون المتحيزات متماثلة في الحد والحقيقة ، ومن كان معنى المتحيز عنده هذا فعليه أن ينزه الله تعالى أن يكون متحيزاً بهذا الاعتبار ، وإذا قال : الملائكة متحيزون بهذا الاعتبار ، أو الروح متحيزة بهذا الاعتبار نازعه فى ذلك جمهور العقلاء من المسلمين وغيرهم ؛ بل لا يعرف أحد من سلف الأمة وأئمتها يقول : إن الملائكة متحيزة بهذا الاعتبار ، ولا قالوا لفظاً يدل على هذا المعنى ، وكذلك روح بني آدم التى تفارقه بالموت لم يقل أحد من السلف إنها متحيزة بهذا الاعتبار ، ولا قال فيها لفظاً يدل على هذا المعنى ، فإذا كان إثبات هذا التحيز للملائكة والروح بدعة في الشرع وباطلا فى العقل ، فلأن يكون ذلك بدعة وباطلا فى رب

العالمين بطريق الأولى والأحرى .

ومن هنا يتبين أن عامة ما يقوله المتفلسفة وهؤلاء المتكلمة فى نفوس بني آدم وفي الملائكة باطل ، فكيف بما يقولونه فى رب العالمين ولهذا توجد الكتب المصنفة التى يذكر فيها مقالات هؤلاء وهؤلاء فى هذه المسائل الكبار فى رب العالمين ، وفى ملائكته ، وفي أرواح بنى آدم ، وفى المعاد ، وفى النبوات ليس فيها قول يطابق العقل والشرع ولا يعرفون ما قاله السلف والأئمة فى هذا الباب ، ولا ما دل عليه الكتاب والسنة .

فلهذا يغلب على فضلائهم الحيرة ، فإنهم إذا أنهوا النظر لم يصلوا إلى علم ؛ لأن ما نظروا فيه من كلام الطائفتين مشتمل على باطل من الجانبين ، ولهذا قال أبو عبد الله الرازي في آخر عمره : لقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفي عليلا ، ولا تروي غليلا ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن اقرأ فى الإثبات : (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) واقرأ فى النفي : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) (وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا) ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى .

وأما من اعتقد أن المتحيز هو ما باين غيره فانحاز عنه ، وليس

من شرطه أن يكون مركباً من الأجزاء المنفردة ، ولا أنه يقبل التفريق والتقسيم . فإذا قال : إن الرب متحيز بهــذا المعنى ، أي أنه بائن عــن مخلوقاته فقد أراد معنى صحيحاً ، لكن إطلاق هذه العبارة بدعة ، وفيها تلبيس ، فإن هذا الذي أراده ليس معنى المتحيز فى اللغة ، وهو اصطلاح له ولطائفته ، وفى المعنى المصطلح نزاع بين العقلاء ، فصار يحتمل معنى فاسداً يجب تنزيه الرب عنه ، وليس للإنسان أن يطلق لفظاً يدل عند غيره على معنى فاسد ، ويفهم ذلك الغير ذلك المعنى الفــاسد من غير بيان مراده ؛ بل هؤلاء المتــكلمون الذين أرادوا بالمتحيز ما كان مؤلفاً من أجزاء لا تقبل القسمة ، وهو ما كان قابلا للقسمة إذا قالوا إن كل ممكن أو كل محدث أو كل مخلوق فهو : إما متحيز ، وإما قائم بمتحيز كان جماهير العقلاء يخالفونهم فى هذا التقسيم ، ولم يكن أحد من أئمة المسلمين لا من الصحابة ولا من التابعين لهم بإحســان إلى يوم الدين ، ولا سائر أئمة المسلمين ، موافقاً لهم على هذا التقسيم ، فكيف إذا قال من قال منهم : كل موجود فهو إما متحيز ، وإمــا قائم بمتحيز ، وأراد بالمتحيز ما أراده هؤلاء ، فإن قوله حينئــذ يكون أبعــد عن الشرع والعقل من قول أولئك ، ولهــذا طالبهم متأخروهم بالدليل على هــذا الحصر . وليس خطأ هؤلاء من جهــة ما أثبته المتفلسفــة من الجواهر العقلية ، فإن تلك قد علم بطلانها بصريح العقل أيضاً .

وما يقوله هؤلاء المتفلسفة فى النفس الناطقة من أنها لا يشار إليها ولا توصف بحركة ولا سكون ، ولا صعود ولا نزول ، وليست داخل العالم ولا خارجه ، هو أيضاً كلام أبطل من كلام أولئك المتكلمين عند جماهير العقلاء ، ولا سيما من يقول منهم — كابن سينا وأمثاله — إنها لا تعرف شيئاً من الأمور الجزئية ، وإنما تعرف الأمور الكلية ؛ فإن هذا مكابرة ظاهرة ، فإنها تعرف بدنها ، وتعرف كل ما تراه بالبدن وتشمه وتسمعه وتذوقه وتقصده ، وتأمر به وتحبه وتكرهه ، إلى غير ذلك مما تتصرف فيه بعلمها وعملها ، فكيف يقال إنها لا تعرف الأمور المعينة ، وإنما تعرف أموراً كلية ؟!

وكذلك قولهم إن تعلقها بالبدن ليس إلا مجرد تعلق التدبير والتصريف ، كتدبير الملك لمملكته من أفسد الكلام ، فإن الملك يدبر أمر مملكته فيأمر وينهى ، ولكن لا يصرفهم هو بمشيئته وقدرته إن لم يتحركوا هم بإرادتهم وقدرتهم ، والملك لا يلتذ بلذة أحدهم ، ولا يتألم بتألمه ، وليس كذلك الروح والبدن ، بل قد جعل الله بينهما من الاتحاد والائتلاف ما لا يعرف له نظير يقاس به ، ولكن دخول الروح فيه ليس هو مماثلا لدخول شيء من الأجسام المشهودة ، فليس دخولها فيه كدخول الماء ونحوه من المائعات فى الأوعية ، فإن هذه إنما تلاقي السطح الداخل من الأوعية ، لا بطونها ولا ظهورها ، وإنما يلاقي

الأوعية منها أطرافها دون أوساطهـا ، وليس كذلك الروح والبدن ؛ بل الروح متعلقة بجميع أجزاء البدن باطنه وظاهره ، وكذلك دخولها فيها ليس كدخول الطعام والشراب فى بـدن الآكل ، فإن ذلك له مجار معروفة ، وهو مستحيل . — إلى غير ذلك من صفاته — ولا جريانها في البـدن كجريان الدم ، فإن الدم يكون في بعض البـدن دون بعض .

ففي الجملة كل ما يذكر من النظائر لا يكون كل شيء منه متعلقاً بالآخر ؛ بخلاف الروح والبدن ، لكن هي مع هـذا في البدن قـد ولجت فيه ، وتخرج منه وقت الموت ، وتسل منه شيئاً فشيئاً فتخرج من البدن شيئاً فشيئاً لا تفارقه كما يفارق الملك مدينته التى يدبرها ، والناس لما لم يشهدوا لها نظيراً عسر عليهم التعبير عن حقيقتها ، وهذا تنبيه لهم على أن رب العالمين لم يعرفوا حقيقته ، ولا تصوروا كيفيته سبحانه وتعالى ، وأن ما يضاف إليه من صفاته هو على ما يليق به جل جلاله . فإن الروح التى هي بعض عبيـده توصف بأنها تعرج إذا نام الإنسان ، وتسجد تحت العرش ، وهي مع هـذا فى بدن صاحبها لم تفارقه بالكلية ، والإنسان فى نومه يحس بتصرفات روحـه تصرفات تؤثر في بدنه ، فهذا الصعود الذي توصف به الروح لا يمـاثل صعود المشهودات ، فإنها إذا صعدت إلى مكان فارقت الأول بالكلية ، وحركتها

إلى العلو حركة إنتقال من مكان إلى مكان ، وحركة الروح بعروجها وسجودها ليس كذلك .

فالرب سبحانه إذا وصفه رسوله صلى الله عليه وسلم بأنه ينزل إلى سماء الدنيا كل ليلة ، وأنه يدنو عشية عرفة إلى الحجاج ، وأنه كلم موسى فى الوادي الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة ، وأنه استوى إلى السماء وهي دخان ، فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرهاً قالتا أتينا طائعين : لم يلزم من ذلك أن تكون هذه الأفعال من جنس ما نشاهده من نزول هذه الأعيان المشهودة ، حتى يقال ذلك يستلزم تفريغ مكان وشغل آخر . فإن نزول الروح وصعودها لا يستلزم ذلك فكيف برب العالمين ؟! وكذلك الملائكة لهم صعود ونزول من هذا الجنس .

فلا يجوز نفي ما أثبته الله ورسوله من الأسماء والصفات ، ولا يجوز تمثيل ذلك بصفات المخلوقات ، لا سيا ما لا نشاهده من المخلوقات فإن ما ثبت لما لا نشاهده من المخلوقات من الأسماء والصفات ليس مماثلا لما نشاهده منها ، فكيف برب العالمين الذي هو أبعد عن مماثلة كل مخلوق من مماثلة مخلوق لمخلوق ؟! وكل مخلوق فهو أشبه بالمخلوق الذي لا يماثله من الخالق بالمخلوق ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

وهذا الذي نبهنا عليه مما يظهر به أن ما يذكره صاحب « المحصل » وأمثاله من تقسيم الموجودات على رأي المتفلسفة والمتكلمة كله تقسيم غير حاصر . وكل من الفريقين مقصر عن سلفه . أما المتكلمون فلم يسلكوا من التقسيم المسلك الذي دل عليه الكتاب والسنة ، وكان عليه سلف الأمة . وكذلك هؤلاء المتفلسفة أتباع أرسطو لم يسلكوا مسلك الفلاسفة الأساطين المتقدمين ، فإن أولئك كانوا يقولون بحدوث هذا العالم ، وكانوا يقولون : إن فوق هذا العالم عالماً آخر يصفونه ببعض ما وصف النبي صلى الله عليه وسلم به الجنة ، وكانوا يثبتون معاد الأبدان ، كما يوجد هذا في كلام سقراط وتاليس وغيرهما من أساطين الفلاسفة ، وقد ذكروا أن أول من قال منهم بقدم العالم أرسطو .

فصل

وهذه الألفاظ المحدثة المجملة النافية مثل لفظ « المركب » و « المؤلف » و « المنقسم » ونحو ذلك ، قد صار كل من أراد نفي شيء مما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات عبر بها عن مقصوده ، فيتوهم من لا يعرف مراده أن المراد تنزيه الرب الذي ورد به القرآن ، وهو إثبات أحديته وصمديته ، ويكون قد أدخل في تلك الألفاظ ما رآه هو منفياً

وعبر عنه بتلك العبارة وضعاً له واصطلاحا اصطلح عليه هو ومن وافقه على ذلك المذهب ، وليس ذلك من لغة العرب التى نزل بها القرآن ، ولا من لغة أحد من الأمم ، ثم يجعل ذلك المعنى هو مسمى الأحد الصمد والواحد ، ونحو ذلك من الأسماء الموجودة فى الكتاب والسنة ، ويجعل ما نفاه من المعاني التى أثبتها الله ورسوله من تمام التوحيد .

واسم « التوحيد » اسم معظم جاءت به الرسل ، ونزلت به الكتب فإذا جعل تلك المعانى التى نفاها من التوحيد ، ظن من لم يعرف مخالفة مراده لمراد الرسول صلى الله عليه وسلم أنه يقول بالتوحيد الذي جاءت به الرسل ، ويسمى طائفته الموحدين ، كما يفعل ذلك الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم على نفي شيء من الصفات ، ويسمون ذلك توحيداً . وطائفتهم الموحدين ويسمون علمهم علم التوحيد ، كما تسمى المعتزلة ومن وافقهم نفي القدر عدلا ، ويسمون أنفسهم العدلية ، وأهل العدل ومثل هذه البدع كثير جداً يعبر بألفاظ الكتاب والسنة عن معان مخالفة لما أراده الله ورسوله بتلك الألفاظ ، ولا يكون أصحاب تلك الأقوال تلقوها ابتداء عن الله عز وجل ، ورسوله صلى الله عليه وسلم ؛ بل عن شبه حصلت لهم ، وأئمة لهم ، وجعلوا التعبير عنها بألفاظ الكتاب والسنة حجة لهم ، وعمدة لهم ، ليظهر بذلك أنهم متابعون للرسول صلى الله عليه وسلم لا مخالفون له ، وكثير منهم لا يعرفون أن

ما ذكروه مخالف للرسول صلى الله عليه وسلم ؛ بل يظن أن هذا المعنى الذي أراده هو المعنى الذي أراده الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه فلهذا يحتاج المسلمون إلى شيئين :

أحدهما : معرفة ما أراد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بألفاظ الكتاب والسنة ، بأن يعرفوا لغة القرآن التى بها نزل ، وما قاله الصحابة والتابعون لهم بإحسان ، وسائر علماء المسلمين فى معانى تلك الألفاظ ، فإن الرسول لما خاطبهم بالكتاب والسنة عرفهم ما أراد بتلك الألفاظ ، وكانت معرفة الصحابة لمعانى القرآن أكمل من حفظهم لحروفه ، وقد بلغوا تلك المعانى إلى التابعين أعظم مما بلغوا حروفه ، فإن المعانى العامة التى يحتاج إليها عموم المسلمين ، مثل معنى التوحيد ، ومعنى الواحد ، والأحد ، والإيمان ، والإسلام ، ونحو ذلك ، كان جميع الصحابة يعرفون ما أحب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم من معرفته ولا يحفظ القرآن كله إلا القليل منهم ، وإن كان كل شيء من القرآن يحفظه منهم أهل التواتر ، والقرآن مملوء من ذكر وصف الله بأنه أحد ، وواحد ، ومن ذكر أن إلهكم واحد ، ومن ذكر أنه لا إله إلا الله ، ونحو ذلك .

فلا بد أن يكون الصحابة يعرفون ذلك ، فإن معرفته أصل الدين وهو أول ما دعا الرسول صلى الله عليه وسلم إليه الخلق ، وهو أول

ما يقاتلهم عليه ، وهو أول ما أمر رسله أن يأمروا الناس به ، وقد تواتر عنه أنه أول ما دعا الخلق إلى أن يقولوا لا إله إلا الله ، ولما أمر بالجهاد بعد الهجرة قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله » وفي الصحيحين أنه لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له : « إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فليكن أول ماتدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأعلمهم أن الله تعالى قد فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة ، فإن هم أطاعوا لك بذلك ، فأعلمهم أن الله تعالى افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لك بذلك ، فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب ».

فقال لمعاذ : ليكن أول ما تدعوهم إليه التوحيد ، ومع هذا كانوا من أهل الكتاب ، كانوا يهوداً ، فإن اليهود كانوا كثيرين بأرض اليمن ، وهذا الذي أمر به معاذا موافق لقوله تعالى : (فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ)

وفي الآية الأخرى : (فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ) . وهذا مطابق لقوله تعالى :

(وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ) . وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم

أنه قال : « الإيمان بضع وستون ، أو بضع وسبعون شعبة ، أفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان » .

(فالمقصود) أن معرفة ما جاء به الرسول وما أراده بألفاظ القرآن والحديث هو أصل العلم والإيمان والسعادة والنجاة ، ثم معرفة ما قال الناس فى هذا الباب لينظر المعاني الموافقة للرسول والمعانى المخالفة لها .

والألفاظ نوعان : نوع يوجد في كلام الله ورسوله ، ونوع لا يوجد فى كلام الله ورسوله . فيعرف معنى الأول ، ويجعل ذلك المعنى هو الأصل ، ويعرف ما يعنيه الناس بالثانى ، ويرد إلى الأول . هذا طريق أهل الهدى والسنة ، وطريق أهل الضلال والبدع بالعكس ، يجعلون الألفاظ التى أحدثوها ومعانيها هي الأصل ، ويجعلون ما قاله الله ورسوله تبعاً لهم ، فيردونها بالتأويل والتحريف إلى معانيهم ، ويقولون : نحن نفسر القرآن بالعقل واللغة ، يعنون أنهم يعتقدون معنى بعقلهم ورأيهم ، ثم يتأولون القرآن عليه بما يمكنهم من التأويلات والتفسيرات المتضمنة لتحريف الكلم عن مواضعه ، ولهذا قال الإمام أحمد : أكثر ما يخطىء الناس من جهة التأويل والقياس . وقال : يجتنب المتكلم في الفقه هذين الأصلين المجمل والقياس ، وهذه الطريق يشترك فيها جميع أهل البدع الكبار والصغار ،

فهي طريق الجهمية والمعتزلة ومن دخل في التأويل من الفلاسفة والباطنية الملاحدة .

وأما حذاق الفلاسفة فيقولون : إن المراد بخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم إنما هو أن يخيل إلى الجمهور ما ينتفعون به فى مصالح دنياهم ، وإن لم يكن ذلك مطابقا للحق . قالوا : وليس مقصود الرسول صلى الله عليه وسلم بيان الحق وتعريفه ، بل مقصوده أن يخيل إليهم ما يعتقدونه . ويجعلون خاصة النبوة قوة التخييل . فهم يقولون : إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يبين ، ولم يفهم ؛ بل ولم يقصد ذلك . وهم متنازعون هل كان يعلم الأمور على ما هي عليه ؟ على قولين :

منهم من قال : كان يعلمها ؛ لكن ما كان يمكنه بيانها . وهؤلاء قد يجعلون الرسول أفضل من الفيلسوف ، ومنهم من يقول : بل ما كان يعرفها ، أو ما كان حاذقا فى معرفتها ، وإنما كان يعرف الأمور العملية وهؤلاء يجعلون الفيلسوف أكمل من النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الأمور العملية أكمل من العلمية ، فهؤلاء يجعلون خبر الله وخبر الرسول صلى الله عليه وسلم إنما فيه التخييل ، وأولئك يقولون لم يقصد به التخييل ، ولكن قصد معنى يعرف بالتأويل ، وكثير من أهل الكلام الجهمية يوافق أولئك على أنه ما كان يمكنه أن يبوح بالحق فى باب التوحيد ، فخاطب الجمهور بما يخيل لهم ، كما يقولون : إنه لو قال :

إن ربكم ليس بداخل العالم ولا خارجه ، ولا يشار إليه ، ولا هو فوق العالم ، ولا كذا ولا كذا لنفرت قلوبهم عنه ، وقالوا هـذا لا يعرف ، قالوا فخاطبهم بالتجسيم ، حتى يثبت لهم ربا يعبدونه ، وإن كان يعرف أن التجسيم باطل ، وهـذا يقوله طوائف من أعيان الفقهـاء المتأخرين المشهورين الذين ظنوا أن مذهب النفاة هو الصحيح ، واحتاجـوا أن يعتذروا عما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من الإثبات ، كما يوجد فى كلام غير واحد .

وتارة يقولون : إنما عدل الرسول صـلى الله عليه وسـلم عن بيان الحق ، ليجتهدوا في معرفة الحق من غير تعريفه ، ويجتهدوا فى تأويل ألفاظه ، فتعظم أجورهم على ذلك ، وهو اجتهادهم في عقلياتهم ، وتأويلاتهم . ولا يقولون إنه قصد به إفهام العامة الباطل ، كما يقول أولئك المتفاسفة . وهـذا ، قول أكثر المتكلمين النفاة من الجهمية والمعتزلة ، ومن سلك مسلكهم حتى ابن عقيل وأمثاله . وأبو حامد ، وابن رشد الحفيد وأمثالها يوجد فى كلامهم المعنى الأول . وأبو حامـد إنما ذم التأويل في آخـر عمره ، وصنف « إلجام العوام عن علم الـكلام » ، محافظة على هـذا الأصل ، لأنه رأى مصلحة الجمهور لا تقوم إلا بإبقاء الظواهر على ما هي عليـه ، وإن كان هو يرى ما ذكره فى كتبه « المضنون بها » أن النفي هو الثابت فى نفس الأمر .

فلم يجعلوا مقصوده بالخطاب البيان والهدى ، كما وصف الله به كتابه ونبيه حيث قال : (هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) وقال : (هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ) وقال : (إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) وقال : (وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ) وقال : (كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ) وأمثال ذلك . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك » وقال تعالى : (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ) وقال : (قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) وقال : (مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) وقال : (فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ) .

وثم طائفة ثالثة كثرت فى المتأخرين المنتسبين إلى السنة يقولون : ما يتضمن أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن يعرف معاني ما أنزل عليه من القرآن كآيات الصفات ؛ بل لازم قولهم أيضا أنه كان يتكلم بأحاديث الصفات ، ولا يعرف معانيها .

وهؤلاء مساكين لما رأوا المشهور عن جمهور السلف من الصحابة

والتابعين لهم بإحسان أن الوقف التام عند قوله : (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ) وافقوا السلف ، وأحسنوا في هذه الموافقة ؛ لكن ظنوا أن المراد بالتأويل هو معنى اللفظ وتفسيره ، أو هو التأويل الاصطلاحي الذي يجري فى كلام كثير من متأخري أهل الفقه والأصول ، وهو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به ، فهم قد سمعوا كلام هؤلاء وهؤلاء ، فصار لفظ التأويل عندهم هذا معناه .

ولما سمعوا قول الله تعالى : (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ) ظنوا أن لفظ التأويل فى القرآن معناه هو معنى لفظ التأويل فى كلام هؤلاء ، فلزم من ذلك أنه لا يعلم أحد معنى هذه النصوص إلا الله ، لا جبريل ولا محمد ولا غيرهما ؛ بل كل من الرسولين على قولهم يتلو أشرف ما في القرآن من الإخبار عن الله بأسمائه وصفاته ، وهو لا يعرف معنى ذلك أصلا ، ثم كثير منهم يذمون ويبطلون تأويلات أهل البدع من الجهمية والمعتزلة وغيرهما ، وهذا جيد ؛ لكن قد يقولون تجرى على ظواهرها ، وما يعلم تأويلها إلا الله ، فإن عنوا بظواهرها ما يظهر منها من المعانى ، كان هذا مناقضا لقولهم إن لها تأويلا يخالف ظاهرها لا يعلمه إلا الله ، وإن عنوا بظواهرها مجرد الألفاظ : كان معنى كلامهم أنه يتكلم بهذه الألفاظ ، ولها باطن يخالف ما ظهر منها ، وهو التأويل ، وذلك لا يعلمه إلا الله .

وفيهم من يريد بإجرائها على ظواهرها هذا المعنى ، وفيهم من يريد

الأول ، وعامتهم يريدون بالتأويل المعنى الثالث ، وقد يريدون به الثاني ، فإنه أحياناً قد يفسر النص بما يوافق ظاهره ، وتبين من هذا [أنه] ليس من التأويل الثالث ، فيأبون ذلك ويكرهون تدبر النصوص والنظر فى معانيها أعني النصوص التى يقولون إنه لم يعلم تأويلها إلا الله .

ثم هم فى هذه النصوص بحسب عقائدهم ، فإن كانوا من القدرية قالوا : النصوص المثبتة لكون العبد فاعلا محكمة ، والنصوص المثبتة لكون الله تعالى خالق أفعال العباد أو مريداً لكل ما وقع نصوص متشابهة لا يعلم تأويلها إلا الله ، إذا كانوا ممن لا يتأولها ، فإن عامة الطوائف منهم من يتأول ما يخالف قوله ، ومنهم من لا يتأوله ، وإن كانوا من الصفاتية المثبتين للصفات التى زعموا أنهم يعلمونها بالعقل دون الصفات الخبرية مثل كثير من متأخرى الكلابية ، كأبي المعالي فى آخر عمره ، وابن عقيل فى كثير من كلامه ، قالوا عن النصوص المتضمنة للصفات التى لا تعلم عندهم بالعقل هذه نصوص متشابهة لا يعلم تأويلها إلا الله ، وكثير منهم يكون له قولان وحالان : تارة يتأول ويوجب التأويل أو يجوزه ، وتارة يحرمه ، كما يوجد لأبي المعالي ولابن عقيل ولأمثالهما من اختلاف الأقوال .

ومن أثبت العلو بالعقل ، وجعله من الصفات العقلية : كأبي محمد ابن كلاب ، وأبي الحسن بن الزاغونى ، ومن وافقه ، وكالقاضي أبى

يعلى فى آخر قوليه ، وأبى محمد : أثبتوا العلو ، وجعلوا الاستواء من الصفات الخبرية التى يقولون لا يعلم معناهـا إلا الله ، وإن كانوا ممن يرى أن الفوقية والعلو أيضاً من الصفات الخبرية ، كقول القاضي أبى بكر ، وأكثر الأشعرية ، وقول القاضي أبى يعلى فى أول قوليه ، وابن عقيل في كثير من كلامه ، وأبى بكر البيهقي ، وأبى المعالي وغيرهم ومن سلك مسلك أولئك . وهذه الأمور مبسوطة فى موضعها .

(والمقصود هنا) أن كل طائفة تعتقد من الآراء ما يناقض ما دل عليه القرآن ، يجعلون تلك النصوص من المتشـابه ، ثم إن كانوا ممن يرى الوقف عند قوله : (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا ٱللَّهُ) قالوا لا يعلم معناها إلا الله ، فيلزم أن لا يكون محمد وجبريل ولا أحد عـلم معانى تلك الآيات والأخبار ، وإن رأوا أن الوقف على قوله : (وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ) جعلوا الراسخين يعـلمون ما يسمونه هم تأويلا ، ويقولون إن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما لم يبين الحق بخطابه ليجتهد الناس فى معرفة الحق من غـير جهته بعقولهم وأذهانهم ، ويجتهدون في تخريج ألفاظه عـلى اللغات العربية ، فيجتهدون فى معرفة غرائب اللغات التى يتمكنون بها من التأويل ، وهذا إن قالوا أنه قصد بالقرآن والحديث معنى حقاً فى نفس الأمر ، وإن قالوا بقول الفلاسفة والباطنية الذين لا يرون التأويل . قالوا : لم يقصد بهـذه الألفاظ إلا ما يفهمه العامة

والجمهور ، وهو باطل فى نفس الأمر ، لكن أراد أن يخيل لهم ما ينتفعون به ، ولم يمكنه أن يعرفهم الحق ، فإنهم كانوا ينفرون عنه ولا يقبلونه ، وأما من قال من الباطنية الملاحدة وفلاسفتهم بالتأويل ، فإنه يتأول كل شيء مما أخبرت به الرسل ، من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر ، ثم يؤولون العبارات كما هو معروف من تأويلات القرامطة الباطنية .

وأبو حامد في « الإحياء » ذكر قول هؤلاء المتأولين من الفلاسفة وقال إنهم أسرفوا فى التأويل ، وأسرفت الحنابلة فى الجمود ، وذكر عن أحمد بن حنبل كلاما لم يقله أحمد ، فإنه لم يكن يعرف ما قاله أحمد ، ولا ما قاله غيره من السلف في هذا الباب ، ولا ما جاء به القرآن والحديث ، وقد سمع مضافا إلى الحنابلة ما يقوله طائفة منهم ، ومن غيرهم من المالكية والشافعية ، وغيرهم فى الحرف والصوت . وبعض الصفات : مثل قولهم : إن الأصوات المسموعة من القراء قديمة أزلية ، وإن الحروف المتعاقبة قديمة الأعيان ، وأنه ينزل إلى سماء الدنيا ويخلو منه العرش ، حتى يبقى بعض المخلوقات فوقه ، وبعضها تحته ، إلى غير ذلك من المنكرات . فإنه ما من طائفة إلا وفى بعضهم من يقول أقوالا ظاهرها الفساد ، وهي التى يحفظها من ينفر عنهم ، ويشنع بها عليهم ، وإن كان أكثرهم ينكرها ويدفعها ، كما فى هذه المسائل المنكرة التى يقولها بعض أصحاب أحمد ومالك والشافعي ، فإن جماهير هذه الطوائف

ينكرها ، وأحمد وجمهور أصحابه منكرون لها .

وكلامهم في إنكارها وردهـا كثير جداً ، لكن يوجد فى أهـل الحديث مطلقاً من الحنبلية وغيرهم مـن الغلط فى الإثبات أكـثر مما يوجد فى أهل الـكلام ، ويوجد فى أهل الـكلام من الغلط في النفي أكثر مما يوجد فى أهل الحديث ؛ لأن الحديث إنما جاء بإثبات الصفات ليس فيه شيء من النفي الذي انفرد به أهل الـكلام ، والـكلام المأخوذ عن الجهمية والمعتزلة مبني على النفي المناقض لصرائح القرآن والحديث ؛ بل والعقل الصريح أيضاً ؛ لكنهم يدعون أن العقل دل عـلى النفي ، وقد ناقضهم طوائف من أهل الـكلام ، وزادوا فى الإثبات كالهشامية والكرامية وغيرهم ، لكن النفي فى جنس الـكلام المبتدع الذي ذمه السلف أكثر .

والمنتسبون إلى السنة من الحنابلة وغيرهم ، الذين جعـلوا لفظ التأويل بعم القسمين ، يتمسكون بما يجدونه فى كلام الأئمة في المتشابه مثل قول أحمد فى رواية حنبل ولا كيف ولا معنى ، ظنوا أن مراده أنا لا نعرف معناها . وكلام أحمد صريح بخلاف هذا في غير موضع ، وقد بين أنه إنما ينكر تأويلات الجهمية ونحوهم الذين يتأولون القرآن على غير تأويله ، وصنف كتابه فى « الرد على الزنادقة والجهمية » فيما أنكرته من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله ، فأنكر عليهم تأويل القرآن

على غير مراد الله ورسوله ، وهم إذا تأولوه يقولون: معنى هذه الآية كذا ، والمكيفون يثبتون كيفية . يقولون : إنهم علموا كيفية ما أخبر به من صفات الرب . فنفى أحمد قول هؤلاء ، وقول هـؤلاء : قول المكيفة الذين يدعون أنهم علموا الكيفية ، وقول المحرفة الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويقولون معناه كذا وكذا .

وقد كتبت كلام أحمد بألفاظه ـــ كما ذكره الخلال فى كتاب السنة ، وكما ذكره من نقل كلام أحمد بإسناده فى الكتب المصنفة في ذلك ـــ فى غير هذا الموضع . وبين أن لفظ التأويل في الآية إنما أريد به التأويل فى لغة القرآن ، كقوله تعالى : (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ) .

وعن ابن عباس في قوله : (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ) تصديق ما وعد فى القرآن ، وعن قتادة تأويله ثوابه ، وعـن مجاهد جزاءه ، وعن السدي عاقبته ، وعن ابن زيد حقيقته . قال بعضهم تأويله ما يؤول إليه أمرهم من العذاب وورود النار .

وقوله تعـالى : (بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ)

قال بعضهم تصديق ما وعدوا به من الوعيد ، والتأويل ما يؤول إليه الأمر ، وعن الضحاك يعنى عاقبة ما وعد الله فى القرآن أنه كائن من الوعيد ، والتأويل ما يؤول إليه الأمر . وقال الثعلبي : تفسيره . وليس بشيء . وقال الزجاج : لم يكن معهم علم تأويله . وقال يوسف الصديق عليه السلام : (يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَـٰيَ مِن قَبۡلُ) فجعل نفس سجود أبويه له تأويل رؤياه .

وقال قبل هذا : (لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَا) أي قبل أن يأتيكما التأويل . والمعنى لا يأتيكما طعام ترزقانه في المنام لما قال أحدهما : (إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا) . (إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ) في اليقظة (قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَا) الطعام ، هذا قول أكثر المفسرين ، وهو الصواب . وقال بعضهم لا يأتيكما طعام ترزقانه تطعمانه . وتأكلانه ، إلا نبأتكما بتأويله بتفسيره ، وألوانه ، أي طعام أكلتم ، وكم أكلتم ، ومتى أكلتم ؟ فقالوا : هذا فعل العرافين والكهنة ، فقال ما أنا بكاهن ، وإنما ذلك العلم مما يعلمني ربى . وهذا القول ليس بشيء فإنه قال : (إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ) وقد قال أحدهما : (إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓ) فطلبا منه تأويل ما رأياه ، وأخبرهما بتأويل ذاك ، ولم يكن تأويل الطعام فى

اليقظة ، ولا في القرآن أنه أخبرهما بما يرزقانه فى اليقظة ، فكيف يقول قولا عاما : (لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ) وهذا الإخبار العام لا يقدر عليه إلا الله ، والأنبياء يخبرون ببعض ذلك ، لا يخبرون بكل هذا .

وأيضاً فصفة الطعام وقدره ليس تأويلا له .

وأيضاً فالله إنما أخبر أنه علمه تأويل الرؤيا ، قال يعقوب عليه السلام : (وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) وقال يوسف عليه السلام : (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) وقال : (هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ) ولما رأى الملك الرؤيا قال له الذي ادكر بعد أمة : (أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ) والملك قال : (يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ * قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ) . فهذا لفظ التأويل فى مواضع متعددة كلها بمعنى واحد .

وقال تعالى : (فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) قال مجاهد وقتادة : جزاء وثوابا . وقال السدي وابن زيد وابن قتيبة والزجاج : عاقبة . وعن ابن زيد أيضاً : تصديقاً . كقوله : (هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ) وكل هذه الأقوال صحيحة ، والمعنى واحد ، وهذا تفسير

السلف أجمعين ، ومنه قوله : (سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا)
فلما ذكر له ما ذكر قال : (ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا) .
وهذا تأويل فعله ليس هو تأويل قوله والمراد به عاقبة هذه الأفعال بما يؤول إليه ما فعلته : من مصلحة أهل السفينة ، ومصلحة أبوي الغلام ومصلحة أهل الجدار .

وأما قول بعضهم : ردكم إلى الله والرسول أحسن من تأويلكم ، فهذا قد ذكره الزجاج عن بعضهم ، وهذا من جنس ما ذكر فى تلك الآية فى لفظ التأويل ، وهو تفسير له بالاصطلاح الحادث ، لا بلغة القرآن ، فأما قدماء المفسرين فلفظ التأويل والتفسير عندهم سواء ، كما يقول ابن جرير : القول في تأويل هذه الآية . أي فى تفسيرها .

ولما كان هذا معنى التأويل عند مجاهد ، وهو إمام التفسير جعل الوقف على قوله : (وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ) . فإن الراسخين فى العلم يعلمون تفسيره ، وهذا القول اختيار ابن قتيبة وغيره من أهل السنة . وكان ابن قتيبة يميل إلى مذهب أحمد وإسحاق ، وقد بسط الكلام على ذلك في كتابه فى «المشكل» وغيره .

وأما متأخرو المفسرين كالثعلبي فيفرقون بين التفسير والتأويل .
قال : فمعنى التفسير هو التنوير ، وكشف المغلق من المراد بلفظه ،

والتأويل: صرف الآية إلى معنى تحتمله يوافق ما قبلها وما بعدها ، وتكلم فى الفرق بينها بكلام ليس هذا موضعه ، إلا أن التأويل الذي ذكره هو المعنى الثالث المتأخر ، وأبو الفرج ابن الجوزي يقول : اختلف العلماء هل التفسير والتأويل بمعنى واحد ؟ أم يختلفان ؟ فذهب قوم يميلون إلى العربية : إلى أنهما بمعنى ، وهذا قول جمهور المفسرين المتقدمين .

وذهب قوم يميلون إلى الفقه : إلى اختلافهما ، فقالوا : التفسير إخراج الشيء عن مقام الخفاء إلى مقام التجلي ، والتأويل : نقل الكلام عن وضعه إلى ما يحتاج فى إثباته إلى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ ، فهو مأخوذ من قولك آل الشيء إلى كذا . أي صار إليه ، فهؤلاء لا يذكرون للتأويل إلا المعنى الأول ، والثانى ، وأما التأويل فى لغة القرآن فلا يذكرونه ، وقد عرف أن التأويل فى القرآن هو الموجود الذي يؤول إليه الكلام ، وإن كان ذلك موافقاً للمعنى الذي يظهر من اللفظ ، بل لا يعرف في القرآن لفظ التأويل مخالفاً لما يدل عليه اللفظ ، خلاف اصطلاح المتأخرين .

والكلام نوعان : إنشاء ، وإخبار . فالإنشاء الأمر والنهي والإباحة ، وتأويل الأمر والنهي نفس فعل المأمور ، ونفس ترك المحظور . كما فى الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه وسجوده سبحانك اللهم ربنا وبحمدك

اللهم اغفر لي يتأول القرآن » فكان هذا الكلام تأويل قوله : (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ) . قال ابن عيينة : السنة تأويل الأمر والنهي . وقال أبو عبيد لما ذكر اختلاف الفقهاء وأهل اللغة فى نهي النبى صلى الله عليه وسلم عن اشتمال الصماء قال : والفقهاء أعلم بالتأويل . يقول : هم أعلم بتأويل ما أمر الله به ؛ وما نهى عنه ، فيعرفون أعيان الأفعال الموجودة التى أمر بها ، وأعيان الأفعال المحظورة التى نهى عنها .

وتفسير كلامه ليس هو نفس ما يوجد فى الخارج ؛ بل هو بيانه وشرحه وكشف معناه . فالتفسير من جنس الكلام : يفسر الكلام بكلام يوضحه . وأما التأويل فهو فعل المأمور به ، وترك المنهى عنه ، ليس هو من جنس الكلام .

والنوع الثانى : الخبر كإخبار الرب عن نفسه تعالى بأسمائه وصفاته ، وإخباره عما ذكره لعباده من الوعد والوعيد ، وهذا هو التأويل المذكور فى قوله : (وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ) وهذا كقولهم : (يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ) ومثله قوله : (انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ) وقوله : (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً

سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ)

ونظائره متعددة في القرآن . وكذلك قوله : (أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ * بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥ)

فإن ما وعدوا به فى القرآن لما يأتهم بعد ، وسوف يأتيهم .

فالتفسير هو الإحاطة بعلمه ، والتأويل هو نفس ما وعدوا به إذا أتاهم ، فهم كذبوا بالقرآن الذي لم يحيطوا بعلمه ، ولما يأتهم تأويله ؛ وقد يحيط الناس بعلمه ، ولما يأتهم تأويله ، فالرسول صلى الله عليه وسلم يحيط بعلم ما أنزل الله عليه ، وإن كان تأويله لم يأت بعد ، وفى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزل قوله : (قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ) الآية : قال : إنها كائنة ، ولم يأت تأويلها بعد ، قال تعالى : (وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ * لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞ) قال بعضهم : موضع قرار وحقيقة ومنتهى ينتهي إليه ، فيبين حقه من باطله وصدقه من كذبه .

وقال مقاتل : لكل خبر يخبر به الله وقت ومكان يقع فيه ، من غير خلف ولا تأخير . وقال ابن السائب : لكل قول وفعل حقيقة ما كان منه في الدنيا فستعرفونه ، وما كان منه فى الآخرة فسوف

يبدو لكم ، وسوف تعلمون . وقال الحسن : لكل عمل جزاء ؛ فمن عمل عملا من الخير جوزي به في الجنة ، ومن عمل عمل سوء جوزي به فى النار . وسوف تعلمون . ومعنى قول الحسن : أن الأعمال قد وقع عليها الوعد والوعيد ، فالوعد والوعيد عليها هو النبأ الذي له المستقر ، فبين المعنى ، ولم يرد أن نفس الجزاء هو نفس النبأ .

وعن السدي قال : (لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ) أي ميعاد ، وعدتكموه ، فسيأتيكم حتى تعرفونه ، وعن عطاء : (لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ) تؤخر عقوبته ليعمل ذنبه ، فإذا عمل ذنبه عاقبه ، أي لا يعاقب بالوعيد ، حتى يفعل الذنب الذي توعده عليه . ومنه قول كثير من السلف في آيات : هذه ذهب تأويلها ، وهذه لم يأت تأويلها ، مثل ماروى أبو الأشهب عن الحسن والربيع عن أبي العالية أن هذه الآية قرئت على ابن مسعود : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ) الآية . فقال ابن مسعود : ليس هذا بزمانها ، قولوها ما قبلت منكم ، فإذا ردت عليكم فعليكم أنفسكم ، ثم قال : إن القرآن نزل حيث نزل ، فمنه آي قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن ، ومنه آي وقع تأويلهن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنه آي وقع تأويلهن بعد النبي صلى الله عليه وسلم بيسير ، ومنه آي يقع تأويلهن بعد اليوم ، ومنه آى يقع تأويلهن فى آخر الزمان ، ومنه آي يقع تأويلهن يوم القيامة ، ما ذكر من الحساب والجنة والنار . فما دامت

قلوبكم وأهواؤكم واحدة ، ولم تلبسوا شيعاً ، ولم يذق بعضكم بأس بعض ، فأمروا وانهوا ، فإذا اختلفت القلوب والأهواء ، وألبستم شيعاً ، وذاق بعضكم بأس بعض ، فامرؤ ونفسه ، فعند ذلك جاء تأويل هذه الآية .

فابن مسعود رضي الله عنه — قد ذكر فى هذا الكلام تأويل الأمر ، وتأويل الخبر ، فهذه الآية عليكم أنفسكم من باب الأمر ، وما ذكر من الحساب والقيامة من باب الخبر ، وقد تبين أن تأويل الخبر هو وجود المخبر به ، وتأويل الأمر هو فعل المأمور به ، فالآية التى مضى تأويلها قبل نزولها هي من باب الخبر : يقع الشيء فيذكره الله ، كما ذكر ما ذكره من قول المشركين للرسول وتكذيبهم له ، وهي وإن مضى تأويلها فهي عبرة ومعناها ثابت في نظيرها ، ومن هذا قول ابن مسعود : خمس قد مضين ، ومنه قوله تعالى : (ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ) .

وإذا تبين ذلك ؛ فالمتشابه من الأمر لابد من معرفة تأويله ؛ لأنه لا بد من فعل المأمور ، وترك المحظور ، وذلك لا يمكن إلا بعد العلم ؛ لكن ليس فى القرآن ما يقتضي أن فى الأمر متشابهاً ، فإن قوله : (وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ) قد يراد به من الخبر ، فالمتشابه من الخبر مثل ما أخبر به فى الجنة من اللحم واللبن والعسل والماء والحرير والذهب ، فإن بين

هذا وبين ما في الدنيا تشابه فى اللفظ والمعنى ، ومع هذا فحقيقة ذلك مخالفة لحقيقة هذا ، وتلك الحقيقة لا نعلمها نحن فى الدنيا ، وقد قال الله تعالى : (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ) وفى الحديث الصحيح يقول الله تعالى : « أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » فهـذا الذى وعد الله به عباده المؤمنين لا تعلمه نفس هو من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله ، وكذلك وقت الساعة لا يعلمه إلا الله ، وأشراطها ، وكذلك كيفيات ما يكون فيها من الحساب والصراط والميزان والحوض والثواب والعقاب لا يعلم كيفيته إلا الله ، فإنه لم يخلق بعـد حتى تعلمه الملائكة ، ولا له نظير مطابق من كل وجه حتى يعلم به ، فهو من تأويل المتشابـه الذي لا يعلمه إلا الله .

وكذلك ما أخبر به الرب عن نفسه مثل استوائه على عرشه وسمـعه وبصره وكلامه وغير ذلك ، فإن كيفيات ذلك لا يعلمها إلا الله ، كما قال ربيعة بن أبي عبد الرحمن ، ومالك بن أنس . وسائر أهل العلم : تلقوا هذا الكلام عنهما بالقبول لما قيل : (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) كيف استوى ؟ فقال : الاستواء معـلوم ، والـكيف مجهول ، والإيمان بـه واجب ، والسؤال عنه بدعة . هذا لفظ مالك . فأخبر أن الاستواء معلوم وهذا تفسير اللفظ ، وأخبر أن الـكيف مجهول ، وهذا هو الـكيفية التى استأثر الله بعلمها .

وكذلك سائر السلف كابن الماجشون ، وأحمد بن حنبل ، وغيرهما يبينون أن العباد لا يعلمون كيفية ما أخبر الله به عن نفسه ، فالكيف هو التأويل الذي لا يعلمه إلا الله . وأما نفس المعنى الذي بينه الله فيعلمه الناس كل على قدر فهمه ، فإنهم يفهمون معنى السمع ، ومعنى البصر ، وأن مفهوم هذا ليس هو مفهوم هذا ، ويعرفون الفرق بينهما ، وبين العليم والقدير ، وإن كانوا لا يعرفون كيفية سمعه وبصره ، بل الروح التى فيهم يعرفونها من حيث الجملة ، ولا يعرفون كيفيتها ، كذلك يعلمون معنى الاستواء على العرش . وأنه يتضمن علو الرب على عرشه ، وارتفاعه عليه ، كما فسره بذلك السلف قبلهم ، وهذا معنى معروف من اللفظ لا يحتمل فى اللغة غيره ، كما قد بسط فى موضعه ؛ ولهذا قال مالك : الاستواء معلوم .

ومن قال : الاستواء له معان متعددة فقد أجمل كلامه ، فإنهم يقولون : استوى فقط . ولا يصلونه بحرف ، وهذا له معنى . ويقولون : استوى على كذا وله معنى ، واستوى إلى كذا ، وله معنى ، واستوى مع كذا وله معنى ، فتتنوع معانيه بحسب صلاته . وأما استوى على كذا فليس في القرآن ولغة العرب المعروفة إلا بمعنى واحد . قال تعالى : (فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ) وقال (وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ) وقال : (لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ) وقال : (فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ

وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ) وقد أتي النبي صلى الله عليه وسلم بدابة ليركبها فلما وضع رجله فى الغرز قال : « بسم الله » فلما استوى على ظهرها قال : « الحمد لله » وقال ابن عمر : أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحج لما استوى على بعيره ، وهذا المعنى يتضمن شيئين : علوه على ما استوى عليه ، واعتداله أيضاً . فلا يسمون المائل على الشيء مستويا عليه ، ومنه حديث الخليل بن أحمد لما قال : استووا . وقوله :

ثم استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

هو من هذا الباب ؛ فإن المراد به بشر بن مروان ، واستواؤه عليها أي على كرسي ملكها ، لم يرد بذلك مجرد الاستيلاء ؛ بل استواء منه عليها ؛ إذ لو كان كذلك لكان عبد الملك الذي هو الخليفة قد استوى أيضاً على العراق ، وعلى سائر مملكة الإسلام ، ولكان عمر بن الخطاب قد استوى على العراق وخراسان والشام ومصر ، وسائر ما فتحه ، ولكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استوى على اليمن وغيرها مما فتحه . ومعلوم أنه لم يوجد فى كلامهم استعمال الاستواء في شيء من هذا ، وإنما قيل فيمن استوى بنفسه على بلد ؛ فإنه مستو على سرير ملكه ، كما يقال جلس فلان على السرير ، وقعد على التخت . ومنه قوله : (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا) وقوله : (إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ) .

وقول الزمخشري وغيره : « استوى على كذا بمعنى ملك » دعوى مجردة . فليس لها شاهد فى كلام العرب ، ولو قـدر ذلك لـكان هذا المعنى باطلا فى استواء الله على العرش ؛ لأنه أخبر أنــه خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، وقد أخبر أن العرش كان موجوداً قبل خلق السموات والأرض ، كما دل على ذلك الـكتاب والسنة ، وحينئذ فهو من حين خلق العرش مالك له مستول عليــه ، فكيف يكون الاستواء عليه مؤخراً عن خلق السموات والأرض ؟! .

وأيضاً فهو مالك لكل شيء مستول عليه ، فلا يخص العرش بالاستواء وليس هذا كتخصيصه بالربوبية في قوله (رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ) فإنه قد يخص لعظمتــه ، ولكن يجوز ذلك فى سائر المخــلوقات فيقال : رب العرش ، ورب كل شيء ، وأما الاستواء فمختص بالعرش ، فلا يقال استوى عـلى العرش وعلى كل شيء ، ولا استعمل ذلك أحد من المسلمين فى كل شيء ، ولا يوجد فى كتاب ولا سنة ، كما استعمل لفظ الربوبية في العرش خاصة ، وفى كل شيء عامة ، وكذلك لفظ الخلق ونحوه من الألفاظ التى تخص ، وتعم . كقوله تعالى (ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ) فالاستواء من الألفاظ المختصة بالعرش ، لا تضاف إلى غـيره ، لا خصوصاً ولا عموماً ، وهذا مبسوط في موضع آخر .

وإنما الغرض بيان صواب كلام السلف فى قولهم : الاستواء معلوم ،

بخلاف من جعل هذا اللفظ له بضعة عشر معنى . كما ذكر ذلك ابن عربى المعافري .

يبين هذا أن سبب نزول هذه الآية كان قدوم نصارى نجران ومناظرتهم للنبي صلى الله عليه وسلم في أمر المسيح ، كما ذكر ذلك أهل التفسير ، وأهل السيرة ، وهو من المشهور ، بل من المتواتر أن نصارى نجران قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى المباهلة المذكورة فى سورة آل عمران ، فأقروا بالجزية ولم يباهلوه ، وصدر آل عمران نزل بسبب ما جرى ؛ ولهذا عامتها في أمر المسيح ، وذكروا أنهم احتجوا بما فى القرآن من لفظ (أنا) و (نحن) ونحو ذلك على أن الآلهة ثلاثة فاتبعوا المتشابه وتركوا المحكم الذي فى القرآن من أن الإله واحد (ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِ) فإنهم قصدوا بذلك الفتنة ، وهي فتنة القلوب بالكفر وابتغاء تأويل لفظ (أنا) و (نحن) وما يعلم تأويل هذه الأسماء إلا الله لأن هذه الأسماء إنما تقال للواحد الذي له أعوان إما أن يكونوا شركاء له، وإما أن يكونوا مماليك له .

ولهذا صارت متشابهة ، فإن الذى معه شركاء يقول : فعلنا نحن كذا ، وإنا نفعل نحن كذا ، وهذا ممتنع فى حق الله تعالى ، والذي له مماليك ومطيعون يطيعونه — كالملك — يقول : فعلنا كذا . أى أنا

فعلت بأهــل ملـكي وملـكي ، وكل ما سوى الله مخلوق له مملوك له ، وهو سبحانه يدبر أمر العالم بنفسه ، وملائـكته التي هي رسله في خلقه وأمره ، وهو سبحانه أحق من قال : أنا ونحن بهــذا الاعتبار ، فإن ما سواه ليس له ملك تام ، ولا أمر مطاع طاعــة تامة ، فهو المستحق أن يقول : (إنا) ، و (نحن) ، والملوك لهم شبه بهذا ، فصار فيه أيضاً من المتشابه معنى آخر ، ولكن الذي ينسب لله من هذا الاختصاص لا يماثله فيه شيء ، وتأويل ذلك معرفة ملائـكته وصفــاتهم وأقدارهم ، وكيف يدبر بهم أمر السماء والأرض ، وقد قال تعالى : (وَمَايَعْلَمُ جُنُودَرَبِّكَ إِلَّاهُوَ) فهذا التأويل لهذا المتشابه لا يعلمه إلا هو ، وإن علمنا تفسيره ومعنــاه ؛ لكن لم نعلم تأويله الواقع في الخارج ؛ بخلاف قوله : (ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ) فإنها آية محكمة ليس فيها تشابه ، فإن هذا الاسم مختص بالله ، ليس مثل (إنا) و (نحن) التي تقال لمن له شركاء ، ولمن له أعوان يحتاج إليهم ، والله تعالى منزه عن هذا وهذا . كما قال :

(قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ)

وقال : (وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا) فالمعنى الذي يراد به هــذا في حق المخلوقين لا يجوز أن يكون نظيره ثابتاً لله ؛ فلهذا صار متشابهاً .

وكذلك قوله : (ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ) فإنه قد قال : (وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ) وقال : (فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ) وقال : (فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ) وقال : (لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ) فهذا الاستواء كله يتضمن حاجة المستوى إلى المستوى عليه ، وأنه لو عدم من تحته لخر ، والله تعالى غني عن العرش ، وعن كل شيء ، بل هو سبحانه بقدرته يحمل العرش ، وحملة العرش ، وقد روى : أنهم إنما أطاقوا حمل العرش لما أمرهم أن يقولوا : لا حول ولا قوة إلا بالله .

فصار لفظ الاستواء متشابهاً يلزمه فى حق المخلوقين معاني ينزه الله عنها . فنحن نعلم معناه ، وأنه العلو والاعتدال ؛ لكن لا نعلم الكيفية التى اختص بها الرب التى يكون بها مستويا من غير افتقار منه إلى العرش ، بل مع حاجة العرش ، وكل شيء محتاج إليه من كل وجه ، وأنا لم نعهد فى الموجودات ما يستوى على غيره مع غناه عنه وحاجة ذلك المستوى عليه إلى المستوى ، فصار متشابهاً من هذا الوجه ، فإن بين اللفظين والمعنيين قدراً مشتركا ، وبينهما قدراً فارقا هو مراد في كل منهما ، ونحن لا نعرف الفارق الذي امتاز الرب به ، فصرنا نعرفه من وجه ، ونجهله من وجه ، وذلك هو تأويله ، والأول هو تفسيره .

وكذلك ما أخبر الله به في الجنة من المطاعم والمشارب والملابس : كاللبن والعسل والخمر والماء ، فإنا لا نعرف لبناً إلا مخلوقا من ماشية

يخرج من بين فرث ودم ، وإذا بقى أياماً يتغير طعمه ، ولا نعرف عسلا إلا من نحل تصنعه في بيوت الشمع المسدسة ، فليس هو عسلا مصفى ، ولا نعرف حريراً إلا من دود القز ، وهو يبلى ، وقد علمنا أن ما وعد الله به عباده ليس مماثلا لهذه ، لا فى المادة ، ولا فى الصورة والحقيقة ، بل له حقيقة تخالف حقيقة هذه ، وذلك هو من التأويل الذي لا نعلمه نحن ، قال ابن عباس : ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء .

لكن يقال : فالملائكة قد تعلم هذا . فيقال : هي لا تعلم ما لم يخلق بعد ولا تعلم كل ما فى الجنة ، وأيضاً فمن النعم مالا تعرفه الملائكة ، والتأويل يتناول هذا كله . وإذا قدرنا أنها تعرف مالا نعرفه فذاك لا يكون من المتشابه عندها ، ويكون من المتشابه عندنا ، فإن المتشابه قد يراد به ما هو صفة لازمة للآية ، وقد يراد به ما هو من الأمور النسبية ، فقد يكون متشابهاً عند هذا ما لا يكون متشابهاً عند هذا .

وكلام الإمام أحمد وغيره من السلف يحتمل أن يراد به هذا فإن أحمد ذكر فى رده على الجهمية : أنها احتجت بثلاث آيات من المتشابه : قوله تعالى : (وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ) وقوله : (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ) وقوله : (لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ) وقد فسر أحمد قوله :

(وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ) . فإذا كانت هذه الآيات مما علمنا معناها لم تكن متشابهة عندنا ، وهي متشابهة عند من احتج بها ، وكان عليه أن يردها هو إلى ما يعرفه من المحكم . وكذلك قال أحمد في ترجمة كتابه الذي صنفه فى الحبس ، وهو (الرد على الزنادقة والجهمية) فيما شكت فيه من متشابه القرآن ، وتأولته على غير تأويله ثم فسر أحمد تلك الآيات آية آية ، فبين أنها ليست متشابهة عنده بل قد عرف معناها . وعلى هذا فالراسخون فى العلم يعلمون تأويل هذا المتشابه ، الذي هو تفسيره ، وأما التأويل الذي هو الحقيقة الموجودة فى الخارج فتلك لا يعلمها إلا الله ، ولكن قد يقال هذا المتشابه الإضافى ليس هو المتشابه المذكور في القرآن ، فإن ذلك قد أخبر الله أنه لا يعلم تأويله إلا الله ، وإنما هذا كما يشكل على كثير من الناس آيات لا يفهمون معناها ، وغيرهم من الناس يعرف معناها وعلى هذا فقد يجاب بجوابين :

أحدهما : أن يكون فى الآية قراءتان قراءة من يقف على قوله (إِلَّا ٱللَّهُ) وقراءة من يقف عند قوله (وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ) وكلتا القراءتين حق ، ويراد بالأولى المتشابه فى نفسه الذي استأثر الله بعلم تأويله ، ويراد بالثانية المتشابه الإضافى الذي يعرف الراسخون تفسيره ، وهو تأويله ، ومثل هذا يقع في القرآن كقوله : (وَإِن كَانَ

مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ) و (لتزول) فيه قراءتان مشهورتان بالنفي والإثبات وكل قراءة لها معنى صحيح .

وكذلك القراءة المشهورة : (وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً) وقرأ طائفة من السلف : (لتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) وكلا القراءتين حق ، فإن الذي يتعدى حدود الله هو الظالم وتارك الإنكار عليه قد يجعل غير ظالم لكونه لم يشاركه ، وقد يجعل ظالماً باعتبار ما ترك من الإنكار الواجب وعلى هذا قوله : (فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ) فأنجى الله الناهين . وأما أولئك الكارهون للذنب الذين قالوا : (لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا) فالأكثرون على أنهم نجوا لأنهم كانوا كارهين ، فأنكروا بحسب قدرتهم .

وأما من ترك الإنكار مطلقاً فهو ظالم يعذب ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه » وهذا الحديث موافق للآية .

والمقصود هنا أنه يصح النفي والإثبات باعتبارين ، كما أن قوله : (لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً) أي لا تختص بالمعتدين ، بل يتناول من رأى المنكر فلم يغيره ومن قرأ (لتصيبن الذين ظلموا منكم

خاصة) أدخل في ذلك من ترك الإنكار مع قدرته عليه ، وقد يراد بذلك أنهم يعذبون فى الدنيا ، ويبعثون على نياتهم ، كالجيش الذين يغزون البيت فيخسف بهم كلهم ، ويحشر المكره على نيته .

والجواب الثانى : القطع بأن المتشابه المذكور فى القرآن هو تشابهها فى نفسها اللازم لها ، وذاك الذي لا يعلم تأويله إلا الله ، وأما الإضافي الموجود فى كلام من أراد به التشابه الإضافى ، فمرادهم أنهم تكلموا فيما اشتبه معناه وأشكل معناه على بعض الناس ، وأن الجهمية استدلوا بما اشتبه عليهم وأشكل ، وإن لم يكن هو من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله ، وكثيراً ما يشتبه على الرجل ما لا يشتبه على غيره .

ويحتمل كلام الإمام أحمد أنه لم يرد إلا المتشابه فى نفسه ، الذي يلزمه التشابه ، لم يرد بشيء منه التشابه الإضافى ، وقال تأولته على غير تأويله أي غير تأويله الذي هو تأويله فى نفس الأمر ، وإن كان ذلك التأويل لا يعلمه إلا الله ، وأهل العلم يعلمون أن المراد به ذلك التأويل ، فلا يبقى مشكلا عندهم محتملا لغيره ، ولهذا كان المتشابه فى الخبريات إما عن الله ، وإما عن الآخرة ، وتأويل هذا كله لا يعلمه إلا الله ، بل المحكم من القرآن قد يقال له تأويل كما للمتشابه تأويل . كما قال : (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ) ومع هذا فذلك التأويل لا يعلم وقته وكيفيته إلا الله ، وقد يقال : بل التأويل للمتشابه ، لأنه فى الوعد

والوعيد ، وكله متشابه ، وأيضاً فلا يلزم في كل آية ظنها بعض الناس متشابهاً أن تكون من المتشابه .

فقول أحمد احتجوا بثلاث آيات من المتشابه ، وقوله ما شكت فيه من متشابه القرآن ، قد يقال إن هؤلاء أو إن أحمد جعل بعض ذلك من المتشابه وليس منه ، فإن قول الله تعالى : (مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ) لم يرد به هنا الإحكام العام والتشابه العام الذي يشترك فيه جميع آيات القرآن ، وهو المذكور فى قوله : (كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ) وفي قوله : (ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ)
فوصفه هنا كله بأنه متشابه ، أي متفق غير مختلف ، يصدق بعضه بعضاً ، وهو عكس المتضاد المختلف المذكور فى قوله : (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا) وقوله : (إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ) فإن هذا التشابه يعم القرآن ، كما أن إحكام آياته تعمه كله ، وهنا قد قال : (مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ) فجعل بعضه محكما وبعضه متشابهاً ، فصار التشابه له معنيان ، وله معنى ثالث وهو الإضافى ، يقال قد اشتبه علينا هذا ، كقول بنى اسرائيل : (إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا) وإن كان فى نفسه متميزاً منفصلا بعضه عن بعض . وهذا من باب اشتباه الحق

بالباطل ، كقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث : « الحلال بين والحرام بين . وبين ذلك أمور متشابهات لا يعلمهن كثير من الناس » فدل ذلك على أن من الناس من يعرفها ، فليست مشتبهة على جميع الناس ، بل على بعضهم ، بخلاف ما لا يعلم تأويله إلا الله ، فإن الناس كلهم مشتركون فى عدم العلم بتأويله ، ومن هذا ما يروى عن المسيح ــ عليه السلام ــ أنه قال : الأمور ثلاثة : أمر تبين رشده فاتبعوه ، وأمر تبين غيه فاجتنبوه وأمر اشتبه عليكم فكلوه إلى عالمه .

فهذا المشتبه على بعض الناس يمكن الآخرين أن يعرفوا الحق فيه ويبينوا الفرق بين المشتبهين ، وهذا هو الذي أراده من جعل الراسخين يعلمون التأويل ، فإنه جعل المشتبهات في القرآن من هذا الباب الذي يشتبه على بعض الناس دون بعض ، ويكون بينهما من الفروق المانعة للتشابه ما يعرفه بعض الناس ، وهذا المعنى صحيح فى نفسه لا ينكر ، ولا ريب أن الراسخين في العلم يعلمون ما اشتبه على غيرهم ، وقد يكون هذا قراءة في الآية كما تقدم ، من أنه يكون فيها قراءتان ؛ لكن لفظ التأويل على هذا يراد به التفسير ، ووجه ذلك أنهم يعلمون تأويله من حيث الجملة ، كما يعلمون تأويل المحكم ، فيعرفون الحساب والميزان والصراط والثواب والعقاب وغير ذلك مما أخبر الله به ورسوله معرفة مجملة ، فيكونون عالمين بالتأويل ، وهو ما يقع في الخارج على هذا

الوجه ، ولا يعلمونه مفصلا ، إذ هم لا يعرفون كيفيته وحقيقته ، إذ ذلك ليس مثل الذي علموه فى الدنيا وشاهدوه ، وعلى هذا يصح أن يقال علموا تأويله ، وهو معرفة تفسيره ، ويصح أن يقال لم يعلموا تأويله ، وكلا القراءتين حق .

وعلى قراءة النبي هل يقال أيضاً : إن المحكم له تأويل لا يعلمون تفصيله ؟ فإن قوله : وما يعلم تأويل ما تشابه منه (إِلَّا ٱللَّهُ) لا يدل على أن غيره يعلم تأويل المحكم ، بل قد يقال : إن من المحكم أيضاً مالا يعلم تأويله إلا الله ، وإنما خص المتشابه بالذكر ، لأن أولئك طلبوا علم تأويله ، أو يقال بل المحكم يعلمون تأويله لكن لا يعلمون وقت تأويله ومكانه وصفته .

وقد قال كثير من السلف : إن المحكم ما يعمل به ، والمتشابه مايؤمن به ، ولا يعمل به ، كما يجيء فى كثير من الآثار ، ونعمل بمحكمه ؛ ونؤمن بمتشابهه ، وكما جاء عن ابن مسعود وغيره في قوله تعالى : (ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ) قال يحللون حلاله ، ويحرمون حرامه ، ويعملون بمحكمه ، ويؤمنون بمتشابهه . وكلام السلف فى ذلك يدل على أن التشابه أمر إضافى ، فقد يشتبه على هذا مالا يشتبه على هذا ، فعلى كل أحد أن يعمل بما استبان له ، ويكل ما اشتبه عليه إلى الله . كقول أبي بن كعب — رضي الله عنه — فى الحديث الذي رواه

الثوري عن مغيرة — وليس بشيء — عن أبي العالية ، قال : قيل لأبي بن كعب أوصني فقال : اتخذ كتاب الله إماما ، ارض به قاضياً ، وحاكماً ، هو الذي استخلف فيكم رسوله شفيع مطاع ، وشاهد لا يتهم ، فيه خبر ما قبلكم ، وخبر ما بينكم ، وذكر ما قبلكم ، وذكر ما فيكم . وقال سفيان عن رجل سماه عن ابن أبزى عن أبي قال : فما استبان لك فاعمل به ، وما شبه عليك فآمن به ، وكله إلى عالمه .

فمنهم من قال : المتشابه هو المنسوخ ، ومنهم من جعله الخبريات مطلقاً ، فعن قتادة والربيع والضحاك والسدي : المحكم الناسخ الذي يعمل به : والمتشابه المنسوخ يؤمن به ، ولا يعمل به ، وكذلك فى تفسير العوفى عن ابن عباس . وأما تفسير الوالبى عن ابن عباس فقال : محكمات : القرآن ناسخه وحلاله وحرامه وحدوده وفرائضه ، وما يؤمن به ، ويعمل به . والمتشابهات : منسوخه ، ومقدمه ، ومؤخره ، وأمثاله وأقسامه ، وما يؤمن به ، ولا يعمل به .

أما القول الأول فهو — والله أعلم — مأخوذ من قوله : (فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ) فقابل بين المنسوخ وبين المحكم ، وهو سبحانه إنما أراد نسخ ما ألقاه الشيطان ؛ لم يرد نسخ ما أنزله ، لكن هم جعلوا جنس المنسوخ متشابها لأنه يشبه غيره فى التلاوة والنظم ،

وأنه كلام الله وقرآن ومعجز وغير ذلك من المعانى ، مع أن معناه قد نسخ .

ومن جعل المتشابه كل ما لا يعمل به من المنسوخ ، والأقسام والأمثال ، فلأن ذلك متشابه ، ولم يؤمر الناس بتفصيله ، بل يكفيهم الإيمان المجمل به ، بخلاف المعمول به فإنه لا بد فيه من العلم المفصل . وهذا بيان لما يلزم كل الأمة ، فإنهم يلزمهم معرفة ما يعمل به تفصيلا ليعملوا به . وما أخبروا به فليس عليهم معرفته ؛ بل عليهم الإيمان به ، وإن كان العلم به حسنا أو فرضا على الكفاية فليس فرضا على الأعيان ؛ بخلاف ما يعمل به . ففرض على كل إنسان معرفة ما يلزمه من العمل مفصلا ، وليس عليه معرفة العلميات مفصلا .

وقد روى عن مجاهد وعكرمة : المحكم ما فيه من الحلال والحرام ، وما سوى ذلك متشابه يصدق بعضه بعضا . فعلى هذا القول يكون المتشابه هو المذكور فى قوله : (كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ) . والحلال مخالف للحرام ، وهذا على قول مجاهد : إن العلماء يعلمون تأويله ؛ لكن تفسير المتشابه بهذا مع أن كل القرآن متشابه ، وهنا خص البعض به فيستدل به على ضعف هذا القول .

وكذلك قوله : (فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ) لو أريد بالمتشابه

تصديق بعضه بعضا لكان اتباع ذلك غير محذور ، وليس في كونه يصدق بعضه بعضا ما يمنع ابتغاء تأويله ، وقد يحتج لهذا القول بقوله متشابهات ، فجعلها أنفسها متشابهات ، وهذا يقتضي أن بعضها يشبه بعضا ليست مشابهة لغيرها .

ويجاب عن هذا بأن اللفظ إذا ذكر فى موضعين بمعنيين صار من المتشابه ، كقوله : (أنا) و (نحن) المذكور فى سبب نزول الآية ، وقد ذكر محمد بن إسحق عن محمد بن جعفر بن الزبير لما ذكر قصة أهل نجران ونزول الآية قال : المحكم ما لا يحتمل من التأويل إلا وجها واحداً ، والمتشابه ما احتمل فى التأويل أوجها ، ومعنى هذا أن ذلك اللفظ المحكم لا يكون تأويله فى الخارج إلا شيئا واحدا ، وأما المتشابه فيكون له تأويلات متعددة ، لكن لم يرد الله إلا واحداً منها ، وسياق الآية يدل على المراد ، وحينئذ فالراسخون في العلم يعلمون المراد من هذا ، كما يعلمون المراد من المحكم ؛ لكن نفس التأويل الذي هو الحقيقة ووقت الحوادث ونحو ذلك لا يعلمونه لا من هذا ولا من هذا .

وقد قيل : إن نصارى نجران احتجوا بقوله : كلمة الله وروح منه ولفظ كلمة الله : يراد به الكلام ، ويراد به المخلوق بالكلام ، وروح منه : يراد به ابتداء الغاية ، ويراد به التبعيض ، فعلى هذا إذا قيل تأويله لا يعلمه إلا الله ، المراد به الحقيقة ، أي لا يعلمون كيف خلق

عيسى بالكلمة ، ولا كيف أرسل إليها روحه فتمثل لها بشرا سويا ، ونفخ فيها من روحه ، وفي صحيح البخاري عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم » .

والمقصود هنا : أنه لا يجوز أن يكون الله أنزل كلاما لا معنى له ، ولا يجوز أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم وجميع الأمة لا يعلمون معناه ، كما يقول ذلك من يقوله من المتأخرين ، وهذا القول يجب القطع بأنه خطأ ، سواء كان مع هذا تأويل القرآن لا يعلمه الراسخون ، أو كان للتأويل معنيان : يعلمون أحدهما ، ولا يعلمون الآخر ، وإذا دار الأمر بين القول بأن الرسول كان لا يعلم معنى المتشابه من القرآن وبين أن يقال : الراسخون في العلم يعلمون كان هذا الإثبات خيرا من من ذلك النفي ، فإن معنى الدلائل الكثيرة من الكتاب والسنة وأقوال السلف على أن جميع القرآن مما يمكن علمه وفهمه وتدبره ، وهذا مما يجب القطع به ، وليس معناه قاطع على أن الراسخين فى العلم لا يعلمون تفسير المتشابه ، فإن السلف قد قال كثير منهم إنهم يعلمون تأويله ، منهم مجاهد ــ مع جلالة قدره ــ والربيع بن أنس ، ومحمد ابن جعفر بن الزبير ، ونقلوا ذلك عن ابن عباس ، وأنه قال : أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله .

وقول أحمد فيما كتبه فى الرد على الزنادقة والجهمية ، فيما شكت فيه من متشابه القرآن ، وتأولته على غير تأويله ، وقوله عن الجهمية إنها تأولت ثلاث آيات من المتشابه ، ثم تكلم على معناها ؛ دليل على أن المتشابه عنده تعرف العلماء معناه ، وأن المذموم تأويله على غير تأويله ، فأما تفسيره المطابق لمعناه فهذا محمود ليس بمذموم ، وهذا يقتضي أن الراسخين في العلم يعلمون التأويل الصحيح للمتشابه عنده ، وهو التفسير فى لغة السلف . ولهذا لم يقل أحمد ولا غيره من السلف إن فى القرآن آيات لا يعرف الرسول ولا غيره معناها ، بل يتلون لفظا لا يعرفون معناه ، وهذا القول اختيار كثير من أهل السنة ، منهم ابن قتيبة ، وأبو سليمان الدمشقي ، وغيرهما .

وابن قتيبة هو من المنتسبين إلى أحمد وإسحاق والمنتصرين لمذاهب السنة المشهورة ، وله في ذلك مصنفات متعددة . قال فيه صاحب « كتاب التحديث بمناقب أهل الحديث » : وهو أحد أعلام الأئمة ، والعلماء والفضلاء ، أجودهم تصنيفاً ، وأحسنهم ترصيفاً ، له زهاء ثلاثمائة مصنف ، وكان يميل إلى مذهب أحمد ، وإسحاق ، وكان معاصراً لإبراهيم الحربي ، ومحمد بن نصر المروزي ، وكان أهل المغرب يعظمونه ، ويقولون : من استجاز الوقيعة فى ابن قتيبة يتهم بالزندقة ، ويقولون : كل بيت ليس فيه شيء من تصنيفه فلا خير فيه ، قلت :

ويقال هو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة ، فإنه خطيب السنة ، كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة .

وقد نقل عن ابن عباس أيضاً القول الآخر ، ونقل ذلك عن غيره من الصحابة ، وطائفة من التابعين ، ولم يذكر هؤلاء على قولهم نصاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصارت مسألة نزاع ، فترد إلى الله وإلى الرسول ، وأولئك احتجوا بأنه قرن ابتغاء الفتنة بابتغاء تأويله ، وبأن النبي صلى الله عليه وسلم ذم مبتغي المتشابه ، وقال : « إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فاحذروهم » . ولهذا ضرب عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — صبيغ بن عسل لما سأله عن المتشابه ، ولأنه قال : (وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ) ولو كانت الواو واو عطف مفرد على مفرد لا واو الاستئناف التي تعطف جملة على جملة لقال : ويقولون .

فأجاب الآخرون عن هذا بأن الله قال : (لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا) ثم قال : (وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ . . .) الآية ثم قال : (وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ) قالوا فهذا عطف مفرد على مفرد ، والفعل حال من المعطوف فقط ، وهو نظير قوله : (وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ

يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا) قالوا ولأنه لو كان المراد مجرد الوصف بالإيمان لم يخص الراسخين ، بل قال : والمؤمنون يقولون آمنا به ، فإن كل مؤمن يجب عليه أن يؤمن به ، فلما خص الراسخين فى العلم بالذكر علم أنهم امتازوا بعلم تأويله ، فعلموه لأنهم عالمون ، وآمنوا به لأنهم يؤمنون ، وكان إيمانهم به مع العلم أكمل فى الوصف ، وقد قال عقيب ذلك : (وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ) وهذا يدل على أن هنا تذكراً يختص به أولوا الألباب ، فإن كان ما ثم إلا الإيمان بألفاظ فلا يذكر لما يدلهم على ما أريد بالمتشابه .

ونظير هذا قوله فى الآية الأخرى : (لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ) فلما وصفهم بالرسوخ في العلم ، وأنهم يؤمنون ، قرن بهم المؤمنين ، فلو أريد هنا مجرد الإيمان لقال والراسخون في العلم والمؤمنون يقولون آمنا به ، كما قال فى تلك الآية لما كان مراده مجرد الإخبار بالإيمان جمع بين الطائفتين .

قالوا : وأما الذم فإنما وقع على من يتبع المتشابه لابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله ، وهو حال أهل القصد الفاسد الذين يريدون القدح فى القرآن فلا يطلبون إلا المتشابه لإفساد القلوب ، وهي فتنتها به ، ويطلبون تأويله وليس طلبهم لتأويله لأجل العلم والاهتداء ، بل هذا

لأجل الفتنة ، وكذلك صبيغ بن عسل ضربه عمر ؛ لأن قصده بالسؤال عن المتشابه كان لابتغاء الفتنة ، وهذا كمن يورد أسئلة وإشكالات على كلام الغير ، ويقول ماذا أريد بكذا وغرضه التشكيك والطعن فيه ، ليس غرضه معرفة الحق ، وهؤلاء هم الذين عنـاهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه » ولهذا (يتبعون) أي يطلبون المتشابه ويقصدونه دون المحـكم ، مثل المتبع للشيء الذي يتحراه ويقصده ، وهذا فعل من قصده الفتنة . وأما مـن سأل عن معنى المتشابه ليعرفه ويزيل ما عرض له من الشبه . وهو عالم بالمحـكم متبع له ، مؤمن بالمتشابه ، لا يقصد فتنة ، فهذا لم يذمه الله ، وهكذا كان الصحابة يقولون رضي الله عنهم : مثل الأثر المعروف الذي رواه إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني وقد ذكره الطلمنكي ـــ حدثنا يزيد بن عبد ربه ثنا بقية ثنا عتبة بن أبي حكيم ثني عمارة بن راشد الكناني عن زياد عن معاذ بن جبل قال : يقرأ القرآن رجلان فرجل له فيه هوى ونية يفليه فلي الرأس ، يلتمس أن يجد فيه أمرا يخرج به على الناس أولئك شرار أمتهـم ، أولئك يعمى الله عليهم سبل الهـدى ، ورجل يقرؤه ليس فيه هوى ولا نية يفليه فلي الرأس فما تبين له منه عمل به ، وما اشتبه عليه وكله إلى الله . ليتفقهن فيه فقهاً ما فقهه قوم قط ، حتى لو أن أحدهم مكث عشرين سنة ، فليبعثن الله له مـن يبين له الآية التى أشكلت عليه ، أو يفهمه إياها من قبل نفسه . قال

بقية أشهدني ابن عيينة حديث عتبة هذا .

فهذا معاذ يذم من اتبع المتشابه لقصد الفتنة ، وأما من قصده الفقه فقد أخبر أن الله لا بد أن يفقهه بفهمه المتشابه فقهاً ما فقهه قوم قط . قالوا : والدليل على ذلك أن الصحابة كانوا إذا عرض لأحدهم شبهة فى آية أو حديث سأل عن ذلك ، كما سأله عمر فقال : ألم تكن تحدثنا أنا نأتى البيت ونطوف به ؟ وسأله أيضاً عمر : ما بالنا نقصر الصلاة ، وقد أمنا ؟ ولما نزل قوله : (وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ) شق عليهم وقالوا : أينا لم يظلم نفسه حتى بين لهم ، ولما نزل قوله : (وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ) شق عليهم حتى بين لهم الحكمة في ذلك ، ولما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من نوقش الحساب عذب » قالت عائشة : « ألم يقل الله : (فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا) ؟ قال : إنما ذلك العرض » .

قالوا : والدليل على ما قلناه إجماع السلف ، فإنهم فسروا جميع القرآن ، وقال مجاهد عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمته أقفه عند كل آية وأسأله عنها ، وتلقوا ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم ، كما قال أبو عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى

يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً ، وكلام أهل التفسير من الصحابة والتابعين شامل لجميع القرآن ، إلا ما قد يشكل على بعضهم فيقف فيه ، لا لأن أحداً من الناس لا يعلمه ، لكن لأنه هو لم يعلمه .

وأيضاً فإن الله قد أمر بتدبر القرآن مطلقاً ولم يستثن منه شيئاً لا يتدبر ، ولا قال : لا تدبروا المتشابه ، والتدبر بدون الفهم ممتنع ، ولو كان من القرآن ما لا يتدبر لم يعرف ، فإن الله لم يميز المتشابه بحد ظاهر حتى يجتنب تدبره .

وهذا أيضاً مما يحتجون به ، ويقولون المتشابه أمر نسبي إضافي فقد يشتبه على هذا ما لا يشتبه على غيره ، قالوا ؛ ولأن الله أخبر أن القرآن بيان وهدى وشفاء ونور ، ولم يستثن منه شيئاً عن هذا الوصف ، وهذا ممتنع بدون فهم المعنى ، قالوا : ولأن من العظيم أن يقال : إن الله أنزل على نبيه كلاما لم يكن يفهم معناه ، لا هو ولا جبريل ، بل وعلى قول هؤلاء كان النبي صلى الله عليه وسلم يحدث بأحاديث الصفات والقدر والمعاد ونحو ذلك مما هو نظير متشابه القرآن عندهم ، ولم يكن يعرف معنى ما يقوله ، وهذا لا يظن بأقل الناس .

وأيضاً فالكلام إنما المقصود به الإفهام ، فإذا لم يقصد به ذلك كان عبثاً وباطلا ، والله تعالى قد نزه نفسه عن فعل الباطل والعبث ، فكيف يقول الباطل والعبث ويتكلم بكلام ينزله على خلقه لا يريد به إفهامهم ، وهذا من أقوى حجج الملحدين .

وأيضاً فما فى القرآن آية إلا وقد تكلم الصحابة والتابعون لهم بإحسان في معناها ، وبينوا ذلك ، وإذا قيل فقد يختلفون فى بعض ذلك ، قيل كما قد يختلفون فى آيات الأمر والنهي ، وآيات الأمر والنهي مما انفق المسلمون على أن الراسخين فى العلم يعلمون معناها ، وهذا أيضاً مما يدل على أن الراسخين فى العلم يعلمون تفسير المتشابه ، فإن المتشابه قد يكون في آيات الأمر والنهي ، كما يكون في آيات الخبر ، وتلك مما انفق العلماء على معرفة الراسخين لمعناها ، فكذلك الأخرى ، فإنه على قول النفاة لم يعلم معنى المتشابه إلا الله ، لا ملك ولا رسول ولا عالم ، وهذا خلاف إجماع المسلمين فى متشابه الأمر والنهي .

وأيضاً فلفظ التأويل يكون للمحكم ، كما يكون للمتشابه ، كما دل القرآن والسنة وأقوال الصحابة على ذلك ، وهم يعلمون معنى المحكم فكذلك معنى المتشابه ، وأي فضيلة فى المتشابه حتى ينفرد الله بعلم معناه والمحكم أفضل منه وقد بين معناه لعباده ، فأي فضيلة فى المتشابه حتى يستأثر الله بعلم معناه ، وما استأثر الله بعلمه كوقت الساعة لم ينزل به

خطابا ، ولم يذكر فى القرآن آية تدل على وقت الساعة ، ونحن نعلم أن الله استأثر بأشياء لم يطلع عباده عليها ، وإنما النزاع في كلام أنزله ، وأخبر أنه هدى وبيان وشفاء ، وأمر بتدبره ، ثم يقال إن منه ما لايعرف معناه إلا الله ، ولم يبين الله ولا رسوله ذلك القدر الذي لا يعرف أحد معناه ، ولهذا صار كل من أعرض عن آيات لا يؤمن بمعناها يجعلها من المتشابه بمجرد دعواه ، ثم سبب نزول الآية قصة أهل نجران ، وقد احتجوا بقوله (إنا) و (نحن) وبقوله : (كلمة منه) و (روح منه) ، وهذا قد اتفق المسلمون على معرفة معناه ، فكيف يقال : إن المتشابه لا يعرف معناه لا الملائكة ولا الأنبياء ، ولا أحد من السلف ، وهو من كلام الله الذي أنزله إلينا ، وأمرنا أن نتدبره ونعقله ، وأخبر أنه بيان وهدى وشفاء ونور ، وليس المراد من الكلام إلا معانيه ، ولولا المعنى لم يجز التكلم بلفظ لا معنى له .

وقد قال الحسن : ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم فى ماذا أنزلت ، وماذا عنى بها .

ومن قال : إن سبب نزول الآية سؤال اليهود عن حروف المعجم في (الم) بحساب الجمل ، فهذا نقل باطل .

أما أولا : فلأنه من رواية الكلبي .

وأما ثانياً : فهذا قد قيل إنهم قالوه فى أول مقـدم النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وسورة آل عمران إنما نزل صدرهـا متأخراً لما قدم وفد نجران بالنقل المستفيض المتواتر ، وفيـها فرض الحج ، وإنما فرض سنة تسع أو عشر ، لم يفرض فى أول الهجرة باتفاق المسلمين .

وأما ثالثاً : فلأن حروف المعجم ودلالة الحرف على بقاء هذه الأمة ، ليس هو من تأويل القرآن الذي استأثر الله بعلمه ، بـل إما أن يقال إنه ليس مما أراده الله بكلامه ، فلا يقال إنه انفرد بعلمه ، بل دعوى دلالة الحروف على ذلك باطل ، وإما أن يقال بل يدل عليـه فقد علم بعض الناس ما يدل عليه . وحينئذ فقد علم النـاس ذلك ، أما دعوى دلالة القرآن على ذلك ، وأن أحداً لا يعلمه فهذا هو الباطل .

وأيضاً فإذا كانت الأمور العلمية التى أخبر الله بها فى القرآن لايعرفها الرسول ، كان هذا من أعظم قدح الملاحدة فيه ، وكان حجة لما يقولونه من أنه كان لا يعرف الأمور العلمية ، أو أنه كان يعرفها ولم يبينها ، بل هذا القول يقتضي أنه لم يكن يعلمها ، فإن ما لا يعلمه إلا الله لايعلمه النبي ولا غيره .

وبالجملة : فالدلائل الكثيرة توجب القطع ببطلان قول من يقول : إن فى القرآن آيات لا يعلم معناها الرسول ولا غيره .

نعم قد يكون فى القرآن آيات لا يعلم معناها كثير من العلماء، فضلا عن غيرهم ، وليس ذلك فى آية معينة ، بل قد يشكل على هذا مايعرفه هذا ، وذلك تارة يكون لغرابة اللفظ ، وتارة لاشتباه المعنى بغيره ، وتارة لشبهة فى نفس الإنسان تمنعه من معرفة الحق ، وتارة لعدم التدبر التام ، وتارة لغير ذلك من الأسباب ، فيجب القطع بأن قوله : (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ) . أن الصواب قول من يجعله معطوفا ، ويجعل الواو لعطف مفرد على مفرد ، أو يكون كلا القولين حقاً ، وهي قراءتان ، والتأويل المنفي غير التأويل المثبت ، وإن كان الصواب هو قول من يجعلها واو استئناف ، فيكون التأويل المنفي علمه عن غير الله هو الكيفيات التى لا يعلمها غيره ، وهذا فيه نظر ، وابن عباس جاء عنه أنه قال : أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله ، وجاء عنه أن الراسخين لا يعلمون تأويله .

وجاء عنه أنه قال : التفسير على أربعة أوجه : تفسير تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله ، من ادعى علمه فهو كاذب . وهذا القول يجمع القولين ، ويبين أن العلماء يعلمون من تفسيره مالا يعلمه غيرهم ، وأن فيه مالا يعلمه إلا الله فأما من جعل الصواب قول من جعل الوقف عند قوله (إِلَّا ٱللَّهُ) وجعل التأويل بمعنى التفسير ، فهذا خطأ قطعاً .

وأما التأويل بالمعنى الثالث ، وهو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح ، فهـذا الاصطلاح لم يكن بعـد عرف فى عهد الصحابة ، بل ولا التابعين ، بل ولا الأئمة الأربعـة ، ولا كان التكلم بهذا الاصطلاح معروفا في القرون الثلاثة ، بل ولا علمت أحداً منهم خص لفظ التأويل بهذا ، ولكن لما صار تخصيص لفظ التأويـل بهذا شائعاً فى عرف كثير مـن المتأخرين ، فظنوا أن التـأويل في الآية هـذا معناه ، صاروا يعتقدون أن لمتشابه القرآن معاني تخالف ما يفهم منه ، وفرقوا دينهم بعد ذلك ، وصاروا شيعا ، والمتشابـه المذكور الذي كان سبب نزول الآية لا يدل ظاهره على معنى فاسد ، وإنما الخطأ في فهـم السامع . نعم قد يقال : إن مجرد هذا الخطاب لا يبين كمال المطلوب ، ولكن فرق بين عدم دلالته على المطلوب ، وبـين دلالته عـلى نقيض المطلوب . فهذا الثاني هو المنـفي ؛ بل وليس فى القرآن ما يـدل عـلى الباطل ألبتة ، كما قد بسط فى موضعه .

ولكن كثير من الناس يزعم أن لظاهر الآية معنى ، إما معنى يعتقده وإما معنى باطلا فيحتاج إلى تأويله ، ويكون ماقاله باطلا لا تدل الآيـة على معتقده ، ولا على المعنى الباطل ، وهذا كثير جداً ، وهؤلاء هم الذين يجعلون القرآن كثيراً مايحتاج إلى التأويل المحدث ، وهو صرف اللفظ عن مدلوله إلى خلاف مدلوله .

ومما يحتج به من قال الراسخون في العلم يعلمون التأويل : ما ثبت فى صحيح البخاري وغـيره ـــ عن ابن عباس : « أن النبي صلى الله عليـه وسلم دعا له وقال : « اللهم فقهه فى الدين ، وعلمه التأويل » فقد دعا له بعلم التأويل مطلقاً ، وابن عباس فسر القرآن كله ، قال مجاهد : عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره ، أقفـه عنـد كل آيـة وأسأله عنهـا ، وكان يقول : أنا من الراسخين في العـلم ، الذين يعلمون تأويله .

وأيضاً فالنقول متواترة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه تكلم في جميع معاني القرآن من الأمر والخـبر ، فـله من الكلام فى الأسمـاء والصفـات والوعد والوعيد والقصص ، ومن الكلام في الأمر والنهي والأحكام ما يبين أنه كان يتكلم في جميع معانى القرآن .

وأيضاً قد قال ابن مسعود ما من آية في كتاب الله إلا وأنا أعـلم فى ما ذا أنزلت .

وأيضاً فإنهم متفقون على أن آيات الأحكام يعلم تأويلها ، وهي نحو خمسمائة آية ، وسائر القرآن خبر عن الله وأسمائه وصفاته ، أو عن اليوم الآخر والجنة والنار ، أو عن القصص ، وعاقبة أهل الإيمان ، وعاقبة أهل الكفر ، فإن كان هذا هو المتشابه الذي لا يعـلم معناه إلا الله ،

فجمهور القرآن لا يعرف أحد معناه ، لا الرسول ولا أحد من الأمة ، ومعلوم أن هذا مكابرة ظاهرة .

وأيضاً فمعلوم أن العلم بتأويل الرؤيا أصعب من العلم بتأويل الكلام الذي يخبر به ، فإن دلالة الرؤيا على تأويلها دلالة خفية غامضة لا يهتدي لها جمهور الناس ؛ بخلاف دلالة لفظ الكلام على معناه ، فإذا كان الله قد علم عباده تأويل الأحاديث التي يرونها فى المنام ، فلأن يعلمهم تأويل الكلام العربي المبين الذي ينزله على أنبيائه بطريق الأولى والأحرى ، قال يعقوب ليوسف : (وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ) وقال يوسف : (رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ) وقال : (لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا) .

وأيضاً فقد ذم الله الكفار بقوله (أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ) وقال : (وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) وهذا ذم لمن كذب بما لم يحط بعلمه .

فما قاله الناس من الأقوال المختلفة فى تفسير القرآن وتأويله ليس لأحد أن يصدق بقول دون قول بلا علم ، ولا يكذب بشيء منها ، إلا أن يحيط بعلمه ، وهذا لا يمكن إلا إذا عرف الحق الذي أريد بالآية ، فيعلم أن ما سواه باطل ، فيكذب بالباطل الذي أحاط بعلمه ، وأما إذا لم يعرف معناها ، ولم يحط بشيء منها علما . فلا يجوز له التكذيب بشيء منها ، مع أن الأقوال المتناقضة بعضها باطل قطعا ، ويكون حينئذ المكذب بالقرآن كالمكذب بالأقوال المتناقضة ، والمكذب بالحق كالمكذب بالباطل ، وفساد اللازم يدل على فساد الملزوم .

وأيضاً فإنه إن بنى على ما يعتقده من أنه لا يعلم معاني الآيات الخبرية إلا الله لزمه أن يكذب كل من احتج بآية من القرآن خبرية على شيء من أمور الإيمان بالله واليوم الآخر ، ومن تكلم فى تفسير ذلك ، وكذلك يلزم مثل ذلك فى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإن قال : المتشابه هو بعض الخبريات ، لزمه أن يبين فصلا يتبين به ما يجوز أن يعلم معناه من آيات القرآن ، وما لا يجوز أن يعلم معناه ، بحيث لا يجوز أن يعلم معناه لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ، ولا أحد من الصحابة ، ولا غيرهم . ومعلوم أنه لا يمكن أحداً ذكر حد فاصل بين ما يجوز أن يعلم معناه بعض الناس ، وبين ما لا يجوز أن يعلم معناه أحد . ولو ذكر ما ذكر انتقض عليه ، فعلم أن المتشابه ليس هو

الذي لا يمكن أحداً معرفة معناه ، وهذا دليل مستقل في المسألة .

وأيضاً فقوله : (لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ) (أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا) ذم لهم على عدم الإحاطة مع التكذيب ، ولو كان الناس كلهم مشتركين في عدم الإحاطة بعلم المتشابه لم يكن في ذمهم بهذا الوصف فائدة ، ولكان الذم على مجرد التكذيب ، فإن هذا بمنزلة أن يقال أكذبتم بما لم تحيطوا به علما ولا يحيط به علما إلا الله ؟ ومن كذب بمالا يعلمه إلا الله كان أقرب إلى العذر من أن يكذب بما يعلمه الناس ، فلو لم يحط بها علما الراسخون كان ترك هذا الوصف أقوى في ذمهم من ذكره .

ويتبين هذا بوجه آخر هو دليل في المسألة : وهو أن الله ذم الزائغين بالجهل وسوء القصد ، فإنهم يقصدون المتشابه يبتغون تأويله ، ولا يعلم تأويله إلا الراسخون فى العلم ، وليسوا منهم ، وهم يقصدون الفتنة لا يقصدون العلم والحق ، وهذا كقوله تعالى : (وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرًا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ) فإن المعنى بقوله (لأسمعهم) فهم القرآن . يقول لو علم الله فيهم حسن قصد وقبولا للحق لأفهمهم القرآن ، لكن لو أفهمهم لتولوا عن الإيمان وقبول الحق لسوء قصدهم ، فهم جاهلون ظالمون ، كذلك الذين فى قلوبهم زيغ هم

مذمومون بسوء القصد ، مع طلب علم ما ليسوا من أهله ، وليس إذا عيب هؤلاء على العلم ومنعوه يعاب من حسن قصــده وجعله الله من الراسخين فى العلم .

فإن قيل : فأكثر السلف على أن الراسخين فى العلـم لا يعلمون التأويل ، وكذلك أكثر أهل اللغة يروى هذا عن ابن مسعود ، وأبي ابن كعب ، وابن عباس ، وعروة ، وقتادة ، وعمر بن عبـد العزيز ، والفراء ، وأبي عبيد ، وثعلب ، وابن الأنباري ، قال ابن الأنباري ، فى قراءة عبد الله : إن تأويله إلا عند الله والراسخون فى العلم ، وفى قراءة أبى وابن عباس : ويقول الراسخون فى العلم ، قال : وقـد أنزل الله فى كتابه أشياء استأثر بعلمها ، كقوله تعالى : (قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ) وقوله : (وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا) فأنزل المحكم ليؤمن به المؤمن فيسعد ، ويكفر به الـكافر فيشقى ، قال ابن الأنباري : والذي روى القول الآخر عن مجاهد هو ابن أبى نجيح ، ولا تصح روايتـه التفسير عن مجاهـد .

فيقال قول القائل : إن أكثر السلف على هذا قول بلا علم ، فإنه لم يثبت عن أحد من الصحابة أنه قال إن الراسخين فى العلم لا يعلمون تأويل المتشابـه ، وعن ابن أبى مليكة عن عائشة أنهـا قالت ، « كان رسوخهم فى العلم أن آمنوا بمحكمه وبمتشابهه ولا يعلمونه » فقـد روى

البخاري عن ابن أبي مليكة عن القاسم عن عائشة رضي الله عنها الحديث المرفوع في هذا ، وليس فيه هذه الزيادة ولم يذكر أنه سمعها من القاسم ، بل الثابت عن الصحابة أن المتشابه يعلمه الراسخون كما تقدم حديث معاذ بن جبل فى ذلك ، وكذلك نحوه عن ابن مسعود وابن عباس وأبي بن كعب وغيرهم ، وما ذكر من قراءة ابن مسعود وأبي بن كعب ليس لها إسناد يعرف حتى يحتج بها ، والمعروف عن ابن مسعود أنه كان يقول : مافى كتاب الله آية إلا وأنا أعلم فى ما ذا أنزلت ، وماذا عني بها . وقال أبو عبد الرحمن السلمى : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن : عثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود ، وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل ، وهذا أمر مشهور رواه الناس عن عامة أهل الحديث والتفسير ، وله إسناد معروف ، بخلاف ما ذكر من قراءتهما ، وكذلك ابن عباس قد عرف عنه أنه كان يقول : أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله ، وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه دعا له بعلم تأويل الكتاب ، فكيف لا يعلم التأويل مع أن قراءة عبد الله إن تأويله إلا عند الله لا تناقض هذا القول ، فإن نفس التأويل لا يأتى به إلا الله ، كما قال تعالى : (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ) وقال : (بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ) .

وقد اشتهر عن عامة السلف أن الوعد والوعيد من المتشابه ، وتأويل ذلك هو مجيء الموعود به ، وذلك عند الله لا يأتي به إلا هو ، وليس في القرآن : إن علم تأويله إلا عند الله ، كما قال في الساعة : (يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ)

وكذلك لما قال فرعون لموسى : (فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ * قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى) .

فلو كانت قراءة ابن مسعود تقتضي نفي العلم عن الراسخين لكانت : إن علم تأويله إلا عند الله لم يقرأ إن تأويله إلا عند الله ، فإن هذا حق بلا نزاع ، وأما القراءة الأخرى المروية عن أبي وابن عباس ، فقد نقل عن ابن عباس ما يناقضه ، وأخص أصحابه بالتفسير مجاهد ، وعلى تفسير مجاهد يعتمد أكثر الأئمة كالثوري والشافعي وأحمد بن حنبل والبخاري . قال الثوري إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به . والشافعي في كتبه أكثر الذي ينقله عن ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ، وكذلك البخاري في صحيحه يعتمد على هذا

التفسير ، وقول القائل لا تصح رواية ابن أبي نجيح عن مجاهد جوابه : أن تفسير ابن أبي نجيح عن مجاهد من أصح التفاسير ، بل ليس بأيدي أهل التفسير كتاب فى التفسير أصح من تفسير ابن أبي نجيح عن مجاهد ، إلا أن يكون نظيره فى الصحة ، ثم معه ما يصدقه ، وهو قوله : عرضت المصحف على ابن عباس أقفه عند كل آية وأسأله عنها .

وأيضاً فأبي بن كعب رضي الله عنه قد عرف عنه أنه كان يفسر ما تشابه من القرآن ، كما فسر قوله : (فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا) وفسر قوله : (ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) وقوله : (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ) وغير ذلك ، ونقل ذلك معروف عنه بالإسناد أثبت من نقل هذه القراءة التى لا يعرف لها إسناد ، وقد كان يسئل عن المتشابه من معنى القرآن فيجيب عنه كما سأله عمر ، وسئل عن ليلة القدر .

وأما قوله : إن الله أنزل المجمل ليؤمن به المؤمن . فيقال هذا حق ، لكن هل فى الكتاب والسنة أو قول أحد من السلف إن الأنبياء والملائكة والصحابة لا يفهمون ذلك الكلام المجمل ؟ أم العلماء متفقون على أن المجمل فى القرآن يفهم معناه ويعرف ما فيه من الإجمال ، كما مثل به من وقت الساعة ، فقد علم المسلمون كلهم معنى الكلام الذي أخبر الله به عن الساعة ، وأنها آتية لا محالة ، وأن الله انفرد بعلم وقتها ، فلم يطلع على ذلك أحداً ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم

لما سأله السائل عن الساعة ، وهو في الظاهر : أعرابي لا يعرف قال له : متى الساعة ؟ « قال : ما المسئول عنهـا بأعلم من السائل » ولم يقل : إن الـكلام الذي نزل في ذكرها لا يفهمه أحد ، بل هـذا خلاف إجماع المسلمين ، بل والعقلاء ؛ فإن إخبار الله عن الساعة وأشراطها كلام بين واضح يفهم معناه ، وكذلك قوله : (وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا) قد علم المراد بهذا الخطاب ، وأن الله خلق قرونا كثيرة لا يعلم عددهم إلا الله ، كما قال : (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) فأي شيء فى هـذا مما يدل على أن ما أخبر الله به من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر لايفهم معناه أحد لا من الملائـكة ولا من الأنبياء ولا الصحابة ولا غيرهم ؟! .

وأما ما ذكر عن عروة فعروة قـد عرف من طريقـه أنـه كان لا يفسر عامة آي القرآن إلا آيات قليلة رواهـا عن عائشة ، ومعلوم أنه إذا لم يعرف عروة التفسير لم يلزم أنه لا يعرفـه غيره من الخلفاء الراشدين ، وعلمـاء الصحـابة ؛ كابن مسعود ، وأبي بن كعب ، وابن عباس ، وغيرهم .

وأما اللغويون الذين يقولون إن الراسخين لا يعلمون معنى المتشابه فهم متناقضون فى ذلك ، فإن هؤلاء كلهم يتـكلمون فى تفسير كل شيء فى القرآن ، ويتوسعون في القول فى ذلك ، حتى ما منهم أحد إلا وقد قال فى ذلك أقوالا لم يسبق إليها ، وهي خطأ . وابن الأنبـاري الذي

بالغ فى نصر ذلك القول هو من أكثر الناس كلاماً فى معانى الآي المتشابهات ، يذكر فيها من الأقوال ما لم ينقل عن أحد من السلف ، ويحتج لما يقوله فى القرآن بالشاذ من اللغة ، وقصده بذلك الإنكار على ابن قتيبة ، وليس هو أعلم بمعانى القرآن والحديث ، وأتبع للسنة من ابن قتيبة ، ولا أفقه في ذلك . وإن كان ابن الأنباري من أحفظ الناس للغة ؛ لكن باب فقه النصوص غير باب حفظ ألفاظ اللغة .

وقد نقم هو وغيره على ابن قتيبة كونه رد على أبي عبيد أشياء من تفسيره غريب الحديث ، وابن قتيبة قد اعتذر عن ذلك ، وسلك فى ذلك مسلك أمثاله من أهل العلم ، وهو وأمثاله يصيبون تارة ، ويخطئون أخرى ، فإن كان المتشابه لا يعلم معناه إلا الله ، فهم كلهم يجترئون على الله ، يتكلمون في شيء لا سبيل إلى معرفته ، وإن كان ما بينوه من معانى المتشابه قد أصابوا فيه — ولو فى كلمة واحدة — ظهر خطؤهم فى قولهم : إن المتشابه لا يعلم معناه إلا الله ، ولا يعلمه أحد من المخلوقين ، فليختر من ينصر قولهم هذا أو هذا .

ومعلوم أنهم أصابوا في شيء كثير مما يفسرون به المتشابه ، وأخطأوا فى بعض ذلك ، فيكون تفسيرهم هذه الآية مما أخطأوا فيه العلم اليقينى ، فإنهم أصابوا فى كثير من تفسير المتشابه ، وكذلك ما نقل عن قتادة من أن الراسخين فى العلم لا يعلمون تأويل المتشابه ، فكتابه

في التفسير من أشهر الكتب ، ونقله ثابت عنه من رواية معمر عنه ، ورواية سعيد بن أبي عروبة عنه ، ولهذا كان المصنفون فى التفسير عامتهم يذكرون قوله لصحة النقل عنه ، ومع هذا يفسر القرآن كله محكمه و متشابهه .

والذي اقتضى شهرة القول عن أهل السنة بأن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله ، ظهور التأويلات الباطلة من أهل البدع كالجهمية والقدرية من المعتزلة وغيرهم ، فصار أولئك يتكلمون في تأويل القرآن برأيهم الفاسد ، وهذا أصل معروف لأهل البدع ، أنهم يفسرون القرآن برأيهم العقلي ، وتأويلهم اللغوي ، فتفاسير المعتزلة مملوءة بتأويل النصوص المثبتة للصفات والقدر على غير ما أراده الله ورسوله ، فإنكار السلف والأئمة هو لهذه التأويلات الفاسدة ، كما قال الإمام أحمد في ما كتبه فى الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله ، فهذا الذي أنكره السلف والأئمة من التأويل .

فجاء بعدهم قوم انتسبوا إلى السنة بغير خبرة تامة بها ، وبما يخالفها ظنوا أن المتشابه لا يعلم معناه إلا الله ، فظنوا أن معنى التأويل هو معناه في اصطلاح المتأخرين : وهو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى المرجوح ، فصاروا في موضع يقولون وينصرون إن المتشابه لا يعلم

معناه إلا الله ، ثم يتناقضون في ذلك من وجوه .

أحدها : أنهم يقولون النصوص تجرى على ظواهرها ، ولا يزيدون على المعنى الظاهر منها ، ولهذا يبطلون كل تأويل يخالف الظاهر ، ويقرون المعنى الظاهر ، ويقولون مع هذا إن له تأويلا لا يعلمه إلا الله والتأويل عندهم ما يناقض الظاهر ، فكيف يكون له تأويل يخالف الظاهر ، وقد قرر معناه الظاهر ، وهذا مما أنكره عليهم مناظروهم ، حتى أنكر ذلك ابن عقيل على شيخه القاضي أبي يعلى .

ومنها أنا وجدنا هؤلاء كلهم لا يحتج عليهم بنص يخالف قولهم ، لا فى مسألة أصلية ، ولا فرعية ، إلا تأولوا ذلك النص بتأويلات متكلفة مستخرجة من جنس تحريف الكلم عن مواضعه ، من جنس تأويلات الجهمية والقدرية للنصوص التى تخالفهم ، فأين هذا من قولهم : لا يعلم معاني النصوص المتشابهة إلا الله تعالى ؟! واعتبر هذا بما تجده في كتبهم من مناظرتهم للمعتزلة في مسائل الصفات والقرآن والقدر ، إذا احتجت المعتزلة على قولهم بالآيات التى تناقض قول هؤلاء ، مثل أن يحتجوا بقوله : (وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ) (وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ) (وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ) (إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ) ونحو ذلك كيف تجدهم يتأولون هذه النصوص بتأويلات غالبها فاسد ،

وإن كان فى بعضهـا حق ، فإن كان ما تأولوه حقـاً ، دل على أن الراسخين فى العلم يعلمون تأويل المتشـابه ، فظهر تناقضهم وإن كان باطلا فذلك أبعد لهم .

وهذا أحمد بن حنبل إمام أهل السنة الصابر فى المحنة الذي قـد صار للمسلمين معياراً يفرقون به بين أهل السنة والبدعـة لمـا صنف كتابه فى « الرد على الزنادقة والجهمية » فيما شكت فيه من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله ، تـكلم على معانى المتشابه الذي اتبعه الزائغون ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله آية آية ، وبين معناها ، وفسرهـا ليبين فســاد تأويل الزائغين ، واحتج على أن الله يرى ، وأن القرآن غير مخلوق ، وأن الله فوق العرش ؛ بالحجج العقلية والسمعية ، ورد ما احتج به النفاة من الحجج العقلية والسمعية ، وبين معاني الآيات التى سماهـا هو متشابهة ، وفسرها آية آية ، وكذلك لمـا ناظروه واحتجوا عليـه بالنصوص جعل يفسرهـا آية آية ، وحديثاً حديثـاً ، وبين فساد ما تأولها عليه الزائغون ، وبين هو معناها ، ولم يقل أحمد إن هـذه الآيات والأحاديث لا يفهم معناها إلا الله ، ولا قال أحـد له ذلك . بل الطوائف كلها مجتمعة على إمكان معرفة معناها ، لكن يتنـازعون في المراد كما يتنـازعون فى آيات الأمر والنهي ، وكذلك كان أحمـد يفسر المتشـابه من الآيات والأحاديث التى يحتج بهـا الزائغون من الخوارج

وغيرهم ، كقوله : « لا يزنى الزاني حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الشارب الخمر حين يشرب وهو مؤمن » وأمثال ذلك .

ويبطل قول المرجئة والجهمية ، وقول الخوارج ، والمعتزلة ، وكل هذه الطوائف تحتج بنصوص المتشابه على قولها ، ولم يقل أحد لا من أهل السنة ، ولا من هؤلاء ، لما يستدل به هو ، أو يستدل به عليه منازعه : هذه آيات وأحاديث لا يعلم معناها أحد من البشر ، فأمسكوا عن الاستدلال بها . وكان الإمام أحمد ينكر طريقة أهل البدع الذين يفسرون القرآن برأيهم وتأويلهم من غير استدلال بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقوال الصحابة ، والتابعين ، الذين بلغهم الصحابة معاني القرآن ، كما بلغوهم ألفاظه ، ونقلوا هذا كما نقلوا هذا ، لكن أهل البدع يتأولون النصوص بتأويلات تخالف مراد الله ورسوله ، ويدعون أن هذا هو التأويل الذي يعلمه الراسخون ، وهم مبطلون في ذلك ، لاسيما تأويلات القرامطة والباطنية الملاحدة ، وكذلك أهل الكلام المحدث من الجهمية والقدرية وغيرهم .

ولكن هؤلاء يعترفون بأنهم لا يعلمون التأويل ، وإنما غايتهم أن يقولوا : ظاهر هذه الآية غير مراد ، ولكن يحتمل أن يراد كذا ، وأن يراد كذا ، ولو تأولها الواحد منهم بتأويل معين ، فهو لا يعلم أنه

مراد الله ورسوله ، بل يجوز أن يكون مراد الله ورسوله عندهم غير ذلك ، كالتأويلات التى يذكرونها فى نصوص الكتاب ، كما يذكرونه فى قوله : (وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) و « ينزل ربنا » ، و (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) (وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا) (وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ) و (إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) وأمثال ذلك من النصوص فإن غاية ما عندهم يحتمل أن يراد به كذا ويجوز كذا ونحو ذلك ، وليس هذا علماً بالتأويل ، وكذلك كل من ذكر فى نص أقوالا واحتمالات ، ولم يعرف المراد ، فإنه لم يعرف تفسير ذلك وتأويله وإنما يعرف ذلك من عرف المراد .

ومن زعم من الملاحدة أن الأدلة السمعية لا تفيد العلم ، فمضمون مدلولاته لا يعلم أحد تفسير المحكم ، ولا تفسير المتشابه ، ولا تأويل ذلك . وهذا إقرار منه على نفسه بأنه ليس من الراسخين فى العلم الذين يعلمون تأويل المتشابه ، فضلا عن تأويل المحكم ، فإذا انضم إلى ذلك أن يكون كلامهم فى العقليات فيه من السفسطة والتلبيس مالا يكون معه دليل على الحق لم يكن عند هؤلاء لا معرفة بالسمعيات ولا بالعقليات ، وقد أخبر الله عن أهل النار أنهم قالوا : (لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ) ومدح الذين إذا ذكروا بآياته لم يخروا عليها صما وعمياناً ، والذين يفقهون ويعقلون ، وذم الذين

لا يفقهون ولا يعقلون فى غير موضع من كتابه ، وأهل البدع المخالفون للكتاب والسنة يدعون العلم والعرفان والتحقيق ، وهم من أجهل الناس بالسمعيات والعقليات ، وهم يجعلون ألفاظاً لهم مجملة متشابهة تتضمن حقاً وباطلا ، يجعلونها هي الأصول المحكمة ، ويجعلون ما عارضها من نصوص الكتاب والسنة من المتشابه الذي لا يعلم معناه عندهم إلا الله ، وما يتأولونه بالاحتمالات لا يفيد ، فيجعلون البراهين شبهات ، والشبهات براهين ، كما قد بسط ذلك في موضع آخر .

وقد نقل القاضي أبو يعلى عن الإمام أحمد أنه قال : المحكم ما استقل بنفسه ، ولم يحتج إلى بيان ، والمتشابه ما احتاج إلى بيان ، وكذلك قال الإمام أحمد في رواية ، والشافعي قال : المحكم ما لا يحتمل من التأويل إلا وجهاً واحداً ، والمتشابه ما احتمل من التأويل وجوها وكذلك قال الإمام أحمد ، وكذلك قال ابن الأنباري : المحكم ما لم يحتمل من التأويل إلا وجهاً واحداً ، والمتشابه الذي تعتوره التأويلات فيقال حينئذ فجميع الأمة سلفها وخلفها يتكلمون فى معاني القرآن التى تحتمل التأويلات .

وهؤلاء الذين ينصرون أن الراسخين فى العلم لا يعلمون معنى المتشابه هم من أكثر الناس كلاما فيه .

والأئمة كالشافعي وأحمد ومن قبلهم كلهم يتكلمون فيما يحتمل معانى ، ويرجحون بعضها على بعض بالأدلة فى جميع مسائل العلم الأصولية والفروعية ، لا يعرف عن عالم من علماء المسلمين أنه قال عن نص احتج به محتج في مسألة : إن هذا لا يعرف أحد معناه فلا يحتج به ، ولو قال أحد ذلك لقيل له مثل ذلك ، وإذا ادعى فى مسائل النزاع المشهورة بين الأئمة أن نصه محكم يعلم معناه ، وأن النص الآخر متشابه لا يعلم أحد معناه ، قوبل بمثل هذه الدعوى . وهذا بخلاف قولنا : إن من النصوص ما معناه جلي واضح ظاهر لا يحتمل إلا وجهاً واحداً لا يقع فيه اشتباه ، ومنها ما فيه خفاء واشتباه يعرف معناه الراسخون في العلم ، فإن هذا تفسير صحيح ، وحينئذ فالخلف في المتشابه يدل على أنه كله يعرف معناه ، فمن قال أنه يعرف معناه يبين حجته على ذلك .

وأيضاً فما ذكره السلف والخلف فى المتشابه يدل على أنه كله يعرف معناه . فمن قال : إن المتشابه هو المنسوخ فمعنى المنسوخ معروف ، وهذا القول مأثور عن ابن مسعود . وابن عباس وقتادة . والسدي وغيرهم . وابن مسعود وابن عباس ، وقتادة ، هم الذين نقل عنهم أن الراسخين في العلم لا يعلمون تأويله ، ومعلوم قطعاً باتفاق المسلمين أن الراسخين يعلمون معنى المنسوخ ؛ وأنه منسوخ ، فكان هذا النقل عنهم يناقض ذلك النقل ، ويدل على أنه كذب إن كان هذا صدقا ، وإلا تعارض النقلان

عنهم، والمنقول عنهم أن الراسخين يعلمون معنى المتشابه.

والقول الثاني مأثور عن جابر بن عبد الله أنه قال: المحكم ما علم العلماء تأويله، والمتشابه ما لم يكن للعلماء إلى معرفته سبيل، كقيام الساعة، ومعلوم أن وقت قيام الساعة مما اتفق المسلمون على أنه لا يعلمه إلا الله، فإذا أريد بلفظ التأويل هذا كان المراد به لا يعلم وقت تأويله إلا الله، وهذا حق، ولا يدل ذلك على أنه لا يعرف معنى الخطاب بذلك، وكذلك إن أريد بالتأويل حقائق ما يوجد، وقيل لا يعلم كيفية ذلك إلا الله، فهذا قد قدمناه، وذكر أنه على قول هؤلاء من وقف عند قوله: (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ) هو الذي يجب أن يراد بالتأويل. وأما أن يراد بالتأويل التفسير، ومعرفة المعنى ويوقف على قوله إلا الله، فهذا خطأ قطعا مخالف للكتاب والسنة، وإجماع المسلمين.

ومن قال ذلك من المتأخرين فإنه متناقض يقول ذلك، ويقول ما يناقضه. وهذا القول يناقض الإيمان بالله ورسوله من وجوه كثيرة، ويوجب القدح في الرسالة، ولا ريب أن الذي قالوه لم يتدبروا لوازمه، وحقيقته بل أطلقوه وكان أكبر قصدهم دفع تأويلات أهل البدع للمتشابه. وهذا الذي قصدوه حق، وكل مسلم يوافقهم عليه؛ لكن لا ندفع باطلا بباطل آخر، ولا نرد بدعة ببدعة، ولا يرد تفسير

أهل الباطل للقرآن بأن يقال : الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة كانوا لا يعرفون تفسير ما تشابه من القرآن، ففي هـذا من الطعن فى الرسول وسلف الأمة ما قد يكون أعظم من خطإ طائفة فى تفسير بعض الآيات ، والعاقل لا يبنى قصرا ويهدم مصرا .

والقول الثالث : أن المتشابه الحروف المقطعة فى أوائل السور ، يروى هذا عن ابن عباس ، وعلى هذا القول فالحروف المقطعـة ليست كلاما تاما من الجمل الاسمية والفعلية ، وإنما هي أسماء موقوفة . ولهذا لم تعرب ، فإن الإعراب إنما يكون بعد العقد والتركيب ، وإنما نطق بها موقوفة ، كما يقـال : ا ب ت ث ، ولهـذا تكتب بصورة الحـرف ، لا بصورة الاسم الذي ينطق به ، فإنها في النطق أسماء ، ولهـذا لما سأل الخليل أصحابه عن النطق بالزاى من زيد ، قالوا : زا ، قال : نطقتم بالاسم ، وإنما النطق بالحرف زه ، فهي فى اللفظ أسماء ، وفى الخط حروف مقطعة ، (الٓمٓ) لا تكتب ألف لام ميم ، كما يكتب قول النبي صلى الله عليه وسلم « من قرأ القرآن فأعـربه ، فله بكل حرف عشر حسنات ، أما إني لا أقول ــ الٓمٓ ــ حرف ، ولكن « ألف » حرف ، و « لام » حرف ، و « ميم » حرف » .

والحرف فى لغة الرسول صلى الله عليـه وسلم وأصحابه يتناول الذي يسميه النحاة اسما وفعلا وحرفا ، ولهذا قال سيبويه فى تقسيم الـكلام :

اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ، ليس باسم ولا فعل . فإنه لما كان معروفا من اللغة أن الاسم حرف، والفعل حرف خص هذا القسم الثالث الذي يطلق النحاة عليه الحرف أنه جاء لمعنى ، ليس باسم ولا فعل ، وهـذه حروف المعانى التى يتألف منها الـكلام .

وأما حروف الهجاء فتلك إنما تكتب على صورة الحرف المجـرد ، وينطق بها غير معربة ، ولا يقال فيها معرب ولا مبنى ؛ لأن ذلك إنما يقال في المؤلف ، فإذا كان على هـذا القول كل ما سوى هذه محـكم حصل المقصود ، فإنه ليس المقصود إلا معرفة كلام الله ، وكلام رسوله صـلى الله عليه وسلم ، ثم يقـال : هذه الحروف قد تكلم فى معناهـا أكثر الناس ، فإن كان معناها معروفا فقد عرف معنى المتشـابه ، وإن لم يكن معروفا وهي المتشابه كان ما سواها معلوم المعنى . وهذا المطلوب .

وأيضاً فإن الله تعالى قال : ﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ وهذه الحروف ليست آيات عند جمهور العلماء ، وإنما يعدها آيات الكوفيون .

وسبب نزول هـذه الآية الصحيح : يدل على أن غيرهـا أيضا متشابه ، ولـكن هذا القول يوافق ما نقل عن اليهود من طلب علـم المدد من حروف الهجاء .

والرابع : أن المتشابه ما اشتبهت معانيه ، قال مجاهد ، وهذا يوافق قول أكثر العلماء ، وكلهم يتكلم فى تفسير هذا المتشابه ، ويبين معناه .

والخامس : أن المتشابه ما تكررت ألفاظه ، قاله عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم ، قال المحكم ما ذكر الله تعالى فى كتابه من قصص الأنبياء ففصله وبينه ، والمتشابه هو ما اختلفت ألفاظه فى قصصهم عند التكرير كما قال فى موضع من قصة نوح : (ٱحْمِلْ فِيهَا) ، وقال فى موضع آخر : (فَٱسْلُكْ فِيهَا) ، وقال فى عصى موسى : (فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ) وفى موضع آخر . (فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ) ، وصاحب هذا القول جعل المتشابه اختلاف اللفظ مع اتفاق المعنى ، كما يشتبه على حافظ القرآن هذا اللفظ بذاك اللفظ ، وقد صنف بعضهم فى هذا المتشابه ، لأن القصة الواحدة يتشابه معناها فى الموضعين ، فاشتبه على القارئ أحد اللفظين بالآخر ، وهذا التشابه لا ينفى معرفة المعانى بلا ريب ، ولا يقال فى مثل هذا إن الراسخين يختصون بعلم تأويله ، فهذا القول إن كان صحيحا كان حجة لنا ، وإن كان ضعيفا لم يضرنا .

والسادس : أنه ما احتاج إلى بيان كما نقل عن أحمد .

والسابع : أنه ما احتمل وجوها ، كما نقل عن الشافعي ، وأحمد ، وقد روي عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال : إنك لا تفقه كل

الفقه حتى ترى للقرآن وجوها ، وقد صنف الناس « كتب الوجوه والنظائر » فالنظائر اللفظ الذي اتفق معناه فى الموضعين ، وأكثر . والوجوه : الذي اختلف معناه ، كما يقال الأسماء المتواطئة والمشتركة ، وإن كان بينهما فرق ، ولبسطه موضع آخر .

وقد قيل : هي نظائر فى اللفظ ومعانيها مختلفة ، فتكون كالمشتركة ، وليس كذلك ؛ بل الصواب أن المراد بالوجوه والنظائر هو الأول : وقد تكلم المسلمون سلفهم وخلفهم فى معانى الوجوه ، وفيما يحتاج إلى بيان وما يحتمل وجوها فعلم يقينا أن المسلمين متفقون على أن جميع القرآن مما يمكن العلماء معرفة معانيه وعلم أن من قال إن من القرآن ما لا يفهم أحد معناه ، ولا يعرف معناه إلا الله ، فإنه مخالف لإجماع الأمة مع مخالفته للكتاب والسنة .

والثامن : أن المتشابه هو القصص والأمثال وهذا أيضا يعرف معناه .

والتاسع : أنه ما يؤمن به ولا يعمل به ، وهذا أيضا مما يعرف معناه .

والعاشر : قول بعض المتأخرين إن المتشابه آيات الصفات ، وأحاديث الصفات ، وهذا أيضاً مما يعلم معناه ، فإن أكثر آيات الصفات اتفق

المسلمون على أنه يعرف معناها ، والبعض الذي تنازع الناس فى معناه إنما ذم السلف منه تأويلات الجهمية ، ونفوا علم الناس بكيفيته : كقول مالك : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . وكذلك قال سائر أئمة السنة . وحينئذ ففرق بين المعنى المعلوم ، وبين الكيف المجهول ، فإن سمى الكيف تأويلا ساغ أن يقال : هذا التأويل لا يعلمه إلا الله ، كما قدمناه أولا .

وأما إذا جعل معرفة المعنى وتفسيره تأويلا كما يجعل معرفة سائر آيات القرآن تأويلا ، وقيل : إن النبي صلى الله عليه وسلم وجبريل والصحابة والتابعين ماكانوا يعرفون معنى قوله : (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) ولا يعرفون معنى قوله : (مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) ولا معنى قوله : (غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ) بل هذا عندهم بمنزلة الكلام العجمي ، الذي لا يفهمه العربي . وكذلك إذا قيل كان عندهم قوله تعالى : (وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ) وقوله : (لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ) وقوله : (وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا) وقوله : (رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ) وقوله : (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ) وقوله : (وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ) وقوله : (وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ) وقوله : (إِنَّا

جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا) وقوله : (فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ) وقوله : (فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا) وقوله : (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ) وقوله : (وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) وقوله : (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ) وقوله (ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ) وقوله (إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) إلى أمثال هذه الآيات .

فمن قال عن جبريل ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما ، وعن الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وأئمة المسلمين والجماعة : أنهم كانوا لا يعرفون شيئاً من معاني هذه الآيات ، بل استأثر الله بعلم معناها ، كما استأثر بعلم وقت الساعة ، وإنما كانوا يقرأون ألفاظاً لا يفهمون لها معنى ، كما يقرأ الإنسان كلاما لا يفهم منه شيئاً ، فقد كذب على القوم ، والنقول المتواترة عنهم تدل على نقيض هذا ، وأنهم كانوا يفهمون هذا كما يفهمون غيره من القرآن ، وإن كان كنه الرب عز وجل لا يحيط به العباد ، ولا يحصون ثناءاً عليه ، فذاك لا يمنع أن يعلموا من أسمائه وصفاته ما علمهم سبحانه وتعالى ، كما أنهم إذا علموا أنه بكل شيء عليم ، وأنه على كل شيء قدير ، لم يلزم أن يعرفوا كيفية علمه وقدرته . وإذا عرفوا أنه حق موجود لم يلزم أن يعرفوا كيفية ذاته .

وهذا مما يستدل به على أن الراسخين فى العلم يعلمون التأويل ، فإن الناس متفقون على أنهم يعرفون تأويل المحكم ، ومعلوم أنهم لا يعرفون كيفية ما أخبر الله به عن نفسه فى الآيات المحكمات ، فدل ذلك على أن عدم العلم بالكيفية لا ينفى العلم بالتأويل الذي هو تفسير الكلام وبيان معناه ؛ بل يعلمون تأويل المحكم والمتشابه ، ولا يعرفون كيفية الرب لا فى هذا ، ولا في هذا .

فإن قيل : هذا يقدح فيما ذكرتم من الفرق بين التأويل الذي يراد به التفسير ، وبين التأويل الذي فى كتاب الله تعالى ، قيل لا يقدح فى ذلك ، فإن معرفة تفسير اللفظ ومعناه وتصور ذلك فى القلب غير معرفة الحقيقة الموجودة فى الخارج المرادة بذلك الكلام ، فإن الشيء له وجود فى الأعيان ، ووجود في الأذهان ، ووجود في اللسان ، ووجود فى البنان . فالكلام لفظ له معنى فى القلب ، ويكتب ذلك اللفظ بالخط ، فإذا عرف الكلام وتصور معناه فى القلب ، وعبر عنه باللسان ، فهذا غير الحقيقة الموجودة فى الخارج ، وليس كل من عرف الأول ، عرف عين الثانى .

مثال ذلك : أن أهل الكتاب يعلمون ما في كتبهم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم وخبره ونعته ، وهذا معرفة الكلام ومعناه وتفسيره ، وتأويل ذلك هو نفس محمد المبعوث ، فالمعرفة بعينه معرفة تأويل ذلك

الكلام ، وكذلك الإنسان قد يعرف الحج والمشاعر كالبيت والمسجد ومنى وعرفة ومزدلفة ويفهم معنى ذلك ، ولا يعرف أعيان الأمكنة حتى يشاهدها ، فيعرف أن الكعبة المشاهدة المذكورة في قوله : (وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ) وكذلك أرض عرفات هي المذكورة فى قوله : (فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ) وكذلك المشعر الحرام هي المزدلفة التى بين مأزمي عرفة ، ووادي محسر ، يعرف أنها المذكورة في قوله : (فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ) .

وكذلك الرؤيا قد يراها الرجل ، ويذكر له العابر تأويلها فيفهمه ويتصوره : مثل أن يقول : هذا يدل على أنه كان كذا ، ويكون كذا وكذا ، ثم إذا كان ذلك فهو تأويل الرؤيا ليس تأويلها نفس علمه وتصوره وكلامه ، ولهذا قال يوسف الصديق : (هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ) وقال : (لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا) فقد أنبأهما بالتأويل قبل أن يأتى التأويل ، والإنباء ليس هو التأويل ، فالنبى صلى الله عليه وسلم عالم بالتأويل ، وإن كان التأويل لم يقع بعد ، وإن كان لا يعرف متى يقع ، فنحن نعلم تأويل ما ذكر الله فى القرآن من الوعد والوعيد ، وإن كنا لا نعرف متى يقع هذا التأويل المذكور فى قوله سبحانه وتعالى : (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ) الآية . وقال تعالى : (لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ)

فنحن نعلم مستقر نبإ الله ، وهو الحقيقة التى أخبر الله بها . ولا نعلم متى يكون ، وقد لا نعلم كيفيتها وقدرها ، وسواء فى هذا تأويل المحكم والمتشابه . كما قال الله تعالى : (قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ)

قال النبي صلى الله عليه وسلم إنها كائنة ، ولم يأت تأويلها بعد ، فقد عرف تأويلها ، وهو وقوع الاختلاف والفتن . وإن لم يعرف متى يقع ، وقد لا يعرف صفته ولا حقيقته ، فإذا وقع عرف العارف أن هذا هو التأويل الذي دلت عليه الآية ، وغيره قد لا يعرف ذلك أو ينساه بعد ما كان عرفه ، فلا يعرف أن هذا تأويل القرآن ، فإنه لما نزل قوله تعالى : (وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً) قال الزبير : لقد قرأنا هذه الآية زمانا وما أرانا من أهلها ، وإذا نحن المعنيون بها : (وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً) .

وأيضاً فإن الله قد ذم في كتابه من يسمع القرآن ولا يفقه معناه ، وذم من لم يتدبره ومدح من يسمعه ويفقهه ، فقال تعالى : (وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ) الآية ، فأخبر أنهم كانوا يقولون لأهل العلم : ماذا قال الرسول فى هذا الوقت المتقدم فدل على أن أهل العلم من الصحابة كانوا يعرفون من معانى كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لا يعرفه غيرهم ، وهؤلاء هم الراسخون فى العلم

الذين يعلمون معانى القرآن محكمه ومتشابهه ، وهذا كقوله تعالى : (وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ) فدل على أن العالمين يعقلونها ، وإن كان غيرهم لا يعقلها .

والأمثال : هي المتشابه عند كثير من السلف ، وهي إلى المتشابه أقرب من غيرها لما بين الممثل والممثل به من التشابه ، وعقل معناها هو معرفة تأويلها الذي يعرفه الراسخون فى العلم دون غيرهم ، ويشبه هذا قوله تعالى : (وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ) فلولا أنهم عرفوا معنى ما أنزل كيف عرفوا أنه حق أو باطل ، وهل يحكم على كلام لم يتصور معناه أنه حق أو باطل ؟ !

وقال تعالى : (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ) وقال : (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا)
وقال تعالى : (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ)
وقال تعالى : (فَبَشِّرْ عِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ)
وقال : (وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا)
وقال : (إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) وقال : (كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) وقال : (كِتَٰبٌ

فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا) إلى قوله : (وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ) .

فإذا كان كثير من القرآن أو أكثره مما لا يفهم أحد معناه لم يكن المتدبر المعقول إلا بعضه ، وهذا خلاف ما دل عليه القرآن ، لا سيما عامة ما كان المشركون ينكرونه كالآيات الخبرية ، والإخبار عن اليوم الآخر أو الجنة والنار ، وعن نفي الشركاء والأولاد عن الله ، وتسميته بالرحمن فكان عامة إنكارهم لما يخبرهم به من صفات الله نفياً وإثباتاً ، وما يخبرهم به عن اليوم الآخر ، وقد ذم الله من لا يعقل ذلك ولا يفقهه ولا يتدبره .

فعلم أن الله يأمر بعقل ذلك وتدبره ، وقد قال تعالى : (وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ) وقال : (وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا) الآية .

وقال تعالى : (وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا) الآية .

وقد استدل بعضهم بأن الله لم ينف عن غيره علم شيء إلا

كان منفرداً به ، كقوله : (قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ) وقوله : (لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ) وقوله : (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) .

فيقال ليس الأمر كذلك ، بل هذا بحسب العلم المنفي ، فإن كان مما استأثر الله به قيل فيه ذلك ، وإن كان مما علمه بعض عباده ذكر ذلك ، كقوله : (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ) وقوله : (عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا) إلى قوله : (رَصَدًا) وقوله : (قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ) وقوله : (شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ) وقوله : (لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ) إلى قوله : (شَهِيدًا) وقوله : (قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ) وقال للملائكة : (إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) وقالت الملائكة : (لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ) وفي كثير من كلام الصحابة الله ورسوله أعلم ، وفي الحديث المشهور : « أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك » .

وقد قال تعالى : (فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ) ، وأول النزاع النزاع في معاني القرآن ، فإن لم يكن الرسول عالماً بمعانيه

امتنع الرد إليه ، وقد اتفق الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر أئمة الدين أن السنة تفسر القرآن وتبينه ، وتدل عليه وتعبر عن مجمله ، وأنها تفسر مجمل القرآن من الأمر والخبر . وقال تعالى : (كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ) إلى قوله : (فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ) .

ومن أعظم الاختلاف الاختلاف فى المسائل العلمية الخبرية المتعلقة بالإيمان بالله واليوم الآخر ، فلا بد أن يكون الكتاب حاكماً بين الناس فيما اختلفوا فيه من ذلك ، ويمتنع أن يكون حاكماً إن لم يكن معرفة معناه ممكناً ، وقد نصب الله عليه دليلا ، وإلا فالحاكم الذي يبين ما فى نفسه لا يحكم بشيء ، وكذلك إذا قيل هو الحاكم بالكتاب ، فإن حكمه فصل يفصل به بين الحق والباطل ، وهذا إنما يكون بالبيان ، وقد قال تعالى فى القرآن : (إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ) أي فاصل يفصل بين الحق والباطل ، فكيف يكون فصلا إذا لم يكن إلى معرفة معناه سبيل ؟! .

وأيضاً فإن الله قال : (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) فذم هؤلاء الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى ، كما ذم الذين يحرفون معناه ويكذبون ، فقال تعالى : (أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا

عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) إلى قوله : (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) فهذا أحد الصنفين ، ثم قال تعالى : (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ) أي تلاوة (وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) ثم ذم الذين يفترون كتباً يقولون هي من عند الله ، وما هي من عند الله ، فقال : (فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ) إلى قوله : (يَكْسِبُونَ) .

وهذه الأصناف الثلاثة تستوعب أهل الضلال والبدع ، فإن أهل البدع الذين ذمهم الله ورسوله نوعان :

أحدهما : عالم بالحق يتعمد خلافه ، والثاني جاهل متبع لغيره .

فالأولون : يبتدعون ما يخالف كتاب الله ، ويقولون هو من عند الله ، إما أحاديث مفتريات ، وإما تفسير وتأويل للنصوص باطل ، ويعضدون ذلك بما يدعونه من الرأي والعقل ، وقصدهم بذلك الرياسة والمأكل ، فهولاء يكتبون الكتاب بأيديهم ليشتروا به ثمناً قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم من الباطل ، وويل لهم مما يكسبون من المال على ذلك ، وهؤلاء إذا عورضوا بنصوص الكتب الإلهية ، وقيل لهم هذه تخالفكم ، حرفوا الكلم عن مواضعه بالتأويلات الفاسدة ، قال الله تعالى : (أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) .

وأما النوع الثانى : الجهال . فهؤلاء الأميون الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني ، وإن هم إلا يظنون . فعن ابن عباس وقتادة فى قوله : (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ) أي غير عارفين بمعاني الكتاب ، يعلمونها حفظاً وقراءة بلا فهم ، ولا يدرون ما فيه ، وقوله : (إِلَّآ أَمَانِيَّ) أي تلاوة ، فهم لا يعلمون فقه الكتاب ، إنما يقتصرون على ما يسمعونه يتلى عليهم ، قاله الكسائي والزجاج ، وكذلك قال ابن السائب لا يحسنون قراءة الكتاب ، ولا كتابته إلا أمانى ، إلا ما يحدثهم به علماؤهم . وقال أبو روق وأبو عبيدة أي تلاوة وقراءة عن ظهر القلب ، ولا يقرأونها فى الكتب ، ففي هذا القول جعل الأماني التى هي التلاوة تلاوة الأميين أنفسهم ، وفي ذلك جعله ما يسمعونه من تلاوة علمائهم ، وكلا القولين حق ، والآية تعمها فإنه سبحانه وتعالى قال : (لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ) لم يقل لا يقرأون ولا يسمعون ، ثم قال : (إِلَّآ أَمَانِيَّ) وهذا استثناء منقطع . لكن يعلمون أمانى إما بقراءتهم لها ، وإما بسماعهم قراءة غيرهم ، وإن جعل الاستثناء متصلا كان التقدير لا يعلمون الكتاب إلا علم أماني ، لاعلم تلاوة فقط بلا فهم ، والأمانى جمع أمنية وهي التلاوة ، ومنه قوله تعالى : (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) قال الشاعر :

تمنى كتاب الله أول ليلة وآخرها لاقى حمام المقادر

والأميون نسبة إلى الأمة ، قال بعضهم إلى الأمة وما عليه العامة ، فمعنى الأمي العامى الذي لا تميز له . وقد قال الزجاج هو على خلق الأمة التى لم تتعلم ، فهو على جبلته ، وقال غيره هو نسبة إلى الأمة ؛ لأن الكتابة كانت فى الرجال دون النساء ولأنه على ما ولدته أمه .

والصواب : أنه نسبة إلى الأمة كما يقال عامي نسبة إلى العامة التى لم تتميز عن العامة بما تمتاز به الخاصة ، وكذلك هذا لم يتميز عن الأمة بما يمتاز به الخاصة من الكتابة والقراءة ، ويقال الأمي لمن لا يقرأ ولا يكتب كتابا ، ثم يقال لمن ليس لهم كتاب منزل من الله يقرأونه وإن كان قد يكتب ويقرأ مالم ينزل ؛ وبهذا المعنى كان العرب كلهم أميين ، فإنه لم يكن عندهم كتاب منزل من الله ، قال الله تعالى : (وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟) وقال : (هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ) وقد كان فى العرب كثير ممن يكتب ويقرأ المكتوب ، وكلهم أميون . فلما نزل القرآن عليهم لم يبقوا أميين باعتبار أنهم لا يقرأون كتابا من حفظهم ، بل هم يقرأون القرآن من حفظهم ، وأناجيلهم في صدورهم ، لكن بقوا أميين باعتبار أنهم لا يحتاجون إلى كتابة دينهم ، بل قرآنهم محفوظ فى قلوبهم ، كما

فى الصحيح عن عياض بن حمار المجاشعي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خلقت عبادي يوم خلقتهم حنفاء — وقال فيه — إنى مبتليك ومبتل بك، وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظان »[1].

فأمتنا ليست مثل أهل الكتاب الذين لا يحفظون كتبهم فى قلوبهم ، بل لو عدمت المصاحف كلها كان القرآن محفوظاً فى قلوب الأمة ، وبهذا الاعتبار فالمسلمون أمة أمية بعد نزول القرآن وحفظه . كما فى الصحيح عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنا أمة أمية لا نحسب ولا نكتب الشهر هكذا وهكذا » . فلم يقل إنا لا نقرأ كتابا ، ولا نحفظ ، بل قال : لا نكتب ولا نحسب ، فديننا لا يحتاج أن يكتب ويحسب ، كما عليه أهل الكتاب من أنهم يعلمون مواقيت صومهم وفطرهم بكتاب وحساب ، ودينهم معلق بالكتب لو عدمت لم يعرفوا دينهم ، ولهذا يوجد أكثر أهل السنة يحفظون القرآن والحديث أكثر من أهل البدع ، وأهل البدع فيهم شبه بأهل الكتاب من بعض الوجوه .

وقوله : (فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ) هو أمي بهذا الاعتبار ؛ لأنه لا يكتب ولا يقرأ مافى الكتب ، لا باعتبار أنه لا يقرأ من حفظه ، بل كان يحفظ القرآن أحسن حفظ ، والأمي فى اصطلاح الفقهاء خلاف القارئ ؛ وليس هو خلاف الكاتب بالمعنى الأول ، ويعنون به

(١) الحديث في صحيح مسلم ج٤ ص ٢١٩٧ رقم ٢٨٦٥ بلفظ مختلف

فى الغالب من لا يحسن الفاتحة ، فقوله تعالى : (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ) أي لا يعلمون الكتاب إلا تلاوة لا يفهمون معناها ، وهذا يتناول من لا يحسن الكتابة ولا القراءة من قبل ، وإنما يسمع أماني علما ، كما قال ابن السائب . ويتناول من يقرأه عن ظهر قلبه ولا يقرأه من الكتاب ، كما قال أبو روق . وأبو عبيدة .

وقد يقال : إن قوله : (لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ) أي الخط ، أي لا يحسنون الخط ، وإنما يحسنون التلاوة ، ويتناول أيضاً من يحسن الخط والتلاوة ولا يفهم ما يقرأه ويكتبه ، كما قال ابن عباس وقتادة غير عارفين معاني الكتاب ، يعلمونها حفظاً وقراءة بلا فهم ، ولا يدرون ما فيه ، والكتاب هنا المراد به الكتاب المنزل ، وهو التوراة ؛ ليس المراد به الخط ، فإنه قال : (وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) فهذا يدل على أنه نفى عنهم العلم بمعاني الكتاب ، وإلا فكون الرجل لا يكتب بيده لا يستلزم أن يكون لا علم عنده ، بل يظن ظنا ؛ بل كثير ممن يكتب بيده لا يفهم ما يكتب ، وكثير ممن لا يكتب يكون عالماً بمعانى ما يكتبه غيره .

وأيضاً فإن الله ذكر هذا فى سياق الذم لهم ، وليس فى كون الرجل لا يخط ذم إذا قام بالواجب ، وإنما الذم على كونه لا يعقل

الكتاب الذي أنزل إليه ، سواء كتبه وقرأه أو لم يكتبه ولم يقرأه ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « هذا أوان يرفع العلم . فقال له زياد بن لبيد : كيف يرفع العلم وقد قرأنا القرآن فوالله لنقرأنه ولنقرئنه نساءنا ، فقال له : إن كنت لأحسبك من أفقه أهل المدينة ، أو ليست التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا تغني عنهم » وهو حديث معروف ، رواه الترمذي وغيره . ولأنه قال تعالى قبل هذا : ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ فأولئك عقلوه ثم حرفوه ، وهم مذمومون سواء كانوا يحفظونه بقلوبهم ويكتبونه ويقرأونه حفظاً وكتابة ، أو لم يكونوا كذلك ، فكان من المناسب أن يذكر الذين لا يعقلونه وهم الذين لا يعلمونه إلا أماني ، فإن القرآن أنزله الله كتابا متشابها مثانى ، ويذكر فيه الأقسام والأمثال فيستوعب الأقسام ، فيكون مثاني ويذكر الأمثال فيكون متشابها ، وهؤلاء وإن كانوا يكتبون ويقرأون فهم أميون من أهل الكتاب ، كما نقول نحن لمن كان كذلك هو أمي ، وساذج ، وعامي ، وإن كان يحفظ القرآن ويقرأ المكتوب إذا كان لا يعرف معناه .

وإذا كان الله قد ذم هؤلاء الذين لا يعرفون الكتاب إلا تلاوة دون فهم معانيه ، كما ذم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ، دل على أن كلا النوعين مذموم : الجاهل الذي لا

يفهم معانى النصوص ، والكاذب الذي يحرف الكلم عن مواضعه ، وهذا حال أهل البدع ، فإنهم أحد رجلين : إما رجل يحرف الكلم عن مواضعه ، ويتكلم برأيه ، ويؤوله بما يضيفه إلى الله فهؤلاء يكتبون الكتاب بأيديهم ويقولون هو من عند الله ، ويجعلون تلك المقالات التى ابتدعوها هي مقالة الحق ، وهي التى جاء بها الرسول ، والتى كان عليها السلف ، ونحو ذلك ثم يحرفون النصوص التى تعارضها . فهؤلاء إذا تعمدوا ذلك ، وعلموا أن الذي يفعلونه مخالف للرسول ، فهم من جنس هؤلاء اليهود ، وهذا يوجد فى كثير من الملاحدة ، ويوجد في بعض الأشياء فى غيرهم .

وأما الذين قصدهم اتباع الرسول باطنا وظاهراً ، وغلطوا فيما كتبوه وتأولوه فهؤلاء ليسوا من جنسهم ؛ لكن قد وقع بسبب غلطهم ما هو من جنس ذلك الباطل ، كما قيل : إذا زل العالم زل بزلته عالم ، وهذا حال المتأولين من هذه الأمة . وإما رجل مقلد أمي لا يعرف من الكتاب إلا ما يسمعه منهم ، أو ما يتلوه هو ، ولا يعرف إلا أمانى وقد ذمه الله على ذلك ، فعلم أن الله ذم الذين لا يعرفون معاني القرآن ولا يتدبرونه ولا يعقلونه ، كما صرح القرآن بذمهم فى غير موضع ، فيمتنع مع هذا أن يقال : إن أكثر القرآن أو كثيرا منه لا يعلمه أحد من الخلق إلا أماني ، لا جبريل ولا محمد ولا الصحابة ولا أحد من

المسلمين ، فإن هذا تشبيه لهم بهؤلاء فيما ذمهم الله به .

فإن قيل : أفلا يجب على كل مسلم معرفة معنى كل آية ؟ قيل : نعم ، لكن معرفة معاني الجميع فرض على الكفاية ، وعلى كل مسلم معرفة مالا بد منه ، وهؤلاء ذمهم الله لأنهم لا يعلمون معاني الكتاب إلا تلاوة ، وليس عندهم إلا الظن ، وهذا يشبه قوله : (وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ) .

فإن قيل : فقد قال بعض المفسرين : (إِلَّآ أَمَانِيَّ) إلا ما يقولونه بأفواههم كذبا وباطلا ، وروى هذا عن بعض السلف واختاره الفراء . وقال : (الأماني) الأكاذيب المفتعلة ، قال بعض العرب لابن دأب — وهو يحدث — أهذا شيء رويته أم تمنيته أي افتعلته ، فأراد بالأماني الأشياء التي كتبها علماؤهم من قبل أنفسهم ثم أضافوها إلى الله من تغيير صفة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال بعضهم : (الأماني) يتمنون على الله الباطل والكذب ، كقولهم : (لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً) وقولهم : (لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ) وقولهم : (نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ) وهذا أيضاً يروى عن بعض السلف .

قيل : كلا القولين ضعيف ، والصواب الأول ؛ لأنه سبحانه قال :

(وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ) وهـذا الاستثناء إما أن يكون متصلا أو منقطعاً ، فإن كان متصلا لم يجز استثنـاء الكذب ولا أماني القلب من الكتاب ، وإن كان منقطعاً فالاستثناء المنقطع إنما يكون فيما كان نظير المذكور وشبيهاً له من بعض الوجوه ، فهو من جنسـه الذي لم يذكر فى اللفظ ؛ ليس من جنس المذكور ؛ ولهذا لا يصلح المنقطع حيث يصلح الاستثناء المفرغ ، وذلك كقوله : (لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ) ثم قال : (إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ) فهذا منقطع ؛ لأنـه يحسن أن يقـال : (لا يذوقون إلا الموتة الأولى) وكذلك قوله تعـالى : (لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ)

لأنه يحسن أن يقال : لا تأكلوا أموالـكم بينكم إلا أن تكون تجارة ، وقوله : (مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ) يصلح أن يقال وما لهم إلا اتباع الظن ، فهنا لما قال : (لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ) يحسن أن يقال لا يعلمونه إلا أمانى ، فإنهم يعلمونه تلاوة يقرأونها ويسمعونهـا ولا يحسن أن يقال لا يعلمون إلا ما تتمناه قلوبهم ، أو لا يعلمون إلا الكذب ، فإنهم قد كانوا يعلمون ما هو صدق أيضاً ، فليس كل ماعلموه من علمـائهم كان كذبا ، بخـلاف الذي لا يعقل معنى الكتـاب ، فإنه لا يعلم إلا تلاوة .

وأيضاً فهذه الأماني الباطلة التى تمنوها بقلوبهم وقالوها بألسنتهم .

كقوله تعالى: (تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ) قد اشتركوا فيها كلهم فلا يخص بالذم الأميون منهم ، وليس لكونهم أميين مدخل فى الذم بهذه ، ولا لنفي العلم بالكتاب مدخل في الذم بهذه ؛ بل الذم بهذه مما يعلم أنها باطل أعظم من ذم من لا يعلم أنها باطل ؛ ولهذا لما ذم الله بها عمم ولم يخص فقال تعالى : (وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ) الآية .

وأيضاً فإنه قال : (وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) فدل على أنه ذمهم على نفى العلم ، وعلى أنه ليس معهم إلا الظن ، وهذا حال الجاهل بمعانى الكتاب لا حال من يعلم أنه يكذب ، فظهر أن هذا الصنف ليس هم الذين يقولون بأفواههم الكذب والباطل ، ولو أريد ذلك لقيل لا يقولون إلا أماني ، لم يقل لا يعلمون الكتاب إلا أمانى ، بل ذلك الصنف هم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ، ويكتبون الكتاب بأيديهم ليشتروا به ثمنا قليلا ، فهم يحرفون معانى الكتاب ، وهم يحرفون لفظه لمن لم يعرفه ، ويكذبون فى لفظهم وخطهم .

وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر

ضب لدخلتموه ، قالوا : يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال فمن ؟ » وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليـه وسلم قال : « لتأخذن أمتى مآخذ الأمم قبلها شبراً بشبر وذراعا بذراع قالوا : يا رسول الله فارس والروم ؟ قال ومن الناس إلا أولئك » .

فهذا دليل على أن ما ذم الله به أهـل الـكتاب فى هـذه الآية يكون فى هذه الأمة من يشبههم فيه ، وهـذا حق قد شوهـد ، قال تعالى : (سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ) فمن تدبر مـا أخبر الله به ورسوله رأى أنه قد وقع من ذلك أمور كثيرة ؛ بل أكثر الأمور ، ودله ذلك على وقوع الباقي .

فصـــــل

فقد تبين أن الواجب طلب علم ما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم من الـكتاب والحكمة ، ومعرفة ما أراد بذلك كما كان على ذلك الصحابة والتابعون لهم بإحسان ، ومن سلك سبيلهم ، فـكل مـا يحتاج الناس إليه فى دينهم ، فقد بينه الله ورسوله بيانا شافياً ، فكيف بأصول التوحيد والإيمان ، ثم إذا عرف ما بينه الرسول نظر فى أقوال

الناس ، وما أرادوه بها ، فعرضت على الكتاب والسنة . والعقل الصريح دائماً موافق للرسول صلى الله عليه وسلم لا يخالفه قط ، فإن الميزان مع الكتاب ، والله أنزل الكتاب بالحق والميزان ؛ لكن قد تقصر عقول الناس عن معرفة تفصيل ما جاء به ، فيأتيهم الرسول بما عجزوا عن معرفته وحاروا فيه ، لا بما يعلمون بعقولهم بطلانه ؛ فالرسل صلوات الله وسلامه عليهم تخبر بمحارات العقول لا تخبر بمحالات العقول ، فهذا سبيل الهدى والسنة والعلم ، وأما سبيل الضلال والبدعة والجهل فعكس ذلك : أن يبتدع بدعة برأي رجال وتأويلاتهم ، ثم يجعل ما جاء به الرسول تبعاً لها ، ويحرف ألفاظه ، ويتأول على وفق ما أصلوه .

وهؤلاء تجدهم فى نفس الأمر لا يعتمدون على ما جاء به الرسول ، ولا يتلقون الهدى منه ، ولكن ما وافقهم منه قبلوه ، وجعلوه حجة لا عمدة ، وما خالفهم تأولوه ، كالذين يحرفون الكلم عن مواضعه أو فوضوه ، كالذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى ، وهؤلاء قد لا يعرفون ما جاء به الرسول : إما عجزاً وإما تفريطاً ، فإنه يحتاج إلى مقدمتين : أن الرسول قال كذا ، وأنه أراد به كذا ، أما الأولى فعامتهم لا يرتابون فى أنه جاء بالقرآن وإن كان من غلاة أهل البدع من يرتاب في بعضه لكن الأحاديث عامة أهل البدع جهال بها ، وهم يظنون أن هذه رواها آحاد يجوزون عليهم الكذب والخطأ ، ولا يعرفون من كثرة

طرقها وصفات رجالها ، والأسباب الموجبة للتصديق بها ما يعلمه أهل العلم بالحديث ؛ فإن هؤلاء يقطعون قطعاً يقيناً بعامة المتون الصحيحة التى فى الصحيحين كما قد بسطناه فى غير هذا الموضع .

وأما المقدمة الثانية : فإنهم قد لا يعرفون معانى القرآن والحديث ، ومنهم من يقول : الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين بمراد المتكلم ، وقد بسطنا الكلام على فساد ذلك فى غير هذا الموضع .

وكثير منهم إنما ينظر من تفسير القرآن والحديث فيما يقوله موافقوه على المذهب فيتأول تأويلاتهم ، فالنصوص التى توافقهم يحتجون بها ، والتى تخالفهم يتأولونها ، وكثير منهم لم يكن عمدتهم في نفس الأمر اتباع نص أصلا ، وهذا في البدع الكبار مثل الرافضة والجهمية ، فإن الذي وضع الرفض كان زنديقاً ابتدأ تعمد الكذب الصريح الذي يعلم أنه كذب ، كالذين ذكرهم الله من اليهود الذين يفترون على الله الكذب وهم يعلمون ، ثم جاء من بعدهم من ظن صدق ما افتراه أولئك ، وهم فى شك منه ، كما قال تعالى : (وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ)

وكذلك الجهمية ليس معهم على نفي الصفات وعلو الله على العرش ونحو ذلك نص أصلا ، لا آية ولا حديث ، ولا أثر عن الصحابة ،

بل الذي ابتدأ ذلك لم يكن قصده اتباع الأنبيـاء ، بل وضع ذلك كما وضعت عبادة الأوثان ، وغير ذلك من أديان الـكفار ، مع علمهم بأن ذلك مخالف للرسل ، كما ذكر عن مبدلة اليهود ، ثم فشا ذلك فيمن لم يعرفوا أصل ذلك .

وهـذا بخلاف بدعة الخوارج ؛ فإن أصلها ما فهموه من القرآن فغلطوا فى فهمه ، ومقصودهم اتباع القرآن باطناً وظاهراً ، ليسوا زنادقة .

وكذلك القدرية أصل مقصودهم تعظيم الأمر والنهي والوعد والوعيد الذي جاءت به الرسل ، ويتبعون من القرآن ما دل على ذلك . فعمرو ابن عبيد وأمثاله لم يكن أصل مقصودهم معاندة الرسول صلى الله عليه وسلم كالذي ابتدع الرفض .

وكذلك الإرجاء إنما أحـدثه قوم قصـدهم جعل أهـل القبلة كلهم مؤمنين ليسوا كفـاراً ، قابلوا الخوارج والمعتزلة فصـاروا فى طرف آخر .

وكذلك التشيع المتوسط ــ الذي مضمونه تفضيل علي وتقـديمه على غيره ، ونحو ذلك لم يكن هـذا من إحداث الزنادقة ، بخـلاف دعوى النص فيه والعصمة ، فإن الذي ابتدع ذلك كان منافقاً زنديقاً

ولهذا قال : عبد الله بن المبارك ويوسف بن أسباط وغيرهما : أصول البدع أربعة : الشيعة ، والخوارج ، والقدرية ، والمرجئة . قالوا : والجهمية ليسوا من الثنتين وسبعين فرقة . وكذلك ذكر أبو عبد الله بن حامد عن أصحاب أحمد فى ذلك قولين ، هذا أحدهما . وهذا أرادوا به التجهم المحض الذي كان عليه جهم نفسه ومتبعوه عليه ، وهو نفي الأسماء مع نفي الصفات ، بحيث لا يسمى الله بشيء من أسمائه الحسنى ، ولا يسميه شيئاً ولا موجوداً ولا غير ذلك ، وإنما نقل عنه أنه كان يسميه قادراً — لأن جميع الأسماء يسمى بها الخلق ، فزعم أنه يلزم منها التشبيه ، بخلاف القادر — فإنه كان رأس الجبرية ، وعنده ليس للعبد قدرة ولا فعل ، ولا يسمى غير الله قادراً ؛ فلهذا نقل عنه أنه سمى الله قادراً .

وشر منه نفاة الأسماء والصفات ، وهم الملاحدة من الفلاسفة والقرامطة ، ولهذا كان هؤلاء عند الأئمة قاطبة ملاحدة منافقين ، بل فيهم من الكفر الباطن ما هو أعظم من كفر اليهود والنصارى ، وهؤلاء لا ريب أنهم ليسوا من الثنتين وسبعين فرقة ، وإذا أظهروا الإسلام فغايتهم أن يكونوا منافقين ، كالمنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأولئك كانوا أقرب إلى الإسلام من هؤلاء ، فإنهم كانوا يلتزمون شرائع الإسلام الظاهرة ، وهؤلاء قد

يقولون برفعها ، فلا صوم ولا صلاة ولا حج ولا زكاة ؛ لكن قد يقال : إن أولئك كانوا قد قامت عليهم الحجة بالرسالة أكثر من هؤلاء .

وأما من يقول ببعض التجهم كالمعتزلة ونحوهم الذين يتدينون بدين الإسلام باطناً وظاهراً فهؤلاء من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بلا ريب .

وكذلك من هو خير منهم كالكلابية والكرامية .

وكذلك الشيعة المفضلين لعلي ، ومن كان منهم يقول بالنص والعصمة مع اعتقاده نبوة محمد صلى الله عليه وسلم باطناً وظاهراً ، وظنه أن ما هو عليه هو دين الإسلام ، فهؤلاء أهل ضلال وجهل ليسوا خارجين عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، بل هم من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً .

وعامة هؤلاء ممن يتبع ما تشابه من القرآن ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، كما أن من المنافقين والكفار من يفعل ذلك ، ولهذا قال طائفة من المفسرين : كالربيع بن أنس : هم النصارى ، كنصارى نجران وقالت طائفة كالكلبي : هم اليهود : وقالت طائفة كابن جريج : هم المنافقون . وقالت طائفة كالحسن هم الخوارج . وقالت طائفة كقتادة : هم الخوارج والشيعة . وكان قتادة إذا قرأ هذه الآية : (فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي

(قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ) يقول إن لم يكونوا الحرورية والسبئية فلا أدري من هم . والسبئية نسبة إلى عبد الله بن سبأ رأس الرافضة .

فصل

والمعنى الصحيح الذي هو نفي المثل والشريك والند قد دل عليه قوله سبحانه (أَحَدٌ) وقوله : (وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ) وقوله : (هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا) وأمثال ذلك فالمعانى الصحيحة ثابتة بالكتاب والسنة ، والعقل يدل على ذلك .

وقول القائل : الأحد أو الصمد أو غير ذلك هو الذي لا ينقسم ولا يتفرق ، أو ليس بمركب ونحو ذلك . هذه العبارات إذا عنى بها أنه لا يقبل التفرق والانقسام فهذا حق ، وأما إن عنى به أنه لا يشار إليه بحال ، أو من جنس ما يعنون بالجوهر الفرد أنه لا يشار إلى شيء منه دون شيء ، فهذا عند أكثر العقلاء يمتنع وجوده ، وإنما يقدر في الذهن تقديراً ، وقد علمنا أن العرب حيث أطلقت لفظ « الواحد » و « الأحد » نفيا وإثباتا لم ترد هذا المعنى . فقوله تعالى : (وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ) لم يرد به هذا المعنى الذي فسروا به الواحد والأحد ، وكذلك قوله : (وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً

فَلَهَا ٱلنِّصۡفُ) وكذلك قوله : (وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ) فإن المعنى لم يكن له أحد من الآحاد كفوا له ، فإن كان الأحد عبارة عما لا يتميز منه شيء عن شيء ، ولا يشار إلى شيء منه دون شيء ، فليس فى الموجودات ما هو أحد إلا ما يدعونه من الجوهر الفرد ومن رب العالمين ، وحينئذ لا يكون قد نفى عن شيء من الموجودات أن يكون كفواً للرب ؛ لأنه لم يدخل في مسمى أحد .

وقد بسطنا الكلام على هذا بسطا كثيراً في المباحث العقلية والسمعية التى يذكرها نفاة الصفات من الجهمية وأتباعهم فى كتابنا المسمى (بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية) .

ولهذا لما احتجت الجهمية على السلف ـــ كالإمام أحمد وغيره ـــ على نفي الصفات باسم الواحد ، قال أحمد : قالوا لا تكونون موحدين أبداً حتى تقولوا قد كان الله ولا شيء ، قلنا نحن نقول كان الله ولا شيء ، ولكن إذا قلنا أن الله لم يزل بصفاته كلها أليس إنما نصف إلهاً واحداً ، وضربنا لهم فى ذلك مثلا : فقلنا : أخبرونا عن هذه النخلة ، أليس لها جذع وكرب وليف وسعف وخوص وجمار واسمها شيء واحد ، وسميت نخلة بجميع صفاتها ؟ فكذلك الله ـــ وله المثل الأعلى ـــ بجميع صفاته إله واحد ، لا نقول : إنه قد كان فى وقت من الأوقات ولا قدرة له حتى خلق لنفسه قدرة ، ولا نقول قد كان فى وقت من الأوقات لا يعلم حتى

خلق له علماً ، ولكن نقول لم يزل عالما قادرا مالكا . لا متى ولا كيف . ومما يبين هذا أن سبب نزول هذه السورة الذي ذكره المفسرون يدل على ذلك فإنهم ذكروا أسبابا .

أحدها : ما تقدم عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : انسب لنا ربك فنزلت هذه السورة .

والثاني : أن عامر بن الطفيل قال للنبي صلى الله عليه وسلم : « إلام تدعونا إليه يامحمد ؟ قال : إلى الله ، قال : فصفه لي ، أمن ذهب هو ، أم من فضة ، أم من حديد ؟ فنزلت هذه السورة » وروى ذلك عن ابن عباس من طريق أبي ظبيان ، وأبي صالح عنه .

والثالث : أن بعض اليهود قال ذلك ، قالوا : من أي جنس هو . وممن ورث الدنيا . ولمن يورثها ؟ فنزلت هذه السورة ، قاله قتادة والضحاك ، قال الضحاك وقتادة ومقاتل : « جاء ناس من أحبار اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : يامحمد : صف لنا ربك . لعلنا نؤمن بك ، فإن الله أنزل نعته في التوراة ، فأخبرنا به من أي شيء هو ؟ ومن أي جنس هو : أمن ذهب ؟ أم من نحاس هو ؟ أم من صفر ؟ أم من حديد ؟ أم من فضة ؟ وهل يأكل ويشرب ؟ وممن ورث الدنيا ؟ ولمن يورثها ؟ فأنزل الله هذه السورة » وهي نسبة الله خاصة .

والرابع : ما روى عن الضحاك عن ابن عباس أن وفد نجران قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم بسبعة أساقفة من بني الحارث بن كعب : منهم السيد والعاقب ، فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : صف لنا ربك من أي شيء هو ؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن ربى ليس من شيء ، وهو بائن من الأشياء ، فأنزل الله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ » فهؤلاء سألوا هل هو من جنس من أجناس المخلوقات ؟ وهل هو من مادة ، فبين الله تعالى أنه أحد ، ليس من جنس شيء من المخلوقات ، وأنه صمد ليس من مادة بل هو صمد لم يلد ولم يولد ، وإذا نفى عنه أن يكون مولودا من مادة الوالد ؛ فلأن ينفى عنه أن يكون من سائر المواد أولى وأحرى ، فإن المولود من نظير مادته أكمل من مادة ما خلق من مادة أخرى ، كما خلق آدم من الطين ، فالمادة التى خلق منها أولاده أفضل من المادة التى خلق منها هو ، ولهذا كان خلقه أعجب . فإذا نزه الرب عن المادة العليا فهو عن المادة السفلى أعظم تنزيها ، وهذا كما أنه إذا كان منزها عن أن يكون أحد كفوا له ، فلأن يكون منزها عن أن يكون أحد أفضل منه أولى وأحرى .

وهذا مما يبين أن هذه السورة اشتملت على جميع أنواع التنزيه والتحميد ، على النفي والإثبات ، ولهذا كانت تعدل ثلث القرآن . فالصمدية تثبت الكمال المنافى للنقائص . والأحدية تثبت الانفراد بذلك

وكذلك إذا نزه نفسه عن أن يلد فيخرج منه مادة الولد التي هي أشرف المواد ، فلأن ينزه نفسه عن أن يخرج منه مادة غير الولد بطريق الأولى والأحرى ، وإذا نزه نفسه عن أن يخرج منه مواد للمخلوقات فلأن ينزه عن أن يخرج منه فضلات لا تصلح أن تكون مادة بطريق الأولى والأحرى ، والإنسان يخرج منه مادة الولد ، ويخرج منه مادة غير الولد ، كما يخلق من عرقه ورطوبته القمل والدود وغير ذلك . ويخرج منه المخاط والبصاق وغير ذلك. وقد نزه الله أهل الجنة عن أن يخرج منهم شيء من ذلك ، وأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أنهم لا يبولون ، ولا يتغوطون ، ولا يبصقون ، ولا يتمخطون ، وأنه يخرج منهم مثل رشح المسك ، وأنهم يجامعون بذكر لا يخفى ، وشهوة لا تنقطع ، ولا مني ، ولا منية ، وإذا اشتهى أحدهم الولد كان حمله ووضعه في زمن يسير .

فقد تضمن تنزيه نفسه عن أن يكون له ولد ، وأن يخرج منه شيء من الأشياء ، كما يخرج من غيره من المخلوقات ، وهذا أيضاً من تمام معنى الصمد ، كما سبق في تفسيره أنه الذي لا يخرج منه شيء ، وكذلك تنزيه نفسه عن أن يولد ــ فلا يكون من مثله ــ تنزيه له أن يكون من سائر المواد بطريق الأولى والأحرى ،

وقد تقدم في حديث أبي بن كعب أنه ليس شيء يولد إلا سيموت ،

وليس شيء يموت إلا يورث ، والله تعالى لا يموت ولا يورث ، وهذا رد لقول اليهود : ممن ورث الدنيا ، ولمن يورثها ؟ وكذلك ما نقل من سؤال النصارى : صف لنا ربك : من أي شيء هو ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن ربى ليس من شيء ، وهو بائن من الأشياء » ، وكذلك سؤال المشركين واليهود : أمن فضة هو ؟ أم من ذهب هو ؟ أم من حديد ؟ وذلك لأن هؤلاء عهدوا الآلهة التى يعبدونها من دون الله يكون لها مواد صارت منها ، فعباد الأوثان تكون أصنامهم من ذهب وفضة وحديد وغير ذلك .

وعباد البشر سواء كان البشر لم يأمروهم بعبادتهم ، أو أمروهم بعبادتهم ، كالذين يعبدون المسيح وعزيرا ، وكقوم فرعون الذين قال لهم (أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ) و(مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى) وقال لموسى : (لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ) وكالذي آتاه الله نصيبا من الملك الذي حاج إبراهيم فى ربه إذ قال إبراهيم : ربي الذي يحيي ويميت ، قال أنا أحيي وأميت ، وكالدجال الذي يدعى الإلهية ، وما من خلق آدم إلى قيام الساعة فتنة أعظم من فتنة الدجال ، وكالذين قالوا : (لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) .

وقد قال غير واحد من السلف : إن هذه أسماء قوم صالحين كانوا فيهم ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم بعد ذلك

عبدوهم ، وذلك أول ما عبدت الأصنام ، وأن هذه الأصنام صارت إلى العرب ، وقد ذكر ذلك البخاري فى صحيحه عن ابن عباس ، قال : صارت الأوثان التى فى قوم نوح فى العرب بعد . أماود فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبنى غطيف بالجرف عند سبإ ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذى الكلاع ، أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا ، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت .

ونوح عليه السلام أقام في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى التوحيد ، وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ، كما ثبت ذلك في الصحيح ، ومحمد صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل ، وكلا المرسلين بعث إلى مشركين يعبدون هذه الأصنام التى صورت على صور الصالحين من البشر ، والمقصود بعبادتها عبادة أولئك الصالحين .

وكذلك المشركون من أهل الكتاب ومن مبتدعة هذه الأمة وضلالها هذا غاية شركهم ، فإن النصارى يصورون فى الكنائس صور من يعظمونه من الإنس غير عيسى وأمه : مثل مارجرجس وغيره من القداديس ، ويعبدون تلك الصور ، ويسألونها ويدعونها ويقربون

لها القرابين ، وينذرون لها النذور ، ويقولون هذه تذكرنا بأولئك الصالحين . والشياطين تضلهم كما كانت تضل المشركين : تارة بأن يتمثل الشيطان فى صورة ذلك الشخص الذي يدعى ويعبد فيظن داعيه أنه قد أتى ، أو يظن أن الله صور ملكا على صورته ، فإن النصراني مثلا يدعو في الأسر وغيره مارجرجس أو غيره فيراه قد أتاه فى الهواء ، وكذلك أخر غيره ، وقد سألوا بعض بطارقتهم عن هذا كيف يوجد فى هذه الأماكن ، فقال : هذه ملائكة يخلقهم الله على صورته تغيث من يدعوه ، وإنما تلك شياطين أضلت المشركين .

وهكذا كثير من أهل البدع والضلال والشرك المنتسبين إلى هذه الأمة ، فإن أحدهم يدعو ويستغيث بشيخه الذي يعظمه وهو ميت ، أو يستغيث به عند قبره ويسأله ، وقد ينذر له نذراً ونحو ذلك ، ويرى ذلك الشخص قد أتاه في الهواء ودفع عنه بعض ما يكره ، أو كلمه ببعض ما سأله عنه ، ونحو ذلك فيظنه الشيخ نفسه أتى إن كان حيا ، حتى أنى أعرف من هؤلاء جماعات يأتون إلى الشيخ نفسه الذي استغاثوا به وقد رأوه أتاهم فى الهواء فيذكرون ذلك له . هؤلاء يأتون إلى هذا الشيخ ، وهؤلاء يأتون إلى هذا الشيخ ، فتارة يكون الشيخ نفسه لم يكن يعلم بتلك القضية ، فإن كان يحب الرياسة سكت وأوهم أنه نفسه أتاهم وأغاثهم ، وإن كان فيه صدق مع جهل وضلال قال : هذا ملك صوره الله على

صورتى . وجعل هذا من كرامات الصالحين ، وجعله عمدة لمن يستغيث بالصالحين ، ويتخذهم أربابا ، وأنهم إذا استغاثوا بهم بعث الله ملائكة على صورهم تغيث المستغيث بهم .

ولهذا أعرف غير واحد من الشيوخ الأكابر الذين فيهم صدق وزهد وعبادة لما ظنوا هذا من كرامات الصالحين صار أحدهم يوصى مريديه يقول : إذا كانت لأحدكم حاجة فليستغث بي ، وليستنجدنى وليستوصني ، ويقول : أنا أفعل بعد موتى ما كنت أفعل في حياتى ، وهو لا يعرف أن تلك شياطين تصورت على صورته لتضله ، وتضل أتباعه ، فتحسن لهم الإشراك بالله ، ودعاء غير الله ، والاستغاثة بغير الله ، وأنها قد تلقى في قلبه أنا نفعل بعد موتك بأصحابك ما كنا نفعل بهم فى حياتك ، فيظن هذا من خطاب إلهي ألقي فى قلبه ، فيأمر أصحابه بذلك ، وأعرف من هؤلاء من كان له شياطين تخدمه فى حياته بأنواع الخدم مثل خطاب أصحابه المستغيثين به ، وإعانتهم ، وغير ذلك ، فلما مات صاروا يأتون أحدهم فى صورة الشيخ ، ويشعرونه أنه لم يمت ، ويرسلون إلى أصحابه رسائل بخطاب ، وقد كان يجتمع بى بعض أتباع هذا الشيخ ، وكان فيه زهد وعبادة ، وكان يحبني ويحب هذا الشيخ ، ويظن أن هذا من الكرامات ، وأن الشيخ لم يمت ، وذكر لي الكلام الذي أرسله إليه بعد موته فقرأه فإذا هو كلام الشياطين

بعينه ، وقد ذكر لي غير واحد ممن أعرفهم أنهم استغاثوا بى فرأونى فى الهواء وقد أتيتهم وخلصتهم من تلك الشدائد ، مثل من أحاط به النصارى الأرمن ليأخذوه ، وآخر قد أحاط به العدو ومعه كتب ملطفات من مناصحين لو اطلعوا على ما معه لقتلوه ، ونحو ذلك . فذكرت لهم أنى ما دريت بما جرى أصلا ، وحلفت لهم على ذلك حتى لا يظنوا أنى كتمت ذلك كما تكتم الكرامات ، وأنا قد علمت أن الذي فعلوه ليس بمشروع ، بل هو شرك وبدعة ، ثم تبين لي فيما بعد ، وبينت لهم أن هذه شياطين تتصور على صورة المستغاث به .

وحكى لي غير واحد من أصحاب الشيوخ أنه جرى لمن استغاث بهم مثل ذلك ، وحكى خلق كثير أنهم استغاثوا بأحياء وأموات فرأوا مثل ذلك ، واستفاض هذا حتى عرف أن هذا من الشياطين ، والشياطين تغوى الإنسان بحسب الإمكان ، فإن كان ممن لا يعرف دين الإسلام أوقعته فى الشرك الظاهر ، والكفر المحض ، فأمرته أن لا يذكر الله ، وأن يسجد للشيطان ، ويذبح له ، وأمرته أن يأكل الميتة والدم ويفعل الفواحش ، وهذا يجري كثيراً في بلاد الكفر المحض وبلاد فيها كفر وإسلام ضعيف ، ويجري فى بعض مدائن الإسلام فى المواضع التى يضعف إيمان أصحابها ، حتى قد جرى ذلك في مصر والشام على أنواع يطول وصفها ، وهو فى أرض الشرق قبل ظهور

الإسلام فى التتار كثير جداً ، وكلما ظهر فيهم الإسلام وعرفوا حقيقته قلت آثار الشياطين فيهم ، وإن كان مسلماً يختار الفواحش والظلم أعانته على الظلم والفواحش ، وهذا كثير جداً . أكثر من الذي قبله فى البلاد التى فى أهلها إسلام وجاهلية ، وبر ، وفجور ، وإن كان الشيخ فيه إسلام وديانة ولكن عنده قلة معرفة بحقيقة ما بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم ، وقد عرف من حيث الجملة أن لأولياء الله كرامات ، وهو لا يعرف كمال الولاية ، وأنها الإيمان والتقوى واتباع الرسل باطناً وظاهراً ، أو يعرف ذلك مجملا ولا يعرف من حقائق الإيمان الباطن وشرائع الإسلام الظاهرة ما يفرق به بين الأحوال الرحمانية ، وبين النفسانية والشيطانية ، كما أن الرؤيا ثلاثة أقسام . رؤيا من الله ، ورؤيا مما يحدث المرء به نفسه في اليقظة فيراه في المنام ، ورؤيا من الشيطان .

فكذلك الأحوال . فإذا كان عنده قلة معرفة بحقيقة دين محمد صلى الله عليه وسلم أمرته الشياطين بأمر لا ينكره ، فتارة يحملون أحدهم فى الهواء ويقفون به بعرفات ثم يعيدونه إلى بلده ، وهو لابس ثيابه لم يحرم حين حاذى المواقيت ، ولا كشف رأسه ، ولا تجرد عما يتجرد عنه المحرم ، ولا يدعونه بعد الوقوف يطوف طواف الإفاضة ويرمي الجمار ويكمل حجه ، بل يظن أن مجرد الوقوف — كما فعل —

عبادة ، وهذا من قلة علمه بدين الإسلام ، ولو علم دين الإسلام لعلم أن هذا الذي فعله ليس عبادة لله ، وأنه من استحل هذا فهو مرتد يجب قتله ، بل اتفق المسلمون على أنه يجب الإحرام عند الميقات ، ولا يجوز للإنسان المحرم اللبس فى الإحرام إلا من عذر ، وأنه لايكتفي بالوقوف ، بل لابد من طواف الإفاضة باتفاق المسلمين ، بل وعليه أن يفيض إلى المشعر الحرام ، ويرمي جمرة العقبة ، وهذا مما تنوزع فيه هل هو ركن ، أو واجب يجبره دم ؟ وعليه أيضاً رمي الجمار أيام منى باتفاق المسلمين ، وقد تحمل أحدهم الجن فتزوره بيت المقدس وغيره ، وتطير به فى الهواء ، وتمشي به فى الماء ، وقد تريه أنه قد ذهب به إلى مدينة الأولياء ، وربما أرته أنه يأكل من ثمار الجنة ، ويشرب من أنهارها .

وهذا كله وأمثاله مما أعرفه قد وقع لمن أعرفه ؛ لكن هذا باب طويل ليس هذا موضع بسطه .

وإنما المقصود أن أصل الشرك فى العالم كان من عبادة البشر الصالحين ، وعبادة تماثيلهم ، وهم المقصودون . ومن الشرك ما كان أصله عبادة الكواكب ، إما الشمس وإما القمر وإما غيرها ، وصورت الأصنام طلاسم لتلك الكواكب ، وشرك قوم إبراهيم — والله أعلم — كان من هذا ، أو كان بعضه من هذا ، ومن الشرك ما كان أصله عبادة الملائكة أو الجن ، وضعت الأصنام لأجلهم ، وإلا فنفس الأصنام

الجمادية لم تعبد لذاتها ، بل لأسباب اقتضت ذلك ، وشرك العرب كان أعظمه الأول ، وكان فيه من الجميع .

فإن عمرو بن لحي هو أول من غير دين إبراهيم - عليه السلام - وكان قد أتى الشام ورآهم بالبلقاء لهم أصنام يستجلبون بها المنافع ، ويدفعون بها المضار ، فصنع مثل ذلك في مكة لما كانت خزاعة ولاة البيت قبل قريش ، وكان هو سيد خزاعة ، وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجر قصبه فى النار — أي أمعاءه — وهو أول من غير دين إبراهيم ، وسيب السوائب ، وبحر البحيرة » . وكذلك — والله أعلم — شرك قوم نوح ، وإن كان مبدؤه من عبادة الصالحين ، فالشيطان يجر الناس من هذا إلى غيره ؛ لكن هذا أقرب إلى الناس ؛ لأنهم يعرفون الرجل الصالح وبركته ودعاءه ، فيعكفون على قبره ، ويقصدون ذلك منه ، فتارة يسألونه ، وتارة يسألون الله به ، وتارة يصلون ويدعون عند قبره ظانين أن الصلاة والدعاء عند قبره أفضل منه فى المساجد والبيوت .

ولما كان هذا مبدأ الشرك سد النبي صلى الله عليه وسلم هذا الباب ، كما سد باب الشرك بالكواكب ، ففي صحيح مسلم عنه أنه قال قبل أن يموت بخمس : « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك » وفي

الصحيحين عنه أنه صلى الله عليه وسلم ذكر له كنيسة بأرض الحبشة ، وذكر من حسنها وتصاوير فيها ، فقال : « إن أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ، وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك هم شرار الخلق عند الله يوم القيامة » وفى الصحيحين عنه أنه قال صلى الله عليه وسلم في مرض موته : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما فعلوا » قالت عائشة : ولولا ذلك لأبرز قبره ، ولكن كره أن يتخذ مسجداً ، وفى مسند أحمد وصحيح أبى حاتم عنه أنه قال صلى الله عليه وسلم : « إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد » وفى سنن أبى داود وغيره عنه أنه قال صلى الله عليه وسلم : « لا تتخذوا قبري عيداً وصلوا علي حيث ما كنتم فإن صلاتكم تبلغني » .

وفى موطأ مالك عنه أنه قال صلى الله عليه وسلم : « اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » وفي صحيح مسلم عن أبى الهياج الأسدي قال : قال لي على بن أبى طالب — رضي الله عنه — : ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنى أن لا أدع قبراً مشرفا إلا سويته ، ولا تمثالا إلا طمسته ، فأمره بمحو التمثالين : الصورة الممثلة على صورة الميت ، والتمثال الشاخص المشرف فوق قبره . فإن الشرك يحصل بهذا ، وبهذا .

وقد ثبت عن عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — أنه كان فى سفر فرأى قوما ينتابون مكانا للصلاة فقال : ما هـذا ؟ فقالوا : هذا مكان صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إنمـا هلك من كان قبلـكم بهذا ، أنهم اتخذوا آثار أنبيائهم مساجد ، مـن أدركته الصلاة فليصل ، وإلا فليمض ، وبلغه أن قوما يذهبون إلى الشجرة التى بايع النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه تحتها فأمر بقطعها ، وأرسل إليه أبو موسى يذكر له أنه ظهر بتستر قـبر دانيال ، وعنده مصحف فيه أخبار ما سيكون ، قد ذكر فيه أخبار المسلمين ، وأنهـم إذا أجدبوا كشفوا عن القبر فمطروا ، فأرسل إليه عمر يأمره أن يحفـر بالنهار ثلاثة عشر قبراً ، ويدفنه بالليل فى واحد منها لئلا يعرفه الناس ؛ لئلا يفتتنوا به . فاتخاذ القبور مساجد مما حرمه الله ورسوله ، وإن لم يبن عليها مسجد كان بناء المساجد عليها أعظم .

كذلك قال العلماء : يحرم بناء المساجد على القبور ، ويجب هدم كل مسجد بنى على قبر ، وإن كان الميت قد قبر فى مسجد وقد طال مكثه سوى القـبر حتى لا تظهر صورته ، فإن الشرك إنمـا يحصل إذا ظهرت صورته ، ولهذا كان مسجد النبى صلى الله عليه وسلم أولا مقبرة للمشركين ، وفيها نخل وخرب ، فأمر بالقبور فنبشت ، وبالنخل فقطع وبالخرب فسويت ، فخرج عن أن يكون مقبرة ، فصار مسجداً .

ولما كان اتخاذ القبور مساجد ، وبناء المساجد عليها محرما ، ولم يكن شيء من ذلك على عهد الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولم يكن يعرف قط مسجد على قبر ، وكان الخليل عليه السلام في المغارة التى دفن فيها ، وهي مسدودة لا أحد يدخل إليها ، ولا تشد الصحابة الرحال لا إليه ولا إلى غيره من المقابر ؛ لأن في الصحيحين من حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجدي هذا » . فكان يأتى من يأتى منهم إلى المسجد الأقصى يصلون فيه ، ثم يرجعون لا يأتون مغارة الخليل ، ولا غيرها وكانت مغارة الخليل مسدودة ، حتى استولى النصارى على الشام فى أواخر المائة الرابعة ، ففتحوا الباب وجعلوا ذلك المكان كنيسة ، ثم لما فتح المسلمون البلاد اتخذه بعض الناس مسجداً ، وأهل العلم ينكرون ذلك ، والذي يرويه بعضهم في حديث الإسراء أنه قيل للنبى صلى الله عليه وسلم : هذه طيبة انزل فصل ، فنزل فصلى ، هذا مكان أبيك انزل فصل . كذب موضوع لم يصل النبي صلى الله عليه وسلم تلك الليلة إلا فى المسجد الأقصى خاصة ، كما ثبت ذلك فى الصحيح ، ولا نزل إلا فيه .

ولهذا لما قدم الشام من الصحابة من لا يحصي عددهم إلا الله ،

وقدمها عمر بن الخطاب لما فتح بيت المقدس ، وبعـد فتح الشام لمـا صالح النصارى على الجزية وشرط عليهم الشروط المعروفة ، وقدمها مرة ثالثة حتى وصل إلى سرغ ، ومعه أكابر السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، فلم يذهب أحد منهم إلى مغارة الخليل ، ولا غيرها من آثار الأنبياء التى بالشام ، لا ببيت المقدس ، ولا بدمشق ، ولا غير ذلك ، مثل الآثار الثلاثة التى بجبل قاسيون ، فى غربيه الربوة المضافة إلى عيسى عليه السلام ، وفي شرقيه المقام المضاف إلى الخليل عليه السلام ، وفى وسطه وأعلاه مغارة الدم المضافة إلى هابيل لما قتله قابيل ، فهذه البقاع وأمثالها لم يكن السابقون الأولون يقصدونها ، ولا يزورونها ، ولا يرجون منها بركة ، فإنها محل الشرك .

ولهذا توجد فيها الشياطين كثيراً ، وقد رآهم غير واحد على صورة الإنس ، ويقولون لهم رجال الغيب ، يظنون أنهـم رجال من الإنس غائبين عن الأبصار ، وإنما هم جن ، والجن يسمون رجالا . كما قال الله تعالى : (وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا) والإنس سموا إنسا لأنهم يؤنسون أي يرون . كما قال تعالى : (إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا) أي رأيتها ، والجن سموا جنـا لاجتنانهم ، يجتنون عن الأبصار أي يستترون . كما قال تعالى : (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ) أي استولى عليه فغطاه وستره ، وليس أحد من الإنس يستتر دائمـاً عن

أبصار الإنس ، وإنما يقع هذا لبعض الإنس فى بعض الأحوال : تارة على وجه الكرامة له ، وتارة يكون من باب السحر وعمل الشياطين ، ولبسط الكلام على الفرق بين هذا وبين هذا موضع آخر .

والمقصود ههنا : أن الصحابة والتابعين لهم بإحسان لم يبنوا قط على قبر نبى ، ولا رجل صالح مسجداً ، ولا جعلوه مشهداً ومزاراً ، ولا على شيء من آثار الأنبياء ، مثل مكان نزل فيه أوصلى فيه أو فعل فيه شيئا من ذلك ، لم يكونوا يقصدون بناء مسجد لأجل آثار الأنبياء والصالحين ، ولم يكن جمهورهم يقصدون الصلاة فى مكان لم يقصد الرسول الصلاة فيه ، بل نزل فيه أو صلى فيه اتفاقا ، بل كان أئمتهم كعمر بن الخطاب وغيره ينهى عن قصد الصلاة فى مكان صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم اتفاقا لا قصدا ، وإنما نقل عن ابن عمر خاصة أنه كان يتحرى أن يسير حيث سار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينزل حيث نزل ، ويصلى حيث صلى ، وإن كان النبى صلى الله عليه وسلم لم يقصد تلك البقعة لذلك الفعل ، بل حصل اتفاقا ، وكان ابن عمر رضي الله عنهما رجلا صالحاً شديد الاتباع ، فرأى هذا من الاتباع . وأما أبوه وسائر الصحابة من الخلفاء الراشدين عثمان وعلي وسائر العشرة وغيرهم ، مثل ابن مسعود ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب فلم يكونوا يفعلون ما فعل ابن عمر ، وقول الجمهور أصح .

وذلك أن المتابعة أن يفعل مثل ما فعل ، على الوجه الذي فعل ، لأجل أنه فعل . فإذا قصد الصلاة والعبادة فى مكان معين كان قصد الصلاة والعبادة فى ذلك المكان متابعة له ، وأما إذا لم يقصد تلك البقعة فإن قصدها يكون مخالفة لا متابعة له . مثال الأول لما قصد الوقوف والذكر والدعاء بعرفة ومزدلفة وبين الجمرتين كان قصد تلك البقاع متابعة له ، وكذلك لما طاف وصلى خلف المقام ركعتين كان فعل ذلك متابعة له ، وكذلك لما صعد على الصفا والمروة للذكر والدعاء كان قصد ذلك متابعة له ، وقد كان سلمة بن الأكوع يتحرى الصلاة عند الأسطوانة ، قال لأني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحرى الصلاة عندها ، فلما رآه يقصد تلك البقعة لأجل الصلاة كان ذلك القصد للصلاة متابعة ، وكذلك لما أراد عتبان بن مالك أن يبني مسجداً لما عمى فأرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له إنى أحب أن تأتيني تصلي فى منزلي فأتخذه مصلى ، وفى رواية فقال تعال فخط لي مسجداً ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم ومن شاء من أصحابه ، وفي رواية فغدا علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الصديق حين ارتفع النهار ، فاستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأذنت له ، فلم يجلس حتى دخل البيت ، فقال أين تحب أن أصلي من بيتك ؟ فأشرت له إلى ناحية من البيت ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقمنا وراءه فصلى ركعتين ، ثم سلم. الحديث .

فإنه قصدأن يبني مسجداً وأحب أن يكون أول من يصلي فيه النبى صلى الله عليه وسلم ، وأن يبنيه في الموضع الذي صلى فيه ، فالمقصود كان بناء المسجد ، وأراد أن يصلي النبى صلى الله عليه وسلم في المكان الذي يبنيه ، فكانت الصلاة مقصودة لأجل المسجد ، لم يكن بناء المسجد مقصوداً لأجل كونه صلى فيه اتفاقا ، وهذا المكان مكان قصد النبى صلى الله عليه وسلم الصلاة فيه ليكون مسجداً ، فصار قصد الصلاة فيه متابعة له ، بخلاف ما اتفق أنه صلى فيه بغير قصد ، وكذلك قصد يوم الإثنين والخميس بالصوم متابعة لأنه قصد صوم هذين اليومين ، وقال فى الحديث الصحيح « إنه تفتح أبواب الجنة فى كل خميس واثنين فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً إلا رجلا كان بينه وبين أخيه شحناء فيقال أنظروا هذين حتى يصطلحا » .

وكذلك قصد إتيان مسجد قباء متابعة له ، فإنه قد ثبت عنه فى الصحيحين أنه كان يأتى قباء كل سبت راكباً وماشياً . وذلك أن الله أنزل عليه : ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ وكان مسجده هو الأحق بهذا الوصف ، وقد ثبت فى الصحيح أنه سئل عن المسجد المؤسس على التقوى فقال : « هو مسجدي هذا » يريد أنه أكمل فى هذا الوصف من مسجد قباء ، ومسجد قباء أيضاً أسس على التقوى ، وبسببه نزلت الآية ؛ ولهذا قال : ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ

(أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ) وكان أهل قباء مع الوضوء والغسل يستنجون بالماء . تعلموا ذلك من جيرانهم اليهود ، ولم تكن العرب تفعل ذلك ، فأراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن لا يظن ظان أن ذاك هو الذي أسس على التقوى دون مسجده ، فذكر أن مسجده أحق بأن يكون هو المؤسس على التقوى ، فقوله : (لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ) يتناول مسجده ومسجد قباء ، ويتناول كل مسجد أسس على التقوى ، بخلاف مساجد الضرار .

ولهذا كان السلف يكرهون الصلاة فيما يشبه ذلك ، ويرون العتيق أفضل من الجديد ؛ لأن العتيق أبعد عن أن يكون بنى ضراراً من الجديد الذي يخاف ذلك فيه ، وعتق المسجد مما يحمد به ؛ ولهذا قال : (ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ) وقال : (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ) فإن قدمه يقتضي كثرة العبادة فيه أيضاً ، وذلك يقتضي زيادة فضله ، ولهذا لم يستحب علماء السلف من أهل المدينة وغيرها قصد شيء من المساجد والمزارات التى بالمدينة وما حولها بعد مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلا مسجد قباء ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقصد مسجداً بعينه يذهب إليه إلا هو . وقد كان بالمدينة مساجد كثيرة لكل قبيلة من الأنصار مسجد ، لكن ليس فى قصده دون أمثاله فضيلة ، بخلاف مسجد قباء ، فإنه أول مسجد بنى بالمدينة

على الإطلاق ، وقد قصده الرسول صلى الله عليه وسلم بالذهاب إليه ، وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من توضأ في بيته ثم أتى مسجد قباء لا يريد إلا الصلاة فيه كان كعمرة » .

ومع هذا فلا يسافر إليه ، لكن إذا كان الإنسان بالمدينة أتاه ، ولا يقصد إنشاء السفر إليه بل يقصد إنشاء السفر إلى المساجد الثلاثة لقوله صلى الله عليه وسلم « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام والمسجد الأقصى ، ومسجدي هذا » ولهذا لو نذر السفر إلى مسجد قباء لم يوف بنذره عند الأئمة الأربعة وغيرهم ، بخلاف المسجد الحرام فإنه يجب الوفاء بالنذر إليه باتفاقهم ، وكذلك مسجد المدينة ، وبيت المقدس ، فى أصح قوليهم . وهو مذهب مالك وأحمد والشافعي فى أحد قوليه ، وفى الآخر وهو قول أبي حنيفة ليس عليه ذلك ؛ لكنه جائز ومستحب ، لأن من أصله أنه لا يجب بالنذر إلا ما كان واجباً بالشرع ، والأكثرون يقولون يجب بالنذر كل ما كان طاعة لله ، كما ثبت فى صحيح البخاري عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه » .

ويستحب أيضاً زيارة قبور أهل البقيع ، وشهداء أحد ؛ للدعاء لهم والاستغفار ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقصد ذلك ، مع أن

هذا مشروع لجميع موتى المسلمين ، كما يستحب السلام عليهم والدعاء لهم ، والاستغفار . وزيارة القبور بهذا القصد مستحبة ، وسواء فى ذلك قبور الأنبياء والصالحين وغيرهم ، وكان عبد الله بن عمر إذا دخل المسجد يقول : السلام عليك يارسول الله ، السلام عليك يا أبا بكر ، السلام عليك يا أبت ثم ينصرف .

وأما زيارة قبور الأنبياء والصالحين لأجل طلب الحاجات منهم ، أو دعائهم والإقسام بهم على الله ، أو ظن أن الدعاء أو الصلاة عند قبورهم أفضل منه فى المساجد والبيوت ، فهذا ضلال وشرك وبدعة باتفاق أئمة المسلمين ، ولم يكن أحد من الصحابة يفعل ذلك ، ولا كانوا إذا سلموا على النبى صلى الله عليه وسلم يقفون يدعون لأنفسهم ، ولهذا كره ذلك مالك وغيره من العلماء ، وقالوا إنه من البدع التى لم يفعلها السلف ، واتفق العلماء الأربعة وغيرهم من السلف على أنه إذا أراد أن يدعو يستقبل القبلة ، ولا يستقبل قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، وأما إذا سلم عليه فأكثرهم قالوا : يستقبل القبر ، قاله مالك والشافعي وأحمد ، وقال أبو حنيفة : بل يستقبل القبلة أيضاً ، ويكون القبر عن يساره ، وقيل : بل يستدبر القبلة .

ومما يبين هذا الأصل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر هو وأبو بكر ذهبا إلى الغار الذي بجبل ثور ، ولم يكن على طريقهما

بالمدينة ، فإنه من ناحية اليمن ، والمدينة من ناحية الشام ، ولكن اختبآ فيه ثلاثاً لينقطع خبرهما عن المشركين ، فلا يعرفون أين ذهبـا ، فإن المشركين كانوا طالبين لهما ، وقد بذلوا في كل واحد منهما ديتـه لمن يأتى به ، وكانوا يقصدون منع النبى صلى الله عليه وسلم أن يصل إلى أصحابه بالمدينة ، وأن لا يخرج من مكة ، بل لما عجزوا عن قتله أرادوا حبسه بمكة ، فلو سلك الطريق ابتداء لأدركوه ، فأقام بالغار ثلاثا لأجل ذلك ، فلو أراد المسافر من مكة إلى المدينة أن يذهب إلى الغار ، ثم يرجع لم يكن ذلك مستحباً بل مكروهاً ، والنبي صلى الله عليـه وسلم في الهجرة سلك طريق الساحل وهي طويلة ، وفيها دورة ، وأما فى عمره وحجته فكان يسلك الوسط ، وهو أقرب إلى مكة ، فسلك فى الهجرة طريق الساحل ؛ لأنها كانت أبعد عن قصد المشركـين ، فإن الطريق الوسطى كانت أقرب إلى المدينة ، فيظنون أنه سلـكها ، كما كان إذا أراد غزوة ورى بغيرها .

وهو صلى الله عليـه وآله وسلم لما قسم غنائم حنين بالجعرانة اعتمر منها ، ولما صده المشركون عن مكة حل بالحديبية ، وكان قـد أنشأ الإحرام بالعمرة من ميقات المدينــة ذي الحليفة ، ولما اعتمر من العـام القابل عمرة القضية اعتمر من ذي الحليفة ، ولم يدخل الكعبة في عمره ولا حجته وإنما دخلها عام الفتح ، وكان بها صور مصورة فلم يدخلهـا

حتى محيت تلك الصور ، وصلى بها ركعتين ، وصلى يوم الفتح ثمان ركعات وقت الضحى ، كما روت ذلك أم هانئ ، ولم يكن يقصد الصلاة وقت الضحى إلا لسبب مثل أن يقدم من سفر ، فيدخل المسجد فيصلى فيه ركعتين ، ومثل أن يشغله نوم أو مرض عن قيام الليل فيصلى بالنهار ثنتى عشرة ركعة ، وكان يصلي بالليل إحدى عشرة ركعة ، فصلى ثنتى عشرة ركعة شفعا لفوات وقت الوتر ، فإنه صلى الله عليه وسلم قال : « المغرب وتر صلاة النهار ، فأوتروا صلاة الليل » وقال : « اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وتراً » وقال : « صلاة الليل مثنى مثنى ، فإذا خفت الصبح فأوتر بركعة » .

والمأثور عن السلف أنهم إذا ناموا عن الوتر كانوا يوترون قبل صلاة الفجر ، ولا يؤخرونه إلى ما بعد الصلاة ، وفي الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحة الضحى قط ، وإني لأسبحها ، وإن كان ليدع العمل ، وهو يحب أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم ، وقد ثبت عنه فى الصحيح أنه أوصى بركعتى الضحى لأبى هريرة ، ولأبى الدرداء ، وفيها أحاديث ، لكن صلاته ثمان ركعات يوم الفتح جعلها بعض العلماء صلاة الضحى .

وقال آخرون : لم يصلها إلا يوم الفتح ، فعلم أنه صلاها لأجل

الفتح ، وكانوا يستحبون عند فتح مدينة أن يصلى الإمام ثمانى ركعات شكراً لله ، ويسمونها صلاة الفتح ، قالوا : لأن الاتباع يعتبر فيه القصد والنبى صلى الله عليه وسلم لم يقصد الصلاة لأجل الوقت ، ولو قصد ذلك لصلى كل يوم ، أو غالب الأيام ، كما كان يصلي ركعتى الفجر كل يوم ، وكذلك كان يصلي بعد الظهر ركعتين ، وقبلها ركعتين أو أربعاً ولما فاتته الركعتان بعد الظهر قضاها بعد العصر ، وهو صلى الله عليه وسلم لما نام هو وأصحابه عن صلاة الفجر فى غزوة خيبر فصلوا بعد طلوع الشمس ركعتين ، ثم ركعتين ، لم يقل أحد أن هذه الصلاة في هذا الوقت سنة دائماً ؛ لأنهم إنما صلوها قضاء ، لكونهم ناموا عن الصلاة ، ولما فاتته العصر فى بعض أيام الخندق فصلاها بعد ما غربت الشمس ، وروى أن الظهر فاتته أيضاً فصلى الظهر ، ثم العصر ، ثم المغرب ، لم يقل أحد إنه يستحب أن يصلى بين العشاءين إحدى عشرة ركعة ، لأن ذلك كان قضاء ، بل ولا نقل عنه أحد أنه خص ما بين العشاءين بصلاة .

وقوله تعالى : ﴿نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ عند أكثر العلماء هو إذا قام الرجل بعد نوم ليس هو أول الليل ، وهذا هو الصواب ؛ لأن النبى صلى الله عليه وآله وسلم هكذا كان يصلي ، والأحاديث بذلك متواترة عنه كان يقوم بعد النوم لم يكن يقوم بين العشاءين .

وكذلك أكله ما كان يجد من الطعام ، ولبسه الذي يوجد بمدينته طيبة مخلوقا فيها ، ومجلوبا إليها من اليمن وغيرها ، لأنه هو الذي يسره الله له ، فأكلــه التمر ، وخبزه الشعــير ، وفاكهتــه الرطب والبطيخ الأخضر والقثاء ، ولبس ثياب اليمن ، لأن ذلك هو كان أيسر فى بلده من الطعام والثيــاب ، لا لخصوص ذلك ، فمن كان ببلد آخر وقوتهم البر والذرة ، وفاكهتم العنب والرمان ، ونحو ذلك ، وثيابهم مما ينسج بغير اليمن القز لم يكن إذا قصــد أن يتكلف من القوت والفــاكهة واللباس ما ليس في بلده ـــ بل يتعسر عليهم ـــ متبعاً للرسول صلى الله عليه وسلم ، وإن كان ذلك الذي يتكلفه تمراً أو رطباً أو خبز شعير . فعلم أنه لا بد في المتابعة للنبي صلى الله عليــه وســلم من اعتبار القصد والنية : « فإنما الأعمال بالنيات وإنما لــكل امرئ ما نوى »

فعلم أن الذي عليه جمهور الصحــابة وأكابرهم هو الصحيح ، ومع هذا فابن عمر رضي الله عنهما لم يكن يقصــد أن يصلي إلا فى مكان صلى فيه النبي صــلى الله عليــه وســلم ، لم يكن يقصــد الصــلاة فى موضع نزوله ومقــامه ، ولا كان أحد من الصحابة يذهب إلى الغار المذكور فى القرآن للزيارة والصلاة فيه ـــ وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه أقاما به ثلاثا يصلون فيــه الصلوات الخمس ـــ ولا كانوا أيضاً يذهبون إلى حراء وهو المــكان الذي كان يتعبد فيه قبل النبوة

وفيه نزل عليه الوحي أولا ، وكان هذا مكان يتعبدون فيه قبل الإسلام فإن حراء أعلى جبل كان هنـاك ، فلما جاء الإسلام ذهب النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى مكة مرات بعـد أن أقام بها قبل الهجرة بضع عشرة سنة ، ومع هذا فلم يكن هو ولا أصحابه يذهبون إلى حراء .

ولما حج النبي صلى الله عليه وسلم استلم الركنين اليمانيين ، ولم يستلم الشاميين ؛ لأنهما لم يبنيا على قواعـد إبراهيم ، فإن أكثر الحجر من البيت ، والحجر الأسود استلمه وقبله ، واليماني استلمـه ولم يقبله ، وصلى بمقام إبراهيم ولم يستلمه ، ولم يقبله ، فدل ذلك على أن التمسح بحيطان الكعبة غير الركنين اليمـانيين وتقبيل شيء منها غـير الحجر الأسود ليس بسنة ، ودل على أن استلام مقـام إبراهيم وتقبيله ليس بسنة ، وإذا كان هذا نفس الكعبة ، ونفس مقام إبراهيم بها ، فمعلوم أن جميع المساجد حرمتهـا دون الكعبة ، وأن مقام إبراهيم بالشـام وغيرها وسائر مقامات الأنبياء دون المقام الذي قال الله فيه : ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ .

فعلم أن سائر المقـامات لا تقصد للصلاة فيهـا ، كما لا يحج إلى سائر المشاهد ، ولا يتمسح بها ، ولا يقبل شيء من مقامات الأنبيـاء ولا المساجد ولا الصخرة ولا غيرها ، ولا يقبل ما على وجه الأرض إلا الحجر الأسود .

وأيضاً فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يصل بمسجد بمكة إلا المسجد الحرام، ولم يأت للعبادات إلا المشاعر: منى، ومزدلفة، وعرفة فلهذا كان أئمة العلماء على أنه لا يستحب أن يقصد مسجداً بمكة للصلاة غير المسجد الحرام، ولا تقصد بقعة للزيارة غير المشاعر التي قصدها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإذا كان هذا في آثارهم، فكيف بالمقابر التي لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من اتخذها مساجد، وأخبر أنهم شرار الخلق عند الله يوم القيامة؟!.

ودين الإسلام أنه لا تقصد بقعة للصلاة إلا أن تكون مسجداً فقط، ولهذا مشاعر الحج غير المسجد الحرام تقصد للنسك، لا للصلاة فلا صلاة بعرفة، وإنما صلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم الظهر والعصر يوم عرفة بعرنة خطب بها ثم صلى، ثم بعد الصلاة ذهب إلى عرفات، فوقف بها، وكذلك يذكر الله ويدعى بعرفات وبمزدلفة على قزح، وبالصفا والمروة، وبين الجمرات، وعند الرمي. ولا تقصد هذه البقاع للصلاة. وأما غير المساجد ومشاعر الحج فلا تقصد بقعة لا للصلاة، ولا للذكر، ولا للدعاء، بل يصلي المسلم حيث أدركته الصلاة، إلا حيث نهى، ويذكر الله ويدعوه حيث تيسر من غير قصد تخصيص بقعة بذلك، وإذا اتخذ بقعة لذلك كالمشاهد نهى عن ذلك، كما نهى عن الصلاة فى المقبرة، إلا ما يفعله الرجل عند السلام على الميت من

الدعاء له وللمسلمين ، كما يفعل مثل ذلك في الصلاة على الجنازة ، فإن زيارة قبر المؤمن من جنس الصلاة على جنازته ، يفعل فى هذا من جنس ما يفعل في هذا ، ويقصد بالدعاء هنا ما يقصد بالدعاء هنا .

ومما يشبه هذا أن الأنصار بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة بالوادي الذي وراء جمرة العقبة ؛ لأنه مكان منخفض قريب من منى ، يستر من فيه ، فإن السبعين الأنصار كانوا قد حجوا مع قومهم المشركين ، وما زال الناس يحجون إلى مكة قبل الإسلام وبعده ، فجاءوا مع قومهم إلى منى ؛ لأجل الحج ، ثم ذهبوا بالليل إلى ذلك المكان لقربه وستره لا لفضيلة فيه ، ولم يقصدوه لفضيلة تخصه بعينه .

ولهذا لما حج النبي صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه لم يذهبوا إليه ، ولا زاروه ، وقد بنى هناك مسجد ، وهو محدث ، وكل مسجد بمكة وما حولها غير المسجد الحرام فهو محدث ، ومنى نفسها لم يكن بها على عهد النبي صلى الله عليه وسلم مسجد مبنى ، ولكن قال منى مناخ لمن سبق ، فنزل بها المسلمون ، وكان يصلي بالمسلمين بمنى ، وغير منى ، وكذلك خلفاؤه من بعده ، واجتماع الحجاج بمنى أكثر من اجتماعهم بغيرها ، فإنهم يقيمون بها أربعاً ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر يصلون بالناس بمنى وغير منى ، وكانوا يقصرون

الصلاة بمنى وعرفة ومزدلفة ، ويجمعون بين الظهر والعصر بعرفة ، وبين المغرب والعشاء بمزدلفة ، ويصلي بصلاتهم جميع الحجاج من أهل مكة وغير أهل مكة ، وكلهم يقصرون الصلاة بالمشاعر ، وكلهم يجمعون بعرفة ومزدلفة .

وقد تنازع العلماء في أهل مكة ونحوهم هل يقصرون أو يجمعون فقيل : لا يقصرون ، ولا يجمعون ، كما يقول ذلك من يقوله من أصحاب الشافعى وأحمد ، وقيل يجمعون ولا يقصرون ، كما يقول ذلك أبو حنيفة وأحمد ومن وافقه من أصحابه وأصحاب الشافعي ، وقيل : يجمعون ويقصرون كما قال ذلك مالك وابن عيينة وإسحق بن راهويه وبعض أصحاب أحمد وغيرهم ، وهذا هو الصواب بلا ريب ، فإنه الذي فعله أهل مكة خلف النبي صلى الله عليه وسلم بلا ريب ، ولم يقل النبي صلى الله عليه وسلم قط ولا أبو بكر ولا عمر بمنى ولا عرفة ولا مزدلفة يا أهل مكة أتموا صلاتكم ، فإنا قوم سفر ، ولكن ثبت أن عمر قال ذلك فى جوف مكة ، وكذلك فى السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ذلك في جوف مكة فى غزوة الفتح ، وهذا من أقوى الأدلة على أن القصر مشروع لكل مسافر ، ولو كان سفره بريداً ، فإن عرفة من مكة بريد : أربع فراسخ ، ولم يصل النبي صلى الله عليه وسلم ولا خلفاؤه بمكة صلاة عيد ؛ بل ولا صلى فى أسفاره قط صلاة

العيـد ، ولا صلى بهم في أسفاره صـلاة جمعة يخطب ثم يصـلي ركعتين ، بل كان يصلي يوم الجمعـة فى السفر ركعتين ، كما يصلي فى سائر الأيام .

وكذلك لما صلى بهم الظهر والعصر بعرفة صلى ركعتين ، كصلاته في سائر الأيام ، ولم ينقل أحد أنه جهر بالقراءة يوم الجمعة في السفر ، لا بعرفة ولا بغيرها ، ولا أنه خطب بغير عرفة يوم الجمعة في السفر ، فعلم أن الصواب ماعليـه سلف الأمة وجماهيرهـا من الأئمة الأربعـة وغيرهم ، من أن المسافر لا يصلي جمعة ولا غيرها ، وجمهورهم أيضاً على أنه لا يصلي عيداً ، وهو قول مالك وأبى حنيفة وأحمد فى إحدى الروايتين ، وهذا هو الصواب أيضاً ، فإن النبى صلى الله عليـه وسلم وخلفاءه لم يكونوا يصلون العيد إلا في المقام ، لا فى السفر ، ولم يكن يصلي صلاة العيد إلا فى مكان واحد مع الإمام يخرج بهم إلى الصحراء فيصلي هناك ، فيصلي المسلمون كلهم خلفه صلاة العيد ، كما يصلون الجمعة ولم يكن أحد من المسلمين يصلي صلاة عيد فى مسجد قبيلته ولا بيته ، كما لم يكونوا يصلون جمعة فى مساجد القبائل ، ولا كان أحد منهم بمكة يوم النحر يصلي صلاة عيد على عهد النبي صـلى الله عليه وسلم وخلفائه بل عيدهم بمنى بعد إفاضتهم من المشعر الحرام ، ورمى جمرة العقبـة لهم كصلاة العيد لسائر أهـل الأمصار يرمون ثم ينحرون وسـائر أهـل

الأمصار يصلون ثم ينحرون ، والنبي صلى الله عليه وسلم لما أفاض من منى نزل بالمحصب ، فاختلف أصحابه هل التحصيب سنة لاختلافهم فى قصده هل قصد النزول به أو نزل به لأنه كان أسمح لخروجه . وهذا مما يبين أن المقاصد كانت معتبرة عندهم فى المتابعة .

ولما اعتمر عمرة القضية وكانت مكة مع المشركين لم تفتح بعد ، وكان المشركون قد قالوا : يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب ، وقعد المشركون خلف قعيقعان ، وهو جبل المروة ينظرون إليهم ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يرملوا ثلاثة أشواط من الطواف ، ليرى المشركون جلدهم وقوتهم ، وروى أنه دعا لمن فعل ذلك ، ولم يرملوا بين الركنين ؛ لأن المشركين لم يكونوا يرونهم من ذلك الجانب ، فكان المقصود بالرمل إذ ذاك من جنس المقصود بالجهاد . فظن بعض المتقدمين أنه ليس من النسك ، لأنه فعل لقصد وزال ؛ لكن ثبت فى الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لما حجوا رملوا من الحجر الأسود إلى الحجر الأسود فكملوا الرمل بين الركنين ، وهذا قدر زائد على ما فعلوه فى عمرة القضية ، وفعل ذلك فى حجة الوداع مع الأمن العام ، فإنه لم يحج معه إلا مؤمن ، فدل ذلك على أن الرمل صار من سنة الحج ، فإنه فعل أولا لمقصود الجهاد ، ثم شرع نسكا ، كما روى فى سعي هاجر ، وفى رمي الجمار ، وفى ذبح الكبش : أنه

فعل أولا لمقصود ، ثم شرعه الله نسكا وعبادة ، لكن هذا يكون إذا شرع الله ذلك ، وأمر به ، وليس لأحد أن يشرع مالم يشرعه الله ، كما لو قال قائـل : أنا أستحب الطواف بالصخرة سبعا ، كما يطـاف بالـكعبة ، أو أستحب أن أتخـذ من مقام موسى وعيسى مصـلى ، كما أمر الله أن يتخذ من مقام إبراهيم مصلى ، ونحو ذلك ، لم يكن له ذلك ، لأن الله تعالى يختص ما يختصه من الأعيان والأفعـال بأحـكام تخصه يمتنع معها قياس غيره عليه ، إما لمعنى يختص به لا يوجد بغيره على قول أكثر أهـل العلم ، وإما لمحض تخصيص المشيئـة على قول بعضهم ، كما خص الكعبة بأن يحج إليها ويطاف بها ، وكما خص عرفات بالوقوف بها ، وكما خص منى برمي الجمار بها ، وكما خص الأشهر الحرم بتحريمها ، وكما خص شهر رمضان بصيامه ، وقيامه ، إلى أمثال ذلك .

وإبراهيم ومحمد كل منهما خليل الله ، فإنه قد ثبت فى الصحاح من غير وجه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله اتخذنى خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا » وقد ثبت فى الصحيح : « أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ياخير البرية ! قال : « ذاك إبراهيم » . فإبراهيم أفضل الخلق بعد محمد صلى الله عليه وسـلم . وقوله : « ذاك إبراهيم » تواضع منه ، فإنه قـد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم فى الصحيح أنه قال : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر ، آدم فمن دونه تحت لوائي يوم القيامة ولا فخر » إلى غـير

ذلك من النصوص المبينة أنه أفضل الخلق ، وأكرمهم على ربه ، وإبراهيم هو الإمام الذي قال الله فيه : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ وهو الأمة أي القدوة الذي قال الله فيه : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا ﴾ وهو الذي بوأه الله مكان البيت ، وأمره أن يؤذن فى الناس بالحج إليه ، وقد حرم الله الحرم على لسانه ، وإسماعيل نبأه معه ، وهو الذبيح الذي بذل نفسه لله وصبر على المحنة ، كما بينا ذلك بالدلائل الكثيرة فى غير هذا الموضع ، وأمه هاجر هي التى أطاعت الله ورسوله إبراهيم فى مقامها مع ابنها فى ذلك الوادي الذي لم يكن به أنيس ، كما قال الخليل : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ .

وكان لإبراهيم ولآل إبراهيم من محبة الله وعبادته والإيمان به وطاعته ما لم يكن لغيرهم ، فخصهم الله بأن جعل لبيته الذي بنوه له خصائص لا توجد لغيره ، وجعل ما جعله من أفعالهم قدوة للناس وعبادة يتبعونهم فيها ، ولا ريب أن الله شرع لإبراهيم السعي ورمى الجمار والوقوف بعرفات بعد ما كان من أمر هاجر وإسماعيل وقصة الذبح وغير ذلك ما كان ، كما شرع لمحمد الرمل فى الطواف حيث أمره أن ينادى فى الناس بحج البيت ، والحج مبناه على الذل والخضوع لله ، ولهذا خص باسم النسك ، و « النسك » في اللغة العبادة .

قال الجوهري : النسك العبادة ، والناسك العابد ، وقد نسك وتنسك أي تعبد ، ونسك بالضم أي صار ناسكا ، ثم خص الحج باسم النسك لأنه أدخل فى العبادة والذل لله من غيره ، ولهذا كان فيه من الأفعال مالا يقصد فيه إلا مجرد الذل لله ، والعبادة له ، كالسعي ورمي الجمار . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنما جعل رمي الجمار والسعي بين الصفا والمروة لإقامة ذكر الله » رواه الترمذي ، وخص بذلك الذبح الفداء أيضا دون مطلق الذبح ؛ لأن إراقة الدم لله أبلغ فى الخضوع والعبادة له ، ولهذا كان من كان قبلنا لا يأكلون القربان ؛ بل تأتي نار من السماء فتأكله ، ولهذا قال تعالى : (ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) .

وكذلك كانوا إذا غنموا غنيمة جمعوها ثم جاءت النار فأكلتها ليكون قتالهم محضا لله لا للمغنم ، ويكون ذبحهم عبادة محضة لله لا لأجل أكلهم ، وأمة محمد صلى الله عليه وسلم وسع الله عليهم لكمال يقينهم وإخلاصهم ، وأنهم يقاتلون لله ولو أكلوا المغنم ، ويذبحون لله ولو أكلوا القربان ، ولهذا كان عباد الشياطين والأصنام يذبحون لها الذبائح أيضا ، فالذبح للمعبود غاية الذل والخضوع له .

ولهذا لم يجز الذبح لغير الله ، ولا أن يسمى غير الله على الذبائح ،

وحرم سبحانه ما ذبح على النصب ، وهو ما ذبح لغير الله ، وما سمى عليه غير اسم الله ، وإن قصد به اللحم لا القربان ، ولعـن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من ذبح لغير الله ، ونهى عن ذبائح الجن ، وكانوا يذبحون للجن ، بل حرم الله ما لم يذكر اسم الله عليـه مطلقا كما دل على ذلك الكتاب والسنة فى غير موضع .

وقد قال تعالى : (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ) أي انحر لربك ، كما قال الخليل : (إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ) وقـد قال هو وإسماعيل إذ يرفعان القواعد من البيت : (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا) فالمناسك هنا مشاعر الحج كلها . كما قال تعالى: (لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ) وقال تعالى: (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ) وقال : (لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ) كما قال تعالى : (وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ) .

فالمقصود تقوى القلوب لله وهو عبادتها له وحده دون ما سواه بغاية العبودية له ، والعبودية فيها غاية المحبة وغاية الذل والإخـلاص . وهذه ملة إبراهيم الخليل . وهذا كله مما يبين أن عبادة القـلوب هي الأصل ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب »

والنية والقصد هما عمل القلب ، فلا بد فى المتابعة للرسول صلى الله عليه وسلم من اعتبار النية والقصد .

ومن هذا الباب أن النبى صلى الله عليه وسلم لما احتجم وأمر بالحجامة . وقال فى الحديث الصحيح : « شفاء أمتى فى شرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو كية بنار ، وما أحب أن أكتوى » كان معلوما أن المقصود بالحجامة إخراج الدم الزائد الذي يضر البدن ، فهذا هو المقصود ، وخص الحجامة لأن البلاد الحارة يخرج الدم فيها إلى سطح البدن فيخرج بالحجامة ، فلهذا كانت الحجامة فى الحجاز ونحوه من البلاد الحارة يحصل بها مقصود استفراغ الدم ، وأما البلاد الباردة فالدم يغور فيها إلى العروق فيحتاجون إلى قطع العروق بالفصاد ، وهذا أمر معروف بالحس والتجربة ، فإنه في زمان البرد تسخن الأجواف وتبرد الظواهر ، لأن شبيه الشيء منجذب إليه ، فإذا برد الهواء برد ما يلاقيه من الأبدان والأرض ، فيهرب الحر الذي فيها من البرد المضاد له إلى الأجواف فيسخن باطن الأرض . وأجواف الحيوان ، ويأوى الحيوان إلى الأكنان الدافئة . ولقوة الحرارة في باطن الإنسان يأكل فى الشتاء وفى البلاد الباردة أكثر مما يأكل فى الصيف وفى البلاد الحارة ؛ لأن الحرارة تطبخ الطعام وتصرفه ، وبكون الماء النابع في الشتاء سخنا لسخونة جوف الأرض ، والدم سخن فيكون فى جوف العروق لا في سطح الجلد ، فلو احتجم لم ينفعه ذلك بل قد يضره ، وفى الصيف

والبلاد الحارة تسخن الظواهر فتكون البواطن باردة فلا ينهضم الطعام فيها كما ينهضم فى الشتاء ، ويكون الماء النابع بارداً لبرودة باطن الأرض ، وتظهر الحيوانات إلى البراري لسخونة الهواء ، فهؤلاء قد لا ينفعهم الفصاد ؛ بل قد يضرهم ، والحجامة أنفع لهم .

وقوله : « شفاء أمتى » إشارة إلى من كان حينئذ من أمته وهم كانوا بالحجاز ، كما قال ما بين المشرق والمغرب قبلة ، لأن هذا كان قبلة أمتـه حينئذ ؛ لأنهم كانوا بالمدينة وما حولها ، وهـذا كما أنه فى آخر الأمر بعد أن فرض الحج سنة تسع أو سنة عشر وقت ثلاث مواقيت للمدينة ولنجد وللشام ، ولما فتح اليمن وقت لهم يلملم ، ثم وقت ذات عرق لأهل العراق ، وهذا كما أنه فرض صدقة الفطر صاعا مـن تمر أو صاعا من شعير عن كل صغير وكبير ذكراً وأنثى من المسلمين ، وكان هذا هو الفرض على أهل المدينة ؛ لأن الشعير والتمر كان قوتهم ، ولهذا كان جماهير العلماء على أنه من اقتات الأرز والذرة ونحـو ذلك يخرج من قوته ، وهو إحدى الروايتين عن أحمد ، وهل يجزيه أن يخرج التمر والشعير إذا لم يكن يقتاته . فيه قولان للعلماء .

وكان الصحابة يرمون بالقوس العربية الطويلة التى تشبه قوس الندف ، وفتح الله لهم بها البلاد ، وقد رويت آثار في كراهة الرمي بالقوس الفارسية عن بعض السلف لكونها كانت شعار الكفار ، فأما بعـد أن

اعتادها المسلمون وكثرت فيهم وهي فى أنفسها أنفع فى الجهاد من تلك القوس . فلا تكره فى أظهر قولي العلماء ، أو قول أكثرهم ؛ لأن الله تعالى قال : (وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ) .

والقوة في هذا أبلغ بلا ريب ، والصحابة لم تكن هذه عندهم فعدلوا عنها إلى تلك ؛ بل لم يكن لهم غيرها ، فينظر فى قصدهم بالرمي أكان لحاجة إليها إذ ليس لهم غيرها ؟ أم كان لمعنى فيها ؟ ومن كره الرمي بها كرهه لمعنى لازم ، كما يكره الكفر وما يستلزم الكفر ، أم كرهها لكونها كانت من شعائر الكفار فكره التشبه بهم ؟ .

وهذا كما أن الكفار من اليهود والنصارى إذا لبسوا ثوب الغيار من أصفر وأزرق نهى عن لباسه لما فيه من التشبه بهم ، وإن كان لو خلا عن ذلك لم يكره ، وفي بلاد لا يلبس هذه الملابس عندهم إلا الكفار فنهى عن لبسها ، والذين اعتادوا ذلك من المسلمين لا مفسدة عندهم فى لبسها .

ولهذا كره أحمد وغيره لباس السواد لما كان فى لباسه تشبه بمن يظلم أو يعين على الظلم ، وكره بيعه لمن يستعين بلبسه على الظلم ، فأما إذا لم يكن فيه مفسدة لم ينه عنه .

وكره من كره من الصحابة والتابعين بيع الأرض الخراجية ، لأن

المسلم المشترى لهـا إذا أدى الخراج عنها أشبه أهـل الذمة في التزام الجزية ، فإن الخراج جزية الأرض ، وإن لم يؤدها ظلم المسلمين بإسقاط حقهم من الأرض ، لم يكرهوا بيعها لكونها وقفا ، فإن الوقف إنما منع من بيعه لأن ذلك يبطل الوقف ، ولهذا لا يباع ولا يوهب ولا يورث ، والأرض الخراجية تنتقل إلى الوارث باتفاق العلماء ، وتجوز هبتها ، والمتهب المشترى يقوم فيها مقام البائع فيؤدي ما كان عليه من الخراج ، وليس فى بيعها مضرة لمستحقي الخراج كما فى بيع الوقف . وقد غلط كثير من الفقهـاء فظنوا أنهم كرهوا بيعها لكونها وقفاً ، واشتبه عليهم الأمر ، لأنهم رأوا الآثار مروية فى كراهة بيعها ، وقد عرفوا أن عمر جعلها فيئًا لم يقسمهـا قط ، وذلك فى معنى الوقف ، فظنوا أن بيعها مكروه لهذا المعنى ، ولم يتأملوا حق التأمل فيرون أن هذا البيع ليس هو من جنس البيع المنهى عنه فى الوقف ، فإن هذه يصرف مغلها إلى مستحقها قبل البيع وبعده ، وعلى حد واحد ، ليست كالدار التى إذا بيعت تعطل نفعها عن أهل الوقف وصارت للمشترى .

وأعجب من ذلك أن طائفة من هؤلاء قالوا : مكة إنمـا كره بيع رباعها لكونها فتحت عنوة ، ولم تقسم أيضاً ، وهم قـد قالوا مع جميع النـاس إن الأرض العنوة التى جعلت أرضهـا فيئا يجوز بيع مساكنها ، والخراج إنما جعل على المزارع لا على المساكن ، فلو كانت

مكة قد جعلت أرضها للمسلمين ، وجعل عليها خراج لم يمتنع بيع مساكنها لذلك ، فكيف ومكة أقرها النبي صلى الله عليه وسلم بيد أهلها على ما كانت عليه مساكنها ومزارعها ولم يقسمها ولم يضرب عليها خراجا ؛ ولهذا قال من قال : أنها فتحت صلحاً ، ولا ريب أنها فتحت عنوة كما تدل عليه الأحاديث الصحيحة المتواترة ، لكن النبي صلى الله عليه وسلم أطلق أهلها جميعهم فلم يقتل إلا من قاتله ، ولم يسب لهم ذرية ، ولا غنم لهم مالا ، ولهذا سموا الطلقاء .

وأحمد وغيره من السلف إنما عللوا ذلك بكونها فتحت عنوة مع كونها مشتركة بين المسلمين . كما قال تعالى : (وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ) وهذه هي العلة التي اختصت بها مكة دون سائر الأمصار ، فإن الله أوجب حجها على جميع الناس ، وشرع اعتمارها دائماً فجعلها مشتركة بين جميع عباده . كما قال : (سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ) ولهذا كانت منى وغيرها من المشاعر من سبق إلى مكان فهو أحق به حتى ينتقل عنه ، كالمساجد ، ومكة نفسها من سبق إلى مكان فهو أحق به ، والإنسان أحق بمسكنه ما دام محتاجا إليه وما استغنى عنه من المنافع فعليه بذله بلا عوض لغيره من الحجيج ، وغيرهم . ولهذا كانت الأقوال في إجارة دورها وبيع رباعها ثلاثة .

قيل : لا يجوز لا هذا ، ولا هذا . وقيل : يجوز الأمران .

والصحيح أنه يجوز بيع رباعها ، ولا يجوز إجارتها ، وعلى هذا تدل الآثار المنقولة فى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة رضي الله عنهم ، فإن الصحابة كانوا يتبايعون دورها ، والدور تورث وتوهب ، وإذا كانت تورث وتوهب جاز أن تباع بخلاف الوقف ، فإنه لا يباع ولا يورث ولا يوهب .

وكذلك أم الولد من لم يجوز بيعها لم يجوز هبتها ولا أن تورث ، وأما إجارتها فقد كانت تدعى السوائب — على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبي بكر ، وعمر رضي الله عنهما من احتاج سكن ، ومن استغنى أسكن ؛ لأن المسلمين كلهم محتاجون إلى المنافع . فصارت كمنافع الأسواق والمساجد والطرقات التى يحتاج إليها المسلمون ، فمن سبق إلى شيء منها فهو أحق به ، وما استغنى عنه أخذه غيره بلا عوض ، وكذلك المباحات التى يشترك فيها الناس ، ويكون المشترى لها استفاد بذلك أنه أحق من غيره ما دام محتاجا ، وإذا باعها الإنسان قطع اختصاصه بها وتوريثه إياها ، وغير ذلك من تصرفاته ، ولهذا له أن لا يبذله إلا بعوض ، والنبي صلى الله عليه وسلم منّ على أهل مكة ، فإن الأسير يجوز المن عليه للمصلحة ، وأعطاهم مع ذلك ذراريهم وأموالهم ، كما من على هوازن لما جاءوا مسلمين بإحدى الطائفتين : السبي أو المال ، فاختاروا السبي فأعطاهم السبي وكان ذلك بعد القسمة ،

فعوض عن نصيبه من لم يرض بأخذه منهم ، وكان قد قسم المال فلم يرده عليهم ، وقريش لم تحاربه كما حاربته هوازن ، وهو إنما من على من لم يقاتله منهم كما قال : « من أغلق بابه فهو آمن ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » .

فلما كف جمهورهم عن قتاله وعرف أنهم مسلمون أطلقهم ، ولم يغنم أموالهم ولا حريمهم ، ولم يضرب الرق لا عليهم ولا على أولادهم بل سماهم الطلقاء من قريش ، بخلاف ثقيف فإنهم سموا العتقاء ، فإنه أعتق أولادهم بعد الاسترقاق والقسمة ، وكان فى هذا ما دل على أن الإمام يفعل بالأموال والرجال والعقار والمنقول ما هو أصلح ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم فتح خيبر فقسمها بين المسلمين ، وسبى بعض نسائها ، وأقر سائرهم مع ذراريهم حتى أجلوا بعد ذلك ، فلم يسترقهم ومكة فتحها عنوة ولم يقسمها لأجل المصلحة .

وقد تنازع العلماء فى الأرض إذا فتحت عنوة هل يجب قسمها كخيبر لأنها مغنم ، أو تصير فيئا كما دلت عليه سورة الحشر ، وليست الأرض من المغنم ، أو يخير الإمام فيما بين هذا وهذا على ثلاثة أقوال ، وأكثر العلماء على التخيير ، وهو الصحيح ، وهو مذهب أبى حنيفة وأحمد فى المشهور عنه وغيرهما .

ولو فتح الإمام بلداً وغلب على ظنه أن أهله يسلمون ويجاهدون جاز أن يمن عليهم بأنفسهم وأموالهم وأولادهم ، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بأهل مكة ، فإنهم أسلموا كلهم بلا خلاف ، بخلاف أهل خيبر فإنه لم يسلم منهم أحد ، فأولئك قسم أرضهم لأنهم كانوا كفاراً مصرين على الكفر ، وهؤلاء تركها لهم لأنهم كلهم صاروا مسلمين ، والمقصود بالجهاد أن تكون كلمة الله هي العليا ، وأن يكون الدين كله لله ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطي المؤلفة قلوبهم ليتألفهم على الإسلام ، فكيف لا يتألفهم بإبقاء ديارهم وأموالهم .

وهم لما حضروا معه حنيناً أعطاهم من غنائم حنين ما تألفهم به ، حتى عتب بعض الأنصار ، كما فى الصحيحين عن أنس بن مالك : « أن ناساً من الأنصار قالوا يوم حنين حين أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء ، فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطى رجالا من قريش المائة من الإبل . فقالوا : يغفر الله لرسول الله يعطى قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم — قال أنس : فحدث ذلك النبى صلى الله عليه وسلم من قولهم ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الأنصار فجمعهم فى قبة من أدم ، فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما حديث بلغني عنكم ؟! فقال له فقهاء الأنصار : أما ذوو رأينا يا رسول الله فلم يقولوا شيئاً ، وأما أناس منا حديثة

أسنانهم فقالوا : يغفر الله لرسول الله يعطى قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فإنى أعطى رجالا حديثي عهد بكفر أتألفهم ، أفلا ترضون أن يذهب الناس بالأموال وترجعون إلى رحالكم برسول الله ؟ ! فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به ، قالوا : بلى يا رسول الله ! قد رضينا ، قال : فإنكم ستجدون بعدي أثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله ، فإني على الحوض قالوا : سنصبر — وفى رواية لو سلك الناس واديا أو شعبا وسلكت الأنصار واديا أو شعبا لسلكت وادي الأنصار وشعبهم ، الناس دثار ، والأنصار شعار ، ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، وحدثهم حتى بكوا رضي الله تعالى عنهم » .

فهذا كله بذل وعطاء لأجل إسلام الناس ، وهو المقصود بالجهاد .

ومن قال : إن الإمام يجب عليه قسمة العقار والمنقول مطلقاً ، فقوله فى غاية الضعف مخالف لكتاب الله وسنة رسوله المنقولة بالتواتر ، وليس معه حجة واحدة توجب ذلك ، فإن قسمة النبى صلى الله عليه وآله وسلم خيبر تدل على جواز ما فعل ، لا تدل على وجوبه ، إذ الفعل لا يدل بنفسه على الوجوب ، وهو لم يقسم مكة ولا شك أنها فتحت عنوة ، وهذا يعلمه ضرورة من تدبر الأحاديث ، وكذلك المنقول : من قال : إنه يجب قسمه كله بالسوية بين الغانمين في كل غزاة فقوله

ضعيف ، بل يجوز فيه التفضيل للمصلحة ، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفضل في كثير من المغازى .

والمؤلفة قلوبهم الذين أعطاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم من غنائم خيبر فيما أعطاهم قولان : أحدهما أنه من الخمس ، والثاني أنه من أصل الغنيمة ، وهذا أظهر . فإن الذي أعطاهم إياه هو شيء كثير لا يحتمله الخمس ، ومن قال العطاء كان من خمس الخمس فلم يدر كيف وقع الأمر ، ولم يقل هذا أحد من المتقدمين ، هذا مع قوله : « ليس لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم » وهذا لأن المؤلفة قلوبهم كانوا من العسكر ، ففضلهم فى العطاء للمصلحة كما كان يفضلهم فيما يقسمه من الفيء للمصلحة .

وهذا دليل على أن الغنيمة للإمام أن يقسمها باجتهاده كما يقسم الفيء باجتهاده ، إذا كان إمام عدل قسمها بعلم وعدل ، ليس قسمتها بين الغانمين كقسمة الميراث بين الورثة ، وقسمة الصدقات فى الأصناف الثمانية ، ولهذا قال في الصدقات : « إن الله لم يرض فيها بقسمة نبى ولا غيره ، ولكن جعلها ثمانية أصناف ، فإن كنت من تلك الأصناف أعطيتك » فعلم أن ما أفاء الله من الكفار بخلاف ذلك ، وقد قسم النبي صلى الله عليه وسلم من خيبر لأهل السفينة الذين قدموا مع جعفر ، ولم يقسم لأحد غاب عنها غيرهم ، وقسم من غنائم بدر لطلحة والزبير ولعثمان ،

وكان قد أقام بالمدينة ، وهؤلاء الذين كانوا يريدون القتال وكانوا مشغولين ببعض مصالح المسلمين الذين هم فيها فى جهاد .

وأيضاً أهل السفينة وطلحة والزبير وعثمان لم يكونوا كغيرهم ، والقتال لم يكن لأجل الغنيمة ، فليست الغنيمة كمباح اشترك فيه ناس مثل الاحتشاش والاحتطاب والاصطياد ، فإن ذلك الفعل مقصوده هو اكتساب المال ، بخلاف الغنيمة ، بل من قاتل فيها لأجل المال لم يكن مجاهداً في سبيل الله ، ولهذا لم تبح الغنائم لمن قبلنا وأبيحت لنا معونة على مصلحة الدين .

فالغنائم أبيحت لمصلحة الدين وأهله ، فمن كان قد نفع المجاهدين بنفع استعانوا به على تمام جهادهم جعل منهم وإن لم يحضر ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم « المسلمون يد واحدة يسعى بذمتهم أدناهم ، ويرد متسريهم على قاعدهم » . فان المتسري إنما تسرى بقوة القاعد ، فالمعاونون للمجاهدين من المجاهدين ، ولبسط هذه الأمور موضع آخر .

والمقصود هنا : ذكر متابعة النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو أنه يعتبر فيه متابعته في قصده ، فإذا قصد مكاناً للعبادة فيه كان قصده لتلك

العبادة سنة ، وأما إذا صلى فيه اتفاقا من غير قصد لم يكن قصده للعبادة سنة ، ولهذا لم يكن جمهور الصحابة يقصدون مشابهته فى ذلك ، وابن عمر رضي الله عنهما مع أنه كان يحب مشابهته فى ظاهـر الفعل لم يكن يقصد الصلاة إلا في الموضع الذي صلى فيه لافى كل موضع نزل بـه ، ولهذا رخص أحمد بن حنبل فى ذلك إذا كان شيئاً يسيراً ، كما فعله ابن عمر ، ونهى عنه رضى الله عنه إذا كثر لأنه يفضي إلى المفسدة ، وهي اتخاذ آثار الأنبياء مساجد وهي التى تسمى المشاهـد ، وما أحـدث فى الإسلام من المساجد والمشاهد على القبور والآثار فهو من البدع المحدثة فى الإسلام ، من فعل من لم يعرف شريعة الإسلام ، وما بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم من كمال التوحيد وإخلاص الدين لله وسـد أبواب الشرك التى يفتحها الشيطان لبني آدم ، ولهـذا يوجـد من كان أبعد عن التوحيد وإخلاص الدين لله ومعرفة دين الإسـلام هم أكـثر تعظيما لمواضع الشرك ، فالعارفون بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحديثه أولى بالتوحيد وإخلاص الدين لله ، وأهل الجهل بذلك أقرب إلى الشرك والبدع .

ولهذا يوجد ذلك في الرافضة أكثر مما يوجد فى غـيرهم ؛ لأنهم أجهل من غيرهم ، وأكثر شركا وبدعا ، ولهذا يعظمون المشاهد أعظم من غيرهم ، ويخربون المساجد أكثر من غيرهم ، فالمساجد لا يصلون فيها

جمعة ولا جماعة ، ولا يصلون فيها إن صلوا إلا أفراداً ، وأما المشاهد فيعظمونها أكثر من المساجد ، حتى قد يرون أن زيارتها أولى من حج بيت الله الحرام ، ويسمونها الحج الأكبر ، وصنف ابن المفيد منهم كتابا سماه « مناسك حج المشاهد » وذكر فيه من الأكاذيب والأقوال مالا يوجد في سائر الطوائف ، وإن كان فى غيرهم أيضاً نوع من الشرك والكذب والبدع ؛ لكن هو فيهم أكثر ، وكلما كان الرجل أتبع لمحمد صلى الله عليه وسلم كان أعظم توحيداً لله وإخلاصاً له فى الدين ، وإذا بعد عن متابعته نقص من دينه بحسب ذلك ، فإذا كثر بعده عنه ظهر فيه من الشرك والبدع مالا يظهر فيمن هو أقرب منه إلى اتباع الرسول .

والله إنما أمر فى كتابه وسنة رسوله بالعبادة فى المساجد ، والعبادة فيها هي عمارتها . قال تعالى : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ) ولم يقل مشاهد الله . وقال تعالى : (قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ) ولم يقل عند كل مشهد ، فإن أهل المشاهد ليس فيهم إخلاص الدين لله ، بل فيهم نوع من الشرك ، وقال تعالى : (مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ * إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ)

الآيات .   وفي الترمذي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان . ثم قرأ هذه الآية » فإن المراد بعمارتها عمارتها بالعبادة فيها كالصلاة والاعتكاف، يقال مدينة عامرة إذا كانت مسكونة ، ومدينة خراب إذا لم يكن فيها ساكن ، ومنه قوله تعالى : (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ) .

وأما نفس بناء المساجد فيجوز أن يبنيها البر والفاجر ، والمسلم والكافر ، وذلك يسمى بناء كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتا فى الجنة » فبين الله تعالى أن المشركين ما كان لهم عمارة مساجد الله مع شهادتهم على أنفسهم بالكفر ، وبين أنما يعمرها من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله ، وهذه صفة أهل التوحيد وإخلاص الدين لله الذين لا يخشون إلا الله ، ولا يرجون سواه ، ولا يستعينون إلا به ، ولا يدعون إلا إياه ، وعمار المشاهد يخافون غير الله ، ويرجون غيره ، ويدعون غيره ، وهو سبحانه لم يقل إنما يعمر مشاهد الله ، فإن المشاهد ليست بيوت الله ، إنما هى بيوت الشرك ، ولهذا ليس في القرآن آية فيها مدح المشاهد ، ولا عن النبي صلى الله عليه وسلم فى

ذلك حديث ، وإنما ذكره الله عمن كان قبلنا أنهم بنوا مسجداً على قبر أهل الكهف ، وهؤلاء من الذين نهانا الله أن نتشبه بهم حيث قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإنى أنها كم عن ذلك » .

ففي هذا الحديث ذم أهل المشاهد ، وكذلك سائر الأحاديث الصحيحة ، كما قال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما فعلوا » وقال : « أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة » ثم أهل المشاهد كثير من مشاهدهم أو أكثرها كذب ، فإن الشرك مقرون بالكذب فى كتاب الله كثيراً . قال تعالى : (وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ * حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ) وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « عدلت شهادة الزور الإشراك بالله » قالها ثلاثاً . وذلك كالمشهد الذي بنى بالقاهرة على رأس الحسين ، وهو كذب باتفاق أهل العلم ، ورأس الحسين لم يحمل إلى هناك أصلا ، وأصله من عسقلان . وقد قيل أنه كان رأس راهب ، ورأس الحسين لم يكن بعسقلان ، وإنما أحدث هذا فى أواخر دولة الملاحدة بني عبيد .

وكذلك مشهد علي — رضي الله عنه — إنما أحدث فى دولة بنى

بويه ، وقال محمد بن عبد الله مطين الحافظ وغيره : إنما هو قبر المغيرة ابن شعبة رضي الله عنه ، وعلي رضي الله عنه إنما دفن بقصر الإمارة بالكوفة ، ودفن معاوية بقصر الإمارة بدمشق ، ودفن عمرو بن العاص بقصر الإمارة بمصر ، خوفا عليهم إذا دفنوا فى المقابر البارزة أن ينبشهم الخوارج المارقون ، فإن الخوارج كانوا تعاهدوا على قتل الثلاثة ، فقتل ابن ملجم عليا ، وجرح صاحبه معاوية ، وعمرو كان استخلف رجلاً اسمه خارجة فقتله الخارجي . وقال : أردت عمراً وأراد الله خارجة . فسارت مثلا .

فالمقصود أن هذا المشهد إنما أحدث فى دولة الملاحدة دولة بني عبيد . وكان فيهم من الجهل والضلال ومعاضدة الملاحدة وأهل البدع من المعتزلة والرافضة أمور كثيرة ، ولهذا كان فى زمنهم قد تضعضع الإسلام تضعضعاً كثيراً ، ودخلت النصارى إلى الشام ، فإن بنى عبيد ملاحدة منافقون ليس لهم غرض فى الإيمان بالله ورسوله ، ولا فى الجهاد في سبيل الله ، بل في الكفر والشرك ومعاداة الإسلام بحسب الإمكان ، وأتباعهم كلهم أهل بدع وضلال ، فاستولت النصارى فى دولتهم على أكثر الشام ، ثم قيض الله من ملوك السنة مثل : نور الدين ، وصلاح الدين ، وإخوته وأتباعهم ففتحوا بلاد الإسلام ، وجاهدوا الكفار والمنافقين .

ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة عند طلوع الشمس ، وعند غروبها ، لأن المشركين يسجدون للشمس حينئذ ، والشيطان يقارنها ، وإن كان المسلم المصلي لا يقصد السجود لها ، لكن سد الذريعة لئلا يتشبه بالمشركين فى بعض الأمور التى يختصون بها فيفضي إلى ما هو شرك ؛ ولهذا نهى عن تحري الصلاة فى هذين الوقتين ، هذا لفظ ابن عمر الذي فى الصحيحين . فقصد الصلاة فيها منهى عنه .

وأما إذا حدث سبب تشرع الصلاة لأجله : مثل تحية المسجد ، وصلاة الكسوف ، وسجود التلاوة ، وركعتى الطواف ، وإعادة الصلاة مع إمام الحي ونحو ذلك ، فهذه فيها نزاع مشهور بين العلماء ، والأظهر جواز ذلك واستحبابه ، فإنه خير لا شر فيه ، وهو يفوت إذا ترك ، وإنما نهى عن قصد الصلاة وتحريها فى ذلك الوقت لما فيه من مشابهة الكفار بقصد السجود ذلك الوقت ، فما لا سبب له قد قصد فعله في ذلك الوقت ، وإن لم يقصد الوقت ، بخلاف ذي السبب فإنه فعل لأجل السبب فلا تأثير فيه للوقت بحال ، ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة فى المقبرة عموما فقال : « الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام »، رواه أهل السنن ، وقد روى مسنداً ومرسلاً ، وقد صحح الحفاظ أنه مسند ، فإن الحمام مأوى الشياطين ، والمقابر نهى عنها

لما فيه من التشبه بالمتخذين القبور مساجد ، وإن كان المصلى قد لا يقصد الصلاة لأجل فضيلة تلك البقعة ، بل انفق له ذلك .

لكن فيه تشبه بمن يقصد ذلك ، فهى عنه كما ينهى عن الصلاة المطلقة وقت الطلوع والغروب ، وإن لم يقصد فضيلة ذلك الوقت لما فيه من التشبه بمن يقصد فضيلة ذلك الوقت وهم المشركون ، فنهيه عن الصلاة في هذا الزمان ،كنهيه عن الصلاة في ذلك المكان ، فلما كان الشرك الذي أضل أكثر بنى آدم أصله وأعظمه من عبادة البشر والتماثيل المصورة على صورهم ، فإن المشركين قد اعتادوا آلهة يلدون ويولدون ، ويرثون ويورثون ، ويكونون من شيء من الأشياء ، فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن إلهه الذي يعبده : من أي شيء هو ؟ أمن كذا أم من كذا ؟ وممن ورث الدنيا ؟ ولمن يورثها ؟ فقال تعالى : (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ) .

وفى حديث أبى بن كعب ، لأنه ليس أحد يولد إلا يموت ، ولا أحد يرث إلا يورث ، يقول : كل من عبد من دون الله قد ولد مثل المسيح والعزير وغيرهما من الصالحين وتماثيلهم ، ومثل الفراعنة المدعين الإلهية ، فهذا مولود يموت ، وهو وإن كان ورث من غيره ما هو فيه ، فإذا مات ورثه غيره . والله سبحانه حي لا يموت ، ولا يورث ، سبحانه وتعالى . والله أعلم وصلى الله على محمد .

سورة الفلق

وقال شيخ الإسلام

ناصر السنة قامع البدعة تقي الدين أحمد بن تيمية نفعنا المولى بعلومه — وهو مما كتبه في القلعة —

فصل

في (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ)

قال تعالى : (فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ) وقال تعالى : (فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا) والفلق : فعل بمعنى مفعول ، كالقبض بمعنى المقبوض فكل ما فلقه الرب فهو فلق ، قال الحسن : الفلق كل ما انفلق عن شيء : كالصبح ، والحب ، والنوى .

قال الزجاج : وإذا تأملت الخلق بان لك أن أكثره عن انفلاق

كالأرض بالنبات والسحاب بالمطر .

وقد قال كثير من المفسرين : الفلق الصبح ، فإنه يقال هذا أبين من فلق الصبح ، وفرق الصبح .

وقال بعضهم : الفلق الخلق كله ، وأما من قال : إنه واد فى جهنم أو شجرة فى جهنم ، أو أنه اسم من أسماء جهنم ، فهذا أمر لا تعرف صحته ، لا بدلالة الاسم عليه ، ولا بنقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا فى تخصيص ربوبيته بذلك حكمة ، بخلاف ما إذا قال رب الخلق ، أو رب كل ما انفلق ، أو رب النور الذي يظهره على العباد بالنهار ، فإن في تخصيص هذا بالذكر ما يظهر به عظمة الرب المستعاذ به ، وإذا قيل : الفلق يعم ويخص ، فبعمومه للخلق أستعيذ من شر ما خلق ، وبخصوصه للنور النهاري أستعيذ من شر غاسق إذا وقب .

فإن الغاسق قد فسر بالليل ، كقوله : (أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ) وهذا قول أكثر المفسرين ، وأهل اللغة . قالوا : ومعنى (وَقَبَ) دخل في كل شيء . قال الزجاج : (الغاسق) البارد ، وقيل الليل غاسق ، لانه أبرد من النهار ، وقد روى الترمذي والنسائي عن عائشة « أن النبي صلى الله عليه وسلم : نظر إلى القمر فقال : ياعائشة تعوذي بالله من شره ، فإنه الغاسق إذا وقب » وروى

من حديث أبي هريرة مرفوعا « أن الغاسق النجم » وقال ابن زيد هو الثريا ، وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها ، وترتفع عند طلوعها ، وهذا المرفوع قد ظن بعض الناس منافاته لمن فسره بالليل ، فجعلوه قولا آخر ، ثم فسروا وقوبه بسكونه .

قال ابن قتيبة : ويقال الغاسق القمر إذا كسف واسود . ومعنى وقب دخل فى الكسوف ، وهذا ضعيف ، فإن ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعارض بقول غيره ، وهو لا يقول إلا الحق ، وهو لم يأمر عائشة بالاستعاذة منه عند كسوفه ، بل مع ظهوره ، وقد قال الله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ فالقمر آية الليل . وكذلك النجوم إنما تطلع فترى بالليل ، فأمره بالاستعاذة من ذلك أمر بالاستعاذة من آية الليل ، ودليله وعلامته ، والدليل مستلزم للمدلول ، فإذا كان شر القمر موجوداً ، فشر الليل موجود ، وللقمر من التأثير ما ليس لغيره ، فتكون الاستعاذة من الشر الحاصل عنه أقوى ، ويكون هذا كقوله عن المسجد المؤسس على التقوى : « هو مسجدي هذا » مع أن الآية تتناول مسجد قباء قطعاً . وكذلك قوله عن أهل الكساء : « هؤلاء أهل بيتى » مع أن القرآن يتناول نساءه ، فالتخصيص لكون المخصوص أولى بالوصف ، فالقمر أحق ما يكون بالليل بالاستعاذة والليل مظلم ، تنتشر فيه شياطين

الإنس والجن ما لاتنتشر بالنهار ، ويجري فيه من أنواع الشر ما لا يجري بالنهار من أنواع الكفر والفسوق والعصيان والسحر والسرقة والخيانة والفواحش وغير ذلك ، فالشر دائماً مقرون بالظلمة ، ولهذا إنما جعله الله لسكون الآ دميين وراحتهم، لكن شياطين الإنس والجن تفعل فيه من الشر مالا يمكنهافعله بالنهار، ويتوسلون بالقمر وبدعوته ، والقمر وعبادته ، وأبو معشر البلخي له « مصحف القمر » يذكر فيه من الكفريات والسحريات ما يناسب الاستعاذة منه .

فذكر سبحانه الاستعاذة من شر الخلق عموما ، ثم خص الأمر بالاستعاذة من شر الغاسق إذا وقب ، وهو الزمان الذي يعم شره ، ثم خص بالذكر السحر ، والحسد .

فالسحر يكون من الأنفس الخبيثة ، لكن بالاستعانة بالأشياء كالنفث فى العقد . والحسد يكون من الأنفس الخبيثة أيضاً ، إما بالعين ، وإما بالظلم باللسان واليد ، وخص من السحر النفاثات فى العقد ، وهن النساء . والحاسد الرجال فى العادة ، ويكون من الرجال ومن النساء .

والشر الذي يكون من الأنفس الخبيثة من الرجال والنساء : هو شر منفصل عن الإنسان ، ليس هو فى قلبه كالوسواس الخناس .

وفى سورة الناس ذكر (ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ) فإنه مبدأ الأفعال

المذمومة من الكفر والفسوق والعصيان ، ففيها الاستعاذة من شر ما يدخل الإنسان من الأفعال التى تضره من الكفر والفسوق والعصيان ، وقد تضمن ذلك الاستعاذة من شر نفسه .

وسورة الفلق فيها الاستعاذة من شر المخلوقات عموماً وخصوصاً ، ولهذا قيل فيها برب الفلق ، وقيل فى هذه برب الناس ، فإن فالق الإصباح بالنور يزيل بما في نوره من الخير ما فى الظلمة من الشر ، وفالق الحب والنوى بعد انعقادها يزيل ما فى عقد النفاثات ، فإن فلق الحب والنوى أعظم من حل عقد النفاثات ، وكذلك الحسد هو من ضيق الإنسان وشحه لا ينشرح صدره لإنعام الله عليه ، فرب الفلق يزيل ما يحصل بضيق الحاسد وشحه ، وهو سبحانه لا يفلق شيئاً إلا بخير ، فهو فالق الإصباح بالنور الهادي ، والسراج الوهاج الذي به صلاح العباد ، وفالق الحب والنوى بأنواع الفواكه والأقوات التى هي رزق الناس ودوابهم ، والإنسان محتاج إلى جلب المنفعة من الهدى والرزق ، وهذا حاصل بالفلق ، والرب الذي فلق للناس ما تحصل به منافعهم يستعاذ به مما يضر الناس ، فيطلب منه تمام نعمته بصرف المؤذيات عن عبده الذي ابتدأ بإنعامه عليه ، وفلق الشيء عن الشيء هو دليل على تمام القدرة ، وإخراج الشيء من ضده كما يخرج الحي من الميت ، والميت من الحي ، وهذا من نوع الفلق ، فهو سبحانه قادر على دفع الضد المؤذى بالضد النافع .

سورة الناس

وقال رحمه الله :

فصــــل

في (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) إلى آخرها . قوله : (مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ) فيها أقوال ، ولم يذكر ابن الجوزي إلا قولين ، ولم يذكر الثالث وهو الصحيح . وهو أن قوله من الجنة والناس لبيان الوسواس ، أي الذي يوسوس من الجنة ومن الناس فى صدور الناس ، فإن الله تعالى قد أخبر أنه جعل لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ، وإيحاؤهم هو وسوستهم ، وليس من شرط الموسوس أن يكون مستتراً عن البصر ؛ بل قد يشاهد ، قال تعالى : (فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ) وهـذا كلام من يعرف قائله ، ليس شيئاً يلقى فى القلب لا يدرى ممن هو ، وإبليس قد أمر بالسجود لآدم فأبى واستكبر ، فلم يكن ممن لا يعرفه آدم ، وهو ونسله يرون بني آدم من حيث لا يرونهم ، وأما آدم فقد رآه .

وقد يرى الشياطين والجن كثير من الإنس ، لكن لهم من الاجتنان والاستتار ما ليس للإنس ، وقد قال تعالى : ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ﴾ وفى التفسير والسيرة : أن الشيطان جاءهم فى صورة بعض النـاس ، وكذلك قوله :﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ .

وفى حديث أبى ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعوذ بالله من شياطين الإنس والجن ، قلت : أو للإنس شيـاطين ؟ قال : نعم ! شر من شياطين الجن » .

وأيضاً فالنفس لها وسوسة كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ فهـذا توسوس به نفسه لنفسه ، كما يقـال حديث النفس ، قال النـبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ما لم تتـكلم به أو تعمل به » أخرجاه فى الصحيحين .

فالذي يوسوس فى صـدور النـاس نفوسهم ، وشيـاطين الجـن ، وشياطين الإنس .

والوسواس الخناس يتناول وسوسة الجنة ، ووسوسة الإنس ، وإلا

أي معنى للاستعاذة من وسوسة الجن فقط ، مع أن وسوسة نفسه وشياطين الإنس هي مما تضره ، وقد تكون أضر عليه من وسوسة الجن ؟! .

وأما قول الفراء : إن المراد من شر الوسواس الذي يوسوس فى صدور الناس : الطائفتين من الجن والإنس ، وإنه سمى الجن ناسا ، كما سماهم رجالا ، وسماهم نفراً فهذا ضعيف ، فإن لفظ الناس أشهر وأظهر وأعرف من أن يحتاج إلى تنويعه إلى الجن والإنس ، وقد ذكر الله تعالى لفظ الناس فى غير موضع .

وأيضاً فكونه يوسوس في صدور الطائفتين صفة توضيح وبيان وليس وسوسة الجن معروفة عند الناس ، وإنما يعرف هذا بخبر ، ولا خبر هنا ، ثم قد قال: (مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ) فكيف يكون لفظ الناس عاما للجنة والناس ، وكيف يكون قسيم الشيء قسما منه ، فهو يجعل الناس قسيم الجن ، ويجعل الجن نوعا من الناس ، وهذا كما يقول : أكرم العرب من العجم والعرب ، فهل يقول هذا أحد ؟! وإذا سماهم الله تعالى رجالا لم يكن فى هذا دليل على أنهم يسمون ناساً ، وإن قدر أنه يقال جاء ناس من الجن فذاك مع التقييد ، كما يقال إنسان من طين ، وماء دافق ، ولا يلزم من هذا أن يدخلوا فى لفظ الناس ، وقد قال تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ

وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا)

فالناس كلهم مخلوقون من آدم وحـواء مع أنه سبحـانه يخاطب الجن والإنس .

والرسول صلى الله عليــه وسلم مبعوث إلى الجنسين ، لكن لفـظ الناس لم يتناول الجن ، ولـكن يقول يا معشر الجن والإنس .

وكذلك قول الزجاج : إن المعنى (مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ) الذي هـو الجنة ومن شر الناس فيه ضعف ، وإن كان أرجح من الأول ؛ لأن شر الجن أعظم من شر الإنس ، فكيف يطلق الاستعـاذة من جميـع الناس ولا يستعيذ إلا من بعض الجن ؟!.

وأيضاً فالوسواس الخناس إن لم يكن إلا من الجنة فلا حاجة إلى قوله (مِنَ ٱلْجِنَّـةِ) ومن (ٱلنَّـاسِ) فلماذا يخص الاستعاذة من وسواس الجنة دون وسواس الناس .

وأيضاً فإنه إذا تقدم المعطوف اسماً كان عطفه على القريب أولى، كما أن عود الضمير إلى الأقرب أولى ، إلا إذا كان هناك دليل يقتضي العطف على البعيد ، فعطف الناس هنا على الجنة المقرون به أولى من عطفه على الوسواس .

ويكفي أن المسلمين كلهم يقرأون هذه السورة من زمن نبيهم ولم ينقل هذان القولان إلا عن بعض النحاة ، والأقوال المأثورة عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان ليس فيها شيء من هذا ، بل إنما فيها القول الذي نصرناه ، كما فى تفسير معمر عن قتادة (مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ) قال : إن فى الجن شياطين، وإن فى الإنس شياطين، فنعوذ بالله من شياطين الإنس والجن ، فبين قتادة أن المعنى الاستعاذة من شياطين الإنس والجن .

وروى ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله (ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ) قال : الخناس الذي يوسوس مرة ويخنس مرة من الجن والإنس ، فبين ابن زيد أن الوسواس الخناس من الصنفين وكان يقال : شياطين الإنس أشد على الناس من شياطين الجن : شيطان الجن يوسوس ولا تراه ، وهذا يعاينك معاينة .

وعن ابن جريج : (مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ) قال : إنهما وسواسان ، فوسواس من الجنة فهو الخناس ، ووسواس من نفس الإنسان فهو قوله : (وَٱلنَّاسِ) ، وهذا القول الثالث وإن كان يشبه قول الزجاج ، فهذا أحسن منه فإنه جعل من الناس الوسواس الذي من نفس الإنسان ، فمعناه أحسن ، ذكر الثلاثة ابن أبي حاتم في تفسيره .

وأيضاً فإنه ذكر في الآية (بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ) فإن كان المقصود أن يستعيذ الناس بربهم وملكهم وإلههم من شر ما يوسوس في صدورهم ، فإنه هو الذي يطلب منه الخير الذي ينفعهم ، ويطلب منه دفع الشر الذي يضرهم ، والوسواس أصل كل شر يضرهم ؛ لأنه مبدأ للكفر والفسوق والعصيان ، وعقوبات الرب إنما تكون على ذنوبهم ، وإذا لم يكن لأحدهم ذنب فكل ما يصيبه نعمة في حقه ، وإذا ابتلى بما يؤلمه فإن الله يرفع درجته ويأجره ، إذا قدر عدم الذنوب مطلقاً ، لكن هذا ليس بواقع منهم ، فإن كل بنى آدم خطاء وخير الخاطئين التوابون ، وقد قال تعالى : (وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا * لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ) .

فغاية المؤمنين الأنبياء فمن دونهم هي التوبة . قال الله تعالى : (فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ) وقال نوح : (رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ) وقال إبراهيم وإسماعيل : (رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ) وقال موسى : (أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ) . ودعاء نبينا بمثل ذلك كثير معروف .

فكان الوسواس مبدأ كل شر ، فإن كانوا قد استعاذوا بربهم وملكهم وإلههم من شره ، فقد دخل في ذلك وسواس الجن والإنس ، وسائر شر الإنس إنما يقع بذنوبهم ، فهو جزاء على أعمالهم ، كالشر الذي يقع من الجن بغير الوسواس ، وكما يحصل من العقوبات السماوية وهم لم يستعيذوا هنا من شر المخلوقات مطلقاً ، كما استعاذوا فى سورة الفلق ، بل من الشر الذي يكون مبدؤه فى نفوسهم ، وإن كان ذكر رب الناس ملك الناس إله الناس يستعيذون به ليعيذهم ، وليعيذ منهم ، وهذا أعم المعنيين ، فذلك يحصل بإعاذته من شر الوسواس ، الموسوس في صدور الناس ، فإنه هو الذي يوسوس بظلم الناس بعضهم بعضاً ، وبإغواء بعضهم بعضاً ، وبإعانة بعضهم بعضاً على الإثم والعدوان .

فما حصل لإنسي شر من إنسي إلا كان مبدؤه من الوسواس الخناس وإلا فما يحصل من أذى بعضهم لبعض إذا لم يكن من الوسواس ، بل كان من الوحي الذي بعث الله به ملائكته كان عدلا ، كإقامة الحدود ، وجهاد الكفار ، والاقتصاص من الظالمين ، فهذه الأمور فيها ضرر وأذى للظالمين من الإنس ، لكن هي بوحي الله لا من الوسواس ، وهي نعمة من الله في حق عباده ، حتى فى حق المعاقب ، فإنه إذا عوقب كان ذلك كفارة له إن كان مؤمناً ، وإلا كان تخفيفاً لعذابه في الآخرة بالنسبة إلى عذاب من لم يعاقب في الدنيا .

ولهذا كان محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ رحمة فى حق العالمين باعتبار ما حصل من الخير العام به ، وما حصل للمؤمنين به من سعادة الدنيا والآخرة ، وباعتبار أنه فى نفسه رحمة ، فمن قبلها ، وإلا كان هو الظالم لنفسه ، وباعتبار أنه قمع الكفار والمنافقين فنقص شرهم ، وعجزوا عما كانوا يفعلونه بدونه ، وقتل من قتل منهم ، فكان تعجيل موتهم خيراً من طول عمرهم فى الكفر لهم وللناس ، فكان محمد صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين بكل اعتبار ، فلا يستعاذ منه ومن أمثاله من الأنبياء وأتباعهم المؤمنين ، وهم من الناس ، وإن كانوا يفعلون بأعدائهم ما هو أذى وعقوبة وألم لهم ، فلم تبق الاستعاذة من الناس إلا مما يأتى به الوسواس إليهم ، فيستعاذ برب الناس ملك الناس إله الناس على هذا التقدير من شر الوسواس الذي يوسوس للمستعيذ ، ومن شر الوسواس الذي يوسوس لسائر الناس ، حتى لا يحصل منهم شر للمستعيذ ، فإذا لم يكن للناس شر إلا من الوسواس كانت الاستعاذة من شر الذي يوسوس لهم تحصيلا للمقصود ، وكان حسما للمادة ، وأقرب إلى العدل ، وكان مخرجا لأنبياء الله وأوليائه أن يستعاذ من شرهم ، وأن يقرنوا بالوسواس الخناس ، ويكون ذلك تفضيلا للجن على الإنس ، وهذا لا يقوله عاقل .

فإن قيل : فإن كان أصل الشر كله من الوسواس الخناس ، فلا حاجة

إلى ذكر الاستعاذة من وسواس الناس ، فإنه تابع لوسواس الجن .

قيل : بل الوسوسة نوعان : نوع من الجن ، ونوع من نفوس الإنس . كما قال : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ) فالشر من الجهتين جميعاً ، والإنس لهم شياطين ، كما للجن شياطين ، والوسوسة من جنس الوشوشة بالشين المعجمة ، يقال فلان يوشوش فلانا ، وقد وشوشه إذا حدثه سراً فى أذنه ، وكذلك الوسوسة ، ومنه وسوسة الحلي لكن هو بالسين المهملة أخص .

(ورب الناس) : الذي يربيهم بقدرته ومشيئته وتدبيره ، وهو رب العالمين كلهم ، فهو الخالق للجميع ، ولأعمالهم .

و (ملك الناس): الذي يأمرهم وينهاهم ، فإن الملك يتصرف بالكلام والجماد لا ملك له ، فإنه لا يعقل الخطاب ، لكن له مالك ، وإنما يكون الملك لمن يفهم عنه ، والحيوان يفهم بعضه عن بعض ، كما قال : (عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ) (قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ) فلهذا كان له ملك من جنسه ومن غير جنسه ، كما كان سليمان ملكهم . والإله : هو المعبود الذي هو المقصود بالإرادات والأعمال كلها ، كما قد بسط الكلام على ذلك .

وقد قيل : إنما خص الناس بالذكر ؛ لأنهم مستعيذون ، أو لأنهم

المستعاذ من شرهم ، ذكرها أبو الفرج ، وليس لها وجه ، فإن وسواس الجن أعظم ولم يذكره ، بل ذكر الناس لأنهم المستعيذون ، فيستعيذون بربهم الذي يصونهم ، وبملكهم الذي أمرهم ونهاهم ، وبإلههم الذي يعبدونه من شر الذي يحول بينهم وبين عبادته ، ويستعيذون أيضاً من شر الوسواس الذي يحصل فى نفوس الناس منهم ومن الجنة ، فإنه أصل الشر الذي يصدر منهم والذي يرد عليهم .

فصـــــل

وبهـذا يتبين بعض هذه الاستعاذة والتى قبلهـا كما جاءت بذلك الأحاديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه لم يستعذ المستعيذون بمثلها ، فإن الوسواس أصل كل كفر وفسوق وعصيان ، فهو أصل الشر كله ، فمتى وقي الإنسان شره وقى عذاب جهنم ، وعذاب القبر ، وفتنة المحيا والممات ، وفتنة المسيح الدجال ، فإن جميع هـذه إنما تحصل بطريق الوسواس ، ووقي عذاب الله فى الدنيا والآخرة ، فإنه إنمـا يعذب على الذنوب ، وأصلها من الوسواس ، ثم إن دخل فى الآية وسواس غيره بحيث يكون قوله (مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ) استعاذة من الوسواس الذي يعرض له ، والذي يعرض للناس بسببه ، فقد وقى ظلمهم ، وإن كان

إنما يريد وسواسه فهم إنما يسلطون عليه بذنوبه وهي من وسواسه، قال تعالى : (أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ) وقال : (وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ) وقال : (مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ) .

والوسواس من جنس الحديث والكلام ؛ ولهذا قال المفسرون في قوله (مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥ) قالوا : ما تحدث به نفسه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به » .

وهو نوعان : خبر ، وإنشاء .

فالخبر : إما عن ماض ، وإما عن مستقبل . فالماضي يذكره به ، والمستقبل يحدثه بأن يفعل هو أموراً ، أو أن أموراً ستكون بقدر الله ، أو فعل غيره ، فهذه الأماني والمواعيد الكاذبة، والإنشاء أمر ونهي وإباحة

والشيطان تارة يحدث وسواس الشر ، وتارة ينسى الخير ، وكان ذلك بما يشغله به من حديث النفس . قال تعالى في النسيان :

(وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ) وقال فتى موسى : (فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ) وقال تعالى : (فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ) .

وثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا أذن المؤذن أدبر الشيطان وله ضراط ، حتى لا يسمع التأذين ، فإذا قضى التأذين أقبل ، فإذا ثوب بالصلاة أدبر ، فإذا قضى التثويب أقبل ، حتى يخطر بين المرء ونفسه ، فيقول : اذكر كذا ، اذكر كذا ، لما لم يذكر حتى يظل الرجل لم يدر كم صلى » فالشيطان ذكره بأمور ماضية ، حدث بها نفسه ، مما كانت فى نفسه من أفعاله ومن غير أفعاله . فبتلك الأمور نسى المصلي كم صلى ، ولم يدر كم صلى ، فإن النسيان أزال ما فى النفس من الذكر ، وشغلها بأمر آخر حتى نسى الأول .

وأما إخباره بما يكون فى المستقبل من المواعيد والأماني فكقوله : (وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم)

وفى هذه الآية أمره ووعده ، وقال تعالى :

(وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا * أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا

يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا) وقال تعالى : (ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ) ففي هذه أيضاً أمره ووعده . وقال موسى لما قتل القبطي : (هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ) .

وقد قال غير واحد من الصحابة : كأبي بكر وابن مسعود فيما يقولونه باجتهادهم : إن كان صوابا فمن الله ، وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان . فجعلوا ما يلقى في النفس من الاعتقادات التى ليست مطابقة من الشيطان ، وإن لم يكن صاحبها آثماً لأنه استفرغ وسعه ، كما لا يأثم بالوسواس الذي يكون فى الصلاة من الشيطان ، ولا بما يحدث به نفسه ، وقد قال المؤمنون : (رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا) وقد قال الله : قد فعلت .

والنسيان للحق من الشيطان ، والخطأ من الشيطان . قال تعالى : (وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ)

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها » ولما نام هو وأصحابه عن الصلاة فى غزوة خيبر قال : لأصحابه : « ارتحلوا فإن هذا مكان حضرنا فيه شيطان » وقال : « إن الشيطان أتى بلالا فجعل يهديه كما يهدى الصبي حتى نام »

وكان النبي صلى الله عليه وسلم وكل بلالا أن يوقظهم عند الفجر ، والنوم الذي يشغل عما أمر به والنعاس من الشيطان ، وإن كان معفواً عنه ؛ ولهذا قيل : النعاس فى مجلس الذكر من الشيطان ، وكذلك الاحتلام فى المنام من الشيطان ، والنائم لا قلم عليه .

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الرؤيا ثلاثة : رؤيا من الله ، ورؤيا من الشيطان ، ورؤيا ما يحدث به المرء نفسه فى اليقظة فيراه فى النوم » وقد قيل : إن هذا من كلام ابن سيرين ، لكن تقسيم الرؤيا إلى نوعين : نوع من الله ، ونوع من الشيطان صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم بلا ريب . فهذان النوعان : من وسواس النفس ، ومن وسواس الشيطان ، وكلاهما معفو عنه ، فإن النائم قد رفع القلم عنه ، ووسواس الشيطان يغشى القلب كطيف الخيال ، فينسيه ما كان معه من الإيمان حتى يعمى عن الحق فيقع فى الباطل ، فإذا كان من المتقين [كان] كما قال الله : (إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ) فإن الشيطان مسهم بطيف منه يغشى القلب ، وقد يكون لطيفاً ، وقد يكون كثيفاً إلا أنه غشاوة على القلب تمنعه إبصار الحق . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن العبد إذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء . فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وإن زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه فذلك

الران الذي قال الله تعالى : (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ) . » .

لكن طيف الشيطان غير رين الذنوب ، هذا جزاء على الذنب ، والغين ألطف من ذلك ، كما فى الحديث الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم قال : « إنه ليغان على قلبي ، وإني لأستغفر الله فى اليوم سبعين مرة » فالشيطان يلقى فى النفس الشر ، والملك يلقى الخير ، وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الملائكة ، وقرينه من الجن . قالوا : وإياك يا رسول الله ! قال : وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم » وفى رواية « فلا يأمرنى إلا بخير » أي استسلم وانقاد .

وكان ابن عيينة يرويه فأسلم بالضم ، ويقول : إن الشيطان لايسلم لكن قوله فى الرواية الأخرى : فلا يأمرنى إلا بخير ، دل على أنه لم يبق يأمره بالشر ، وهذا إسلامه ، وإن كان ذلك كناية عن خضوعه وذلته لا عن إيمانه بالله ، كما يقهر الرجل عدوه الظاهر ويأسره ، وقد عرف العدو المقهور أن ذلك القاهر يعرف ما يشير به عليه من الشر . فلا يقبله ، بل يعاقبه على ذلك ، فيحتاج لانقهاره معه إلى أنه لا يشير عليه إلا بخير لذلته وعجزه لا لصلاحه ودينه ؛ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : « إلا أن الله أعانني عليه فلا يأمرنى إلا بخير » وقال ابن مسعود : إن للملك لمة ، وإن للشيطان لمة ، فلمة الملك إيعاد بالخير ،

وتصديق بالحق . ولمة الشيطان إيعاد بالشر ، وتكذيب بالحق . وقد قال تعالى : ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ أي يخوفكم أولياؤه بما يقذف فى قلوبكم من الوسوسة المرعبة ، كشيطان الإنس الذي يخوف من العدو فيرجف ويخذل .

وعكس هذا قوله تعالى : ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ وقال تعالى : ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ وقال تعالى : ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ والتثبت جعل الإنسان ثابتاً لامرتابا ، وذلك بإلقاء ما يثبته من التصديق بالحق ، والوعد بالخير . كما قال ابن مسعود : لمة الملك وعد بالخير ، وتصديق بالحق . فمتى علم القلب أن ما أخبر به الرسول حق صدقه ، وإذا علم أن الله قد وعده بالتصديق وثق بوعد الله فثبت ، فهذا يثبت بالكلام كما يثبت الإنسان الإنسان فى أمر قد اضطرب فيه بأن يخبره بصدقه ، ويخبره بما يبين له أنه منصور فيثبت ، وقد يكون التثبت بالفعل ، بأن يمسك القلب ، حتى يثبت كما يمسك الإنسان الإنسان حتى يثبت .

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : « من سأل القضاء واستعان عليه وكل إليه ، ومن لم يسأل القضاء ، ولم يستعن عليه ، أنزل الله عليه ملكا يسدده » فهذا الملك يجعله سديد القول بما يلقي

فى قلبه من التصديق بالحق ، والوعد بالخير . وقد قال تعالى : (هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيۡكُمۡ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ) فدل ذلك على أن هذه الصلاة سبب لخروجهم من الظلمات إلى النور ، وقد ذكر إخراجه للمؤمنين من الظلمات إلى النور فى غير آية . كقوله : (ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ) وقال : (هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَـٰتِۭ بَيِّنَـٰتٍ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ) وقال : (كِتَـٰبٌ أَنزَلۡنَـٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ) وفى الحديث « إن الله وملائكته يصلون على معلمي الناس الخير » وذلك أن هذا بتعليمه الخير يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، والجزاء من جنس العمل ، ولهذا كان الرسول أحق الناس بكمال هذه الصلاة ، كما قال تعالى : (إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ) .

والصلاة هي الدعاء ، إما بخبر يتضمن الدعاء ، وإما بصيغة الدعاء ، فالملائكة يدعون للمؤمنين ، كما فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « والملائكة تصلي على أحدكم مادام في مصلاه : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه ، مالم يحدث » فبين أن صلاتهم قولهم : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه .

وفي الأثر « إن الرب يصلى فيقول : سبقت ــ أو غلبت ــ رحمتى غضبى »

وهذا كلامه سبحانه هو خبر وإنشاء ، يتضمن أن الرحمة تسبق الغضب وتغلبه ، وهو سبحانه لا يدعو غيره أن يفعل كما يدعوه الملائكة وغيرهم من الخلق ، بل طلبه بأمره وقوله ، وقسمه ، كقوله : لأفعلن كذا ، وقوله : كن ، فيكون ؛ وقوله : لأفعلن كذا قسم منه كقوله : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ ﴾ وقوله : ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ وقوله : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ وقوله : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ وهذا وعد مؤكد بالقسم بخلاف قوله : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ فإن هذا وعد وخبر ليس فيه قسم، لكنه مؤكد باللام التي يمكن أن تكون جواب قسم ، وقوله : ﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ وقوله : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ ﴾ ونحو ذلك وعد مجرد .

وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ فأخبر أنه يوحي إلى البشر تارة وحيا منه ، وتارة يرسل رسولا فيوحي إلى الرسول بإذنه ما يشاء .

والملائكة رسـل الله . ولفظ الملك يتضمن معنى الرسـالة ، فإن أصل الكلمة ملأك على وزن مفعل ، لكن لكثرة الاستعمال خففت . بأن ألقيت حركة الهمزة على الساكن قبلها وحذفت الهمزة ، وملاك مأخوذ من المألك والملأك ، بتقديم الهمزة على اللام ، واللام على الهمزة ، وهو الرسالة ، وكذلك الألوكة بتقديم الهمزة على اللام ، قال الشاعر :

أبلـغ النعمان عني مألـكا أنه قد طال حبسي وانتظاري

وهذا بتقديم الهمزة . لكن الملك هو بتقديم اللام عـلى الهمزة ، وهذا أجود ، فإن نظـيره في الاشتقاق الأكبر لاك يـلوك ، إذا لاك الكلام ، واللجـام ، والهمز أقوى من الواو ، ويليـه فى الاشتقاق الأوسط : أكل يأكل ، فإن الآكل يلوك مايدخله فى جوفـه من الغذاء ، والكلام والعلم ما يدخل فى الباطن ويغذى بـه صاحبه ، قال عبد الله بن مسعود : إن كل آدب يحب أن تؤتى مأدبته ، وإن مأدبة الله القرآن ، والآدب المضيف ، والمأدبـة الضيافـة ، وهو ما يجعـل من الطعام للضيف . فبين أن الله ضيف عباده بالكلام الذي أنزله إليهـم ، فهو غذاء قلوبهم وقوتها ، وهو أشـد انتفاعا به ، واحتياجا إليـه من الجسد بغذائه .

وقال علي رضي الله عنه : الربانيون هم الذين يغذون الناس بالحكمة ،

ويربونهم عليها ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني » وقد أخبر الله تعالى أن القرآن شفاء لما فى الصدور ، والناس إلى الغذاء أحوج منهم إلى الشفاء فى القلوب والأبدان ، وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم قال : « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة أمسكت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها طائفة أمسكت الماء فشرب الناس ، وسقوا وزرعوا ، وكانت منها طائفة إنما هي قيعان لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلأ . فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به من الهدى والعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » .

فأخبر أن ما بعث به للقلوب كالماء للأرض ، تارة تشربه فتنبت ، وتارة تحفظه ، وتارة لا هذا ولا هذا ، والأرض تشرب الماء وتغتذى به حتى يحصل الخير ، وقد أخبر الله تعالى أنه روح تحيا به القلوب فقال : (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) .

وإذا كان ما يوحيه إلى عباده تارة يكون بوساطة ملك ، وتارة بغير وساطة ، فهذا للمؤمنين كلهم مطلقاً لا يختص به الأنبياء . قال

تعالى : (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ) وقال تعالى : (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ) وإذا كان قد قال : (وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ) الآية .

فذكر أنه يوحى إليهم ، فإلى الإنسان أولى ، وقال تعالى : (وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا) وقد قال تعالى : (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) فهو سبحانه يلهم الفجور والتقوى للنفس ، والفجور يكون بواسطة الشيطان ، وهو إلهام وسواس ، والتقوى بواسطة ملك ، وهو إلهام وحي ، هذا أمر بالفجور ، وهذا أمر بالتقوى ، والأمر لابد أن يقترن به خبر .

وقد صار في العرف لفظ الإلهام إذا أُطلق لا يراد به الوسوسة . وهذه الآية مما تدل على أنه يفرق بين إلهام الوحي ، وبين الوسوسة . فالمأمور به إن كان تقوى الله فهو من إلهام الوحي ، وإن كان من الفجور فهو من وسوسة الشيطان .

فيكون الفرق بين الإلهام المحمود وبين الوسوسة المذمومة هو الكتاب والسنة ، فإن كان مما أُلقي في النفس مما دل الكتاب والسنة على أنه تقوى لله فهو من الإلهام المحمود ، وإن كان مما دل على أنه فجور فهو من الوسواس المذموم ، وهذا الفرق مطرد لا ينتقض ، وقد ذكر أبو حازم فى الفرق بين وسوسة النفس والشيطان فقال : ما كرهته

نفسك لنفسك فهو من الشيطان ، فاستعذ بالله منه ، وما أحبته نفسك لنفسك فهو من نفسك فانهها عنه .

وقد تكلم النظار فى العلم الحاصل في القلب عقب النظر والاستدلال فذكروا فيه ثلاثة أقوال ، كما ذكر ذلك أبو حامد — فى مستصفاه — وغيره قول الجهمية ، وقـول القدرية ، وقول الفلاسفـة . وكثير من أهل الـكلام لا يذكر إلا القولين : قول الجهمية ، وقول القدرية .

وذلك أنهم يذكرون في كتبهم ما يعرفونه من أقوال من يعرفونه تـكلم فى هـذا ، وهم لا يعرفون إلا هؤلاء ، والمسألة هي من فروع القدر ، فإن الحـاصل فى نفس حادث فيهـا ، فالقـول فيه كالأقوال في أمثـاله .

ومـذهب جهم ومن وافقـه كأبي الحسن الأشعري ، وكثير من المتأخرين المثبتة هو مذهب أهـل السنة والجماعـة ؛ أن الله خالق كل شيء ، وأن الله خالق أفعـال العباد ، لكنه لا يثبت سببا ولا قـدرة مؤثرة ، ولا حكمة لفعل الرب ، فأنكر الطبائع والقوى التى في الأعيان وأنـكر الأسباب والحـكم ، فلهذا لم يجعل لشيء سببا ، بل يقول هذا حاصل بخلق الله وقدرتـه ، ولم يذكروا له سبباً ، وهم صـادقون في

إضافته إلى قدره ، وأنه خالقه ، خلافا للقدرية ، لكن من تمام المعرفة إثبات الأسباب ومعرفتها .

وأما القدرية من المعتزلة وغيرهم : فبنوه على أصلهم ، وهو أن كل ما تولد عن فعل العبد فهو فعله لا يضاف إلى غيره ، كالشبع ، والري وزهوق الروح ، ونحو ذلك ، فقالوا : هذا العلم متولد عن نظر العبد أو تذكر النظر .

والمتفلسفة بنوه على أصلهم : فى أن ما يحدث من الصور هو من فيض العقل الفعال عند استعداد المواد القابلة ، فقالوا : يحصل فى نفوس البشر من فيض العقل الفعال عند استعداد النفس باستحضار المقدمتين ، وهذا القول خطأ ، والذي قبله أقرب منه ، والأول أقرب ، وليس فى شيء منها تحقيق الأمر في ذلك .

وحقيقته أن الله وكل بالإنس ملائكة وشياطين ، يلقون فى قلوبهم الخير والشر ، فالعلم الصادق من الخير ، والعقائد الباطلة من الشر ، كما قال ابن مسعود : لمة الملك تصديق بالحق ، ولمة الشيطان تكذيب بالحق ، وكما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى القاضي : « أنزل الله عليه ملكا يسدده » وكما أخبر الله أن الملائكة توحي إلى البشر ما توحيه ، وإن كان البشر لا يشعر بأنه من الملك ، كما لا يشعر بالشيطان الموسوس

لكن الله أخبر أنه يكلم البشر وحيا ، ويكلمه بملك يوحي بإذنه ما يشاء والثالث التكليم من وراء حجاب ، وقد قال بعض المفسرين : المراد بالوحي هنا الوحي فى المنام ، ولم يذكر أبو الفرج غيره ، وليس الأمر كذلك . فإن المنام تارة يكون من الله ، وتارة يكون من النفس ، وتارة يكون من الشيطان ، وهكذا ما يلقى في اليقظة . والأنبياء معصومون فى اليقظة والمنام .

ولهذا كانت رؤيا الأنبياء وحيا ، كما قال ذلك ابن عباس ، وعبيد ابن عمير ، وقرأ قوله : ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ وليس كل من رأى رؤيا كانت وحيا ، فكذلك ليس كل من ألقى في قلبه شيء يكون وحيا ، والإنسان قد تكون نفسه فى يقظته أكمل منها فى نومه كالمصلي الذي يناجي ربه ، فإذا جاز أن يوحى إليه في حال النوم فلماذا لا يوحى إليه فى حال اليقظة ، كما أوحى إلى أم موسى ، والحواريين ، وإلى النحل ؟! لكن ليس لأحد أن يطلق القول على ما يقع في نفسه أنه وحي لا في يقظة ولا في المنام إلا بدليل يدل على ذلك فإن الوسواس غالب على الناس . والله أعلم .

وقال شيخ الإسلام قدس الله روحه

فصـــــل

في (سورة الفلق والناس)

في (الفلق) أقوال ترجع إلى تعميم وتخصيص ، فإنه فسر بالخلق عموماً ، وفسر بكل ما يفلق منه كالفجر والحب والنوى ، وهو غالب الخلق ، وفسر بالفجر . وأما تفسيره بالنار ، أو بجب ، أو شجرة فيها ، فهذا مرجعه إلى التوقيف .

(والغاسق) قد روى في الحديث المرفوع عن عائشة في الترمذي والنسائي « أن النبي صلى الله عليه وسلم نظر إلى القمر وقال لها : يا عائشة تعوذي ! بالله من هذا ، فهذا الغاسق إذا وقب » ، قال ابن قتيبة (الغاسق) : القمر إذا كسف ، فاسود ، ومعنى وقب دخل في الكسوف .

والمشهور عند أهل التفسير واللغة أن (الغاسق) الليل (وقب)

دخـل فى كل شيء فأظـلم ، و « الغسق » الظلمـة ، وقال الزجاج : (الغاسق) البارد ، فقيل لليـل غاسق ؛ لأنه أبرد من النهـار ، أو يقال الغسق السيلان والإحاطة ، وغسق الليل سيلانه ، وإحاطته بالأرض وإذا فسر بالقمر ، فقـد يقـال وقوبه أي دخـوله ، وهـو دخوله في الكسوف ، ولا منـافاة بـين تفسيره بالليل ، وبالقمـر ، فإن القمر آية الليل ، فهنا ثلاث مراتب : الليل مطلقاً ، ثم القمر مطلقاً ، ثم القمر حال كسوفه .

وهذا منـاسب لما ذكر فى المستعاذ بـه ، فإن عموم الفلق للخلق بإزاء من شر ما خلق ، وخصوصه بالفجر الذي هو ظهور النور بإزاء الغاسق إذا وقب ، الذي هو دخول الظلام .

وقال ابن زيد : الغـاسق : الثريا إذا سقطت ، وكانت الأسقـام والطواعين تكثر عند وقوعها ، وقد تقع عند طلوعها ، ويشبه ـــ والله أعلم ـــ أن يكون من الحكمة فى ذلك : أن النور هو جنس الخير ، والظلمة جنس الشر ، وفى الليل يقع من الشرور النفسانية ما لا يقع فى النهار ، والقمر له تأثير في الأرض لا سيما حال كسوفه ؛ فإن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنهما آيتان يخوف الله بهما عباده » والتخويف إنما يكون بانعقاد سبب الخوف ، ولا يكون ذلك إلا عند سبب العذاب ، أو مظنته ، فعلم أن الكسوف مظنة حدوث عذاب بأهـل الأرض ؛

ولهذا شرع عند الكسوف الصلاة الطويلة ، والصدقة ، والعتاقة ، والدعاء لدفع العذاب ، وكذلك عند سائر الآيات التى هي إنشاء العذاب ، كالزلزلة ، وظهور الكواكب ، وغير ذلك . وهو أقرب الكواكب التى لها تأثير فى الأرض بالترطيب واليبس وغير ذلك .

ولهذا كان الطالبون للمنفعة والمضرة من الكواكب إنما يأخذون الأحداث بحسب سير القمر ، فإذا كان فى شرفه كالسرطان كان الوقت عندهم سعيداً ، وإذا كان في العقرب وهو هبوطه كان نحساً ، فهذا في علمهم ، وكذلك فى عملهم من السحر وغيره : القمر أقرب المؤثرات ، حتى صنفوا « مصحف القمر » لعبادته وتسبيحه ، فوقع ترتيب المستعاذ منه في هذه السورة على كمال الترتيب ، انتقالا من الأعم الأعلى الأبعد إلى الأخص الأقرب الأسفل ، فجعلت أربعة أقسام .

الأول : من شر المخلوقات عموماً ، وقول الحسن : إنه إبليس وذريته ، وقول بعضهم إنه جهنم : ذكر للشر الذى هو لنا شر محض من الأرواح والأجسام .

والثانى : شر الغاسق إذا وقب ، فدخل فيه ما يؤثر من العلويات فى السفليات من الليل وما فيه من الكواكب ، كالثريا وسلطانه الذي هو القمر ، ودخل فى ذلك سحر التمر سحات (١) الذي هو أعلى السحر وأرفعه .

(١) كذا بالأصل

الثالث : شر النفاثات فى العقـد ، وهن السواحر اللواتى يتصـورن بأفعال في أجسام .

والرابع : الحاسـد ، وهي النفوس المضرة سفهـا ، فانتظم بذلك جميع أسباب الشرور ، ثم خص فى « سورة الناس » الشر الصـادر من الجن والإنس ، وهم الأرواح المضرة .

فصـــــل

وتظهر المناسبة بين السورتين من وجه آخر ، وهو أن المستعـاذ منه هو الشر ، كما أن المطلوب هو الخير : إما من فعل العبد ، وإمـا من غير فعله ، ومبـدأ فعله للشر هو الوسواس ، الذي يـكون تارة من الجن ، وتارة من الإنس ، وحسم الشر بحسم أصله ومادته أجود من دفعه بعد وقوعه ، فإذا أعيذ العبد من شر الوسواس الذي يوسوس فى الصدور ، فقد أعيذ من شر الـكفر والفسوق والعصيان ، فهـذا في فعل نفسه ، وتعم الآية أيضاً فعل غيره لسوء معه ، فـكانت هذه السورة للشر الصادر من العبد ، وأمـا الشر الصادر من غيره فسورة (الفلق) فإن فيها الاستعاذة من شر المخلوقات عموما وخصوصاً . والله أعلم .

آخر المجلد السابع عشر

فهرس المجلد السابع عشر

الصفحة الموضوع

٥ - ٥٠٤ سورة الإخلاص

الصفحة		الموضوع

الصفحة الموضوع

الصفحة　　　　　　　　　　الموضوع

الصفحة	الموضوع
٢٥٧	كيفية تحول الغذاء فى المعدة إلى دم إلخ · إذا أكل إنسان إنسانا فكيف إعادة الثانى ·
٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٦ـ٢٦٨	فصل التوالد لابد له من أصلين ، الرد على النصارى ·
٢٦٢ـ٢٦٦ ، ٢٨٢ـ٢٨٥	خلق المسيح من أصلين ، هل كان النفخ بعد خلقه مضغة (فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا) (بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ) (وَرُوحٌ مِّنْهُ) · النور لا يحصل أيضا إلا من أصلين ·
٢٦٥ ، ٢٦٦	(ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ) ·
٢٦٦ ـ ٢٦٨	هل الأعراض متولدة كالشبع والرى ، هل يسمى خلق آدم وخلق حواء منه تولدا ·
٢٦٨ ـ ٢٧٢	فصل مانزه الله نفسه عنه فى نحو قوله (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ) يعم جميع الأنواع التى تذكر عن بعض الأمم فى هذا الباب ·
٢٧١	(وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا) ·
٢٧١	(وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ) الآية قيل نزلت فى الزنادقة الذين قالوا : إن الله خالق النور والناس والدواب والأنعام، وإبليس خالق الظلمة والسباع والحيات والعقارب ·
٢٧١ ، ٢٧٢	(وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا) (وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍ) ·
٢٧٢ ، ٢٧٣	فصل فى نفى قول بعض العرب إن الملائكة بنات الله وقول النصارى المسيح ابن الله وقول اليهود عزير ابن الله ·
٢٧٢	هل صح عن بعض العرب أنه قال إن الله صاهر الجن ·
٢٧٣ ـ ٢٨٥	أقوال النصارى فى المسيح واختلافهم وبيان فساد أقوالهم ·
٢٧٤ ـ ٢٧٦	(لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ) (ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ)
٢٧٦	(إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ) الآية (ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ) الآية ·
٢٨٥	(وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ) ·
٢٨٦ ـ ٢٩٦	فصل فى إبطال قول الفلاسفة بأن العالم صدر عن علة موجبة بذاته وأنه صدر عنه عقل ثم عقل إلى عشرة عقول وتسعة أنفس إلخ ·
٢٨٧ ـ ٢٩٠	قولهم الواحد لا يصدر عنه إلا واحد إلخ جعلهم كل صفة هى الأخرى إلـخ ··
٢٩٠ ، ٢٩١	دعوى الفلاسفة التولد العقلى أعظم استحالة وكفرا من قول النصارى ومشركى العرب ·
٢٩١ ، ٢٩٢	نهى النبى عن مشابهة فارس والروم يدل على أن مشابهة اليونانيين والهند المشركين أعظم وهم الذين ابتلى المسلمون بعلومهم ·
٢٩٣ ، ٢٩٤	مشركوا العرب واليهود والنصارى يقرون بأن الله خلق السموات

الصفحة الموضوع

الصفحة الموضوع

الصفحة	الموضوع
٤٧٨	لم يذهب الرسول ولا أحد من أصحابه إلى المكان الذى بايعه فيه الأنصار ، كل مسجد بمكة وماحولها غير المسجد الحرام فهو محدث
٤٧٨ ـ ٤٨٠	القصر والجمع بمنى وعرفة ومزدلفة وغيرها .
٤٨٠ ، ٤٨١	لم يصل فى أسفاره جمعة ولا عيدا .
٤٨٠ ، ٤٨١	لا يصلى الجمعة فى مساجد القبائل ولا فى البيوت .
٤٨١ ، ٤٨٢	هل التحصيب سنة ، الرمل فى الطواف والسعى ورمى الجمار . لا يطاف بالصخرة ولا غيرها .
٤٨٢ ـ ٤٨٤	الحكمة فى تخصيص الكعبة بالطواف وغيره وتخصيص المشاعر بتلك العبادات .
٤٨٣ ـ ٤٨٥	«النسك» من قبلنا لا يأكلون من القربان ولا من الغنائم .
٤٨٤ ـ ٤٨٦	تحريم الذبح لغير الله وما سمى عليه غير اسم الله (فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ) .
٤٨٦ ، ٤٨٧	احتجام الرسول وأمره بالحجامة ، الحجامة فى البلاد الحارة .
٤٨٧ ، ٤٨٨	« شفاء أمتى فى ثلاث »
٤٨٧	سبب سرعة الهضم فى الشتاء وبرودة الماء فى باطن الأرض فى الصيف .
٤٨٧ ، ٤٨٨	إذا كان الشىء شعارا للكفار ثم اعتاده المسلمون وكثر فيهم وكان أنفع لهم فهل يزول تحريمه كالقوس الفارسية وثياب الغيار والسواد
٤٨٧ ، ٤٨٨	(وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ) الآية .
٤٨٨ ـ ٤٩١	بيع الأرض الخراجية والوقف .
٤٨٩ ـ ٤٩١	بيع رباع مكة وإجارتها وهل فتحت عنوة ؟ أرض العنوة .
٤٩٠	(وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ)
٤٩١ ، ٤٩٦	بيع أم الولد ، منافع المساجد والأسواق والطرقات وسائر المباحات التى يشترك فيها الناس .
٤٩١ ـ ٤٩٦	للإمام أن يصنع بالأموال والرجال والعقار والمنقول ما هو الأصلح فى الفىء والغنيمة .
٤٩١ ـ ٤٩٥	لم تحارب قريش الرسول عام الفتح كما حاربته هوازن .
٤٩٦	الحكمة فى إباحة الغنائم لهذه الأمة .
٤٩٧ ـ ٤٩٩	سبب تعظيم الرافضة للمشاهد أعظم من غيرهم وتعطيلهم للمساجد
٤٩٨ ـ ٥٠٠	(وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ) (مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ) الآية .
٥٠٠ ، ٥٠١	متى بنى مشهد الحسين ومشهد على ، أكثر المشاهد مكذوبة .
٥٠١	مدفن على ومعاوية ، بنو عبيد .

المراقبة
النوعية
٥٧

(١١٠٠٠/ي٣ -٣ - ج١٧) (٦) (٠١)

١٢٧٢

ردمك : ٦-٢٠-٧٧٠-٩٩٦٠ (مجموعة)
٠-٣٧-٧٧٠-٩٩٦٠ (ج ١٧)